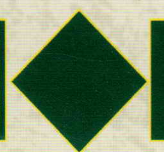
المحقق آية الله الشيخ محمّد السند

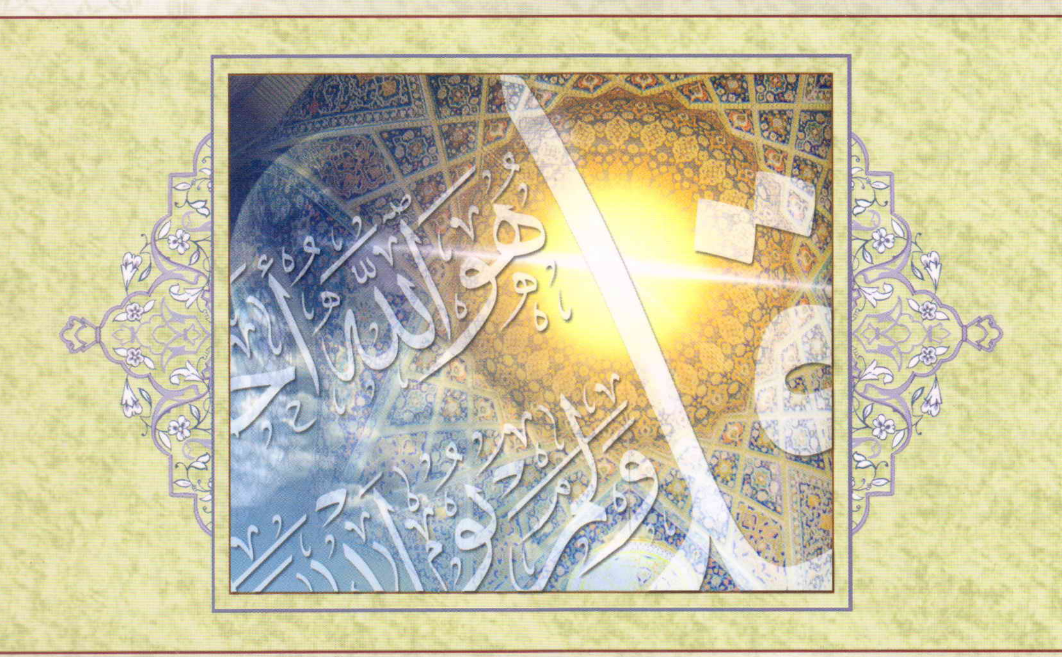


بحوث في مباني علم الرجال ٣

اصول استنباط العقائد ٣

الغلو والفرق الباطنية

رواة المعارف بين الغلاة والمقصرة



الشيخ حسن الكاشاني

الشيخ مجتبى الأسكندري



الغلو والفرق الباطنية

رواة المعارف بين الغلاة والمقصرة

بحوث في مباني علم الرجال (٣)

الغلو والفرق الباطنية

رواة المعارف بين الغلاة والمقصرة

تقرير الأبحاث

المحقق آية الله الشيخ محمد السند

بقلم

الشيخ حسن الكاشاني   الشيخ مجتبى الأسكندري

مكتبة فدك

سرشناسه : سند، محمد، ۱۳۴۰ -

عنوان و نام پدیدآور : الغلووالفرق‌الباطنیه/ محمد سند.

مشخصات نشر : قم: باقیات، ۱۳۸۹.

مشخصات ظاهری : ۴۰۴ص.

شابک : 978-600-5126-94-5

وضعیت فهرست نویسی : فیپا

یادداشت : عربی.

موضوع : غلو

موضوع : شیعه -- فرقه‌ها

رده بندی کنگره : ۱۳۸۹ ۸غ۹س/BP۲۴۱

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۵۳۸

شماره کتابشناسی ملی : ۲۱۷۱۲۵۹



آية الله الشيخ محمد السند

الناشر: باقيات

المطبعة: وفا

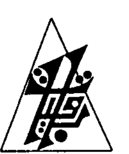
الكَمية: ١٥٠٠نسخة

الطبعة: الاولى

القطع: وزيري

عدد الصفحات: ٤٠٤ صفحة

تاريخ الطبع: ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ.ق



شابك: ٥-٩٤-٥١٢٦-٦٠٠-٩٧٨



عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع : ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٦،١١٧ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤




بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس العناوين الأصلية



◻ كلمة الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلاته على أشرف السفراء المرسلين وآله الهداة المهديين.

وبعد، فإنّ رواة المعارف حيث حملوا نقل الجزء الأهم الخطير من مساحة الدين - وهو الفقه الأكبر - فإنّ ذلك يستدعي أكثر حساسية تجاههم لعظم الخطب، فإبداء التدقيق والتثبت أمر منطقي حينئذ إلّا أنّه بقدر الأهمية البالغة لذلك فإنّ ذلك يستلزم أيضاً التثبت والتدقيق البالغ في الميزان والقواعد لدراسة أحوالهم وتقييم انتماءاتهم الفكرية بعيداً عن الإفراط والتفريط وسلوك منهج تحقيقي علمي بعيداً عن التقليد، والتلقي للأمور بنحو تسالمي من دون تتبع وتنقيب باستقصاء وتحليل لخلفيات كثير من المقالات فإنّ ربّ مشهور لا أصل له لا سيما إذا كانت تداعياتها آتية من العامة.

ولا شطط في القول أنّ كثيراً من الجرح والتعديل مبني على المدرسة الكلامية التي تلمّذ فيها الرجالي وأن تقييمه لراوي المعارف مبني على مضمون الرواية التي يرويها الراوي، وليس على أسس حسية وراء ذلك، فهي أشبه بمحاكمات كلامية منها بشهادات سلوكية لسيرة الراوي.

وعلى ضوء ذلك فيكون التراث الروائي الذي يحمل في طياته نقل الوحي رهين آراء ثلة قليلة من أهل الجرح والتعديل، وهذا من الخطورة بمكان أن يرتسم الإطار العقائدي بنظرة وفكر فئة معينة بل السداد هو فتح باب الاجتهاد والتحقيق العلمي المبني على

الموازين الاستدلالية.

ومنه يظهر انفتاح أفق واسع للبحث المعرفي الاعتقادي من خلال دراسة مدارس رواة المعارف المختلفة و من تاريخ النحل والملل المتعددّة وكيفية تجريد ألوان الأفراد والأشخاص عن طبيعة المقالات والمعتقدات.

وإنّ تأثّر كلّ من علم الرجال وعلم النحل والملل وعلم الكلام بالآخر وتداعيات كلّ بالآخرين ملحوظ بقوة، فكان من اللازم فتح هذا المنهج في البحث والتحقيق كي تتضح معالم حقيقية لمسار علم المعارف وعلم الرجال.

وكانت هذه الجهود قد قام بتحريرها كل من الفاضلين الألمعيين جناب **الشيخ مجتبى الاسكندري والشيخ حسن الكاشاني** أشكر لهما هذه المثابرة والتدقيق والتتبع راجياً لهما المزيد من الرقي العلمي وتسنّم المكانة العالية في الفضيلة.

محمد سند

٢٥ صفر ١٤٣١ هـ. ق

□ كلمة المقرّر

إنّ هناك جدلية ثنائية قائمة على مر العصور بين التيار المتشدد في نقل الفضائل والمقامات للحجج الإلهية، والتيار الذي لا يستحسن مقالات الفريق الأول ويرفض كثيراً مما يعتنقه ذلك التيار، وقد سمّي الفريق الأول عند الفريق الثاني بالغلاة؛ كما سمّي الفريق الآخر عند الأول بالمقصّرة.

وقد تخرج هذه الجدلية بين حين وأخر عن شكلها المنطقي، فتبدو كحرب قائمة بين الفريقين تؤدي إلى الإدانة والتبري، فيذهب ضحيتها كثيراً من الأبرياء. والحال أنّ الأمر غير واضح لدى كل من الفريقين والخطوط غير بينة عندهما، فلا يوجد معيار وميزان يزن بها الغالي عن المقصر، وإنما هي دعايات أكثر من أن تكون حقائق وواقعيات. فكل فريق ينسب من يخالفه في القول إلى الغلو أو إلى التقصير.

ومما يزيد في غموض الأمر هو استغلال جماعة السلطان والبلاط الحكومي على مرّ التاريخ لهذه الجدلية لصالح سياساتها الشرسة، فينسب من يعارضها في الرأي ويجهر بفضائل ومقامات موجودة في غيرها مما يبرهن عدم كفاءتها للحكومة والخلافة إلى الغلو والتجاوز عن حدود العبودية كذريعة للحكم بكفره وجواز قتله وإبادته عن وجه الأرض. وبما يتملك الجهاز الحكومي من أبواق وأقلام مستأجرة ودعايات متفشية كان ينشر هذه التهم بكثافة في كافة أرجاء المعمورة، فيؤثر في حدوث حالة انهزامية لدى جمع من الخاصة فضلاً عن العامة.

فلهذه الأسباب وغيرها بقيت حقيقة الأمر مخفية لدى كثير من روّاد الحقيقة، وقد تسرب هذا الغموض والخفاء إلى علم الرجال، فيرى في كثير من ملفّات الرواة انّه قد سجّل عليهم كونهم من الغلاة أو الطيارة أو المخلّطة و غيرها من الأوصاف والتعبيرات، لا سيما أن بعض أرباب الجرح والتعديل لم يتضح لديهم حقيقة مقالات أولئك الرواة أو لم يكن أفقهم المعرفي والعلمي بدرجة وعي تلك المقالات والأقوال فتراهم يتسرعون إلى إلصاق هذه الأوصاف لكل من يخالفهم في الرأي. هذا، مع ما في كثافة الدعايات العامية والحكومية من التأثير السلبي على بعض أرباب الجرح والتعديل.

فمن الضروري في علم الرجال تنقيح الحال حول الفرق المطعون عليهم بالغلو وحقيقة مقالاتهم لترسم لدى الباحث صورة عن واقع الأمر الذي حاول جهاز السلطة أن يبقيه مخفياً طوال القرون.

وممّا يجدر الالتفات إليه في تنقيح حال أولئك الفرق والجماعات، تمييز درجة انحرافهم ـ إن حصل لديهم انحراف ـ فكما أنّ للإيمان والحق درجات ومراتب، كذلك للكفر والباطل مراتب تختلف شدة وضعفاً. فمن عدم الحيادة في البحث ضرب الجميع بحجر واحد، بل ينبغي حسبان كل أحد في ظروفه الخاصة به وتشخيص درجة انحرافه عن جادة الحق. كما وصانا الباري تبارك وتعالى فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنئان قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**[1] فمراعاة العدالة واجبة حتى مع العدو والمخالف.

ومما يزيد في أهمية هذا البحث والتنقيح هو أن كثيراً من رواة المعارف والمقامات الذين حملوا الركن الأعظم والفقه الأكبر من الدين الحنيف قد تركوا وهجروا لما نسب إليهم من هذه الأوصاف، والحال أنّهم من أكابر أجلاء الرواة بل قد يعد بعضهم من أخصاء حواري أهل البيت عليهم السلام. وبنسبة أهمية الفقه الأكبر على الفقه الأصغر تكمن أهمية كشف

---

١. المائدة: ٨.

الحقيقة حول هؤلاء الرواة على أهمية البحث في رواة الفروع. نعم فيهم من قد انحرف عن جادة الصواب والصراط المستقيم إلّا أنّه لم تتضح حقيقة انحرافه وأنه هل يمس بحجية مروياته أو يسبب فساد عقيدته أم لا؟

ورغم ما بذل بعض من علمائنا الكرام جهودهم المشكورة في هذا المضمار، إلّا أنّ هناك كثيراً من الحقائق حول هذه الفرق والجماعات لا زالت غير واضحة ومخفية تحت غطاء التقليد في علم الرجال.

وفي هذا المقام قد تطرق شيخنا الأستاذ الفقيه آية الله محمد السند ـ أدام الله أيام إفاداته ـ إلى بيان أمور عن حياة الجماعات المطعون عليهم بالغلو كانت مستورة طوال قرون متمادية، فمنهم من هو من الأجلاء ورواة المعارف وقد نسب إلى الغلاة زوراً، ومنهم من حصل لديه انحراف لكن لم تتضح حقيقة انحرافهم؛ فحرص الأستاذ على أن يبيّن مركز الانحراف الموجود عندهم وتداعياته وسلبياته. كما بحث أخيراً عن حياة الجماعات المعارضة لتلك الفرق والتي كانت تصر على الجنبة البشرية للحجج الإلهية ونفي البعد الوحياني عنهم عليهم السلام. وقد انجر البحث إلى بيان نتف ونكات مهمة في العقيدة والمعرفة بل في السير والسلوك، وكذا ذكر أموراً هامّة في كيفيّة التعامل مع الروايات الواردة في المعرفة والعقيدة وأنه يجب قراءتها قراءة عقلية معرفية لا قراءة ظنية تعبدية، فصار الكتاب جامعاً بين مباحث علم الرجال ومباحث أصول معرفة العقيدة.

وقد وفقنا الله لمرافقة سماحة الأستاذ في رصد هذه الشواهد والقصاصات وتقرير ما كان يفيضه علينا، فجاء الكتاب كحلقة ثالثة متوسطة بين علم الرجال وأصول استنباط العقائد.

وأخيراً نسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظ أستاذنا الأجل ويوفقه في نشر معارف أهل البيت عليهم السلام، وأن يتقبل منّا هذا القليل وأن يجعله لنا ذخراً يوم لا ينفع مال ولا بنون.

الكاشاني ـ الاسكندري



□ المدخل

ليس الغرض من البحث والتنقيب في من طعن عليهم بأنّهم غلاة أو باطنية، محاولة لتوثيقهم أو لتشييد الاعتماد عليهم؛ بقدر ما أنّ هذه المحاولة تستهدف تحديد الطعن الحقيقي فيهم من الطعن الزائف وتبيين منشأ الانحراف.

فليس الهدف نفي اللعن الصادر في حقّهم ولا نفي الذمّ عنهم ولا نفي أصل الانحراف ولا نفي الغلوّ، بل الهدف والمطلوب الأصلي هو تحديد نوع الانحراف ونوع الغلوّ وأنّه ليس المعنى المعهود المتبادر من الغلوّ ولا ما ألصق بهم من الانحراف.

بعبارة أخرى: إنّ الغلوّ الذي ارتكبوه ليس في التزامهم وقولهم في شأن أئمة أهل البيت عليهم السلام فوق ما هم عليه نظير النصارى، بل هو نمط آخر من الغلوّ؛ فإنّ هناك أنواعاً عديدة من التطرّف الإفراطي الذي قد يكون سياسياً أو أمنياً أو إصلاحيّاً أو غير ذلك في المجالات المختلفة التي لا ترتبط بالمقالات الاعتقادية والمعرفية ومن الخطأ حصر الغلوّ والتطرّف في ذلك.

كما أنّه ليس الهدف في هذا البحث ـ عن من طعن عليهم بالغلوّ ـ تحسين سيرتهم وتعديل طريقتهم من كلّ جهة بنحو التعميم، وإنما القصد هو بيان ما فيهم من جهات متعددة بعضها مذمومة وبعضها ممدوحة. فالهدف هو تمييز الأوراق المختلطة في المقام والتي ظلّت مشتبهة طوال القرون على الصعيد الرسمي الظاهر

في علم الرجال والحديث ولا سيّما وأنّ الحديث هو عن خصوص الرواة الذين يعدّون زعماء لتلك المقالات وحقيقتها وهذا مطابق لما ذكرناه في الجزء الأوّل والثاني من أنّ التعديل أو الجرح عند القدماء والأصحاب كان من جهات وحيثيات أربع ولكلّ جهة وحيثية أقسام. فالعمومية والتعميم في جرح المفردة الرجالية وكذا التعديل لم يكن من ديدن القدماء وهذه قاعدة مهمّة في منهج البحث الرجالي التي أشرنا إليها سابقاً.

كما أنّه يجب على الباحث، الفصل بين روّاد من طعن عليهم بالغلوّ وبين امتداداتهم في الأتباع وجماهير القواعد لديهم، فإنّه قد تفشّت فيهم تخاليط من الأقوال.

لا سيما وأنّ هذه الظاهرة بماحملت من أوصاف وتسميات مزعومة في بطون الكتب التاريخية والرجالية اتّخذت كسيف يقمع به سائر رواة المعارف من أحاديث أهل البيت عليهم السلام واتّخذ رمحاً يطعن به أتباع أهل البيت عليهم السلام.

فللوصول إلى الحقيقة ثمار كبيرة جدّاً تخلق نظرة متوازنة وثاقبة للتراث الموروث من أحاديث أهل البيت عليهم السلام سواء من جهة الأسانيد والطرق، أو من جهة كيفية تصحيح المضمون وعرضه على محكمات الكتاب والسنة القطعية المطهرة، فإنّ هذا البحث ليس رجالياً محضاً كما قد يتخيل بقدر ما هو بحث معرفي وأدياني مذهبي.

ثم إنّا بعد ذلك وقفنا على كلام للأستاذ أسد حيدر يذكر غموض البحث في حركة الغلاة والعوامل التي سبّبت التشويه والتعتيم في دراستهم.

قال: «وعلى أيّ حال فإنّ حركة الغلاة هي من أخطر العوامل التي لعبت دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي وإن دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة، لوجود الكثير من التشويه واللبس، فالوقوف عليها ببيان ووضوح من المشقّة بمكان، إذ لم تدوّن آراء أولئك القوم بأقلام دعاتهم فلم تكن لهم مؤلفات تدون بها

عقائدهم وذلك لأنّ حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال لما قام به أهل البيت عليهم السلام في تفريق صفوفهم وصدع شملهم عندما أعلنوا البراءة منهم ولعنوهم وحذروا المجتمع الإسلامي من نواياهم الخبيثة فكانت عاقبتهم إلى الزوال وجمعهم إلى الشتات.

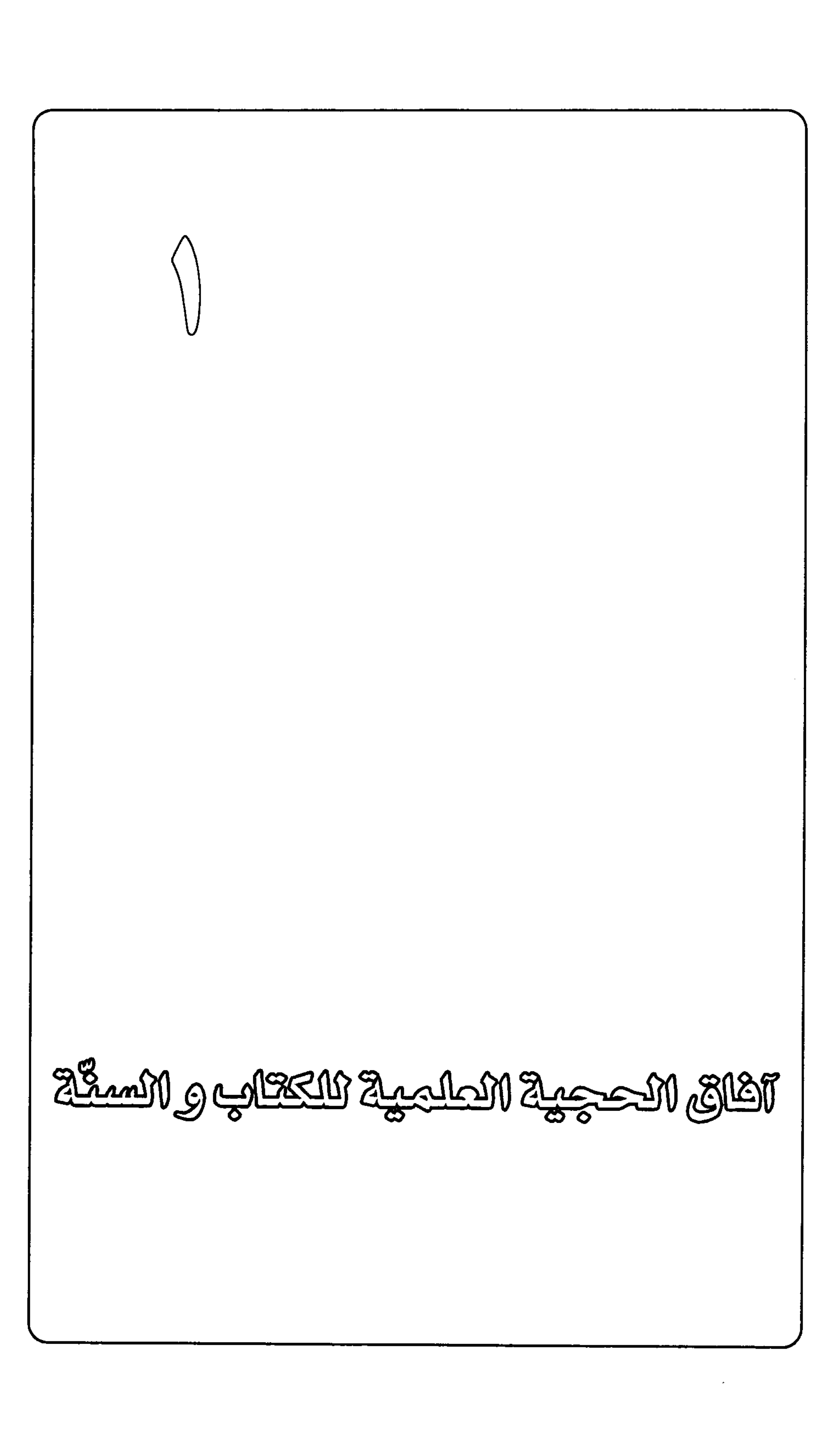
وإن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع وتناوله بالبحث لم يقصد جلاء الغامض وإظهار الحقيقة وإنما قصد من ذلك التشويه والتضليل ونشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامي على الوقيعة في أهله، لأنّ أولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث لم يتحرّوا الدقة في إيراد ما جاء في كثير من الروايات ولم يدرسوا الظروف التي ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة والعقائد الفاسدة التي حاول نشرها في المجتمع الإسلامي وإن أولئك الكتاب يجهلون العوامل التي أدّت إلى قيام تلك الحركة أو أنّهم يتعصّبون فيحيدون عن الواقع ويتنكّرون للحقيقة وإن الجهل والتعصّب هما اللذان يجعلان كثيراً من الكتاب والمؤرخين يتجاهلون قيمة إظهار الحقيقة وبيان الواقع وأنهم لايكتبون للتاريخ والحقيقة وإنما يكتبون للمغالطة والوقيعة ولم يدركوا خطر أخطائهم وعظيم جنايتهم على الإسلام في فتح باب التدخل لأعداء الإسلام»[١].

كما أنّه قد تابعنا المطالعة في حركة المتهمين بالغلو بالدراسة عن الاتجاه المعاكس لهم من المقصّرة وعمدة المعالم المنهجيّة لديهم فخرجنا بنتائج فاخرة نضعها بين يدي الباحث الكريم.

---

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر ٢ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧.





١

آفاق الحجية العلمية للكتاب و السنّة



□ بين المنهج العقلي والرجالي في قراءة روايات الحكمة الإلهية

قد ذكرنا في الجزء الأوّل فوائد الخبر الضعيف بغضّ النظر عن اعتباره، كما ذكرنا الفوائد العلمية لخبر الواحد الشامل للخبر الصحيح والموثّق والحسن والقويّ من المعتبر والضعيف بأقسامه بغضّ النظر عن اعتبار خبر الواحد في العقائد، أي وإن لم يبن على حجّية الظنّ المعتبر في البحوث والمسائل الاعتقادية.

كما ذكرنا في الجزء الثاني أنّ من المنهج الحشوي القشري هو الجمود على الحجية التعبدية الظنية وقالبيّة حرفية اللفظ بنحو سطحي من دون أن يعالج ترابط المسائل العلمية بعضها ببعض بشكل منظومي. فإنّ المنهج العلمي هو صرف الجهد في تتبع القرائن والشواهد واستقصائها والتأمّل في مضامين الروايات ثم صرف الجهد في تحليل ودراسة القرائن العقلية للنصوص، كما أنّه لا يقتصر في دراسة سند الحديث على التقليد في التوثيق والتضعيف و لا في تتبّع الروايات على ما أورده صاحب الوسائل أو بعض الأعلام في كتبهم الاستدلالية، فعلى الباحث أن يعنّي نفسه بالتأمل والتتبّع حول المزيد من الروايات ذات الصلة بالمبحث ولو من باب التوفر على توسعة الأفق في الاحتمالات التصورية، لا التصديقية التعبدية.

ونضيف هنا أنّ الفحص في مضامين الروايات يوقف الباحث على براهين

وبيانات ودلائل عقلية أو مرتبطة بضروريات قطعية نقلية، فهذا البحث يحكم العقل ويُلزم ويوجب القيام به، لأنّ الانفتاح على الاحتمالات والمحتملات أمر لابدّ منه في البحث العقلي. كيف؛ ودرجة الاحتمال والمحتمل في مضامين الروايات المنسوبة إليهم وكذلك الحال في الدلالة الظنية للآيات هي أكبر أهمية وقوة من الفحص في كتب الفلاسفة والحكماء والمتكلّمين والعرفاء. إذ أنّ قدرتهم العقلية والمعرفيّة مهما تنامت وتكاملت، ونبوغهم مهما تصاعد، فإنّ قدراتهم وقوّتهم الفكرية كالقطرة في بحار المحيطات بالقياس إلى علوم القرآن والعترة. وليست هذه المقايسة مستندة إلى الحجية التعبديّة للكتاب والعترة أي من الناحية النقلية بل هي من جهة درجة الاحتمال العقلي ودرجة المحتمل. فإنّ من يشاهد حقائق الملكوت والعوالم ويطوف بهما ويزوّد بالعلم الإحاطي كيف يقايس بيانه الاستدلالي وبيّناته البرهانية والعقلية بمن لا يرى تلك العوالم إلّا من وراء الحجب، وإن سنحت له مشاهدة ومكاشفة فنزر يسير.

وهذه المفارقة ليست في صدد تقرير الحجية التعبدية، بل لأجل التركيز على موارد الوقوف على الاحتمالات والمحتملات اللازم الفحص عنها في البحث العقلي المحض. فالمنهج العقلي والبحث العقلاني المعرفي في آيات وروايات المعارف لا يتوخّى الاعتماد على الحجية الظنّية المعتبرة التعبدية التي هي مدار في الحجية النقلية، بل إنما يعتمد على تحصيل واستكشاف البراهين والتفطّن والوقوف على البيانات اليقينية التي ترشد إليها آيات وروايات المعارف. وهذا هو المنهج والبحث العقلي في قراءة المنابع النقلية في المعارف.

فالبحث في أسانيد الروايات واعتبار الكتب وأنحاء الدلالة وإن كان أمراً لا يغفل عنه ولا تنكر فائدته بل وضرورته، ولكن إنّما يمارسه من يتوخّى تقرير الحجية النقلية. وأما من يتوخّى الحجية العقلية فالبحث الصدوري والدلالي إنّما دوره يكون موطئاً وممهدّاً لأصل التصوّر ومعطيات أصل الاحتمالات

والمحتملات، لا الحجية التصديقيّة العقلية ما دامت الحجية النقلية بدرجة الظن.

فلا معنى للممانعة عن البحث العقلي في الأدلة النقلية على تقدير عدم تمامية الحجة النقلية صدوراً أو دلالة؛ لأنّ غاية الأمر هو عدم تشكل وتكون الحجة النقلية المعتبرة، وهذا لا يخدش في وجود أرضية وإمكانية تشييد الحجة العقلية البرهانية واليقينية. وهذا البحث والمنهج العقلي في قراءة التراث النقلي في المعارف لا يسوغ لمدرسة من المدارس الباحثة عن المعارف ـ أيّاً كان مشربها ـ الغفلة عنه.

إذ البحث العقلي لا ينحصر نفعه والاستفادة منه والقدرة عليه على المدارس الفلسفية، بل أنّ المدارس الكلامية المتنوّعة لا تقصي ولا تبعد الدليل العقلي أيضاً وإن اعتمدت على الدليل النقلي أيضاً. كما أنّ الحال في المدارس المعرفية الأخرى كمدارس المفسّرين والمحدثين ومدارس العرفاء على اختلاف مشاربهم أيضاً لا يلغون الدليل العقلي والمنهج البحثي البرهاني عن أبحاثهم وتحقيقاتهم. بل وكذلك المنهج الذوقي الوجداني البرهاني، أي الذي لا يقتصر على مجرّد الذوق والمشاهدة والمكاشفة بل يشفعها بالبرهان العقلي والوجداني، وهو ما يعبّر عنه بالذوق الوجداني لا الذوق السليقي القريحي المزاجي، هو أيضاً لا يستند إلى تقرير الحجيّة النقلية الظنّية ولا يتوخّاها بل يعتمد على الذوق الوجداني البرهاني.

ومن ثمّ فاللازم إقامة هذا النمط من البحث أيضاً في قراءة التراث المعارفي وفق الموازين البرهانيّة، وإن افترض عدم توفّر الوجه النقلي على شرائط الحجّية التعبدية. فمن الغفلة الخطيرة والتفريط العظيم حصر الاستفادة من تراث المعارف سواء ظهور الآيات أو الروايات على خصوص شرائط الحجية النقلية التعبدية الظنّية، نظير ما صدر من تأليفات في الآونة الأخيرة حاصرة الاستفادة والاعتبار في البحث في روايات المعارف بخصوص الشرائط المعتبرة في صحة صدور

الرواية[١].

وفي هذا التوجّه الضيّق الحرج جملة من الهفوات:

الأولى: حصر منهج البحث في التراث المعارفي النقلي بالمنهج النقلي، مع أنّه لا ينحصر به. فلو قصر شرائط حجية المنهج النقلي في جملة من الموارد، فإنّ ذلك لا يمانع إمكانية استثمار المنهج العقلي البحثي البحت والمنهج الذوقي الوجداني البرهاني، إذ لا يتّكئ على البحث التعبدي الظني بل على استكشاف المقدمات والدلائل والبينات البرهانية في مضامين الروايات ومحاولة تقصّيها واستخراجها.

الثانية: إنّ المنهج النقلي لا يقتصر على المنهج الظني التعبّدي، فإنّ تحصيل التواتر والاستفاضة هو طريق يقيني وليس ظنّياً تعبّدياً، وحصولهما لا يتوقّف على توفّر شرائط الحجية في الأخبار التي بتراكمها تورث التواتر والاستفاضة. هذا مع الالتفات إلى أنّ التواتر على أقسام عديدة: اللفظي والمعنوي البين وغير البين وهو على درجات عديدة، وكذلك الإجمالي وهو الآخر على أنماط وأنواع عديدة وكذلك الحال في أقسام المستفيض والاستفاضة.

الثالثة: إنّ البحث في شرائط الحجية النقلية الظنية التعبدية ليس بحثاً يتحصّل من التقليد في علم الرجال والحديث والدراية، بل اللازم فيه أن يُبنى على أسس اجتهادية وقواعد استنباطية ودلائل ومعطيات صحيحة وسديدة. فلا معنى لأن يحكّم فيها فتوى رجالية ورأي رجالي لأحد أرباب الجرح والتعديل، وجعل تلك الفتوى ميزاناً وصائباً على التراث الديني. سواء كانت تلك الفتوى لرجالي من متأخري علماء الرجال أو المتقدمين والأقدمين. فإنّه كما عرفت في مباحث

---

١. نظير كتاب «مشرعة بحار الأنوار» و «الصحيح من الكافي» ونظير جملة ما في التعاليق أو الهوامش على ذيل الروايات الباحثة في تقييم سند الرواية والحاصرة للاعتبار منهج البحث بخصوص الوجه النقلي الظني.

الجزء السابق من هذا الكتاب أنّ آراء أرباب الجرح والتعديل لا تعدو أن تكون فتاوى رجالية وعمدة الوجه في العمل بها من باب حجية أهل الخبرة، وهو في معنى التقليد؛ نعم، يمكن أن يستفاد من تلك الفتاوى في البحث الاجتهادي في علم الرجال كقرينة لابدّ أن تراعى في حساب الاحتمالات على منهج تراكم القرائن و الظنون فمنه يتّضح أنّ تقرير حال الروايات بحسب مشهور الرجاليين فضلاً عن آراء بعضهم لا يحسم مصير اعتبار الرواية على المنهج النقلي التعبّدي الظنّي.

الرابعة: إنّه يكفي في الفائدة والاستفادة العلمية من الرواية المحتملة الصدور وإن لم يتمّ فيها نصاب الحجية الظنية النقلية ـ مع الغضّ عن كل ما تقدّم ـ أنّ مضمونها يسبّب حدوث التصوّر والاحتمال، وأصل التصوّر والاحتمال في أفق البحث المعرفي بالغ الأهمية وهو جلي واضح لمن خاض عباب بحوث المعارف على اختلاف المدارس والمناهج في البحث المعرفي.

ألا ترى أنّ في البحث الاعتقادي والمعرفي تستعرض أقوال الحكماء والفلاسفة والعرفاء والمتكلّمين وآراؤهم في الكتب المختلفة بغضّ النظر عن صحّة انتساب تلك الكتب والأقوال إلى أصحابها، بل يتمركز البحث والدراسة حول مضمون تلك الأقوال والمقالات بغضّ النظر عن قائليها. فكيف الحال مع أقوال محتملة النسبة إلى ولاة الملكوت وخزّان مفاتح الغيب الإلهي، وهم ممّن أطلعهم الله على خفايا بواطن الأمور. ومع هذا الاختلاف في درجة أهمية الاحتمال والمحتمل يحكم العقل بنحو اللزوم بضرورة الفحص والتنقيب والتقصّي والاستقصاء في مضامين الأبواب الروائية وإطالة التعمّق والغور في بياناتها ودلائل مضامينها.

ويجب ألّا يقتصر منهج البحث على خصوص المنهج الظني النقلي لا سيّما بعد اعتبار جملة الكتب الواصلة من الرواة عنهم بنحو الإجمال، ولا يخفى

التفكيك بين اعتبار الكتب إجمالاً وبين اعتبار أحد الروايات.

الخامسة: إنّه لا يخفى أنّ اعتبار الرواية على المنهج الظنّي النقلي لا ينحصر بتوثيق رواة الطريق، بل إنّ هناك منهج الوثوق بالصدور وهو يعتمد على قرائن المضمون وتطابقها مع محكمات الكتاب والسنّة ومحكمات العقل. مضافاً إلى التعاضد مع روايات أخرى وإن كانت ضعيفة السند، إلّا أنّ من تراكمها وإن لم يحصل التواتر والاستفاضة إلّا أنّه قد يحصل الوثوق بالصدور. فضلاً عن كون الرواية في الكتب المعتبرة ـ وإن كان اعتبار الكتاب لا يستلزم اعتبار الرواية ـ أو اعتماد الأصحاب عليها أو غير ذلك من القرائن المقرّرة في أبحاث الأصول والفقه والرجال.

السادسة: إنّ الخبر الضعيف لو غضضنا النظر عن كلّ ما سبق فإنّه يتعلّق به حكم إلزامي وهو حرمة ردّ الخبر ما دام محتمل الصدور، وقد بيّنا أنّ حرمة الرد صناعيّاً في الحقيقة تفسّر بجملة من الأمور:

- لزوم الفحص ما دام الاحتمال قائماً عن مضمون الرواية واعتباره بالعرض على المحكمات من الكتاب والسنة والعقل.
- عدم جواز الحكم بالنفي مع عدم الدليل على النفي بل اللازم تقرير قيام الاحتمال والعمل بمقتضاه من الفحص والتنقيب.
- التسليم الإجمالي أو المعلّق على فرض الصدور الواقعي.
- قيام الدرجة النازلة من العلم وهو أصل التصوّر الموجب للاحتمال المنجّز للفحص، وهو يرجع مآلاً إلى نقطة «ألف» وإن كان بينهما فرق في الإطار والصياغة لا يخفى بعد تبيّن أنّ التصوّر منطوٍ فيه جملة من التصديقات الخفيّة مع أوساط براهينها.

السابعة: إنّ هناك جملة من الأبواب العقائدية والمعرفيّة لم يتطرّق إليها في العلوم العقلية الفلسفيّة والذوقيّة العرفانيّة إلى يومنا هذا مع كثرتها وخطورتها

وتوفّرها على كنوز القواعد والأسس. نظير المعراج النبوي والرجعة ومفاصل أصعدة ومنازل المحشر وعالم الذرّ والميثاق وسدرة المنتهى والتمايز بين المقامات الغيبيّة وحقيقة الإمامة وافتراقهما عن النبوّة وافتراقهما عن الرسالة، وغيرها من الأبواب التي يجدها المتتبع في دراية وفقه الأخبار وتفاصيل كثيرة لعناوين أبواب وفصول معرفيّة لم تأت في ذهن الحكماء والعرفاء ولو بدرجة الاحتمال الإجمالي فضلاً عن البحث والتنقيب وبناء عرضية معطيات وقواعد البحث فيها.

ولا ريب أنّ ذلك لا يعرف إلّا من الوحي والنقل، وهو الوسيلة لإدراك ما نزل من الوحي على اختلاف درجات احتماله وطرق إيصاله ووصوله. فهذا العلم بدرجة التصوّر والاحتمال ثروة معرفيّة ضخمة، كيف يتسنّى للعقل التغاضي والإعراض عنها. هذا فضلاً عما يتوفر عليه من معطيات برهانية لا يلتفت إليها بالعقل البشري.

□ المعصوم مذكّر ومعلم الحكمة ومثير دفائن العقول

(المعلّم والحكيم الإلهي)

قال الله تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.[1]

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقدرة من سقف مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب تهرمهم وأحداث تتابع عليهم[2].

فإنّ مقام التعليم والتذكير وإثارة دفائن العقول التي هي عبارة عن التنبيه والإلفات إلى الدلائل والبينات يغاير مقام الولاية والطاعة أي الحجية التعبدية، بل هو مقام بيان الحجية العلمية. وإنّ عمدة كلمات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام التي هي في المعارف والحكمة هي من الحجية العلمية، بمعنى إبلاغ العلوم والحقائق المتضمّنة للدليل والبرهان، ومن ثمّ عبّر عن إبلاغهم هذا بالتذكير لأنّهم يذكّرون

---

١. آل عمران: ١٦٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

العقول بفطرياتها الأولية التي تهديها إلى حقائق الأمور والحكمة.

فإذا كان هذا هو الشأن الأكبر للأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام فكيف يُعرض عن كلماتهم! ومن ذلك يتبيّن أنّ أحد وجوه حجية القرآن ـ بل هي من عظام حججه ـ البيّنات والبراهين المطوية في بيناته لا من جهة قطعية صدوره وسنده. وهكذا الحال في روايات وأحاديث المعارف والحكم والآداب، فإنّ حجّيتها لا تنحصر من جهة اعتبار صدورها، بل لما تتضمّنه من بيانات حكمية وبراهين ودلالات.

فالعزوف عنها عزوف عن العلم الإلهي العظيم ومتاركة للنهر الكبير وعكوف على الجداول الراكدة الكدرة بأخطاء البشر، فلابدّ من التمييز بين الحجّية التعبّدية بما لهم من ولاية الطاعة والانقياد والمتابعة وبين مقامهم كحجّية علمية معرفيّة.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال لرجل: تمصّون الثماد وتدعون النهر الأعظم؟! فقال له الرجل: ما تعني بهذا يا بن رسول الله؟ فقال: علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم النبيين بأسره وأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجعله محمد عند علي عليه السلام. فقال الرجل: فعلي عليه السلام أفضل أو بعض الأنبياء؟ فنظر أبو عبد الله عليه السلام إلى بعض أصحابه فقال: إنّ الله يفتح مسامع من يشاء، أقول له إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل ذلك كلّه عند علي عليه السلام فيقول علي أعلم أو بعض الأنبياء![١].

وقد وصف القرآن الكريم والكتب السماوية بالذكر في عشرات بل مئات الآيات كما وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ذكر أيضاً فقال عز من قائل: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّنات﴾[٢] والذكر والتذكّر للأوليات والفطريات في العقل والفطرة الإنسانية هي إثارة ودلالة على الحجة العقلية في الكتاب وخطابات الشرع.

---

١. بصائر الدرجات: ٢٤٨.

٢. الطلاق: ١٠ و ١١.

وقد وصف القرآن أيضاً بالبرهان في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[١] فإنّ الخطاب هنا متوجّه إلى عموم الناس لا خصوص من آمن.

كما وصف القرآن بأنّه نور مبين وقد وصفت الآيات الذكر الحكيم بالنور في عشرات الموارد. والنور هو الكاشف لنفسه والكاشف عن غيره من الواقعيّات والحقائق.

كما وصفت آيات الله لدى أنبيائه بالبيّنة والبيّنات ووصف أيضاً بالحقّ المبين والتبيان، وهو قريب من معنى النور والمنير كما وصف بأنّه بصائر وحكمة بالغة، فقال: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾[٢].

والبصائر جمع بصيرة، ويقال لقوّة القلب المدركة بصيرة وبصر، ويقال لرؤية القلب وللمعرفة والتحقّق منها[٣]. والبصيرة الاستبصار واليقين[٤]، والبصر نفاذ في القلب، والبصر العلم، وبصرت للشيء علمته، والتبصر التأمّل والتعرّف. وقيل إنه بمعنى الفطنة والعلم وأنه الحجة الواضحة لا لبس فيها. وقيل: إنّ البصيرة قد تكون حسّية وقد تكون عقلية وقد تكون كشفيّة.

ووصف أيضاً بأنه لا ريب فيه، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه الهدى والهداية ويهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

والهدى كما في صحاح الجوهري الرشاد والدلالة، أو الدلالة على الخير في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين﴾[٥]

---

١. النساء: ١٧٤.

٢. الأنعام: ١٠٤.

٣. مفردات الراغب / لغة البصر.

٤. رسائل السيد المرتضى ٤ / ١١٢.

٥. البقرة: ٢.

والريبة الظنّ والشك والتهمة. وكما في قوله تعالى: ﴿أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[١]. والهدى في مقابل العمى كما في قوله تعالى: ﴿فاستحبّوا العمى على الهدى﴾[٢].

وكذا في مقابل الضلالة: ﴿انّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[٣].

وورد في دعائه عليه السلام في الصحيفة السجادية عند ختم القرآن: «وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الجهالة باتّباعه ... نور هدى لا يُطفأ عن الشاهدين برهانه»[٤].

وفي كتاب العين: «الهدى نقيض الضلالة والدليل يسمّى هادياً»[٥].

وفي الصحاح: «هديته الطريق أي عرّفته»[٦].

وفي الفروق اللغوية: «الهدى: الدلالة فإذا كان مستقيماً فهو دلالة إلى الصواب والإيمان هدى لأنّه دلالة إلى الجنّة: والفرق بين الإرشاد والهداية أنّ الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له والهداية هي التمكّن من الوصول إليه»[٧].

وقال تعالى: ﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً﴾[٨].

وقد أكّد القرآن في دعوته كراراً على التعقّل وأنّه يخاطب أولي الألباب والذين يعقلون.

وكذلك أكّد على التعقل في مقابل الصمم والعمى العقليين كما في قول

١. البقرة: ١٨٥ .

٢. فصلت: ١٧ .

٣. سبأ: ٢٤.

٤. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٢.

٥. كتاب العين ٤/٧٨.

٦. الصحاح ٦/٢٥٢٣.

٧. الفروق اللغوية: ٤٣.

٨. الفرقان: ٧٣.

الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾[١] وهـذه الآيـة جامعة لأبصار العيون وأبصار الظنون، قال الله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٢][٣].

كما وصف ما أتى به الأنبياء عليهم السلام في الآيات العديدة بأنّه من الحكمة كما في شأن داود: ﴿فآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء﴾[٤].

وكما في شأن عيسى حيث قال تعالى: ﴿قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾[٥] وفي شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ادع إلى سـبيل ربّك بـالحكمة ...﴾[٦] وأيضاً قوله تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[٧] وتذكير بني إسرائيل: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾[٨].

وقال تعالى في شأن لقمان ـ وقد عقد القرآن سورة كاملة في شأنه ـ: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[٩].

وقد قال تعالى: ﴿فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[١٠].

ومقتضى ارتباط الآية للتي قبلها: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كـان

---

١. الانعام: ١٠٤.

٢. الحج: ٤٦.

٣. مستدرك الوسائل / أبواب جهاد النفس / ب ٢ /ح ٤ .

٤. البقرة: ٢٥١ .

٥. الزخرف: ٦٣.

٦. النحل: ١٢٥ .

٧. البقرة: ١٢٩.

٨. البقرة: ٢٣١.

٩. لقمان: ١٢.

١٠. غافر: ٨٣.

عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾[١] وإن كان يناسب كون العلم الذي فرحوا به وكذّبوا الرسل هو علم تدبير المعاش، إلّا أنه بقرينة إرادة جميع الأمم التي من قبل، لا ينحصر العلم في علم المعاش وإن أطلق عليه أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[٢] فإنّ اليهود مثلاً كذّبوا بعيسى فرحين بما عندهم من العلم بالشرائع السابقة، كما أنّ الصابئة لم تؤمن بجملة من الرسل من بني إسرائيل فرحاً بما عندهم من علم الدين السابق، كما أنّ تكذيب قريش واليهود للنبي ﷺ أيضاً هو فرحاً بما عندهم من علم بالملّة الإبراهيمية.

والحاصل: أنّ في الآية تعميم لكلّ الأقوام التي سبقت من لدن آدم حتى النبي الخاتم ﷺ. ومن ثمّ صحّ ما حكاه الطبرسي والرازي من بعض الوجوه المرادة من العلم الذي فرحوا به أنه يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان وكانوا إذا سمعوا بوحي الله صغّروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام وقيل له: أو هاجرت إليه؟ فقال: نحن قوم مهذّبون فلا حاجة إلى من يهذّبنا[٣]، انتهى.

وعن الجزائري: إنّ عيسى لما دعا أفلاطون إلى التصديق بما جاء به أجاب بأنّ عيسى رسول إلى ضعفة العقول وأما أنا وأمثالي فلسنا نحتاج في المعرفة إلى إرسال الأنبياء[٤].

والحاصل: أنّ تكذيب الرسل من قِبَل الأمم كما في اليهود لعيسى عليه السلام والصابئة لأنبياء بني إسرائيل وأهل الكتاب لسيد الأنبياء ﷺ لم يكن لإنكارهم

---

١. غافر: ٨٣.

٢. الروم: ٧.

٣. جوامع الجامع: ٣ / ٢٥٤، وبحار الأنوار: ٦٠ / ١٩٨.

٤. الحدائق الناضرة ١ / ١٢٦ ـ ١٢٨ عن الأنوار النعمانية، ومصباح الفقيه: ٧ / ٢٧٥.

أصل التوحيد والغيب وإنّما كان إنكارهم للشرائع التي أتى بها الأنبياء والحكم والآداب والمعارف فرحاً بما عندهم من آراء وعلوم.

الدعوة إلى التعقل في وصية الإمام الكاظم عليه السلام

وقد أكّد القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام في دعوتهما وخطابهما على التعقّل والتصديق بالمعرفة. وهذا مما يقتضي أنّ في بيان القرآن والعترة إفصاح عن الدليل والبرهان وعن الحكمة، وأنّ الغاية من هدايتهما إيصال المخاطب إلى التصديق عن الدليل واليقين تفصيلي لا التصديق عن دليل إجمالي، وذلك عبر إثارة وتحفيز عقل المخاطب وتنبيهه إلى وجوه الأدلة والبراهين والحكمة في الأشياء.

ففي وصية موسى بن جعفر عليه السلام لهشام قال: يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[1]

وهذا مما يؤكّد أنّ خطاب القرآن وبيانه يعتمد على البيان العقلي ودلالات الحكمة ولذلك يشير عليه السلام في بقية وصيته بقوله:

يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلّهم على ربوبيّته بالأدلة فقال: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[2] ... يا هشام إنّ العقل مع العلم فقال له: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون﴾[3]

---

١. الزمر: ٢٠.

٢. البقرة: ١٦٤.

٣. العنكبوت: ٤٣.

يا هشام ثم ذمّ الذين لا يعقلون فقال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ وقال: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[1] وقال: ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون﴾[2] وقال: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾[3] وقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلّا في قرى محصّنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾[4] وقال: ﴿وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[5]

وفي هذه الآيات كما أشار عليه السلام تأكيد على ذمّ عدم التعقل وأنه يوجب الصم والعمى وهذا مما يؤكد أنّ حجج الوحي حججاً عقلية ويدركها العقل إذا فعّل ونشّط واستعمل ولم تحجبه الموانع.

وأنّ الحجة العقلية والمعرفية والعلمية وإدراكها من القرآن الكريم أعلى مرتبة من إدراك الحجج بنمط تعبدي ظنّي.

وكيف يحثّ الوحي على التعقل والعلم ويذمّ عدم التعقّل ثم لا تكون بياناته عقلية علمية معرفية حكمية؟!

وقال عليه السلام: يا هشام ثم ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وحلّاهم بأحسن الحلية فقال: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلّا أولوا

---

١. البقرة: ١٧١ــ١٧٠.

٢. يونس: ٤٢.

٣. الفرقان: ٤٤.

٤. الحشر: ١٤.

٥. البقرة: ٤٤.

الألباب﴾[١] وقال: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكر إلّا أولوا الألباب﴾[٢] ... وقال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[٣] وقال: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب﴾[٤] وقال: ﴿وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٥] يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[٦] يعني العقل وقال: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[٧] قال: الفهم والعقل.

والتأكيد على تذكّر أولي الألباب قد جاء في عشرات الآيات مما يعطي دلالة على أنّ حجج الوحي وبياناته تعتمد على تذكير العقول والفطرة بالحجج العقلية والفطرية وأنّ من أهمّ أدوار الرسول والقرآن الكريم التذكير، والتذكير ليس حجّة تعبّدية بل هو إقامة الحجة العقلية العلمية والتنبيه عليها وإثارتها لدى العقل. وإلى هذا يشير قوله عليه السلام:

يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلّا ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

وفي هذا التصريح منه عليه السلام بيان بليغ على أنّ الغاية الكبرى والحجة العليا للرسل في بياناتهم في الحجة العقلية المعرفية لا الإدراك التعبدي الظنّي المبهم. فكيف يفتر الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام في بياناتهم عن هذه الوظيفة الأهمّ كبرى

---

١. البقرة: ٢٦٩.

٢. آل عمران: ٧.

٣. ص: ٢٩.

٤. غافر: ٥٣ ـ ٥٤.

٥. الذاريات: ٥٥.

٦. ق: ٣٧.

٧. لقمان: ١٢.

مسؤولياتهم الملقاة على عاتقهم.

وقال عليه السلام أيضاً: إنّ لكلّ شيء دليلاً ودليل العقل التفكّر ودليل التفكّر الصمت.

ويشير عليه السلام إلى أنّ التفكر الذي دعا إليه القرآن الكريم في عشرات الآيات وكذلك التدبّر في جملة من الآيات هو الأساس في خطاب وبيانات القرآن الكريم، أي أنّ بياناته تعتمد على التعقّل والتفكّر ومن ثم التسليم والانقياد عن فكر وتعقّل لا عن طاعة مبهمة.

إنّ بين التصديق العلمي والتصديق التعبدي بوناً شاسعاً، حيث إنّ التصديق المتعلّق بالقضايا والذي يقال عنه بالحكم في القضية ويسمّى بالإذعان أيضاً، إنما يوجد وليداً عن الدليل والبيان الموصل للقضية كنتيجة، فكلما ازدادت المقدمات الموصلة للنتيجة بياناً ووضوحاً وبرهاناً ازداد الإحكام والإذعان والتسليم فيزداد الانقياد والإخبات والمتابعة وهي الطاعة.

ومن ثم ذكروا في بحوث صناعة البرهان في المنطق أنّ اليقين الحاصل من البرهان يقين مركّب عن صدق الشيء ونفي نقيضه النابع من الضرورة الذاتية وهو أثبت قراراً لليقين من اليقين البسيط، أي أنّه كلما ازداد الدليل بياناً للعلاقة بين الحكم (المحمول) والموضوع، تولّد منه يقين بثبوت الشيء ونفي نقيضه.

فكلما كان اليقين بالقضية بهذا الوصف، كان ذلك أدوم في صدقها وأكثر قراراً لمطابقتها للواقع. ومن ذلك يظهر أنّ التصديق والتسليم والإذعان عن دليل أشدّ إحكاماً من التصديق والتسليم والإذعان عن دليل إجمالي.

فمن ثمّ يكون التصديق والطاعة عن بصيرة وبيان وحكمة واهتداء للحقيقة ونور وإبصار للواقعية أشدّ يقيناً وإحكاماً من التصديق التعبّدي عن إجمال وإبهام. ولأجل ذلك تفاوتت درجات ومقامات المؤمنين لاختلاف درجات يقينهم وشدّة تصديقهم النابعة عن اختلاف درجات علمهم ومعرفتهم وبصائرهم. فمنهم من

﴿كان يرجو لقاء ربّه﴾[١] ومنهم من كانوا ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾[٢] ومنهم من كانوا ﴿بالآخرة هم يوقنون﴾[٣].

فيتبيّن أنّ الحجية العلمية التي تدرك عن علم وبصيرة وهداية وحكمة وتذكّر وتدبّر وتفكّر وتعقّل وتبيّن، أشدّ يقيناً وتسليماً وانقياداً وطاعة من الحجّية التعبدية التي لا ثبات لها في الاستحكام والإحكام في التصديق والتسليم والطاعة بمثل الحجية العلمية. ومن ثم قال عليه السلام في الوصية: يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما عبد الله بشيء أفضل من العقل[٤].

---

١. الكهف: ١١٠.

٢. البقرة: ٤٦.

٣. النمل: ٣.

٤. الكافي ١ / ١٢ ـ ٢٠ حديث ١٢.

□ معاني الحجّية العلميّة

المعلّم الإلهي قوّة عقل خارجية (زيادة في العقل من الخارج)

إنّ هناك إطلاقات وتسميات للحجّية، فتارة تطلق على المدرَك والمعلوم الموصل إلى معلوم آخر، وأخرى تطلق على القوّة المدرِكة وهي العقل. والوصول إلى إدراك النتيجة بنحو يقيني وإن كان للمعلومات والمقدّمات دور هام، إلّا أنّ للقوة المدرِكة وحركة الفكر مثلاً دوراً آخر أيضاً هامّاً، ولا يمكن التفريط بأحد الدورين.

وبعبارة أخرى: في حصول نصاب الحجية لابدّ من توفّر عدة أركان:

الأول: القوة المدرِكة.

الثاني: الدليل الكاشف وقد يطلق عليه النور.

الثالث: المدرَك من الواقع والحقيقة والأشياء.

الرابع: قد يطلق لعملية نفس الإدراك والفهم كفعل للقوة المدركة، فمع وجود النور والعين الباصرة كالعقل والمبصَر إذا لم يقع فعل الإدراك لا يتم نصاب الحجّة. فالفهم والفطنة من الأفعال التي لابدّ منها في اكتمال ذلك النصاب.

والحجّة تطلق على كلّ واحد من هذه الأربعة.

والدارج إطلاق الحجية على الثاني فقط وهذا من الغفلات الحاصلة في البحوث المنطقية والفلسفية من بعد ابن سينا.

بينما أطلق كثيراً في الآيات والروايات على كل واحد من هذه الأركان. وفي الحقيقة أنّ لكلّ واحد من هذه الأركان دور بليغ في حصول الإدراك من المدرِك للمدرَك ويعبّر عنه بالحجّية.

ونلاحظ هذه التسمية في قول الإمام الكاظم عليه السلام: يا هشام إنّ لله على الناس حجتين: حجّة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: حجة الله على العباد النبي وحجة الله فيما بين العباد وبين الله العقل[2].

وإطلاق الحجة هنا على القوة العاقلة لا على المدرَك ولا على الدلائل الدالة على النتيجة. وقد صُرّح بذلك في قول الإمام الهادي عليه السلام عندما سأله ابن السكيت عن حجج الأنبياء فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قطّ فما الحجة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدّقه والكاذب على الله فيكذّبه[3].

وقد صُرّح فيه بإطلاق الحجة على القوّة المدركة.

ومن هنا يتّضح أنّ الأنبياء والأوصياء بمثابة قوى مدركة للغيب فتكون كالقوى الخارجة للإنسان يستعين بها في الإدراك.

وفي حديث جنود العقل عن الصادق عليه السلام أنّ من جنود العقل التصديق والعلم والفهم والفطنة والمعرفة والحكمة، حيث قد مُيّز بين القوّة المدرِكة المدبّرة وعملية الإدراك والفهم والمدرَك وهي الحكمة.

الخامس: الطريق الموصل للإدراك يعبّر عنه بنهج المعرفة أو القواعد المنطقية

---

١. الكافي ١ / ١٦ حديث ١٢.

٢. الكافي ١ / ٢٥ حديث ٢٢.

٣. الكافي ١ / ٢٥ حديث ٢٠.

التي على ضوئها يسدّد الإنسان في تفكيره وهو من إطلاق الحجّية على المنطق حيث يحدّد طريقه حركة الفكر في التصوّر وطريقة التصديق أيضاً.

وإطلاق الحجية على القواعد المنطقية مناسبته أنّ تلك القواعد هي التي تولّد وتعطي وتكسب صفة الحجية للاستدلال والاستنتاج، ومن ثم كان طريقاً موصولاً إلى الإدراك الذي هو نحو من الوصول للمطلوب.

ولا يخفى أنّ هناك مدارس منطقية عديدة، وللقرآن وسنّة المعصومين مدرسة منطقية متميزة عن تلك المدارس. فإنّ جملة من المدارس المنطقية قد تركز على الجانب العلمي على أنماط معينة من مستقى العلم كالمنطق الأرسطي والمنطق الرياضي والرقمي والإحصائي الاستقرائي.

بينما بعض المدارس المنطقية الأخرى تركّز على الجانب العملي والنفسي كالمنطق النفساني والمنطق الاجتماعي والمنطق الأخلاقي وغيرها من المدارس المنطقية حيث إنّها تعتني بجانب مما يؤثر في إدراك واستنتاج الإنسان وتهمل جوانب عديدة أخرى مع أنها في ما اهتمّت فيه لم تستوف كلّ ذلك الجانب.

بينما منظومة المنطق في الكتاب والسنّة للنبي ﷺ والعترة عليهم السلام قد أوصت بتعاليم شاملة لجميع جوانب الإنسان وبيّن بأنّ مخالفة كل توصية منها يوجب عدم اهتداء الإنسان إلى الحقيقة ويضلّ ويحيل عنها وأنّ تلك الوصايا ليست تسدّد وتعصم الإنسان في إبصار الحقيقة فقط، بل تزيد قوة تعقّل الإنسان وإدراكه وقوّة إبصاره للحقائق.

فهذه التوصيات لابدّ منها لزيادة العلم فهي دخيلة لزيادة المعرفة وتناميها لا في سدادها فحسب وهذا من امتيازات المدرسة المنطقية القرآنية. وهذه المنظومة من التوصيات والقواعد يطلق عليها الحجية أيضاً لدخالتها في تكوين وإصابة الإدراك الصحيح وفي الوصول للحقيقة سواء على صعيد الحكمة النظرية أو الحكمة العملية.

كما في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾[١] فتبين هذه الآية أنّ المنظومة المنطقية التي لابد من مراعاتها كي تحصل الهداية هي منظومة التقوى ومراعاة الشريعة في كلّ أبوابها وتجنّب الريب والشك بالاعتماد على الفحص والتنقيب.

وقوله تعالى: ﴿إن تتّقوا يجعل لكم فرقاناً﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[٤] فتبيّن الآية أنّ التسليم للحقيقة يزيد الإنسان علماً بما وراء ذلك من الحقائق.

وقوله تعالى: ﴿ثمّ كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذّبوا بآيات الله﴾[٥] فتبيّن أنّ ارتكاب الرذائل والمعاصي يؤدّي إلى احتجاب الحقائق عن الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبيّن احتجاج الفاسقين لفسقهم والظالمين لظلمهم والمسرفين والكاذبين لذلك، كما في قوله تعالى: ﴿لا يهدي القوم الظالمين﴾[٧]، ﴿لا يهدي القوم الكافرين﴾[٨] و ﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٩].

مقام الهداية

بل إنّ للقرآن والسنة مقاماً يفوق الحجية العلمية وهو مقام حصر العلم النافع

---

١. البقرة: ٢ و ٣.

٢. الانفال: ٢٩.

٣. البقرة: ٢٨٢.

٤. مريم / ٧٦.

٥. الروم: ١٠ .

٦. آل عمران / ١٠١ .

٧. البقرة: ٢٥٨.

٨. البقرة: ٢٦٤.

٩. المائدة: ١٠٨.

الهادي بالوحي الإلهي من الكتاب والسنة، وأنّ الهداية والنور منحصرة بهما وافتراق الهداية عن مطلق العلم:

١ ـ لأنّ لكلّ علم غاية وتلك الغاية حدّه ومنتهاه فوراءها غايات وحدود.

٢ ـ فإذا لم توجّه غاية العلم تجاه وفي طريق الغايات الأكمل فإنّ العلم وغايته قد يوظّف إلى غايات رديّة وسبل لا تصبّ في الكمال بل تصبّ في النقيصة والشرور.

٣ ـ وهذا بخلاف الهداية فإنّه توظيف لجملة العلوم إلى ما وراء غايتها في سبيل الكمال والخير والسعادة. ومن هنا يتبيّن برهانياً أنّ العلم بما له من الغاية والحدود لا يهيمن على المسار العام للمعرفة والكمال، وإنّما حدود كلّ علم هو المقدار الذي يحيط ذلك العلم فلا يشرف على ما وراءه وبالتالي فلا يحدّد العلم خارج دائرته ومحدودة المسار الذي يقع فيه.

و بعبارة أخرى: التوظيف والاستثمار فربّما يستخدم للشرور بدل الخيرات والكمالات، وللرذائل وانتكاس الطبيعة البشرية بدل اعتلائها سلالم التكامل، ومن ثم استحدث في نُظُم العلوم الحديثة ومناهج المعرفة نظماً لبيان كيفية التوظيف للعلوم تجاه غايات بعيدة ليست في متناول ذلك العلم.

٤ ـ ومن ثمّ كلّ علم بمفرده لا يمكنه التحكّم في كيفية استثمار غايته، فلابدّ هناك من علم جامع آخر هو الذي يفيد نظماً في السبل والمسارات والطرق التي ينتفع بها من العلوم بحيث تكون هادفة موظّفة ومستخدمة في طريق الحكمة لا الجهالة والسفه، وهذا هو الدور الذي تقوم به الهداية.

٥ ـ وحيث إنّ الإحاطة بتمام مصير التكامل للإنسانية والآفاق الممكنة لها أمر لا يحيط به بتفاصيله العقل الفطري المحدود البشري ولا العقل التجريبي ولا العقول الأخرى، بل لا يحيط بهذا النظم والنظام في المسير والمسار ومخطّط الأهداف بنحو إحاطي إلّا ربّ العالمين، فمن ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول

الله ﷺ عن جبرئيل: ومن التمس الهدى في غيره (القرآن) أضلّه الله[١].

وقال الإمام العسكري عليه السلام: من طلب الهدى في غيره أضلّه الله[٢].

وفي تفسير العياشي عن رسول الله ﷺ: من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله[٣].

ورواه محمد بن سليمان الكوفي في كتابه مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: من ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله[٤].

ورواه القاضي النعمان في شرح الأخبار[٥].

وفي الأمالي للصدوق عن ابن عباس عن النبي ﷺ: من ابتغى علمه عند غير علي عليه السلام فقد هلك ... ومن طلب الهدى في غيرهم فقد كذّبني[٦].

وفي الزيارة الجامعة المروية في التهذيب و الفقيه: والمتأخّر عنكم زاهق.

وفي تحف العقول في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: يا كميل إن لم تحب أخاك فلست أخاه، إنّ المؤمن من قال هو لنا فمن تخلّف عنه قصر عنا ومن قصر عنا لم يلحق بنا ومن لم يكن معنا ففي الدرك الأسفل من النار[٧].

---

١. بحار الأنوار ٨٩ / ٢٤ حديث ٢٥.

٢. بحار الأنوار ٨٩ / ٣١ حديث ٣٤.

٣. بحار الأنوار ٨٩ / ٢٧ حديث ٣٠.

٤. مناقب أمير المؤمنين عليه السلام / ٣٠ و ٣١.

٥. شرح الأخبار ٢ / ٣١٠.

٦. الأمالي / ١٢٢ حديث ١١٢.

٧. تحف العقول / ١٧٣.

□ الإطار الوحياني فوق الإطار البـياني العـقلاني المـحدود

فالبيان الوحياني محيط بالحقيقة دون البيان العقلي المحدود بالرأي والوهم. فإنّ البيان الوحياني فوق البيان العقلي المحدود المسمى في لسان الروايات وكلمات الفلاسفة أيضاً بالوهم أي العقل المحدود. بل البيان الوحياني فوق البيان العقلي المطلق لأنّ الثاني دون الإحاطة بالحقيقة الأزلية الأبدية السرمدية فلا عبور من ذلك المقام إلّا عبر الوحي وبعد ذلك يمرّ بالعقل.

ومن ثمّ وصف ﷺ ﴿إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾[1] وهو أعظم كمال من التعقل كما في ﴿الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان﴾[2].

بيان ذلك: قد قرّر في البحوث المتعددة من العلوم المنطقية أنّ الحد الحقيقي لكنه الأشياء لا يعلمه إلّا الخالق للأشياء، وما الحدود التي تذكر في العلوم المختلفة إلّا رسوم وليست بحدود، أي تعاريف تذكر فيها خواص وعوارض لا ما هو من ذاتياتها. فمن ثم لا يكون التعريف مطرداً ولا منعكساً، وبالتالي تكون الرؤية للأمور والأشياء من بعد بعيد، وهذا بخلاف التعريف الذي يأتي في الإطار

---

١. فصلت: ٦.

٢. الرحمن: ١ ـ ٤.

والكلام الإلهي الوحياني فإنه سواء كان من سنخ المعنى أو اللفظ يكون متطابقاً طباقاً مع حدود ذوات الأمور والأشياء ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[١] وهذا الشأن مطرد سواء في ذوات الأمور أم مناسباتها مع بعضها البعض أم آجالها ومدتها وعدتها أم تداعيات أشعة وآثار وجودها. ومن ثم القياس بين البيان الوحياني والبيان البشري كالقياس بين عظمة الخالق وصغر المخلوق؛ هذا **أوّلاً**.

وثانياً أنّ مراتب المخلوقين ودرجات الخلقة هي في نفسها متخالفة في الإدراك لتخالف القوى الإدراكية في نفسها فيما بينها إما بحسب درجات وجودها أو بحسب الأشخاص وقابلياتهم، ومن ثم يتبين انضباط إطار المعاني والإطار اللفظي الذي يعتمد في لسان الوحي في التعبير عن الحقائق عن الإطار الذي يعتمد في كلمات الحكمة البشرية من العلوم الفلسفية والكلامية والعرفانية.

وثالثاً أنّ السير في عساعس كل عوالم الوجود ليس من نصيب القدرات البشرية لدى أصحاب علوم المعارف بينما هي من نصيب رجال الغيب والملكوت من الأنبياء والرسل والأوصياء وكم فرق بين من يرمي الغيب رجماً من بعيد وبين من جال خلال ديار تلك النشآت.

ورابعاً أن الوحي يمتاز بالتطابق للحقيقة ويوسع منظومته على وفق مطابقات متتالية للحقائق في الترامي والترابط، بينما النتاج البشري تختل حلقاته بالإخفاق ولو في حلقة واحدة مما يتسبب الاختلال في كافة الحلقات المتعاقبة عليه.

---

١. الملک: ١٤.



قاعدة في معرفة صفات أهل البيت عليهم السلام وكون الصفات الإلهية فوقها



□ مفردات القاعدة و بيانها

إنّ من القواعد الهامّة في المعرفة، تمييز صفات المخلوق عن الخالق وتمييز الصفات الخلقية عن الصفات الإلهية. وهذا البحث وإن بدا في الوهلة الأولى سهل المنال إلّا أنّه في الحقيقة قد عثر فيه الكثير، بل هو بحث يستعصي على الأعـمّ الأغلب، وذلك لأمور:

١ ـ العـجز عـن إدراك جـملة مـن الأفـعال العـظيمة، فـيتعاظمون صـفاتها ويحسبون أنّ هذه الصفات صفات إلهية، مـع أنـها صـفات وأفـعال تسـند إلى المكرمين في الخلقة الإلهية فمن ثمّ يحصل الإرباك والاضطراب في إسنادها.

٢ ـ لا سيما وأنّها تسند أيضاً إلى الباري تعالى باعتبار أنّ الله تعالىٰ مفيض كلّ شيء والقائم على كلّ ذلك، وأنّ هذه الأفعال والصفات لشرافتها وخلوصها عن شوائب الناس صالحة لأن تسند إلى الحضرة الإلهيّة ولكن هذا الإسناد من باب إسناد الأفعال وصفات الفعل لا صفات الذات.

وبعبارة أخرى: إنّ المعروف لديهم أنّ الصفات تـنقسم إلى صـفات ذاتـية وصفات فعلية أي ناشئة ومشتقة من الأفعال، والأفعال عند الفلاسفة طرّاً صادرة من الحضرة الإلهية عبر الصادر الأوّل لكن ما منه الوجود فهو الله تعالى لا شريك له بخلاف ما به الوجود فهي وسائط الفيض.

وحينئذ يقع الالتباس، فإنّها صفات الفعل والأفعال في حـين إسـنادها إلى

الباري تعالى يسند إلى المكرّمين في الخلقة، لكن إسنادها إلى الله من باب إسناد الصفات الفعلية إليه تعالى.

٣ ـ قد تكون الصفات بالنسبة إلى تلك الوسائط صفات ذاتية لهم، في الوقت الذي تكون الصفة بعينها صفة فعلية للباري تعالى. وهذا هو الفرق الفارق والفيصل الفاصل بين الصفات الخلقية والصفات الإلهية وكيفيّة إسناد الأفعال.

٤ ـ على ضوء ذلك فإنّ الكثير عندما لا يحقّق ولا يتحقّق لديه في البحث التفصيلي في الصفات والأفعال أنّ هذه من الصفات الفعلية فيرتكز لديه أنّ هذه الصفات من الصفات الخاصّة الإلهية في الإسناد على وتيرة الصفات الذاتيّة، فيحكم بأنّ من يسندها إلى ذوات المكرّمين في الخلقة قد قال بالألوهية لتلك الذوات ولم يتفطّن أنّ هذه الصفات فعلية للذات الإلهية أي منشأها الفعل لا من الصفات الذاتية.

٥ ـ ربما تكون هذه القاعدة واضحة من حيث الإطار العامّ لدى البعض الآخر إلّا أنّه لدى التطبيق والتفصيل في الموارد لا يأنس بهذه القاعدة والضابطة في كثير من الصفات والأفعال.

٦ ـ وليمثل ذلك مثالاً من العلوم التجريبية الحديثة فإنّه خير شاهد برهاني على معنى القاعدة العقلية. فإنّ ما شهدته التطورات الحديثة و رقيّ التقنية الصناعية من صناعات مذهلة في القرن الأخير، كالطائرة والصحن الطائر لا سيما تلك التي تفوق سرعتها الصوت أو الأقمار الصناعية التي تسبح في جوّ الهواء المحيط بالأرض وتتحكّم في إقامة الاتصالات المليونية بين نقاط الأرض وتربط أقصى نقطة من الأرض بأبعد نقطة أخرى في ظرف ثوانٍ، وكذلك جهاز الكومبيوتر لا سيّما الأنواع والأقسام الضخمة منه الحاوي للملايين من المعلومات والعلوم والذي يقوم بعملية حسابية تشتمل على الآلاف المؤلّفة من المراحل الحسابية وكل ذلك يوضع في صحيفة صغيرة، وكذلك ما في مجهر النانومتر وهو الذي

يكبّر الأحجام الصغيرة بقدرة من حجم الألف على المليون أي الألف على الألف على ألف من جهة الصغر، وكذلك الطاقة الذرّية للانشطار الذرّية والطاقة الهائلة المنتجة منه فضلاً عن الاندماج الذرّي، وأشعة الليزر وأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية والتطور البيولوجي التقني، وكذلك ما يشهده صعيد الهندسة الوراثية بالاستنساخ، وكذلك الثورة العلمية الميكروبية والإلكترونية وغيرها من القفزات الهائلة التي شهدتها البشرية في هذه العصور الأخيرة حتى أنه لو سمع الجيل البشري قبل قرن بهذه الأمور لعدّوها من الإسطورات والخرافات.

فإذا كان هذا شأن العلوم التجريبية الحسية المكشوفة للبشر بالتجربة والجهد البشري فكيف بالعلوم والمعارف الغامضة الإلهية التي لا تدرك بالحواس ولا تضبطها الأوهام ولا يتحملها إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، بل لا تقاس هذه المعارف الإلهية بالتطوّرات العلمية البشرية. ومن الطبيعي أنّه لو سمع أحد ممّن لم يتعمّق في المعارف بنضج عالي نزر يسير من بحار تلك المعارف والعلوم التي لا تنال بالجهد البشري بل هي فوق طاقة جبرائيل وميكائيل والمقرّبين من الملائكة بل فوق طاقة أولي العزم من الرسل ؛ يتسرّع إلى الإنكار والجحود والرفض بل لا يقف عن رمي صاحبها بالتخليط والغلو والارتفاع.

٧ ـ الوسطية بين الذاتية والموضوعية.

كثيراً ما يقيس الباحث في علم الكلام أو في الفلسفة والعرفان أو علم التفسير والحديث فضلاً عن العلوم الأخرى، ميزان الإمكان والامتناع على ما يتصوّره من نفسه من قابليّة واستعداد وإحاطة بالعلوم؛ بدل أن يكون الميزان موضوعياً أي بحسب الواقع، فيُجعل الميزان ذاتياً أي ينعكس سعة قابليّة ذاته أو ما يراه من قابلية النخب على تحديد الإمكان الواقعي ومن ثمّ يحدّد الامتناع بذلك أيضاً ويكون الحكم بالإمكان والامتناع يدور مدار المقياس الذاتي لا الموضوعي.

ومن أمثلة المقياس والميزان الذاتي هو الحكم على طبق ما توصّل إليه السير العلمي في العلوم التجريبية مثلاً وأنّ ما لم يقف عليه العلم البشري يوضع في بوتقة الأساطير والخرافات والإغراق والتخليط والمنكر من القول والمستبشع من المقال، وأنّه ليس من أهل الوسطية في الفكر بل من أهل التطرّف عن الاعتدال والخفّة البعيدة عن العقلانية.

وقد ترى الراوي يوصف في تراجم الرجاليين بأنّه من الطيّارة وحديثه منكر ولا يخلو من التخليط وصاحب ارتفاع شديد في مذهب الطيّارة وكلّ حديثه زور ونحو ذلك من الأوصاف.

وعندما نشير إلى هذا التأثير الذاتي في نمط التفكير والحكم لا نقرّر لذلك ما تذهب إليه مدرسة التشكيك والمذهب السفسطي والنسبية المشككة، بل ما نقرّره هو تثبيت لضرورة الاحتكام إلى الموازين البديهية في أصل حكم العقل والفطرة وتخطئة الاحتكام إلى الإدراكات النظرية الموشّحة بلباس البديهة والحكم المنطقي والإدراك الوسطي.

وقد تقدم أنّ ما توصّلت إليه جملة من العلوم الحديثة والتطورات التي شهدتها والقفزات في العقود الأخيرة ما كان البشر يحكمون بإمكانها في القرون السابقة بل في العقود السابقة من هذا القرن ولو قال بها قائل لرمي بالهذيان والجنون.

ومن ثمّ نشاهد أنّ القرآن الكريم يبيّن أنّ موقف الأمم المعاندة لأنبيائها ورسلها هو الحكم على معاجز أنبيائها ورسلها بأنّها سحر أي من التصرّف في الخيال أو كهانة أو شعبذة أو الجنون أي لم يحكموا بإمكان هذه الأمور، بسبب خروجها عن قدرة البشر.

ويشير إلى هذه الظاهرة القرآن الكريم كما نبّه على ذلك أهل البيت عليهم السلام في رواياتهم ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويلهم كذلك كذّب الذين من قبلهم

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[١].

عن أبي عبد الله عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى حصّن عباده بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردّوا ما لم يعلموا إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ﴾[٢] وقال: ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾[٣][٤].

وفي هذا الحديث إشارة إلى قاعدتين منهجيتين في المعرفة بيّنتهما آيات القرآن الكريم:

الأولى: عدم البناء على قول ومقالة لم يتثبّت من الدليل عليها، فما أكثر من يجزم بشيء أو بأمور لم يتبيّن صحّتها من سقمها، وهو إسراع وإفراط في الإثبات.

والقاعدة الثانية: هي الإفراط في الإنكار بالمسارعة إلى نفي شيء بل نفي إمكانه فضلاً عن وقوعه، من دون التثبّت في ذلك ومن دون الركون إلى أدلّة نافية للوقوع فضلاً عن نفيها للإمكان، أو أنّه لم يتثبّت من أدلّة في مقام الإثبات فينفي الثبوت والإمكان، فيلتبس عليه الحال بين أدلّة الإثبات وإحراز الشيء وبين أدلّة إمكان وجود الشيء وثبوته.

فهاتان القاعدتان إحداهما للوقاية والحذر من الإفراط والإسراع في الإثبات والثانية للوقاية والحذر من الإسراع والإفراط في الإنكار والنفي. ولا يخفى أنّ المراد من السرعة المحذورة هي الخوض في الإثبات أو الإنكار بحسب المعلومات المحدودة لدى الباحث وقدراته الذاتية المتواضعة.

فمجموع القاعدتين يشير إلى المنهجية الوسطية وهي التوقّف عن الإثبات

---

١. يونس / ٣٨.

٢. الأعراف: ١٦٩.

٣. يونس: ٣٩.

٤. بحار الأنوار ٢ / ١٨٦ .

والنفي ولزوم الاستمرار في البحث والسعي والفحص.

وفي الصحيح: عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: أما والله إنّ أحبّ أصحابي إليّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإنّ أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنّا فلم يعقله ولم يقبله قلبه اشمأزّ منه وجحده وكفر بمن دان به وهو لا يدري لعلّ الحديث من عندنا خرج وإلينا أسند فيكون بذلك خارج من ولايتنا[١].

بيان القاعدة:

إنّ النبي وأهل البيت عليهم السلام بما اشتملت خلقتهم على مراتب عديدة فلهم صفات لا يحتملها ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا ولي صفي امتحن الله قلبه للإيمان، إذ جانب الخلقة الإنسانية لا يقتصر على البدن فقط ولا القوى النفسانية بل يشتمل على المرتبة العقلية من قوّة العقل والقلب والسرّ والخفي والأخفى كما جاءت هذه المراتب في آيات القرآن الكريم، فضلاً عن من ارتقى إلى ما فوق الإنسانية من الدرجة الوحيانية والعلم اللدنّي والمقامات الغيبية كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾[٢].

ونظير قوله تعالى في الخضر: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علماً﴾[٣].

ونظير قوله تعالى في ذي القرنين: ﴿إنّا مكّنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شي سبباً﴾[٤].

ونظير قوله تعالى في طالوت: ﴿إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم

---

١. بحار الأنوار ٢ / ١٨٦ .

٢. الكهف / ١١٠، وفصلت / ٦ .

٣. الكهف / ٦٥ .

٤. الكهف / ٨٤.

والجسم﴾[١].

ونظير قوله تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾[٢].

وقوله تعالى في أهل البيت: ﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾[٣].

وقوله تعالى في شأنهم أيضاً: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾[٤].

وغيرها من الشؤون التي ذكرتها الآيات.

فهذه الآيات تثبت لأصفياء الله الحجج حقائق يمتازون بها فوق البشرية، كحقيقة الوحيانية والبسطة في العلم والتمكين من الأسباب والارتباط بملكوت الكتاب المكنون والعلم اللدني، وغيرها من الحقائق التي ركّبها الله تعالى في ذواتهم وتفوّقوا فيها على البشر بل على الملائكة المقرّبين. ومن ثمّ أسجد تعالى وأخضع وأطوع جميع ملائكته لخليفته في الأرض فجعل جميع ملائكته المقرّبين ـ فضلاً عن غيرهم ـ يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، بل فضّل الله هؤلاء الصفوة من البشر على روح القدس والأرواح من عالم الأمر فجعلها في خدمتهم كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[٥].

ومن ثمّ كانت لهم أفعال وصفات لا تتصوّرها العقول المحدودة والقاصرة، بل تتوهّم أن تلك الأفعال والصفات هي من الشؤون الإلهية المحضة، ومن ثم تستنكر إثبات تلك الصفات والأفعال لهم وتحسبه أنّه من التأليه والقول بالربوبية لهم والحال أنّ ذلك لا يعدو كون تلك الصفات صفات المخلوقين وأفعالهم

---

١. البقرة / ٢٤٧ .

٢. النساء / ٥٤ .

٣. الواقعة / ٧٩.

٤. العنكبوت / ٤٩ .

٥. الشورىٰ: ٥٢.

ولكنّهم تعاظموها وظنّوا أنّها صفات الخالق.

وقد أكّدت طوائف مستفيضة بل متواترة من الروايات على هذا الخطأ وأنّه ينشأ منه ثلاثة أخطاء:

الأول: تصغير عظمة الله عزوجل حيث حسبوا أنّ هذه الصفات هي من صفات الذات الإلهيّة، وأنّ شأن هذه الأفعال هي صدورها ابتداءً ومباشرة من الذات الإلهية، مع أنّ شأن الذات الإلهية أجلّ وأعزّ وأعلى وأعظم من هذه الصفات ومن صدور هذه الأفعال عنه ابتداءً بالمباشرة. حيث إنّ من ضعة هذه الأفعال التباشر معه، فهي صفات وأفعال المخلوقين، إلّا أنّ المخلوق ضعيف وإذا تعاظم عنده الفعل العظيم من المخلوق العظيم حسب أنّ هذا شأن صفة الخالق وفعله.

وقد أشير إلى هذا الخطأ في الروايات سواء عند تيّار الغلاة وعند المنكرين والمستنكرين عليهم والمناوئين لهم، حيث قد وقع كلا الطرفين في هذا الخطأ، غاية الأمر أنّ الغلاة ارتكبوا خطأً ثانياً كما سيأتي بيانه ومناوئيهم ارتكبوا خطأً ثالثاً كما سيأتي بيانه.

وهذا الخطأ الذي اشتركوا فيه حسبان أنّ هذه الصفات والأفعال هي صفات الذات الإلهية.

الخطأ الثاني: الذي ارتكبه الغلاة بعد ما أسندوا هذه الصفات والأفعال إلى المخلوقات العظيمة وقد أصابوا في ذلك من هذه الجهة، إلّا أنّهم وقعوا في خطأ ثان حيث توهّموا أنّ استحقاق هذه المخلوقات العظيمة لهذه الصفات والأفعال يوجب استحقاق تلك المخلوقات العظيمة لحقيقة واسم الإلوهية والربوبية، وهذا هو الخطأ الثاني الذي وقع فيه الغلاة وهو ناجم ومنشعب عن الخطأ الأول.

الخطأ الثالث: الذي وقع فيه المقصّرة المنكرين على الغلاة والمستنكرين لهم هو نفي هذه الصفات والأفعال العظيمة عن المخلوقات العظيمة لتعاظم هذه

الصفات والأفعال عندهم وقصورهم عن درك هذه المخلوقات العظيمة.

فكلّ من الغلاة والمقصّرة اشتركوا في الخطأ الأوّل إلّا أنه تميّز الغلاة بالخطأ الثاني والمقصّرة بالخطأ الثالث.

وتشير بعض الروايات إلى خطأ الغلاة الأوّل والثاني:

الرواية الأولى: فقد روى الكشي مسنداً عن علي بن حسّان عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: وذكر عنده جعفر بن واقد ونفر من أصحاب أبي الخطّاب فقيل: إنه صار إلى بيروذ وقال فيهم: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[1] قال: هو الإمام فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا والله لا يأويني وإيّاه سقف بيت أبداً، هم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، والله ما صغّر عظمة الله تصغيرهم شيء قطّ، إنّ عزيراً جال في صدره ما قالت عنه اليهود فمحا الله اسمه من النبوّة والله لو أنّ عيسى أقرّ بما قالت النصارى لأورثه الله صمماً إلى يوم القيامة، والله لو أقررت بما يقول فيّ أهل الكوفة لأخذتني الأرض، وما أنا إلّا عبد مملوك لا أقدر على شيء ضرّ ولا نفع[2].

فهؤلاء الغلاة حيث سمعوا أنّ الله تعالى أطوع جميع ملائكته لخليفته في الأرض سواء ملائكة السماوات والأرض وملائكة الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خاق بشراً من طين فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾[3] فتعاظم لديهم هذا الشأن فوصفوا خليفة الله وهو الإمام بأنّه في السماء إله وفي الأرض إله. فتعاظمهم لهذه الصفة ألجأهم لتوصيف خليفة الله المطاع في ملكوت السماوات والأرض بأنّه إله في السماء وإله في الأرض، وهم بذلك قد صغّروا شأن الإله لأنّ شأن الله أعظم من ذلك وإنما

---

١. الزخرف: ٨٣.

٢. رجال الكشي رقم / ٥٣٨.

٣. ص: ٧١ ـ ٧٣.

هذا شأن المخلوق، فتشير هذه الرواية إلى الخطأ الأوّل والثاني الذي وقع فيه الغلاة.

الرواية الثانية: روى الصدوق أنّ الإمام عليه السلام كان يقول في دعائه: اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوّة فلا حول ولا قوّة إلّا بك اللهم إني أبرأ إليك من الذين ادعوا لنا ما ليس بحق... اللهم لا تليق الربوبية إلّا بك ولا تصلح الإلهية إلّا لك، فالعن النصارى الذين صغّروا عظمتك والعن المضاهين لقولهم من بريتك. اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملك لأنفسنا ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. اللهم من زعم أننا أرباب فنحن إليك منه براء ومن زعم أنّ إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن إليك منه براء كبراءة عيسى عليه السلام من النصارى. اللهم إنا لم ندعهم إلى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما يزعمون ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً﴾[١][٢].

وفي هذا الحديث يبيّن عليه السلام أنّ غلوّ النصارى كان قد أوقعهم في الخطأ الأول والثاني، حيث إنّ تعاظمهم للأفعال التي رأوها من النبي عيسى أوقعهم في الخطأ الثاني. فمن ثمّ الغلاة ليس خطأهم في نسبة هذه الأفعال والصفات الغريبة العظيمة إلى حجج الله كما ظنّ ذلك المقصّرة بل خطأهم ناشئ من تقصير الغلاة في معرفة الله حيث لم يتفطّنوا إلى أنّ الصفات والشؤون الإلهية أعظم من ذلك.

الرواية الثالثة: روى الشيخ في أماليه قولهم عليهم السلام: احذروا على شبابكم لا يفسدونهم فإنّ الغلاة شرّ خلق الله يصغّرون عظمة الله ويدّعون الربوبية لعباد الله[٣].

والملفت المهمّ في هذه الروايات تأكيدها على أنّ خطأ الغلاة ليس في نسبة هذه الصفات والأفعال إلى حجج الله، وإنّما هو تصغير عظمة الله. والغلاة إنما

---

١. نوح ٢٦ و ٢٧.
٢. الاعتقادات في دين الإمامية، الصدوق / ١٠٠.
٣. أمالي الطوسي / ٦٥٠، ح ١٣٤٩.

ارتكبوا ووقعوا في تصغير عظمة الله حينما حسبوا أنّ هذه الصفات هي صفات إلهيّة، لا حينما أسندوها إلى المكرّمين من خلق الله، فمركز الانحراف عند الغلاة هو في تصغير عظمة الله بجعل هذه الصفات صفات إلهيّة لا أنّ أساس انحرافهم في إسناد هذه الصفات للمقرّبين من المخلوقين.

فبون شاسع بين ما تشير إليه هذه الروايات من منشأ وحقيقة انحراف الغلاة وبين ما يظنّ المقصّرة أنه السبب في انحراف الغلاة، فكلا الفريقين وقع في الخطأ الأوّل من تعاظم هذه الصفات لديه إلّا أنّ الغلاة وقعوا في الخطأ الثاني من تسمية المقرّبين بالألوهية، والمقصّرة وقعوا في الخطأ الثالث من نفي هذه الصفات عن المقرّبين حذراً من أن يقعوا في الخطأ الثاني، وهم بذلك قد قصّروا في معرفة أولياء الله كما أنّهم قد قصّروا في معرفة الله تعالى فهم قد ارتكبوا تقصيرين، بخلاف الغلاة فإنهم قد ارتكبوا تقصيراً واحداً وإن أفرطوا لا في إسناد الصفات بل في إسناد الألوهية لمن يستحق هذه الصفات وإفراطهم ناجم من تقصيرهم في معرفة الله جلّ جلاله.

ومن ثمّ حكى عن الميرزا المجدد الكبير الشيرازي عندما سئل عن الفرقة التي تؤلّه علياً عليه السلام قوله للسائلين: «إنّ هذه الفرقة إنما عرفوا عليّاً وجهلوا الله عزوجل فعرّفوا لهم الله تعالى» ومراده قدس سره ـ على ما حكي ـ التعريض بالسائلين أنكم جهلتم مقام الله ومقام وليّه أيضاً.

الرواية الرابعة: روى الصدوق أيضاً عن الرضا عليه السلام: من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك ونحن منه براء في الدنيا والآخرة، يابن خالد إنما وضع الأخبار عنا في التشبيه والجبر الغلاة الذين صغّروا عظمة الله تعالى فمن أحبهم فقد أبغضنا ومن أبغضهم فقد أحبّنا، ومن والاهم فقد عادانا ومن عاداهم فقد والانا، ومن وصلهم فقد قطعنا ومن قطعهم فقد وصلنا، ومن جفاهم فقد برّنا ومن برّهم فقد جفانا، ومن أكرمهم فقد أهاننا ومن أهانهم فقد أكرمنا، ومن قبلهم فقد ردّنا ومن ردّهم فقد قبلنا، ومن أحسن إليهم فقد أساء إلينا ومن

أساء إليهم فقد أحسن إلينا، ومن صدّقهم فقد كذّبنا ومن كذّبهم فقد صدّقنا، ومن أعطاهم فقد حرمنا ومن حرمهم فقد أعطانا. يابن خالد من كان من شيعتنا فلا يتّخذون منهم ولياً ولا نصيراً[١].

وفي هذه الرواية دلالة على أنّ موضع ومركز الانحراف عند الغلاة هو تصغيرهم عظمة الله تعالى، لا إسنادهم ذلك النمط من الصفات والأفعال إلى المقرّبين.

نعم هم غلوا وأفرطوا ورفعوا حدّ أهل البيت وأولياء الله فوق حدّهم من العبودية إلى الربوبية والألوهية، والذي هو الخطأ الثاني.

والتفكيك بين الخطأ من الصواب في مباحث المعرفة أمر يستعصي على النقّاد الحذّاق ويخفى على الأوحدي من أهل التحقيق فضلاً عن غيرهم من أهل العلم فكيف بعامّة الناس، فإمّا يفرط بقبول ما عند الغلاة بغثّه وسمينه ويظنّ ذلك صواباً أو يرفضه ويستنكره كما يفعل ذلك المقصّرة ويجحده بغثّه وسمينه ويظنّ أنه قد وقى نفسه من الغلو ولا يدري أنّه قد فرّ من منزلق إلى منزلق آخر.

الرواية الخامسة: روى الصدوق في المعتبر عن الحلبي قال: قلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله ما شيء يحكيه عنكم الناس؟ قال: وما هو؟ قلت: يقولون إنّكم تدّعون أنّ الناس لكم عبيد، فقال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت شاهد بأنّي لم أقل ذلك قطّ ولا سمعت أحداً من آبائي عليهم السلام قال قطّ، وأنت العالم بما لنا من المظالم عند هذه الأمة وإنّ هذه منها، ثم أقبل عليّ فقال: يا عبد السلام إذا كان الناس كلّهم عبيدنا على ما حكوا عنّا فمن نبيعهم؟ فقلت: يابن رسول الله صدقت.

ثم قال: يا عبد السلام أمنكر أنت لما أوجب الله عزوجل لنا من الولاية كما ينكره غيرك؟ قلت: معاذ الله بل أنا مقرّ بولايتكم[٢].

---

١. بحار الأنوار ٢٥ / ٢٦٦ .

٢. بحار الأنوار ٢٥ / ٢٦٨ .

فترى أنّه عليه السلام في حين يخطّىء التأويل الفاسد لما صدر عنهم عليهم السلام من قولهم: «إنّ الناس لنا عبيد طاعة لا عبيد ربوبية» كما في قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[١] إلّا أنّه عليه السلام ينبّه الراوي في ذيل الحديث إلى أنّ ما صدر عنهم عليهم السلام من الرواية والمقال له أصل صحيح يجب على الراوي ألّا ينكره ولا يدعونّه ذلك التأويل الفاسد إلى إنكار ما هو صحيح كما هو منهج المقصّرة، ومن ثم قال له عليه السلام: «أمنكر أنت لما أوجب الله عزوجل لنا من الولاية كما ينكره غيرك؟».

وهذا هو المنهج المعتدل الوسطي بين إفراط الغلاة وتفريط المقصّرة القائم على تفكيك الخطأ من الصواب وكيل كلّ شيء بحسبه ومن ثمّ ورد عنهم عليهم السلام: «خذوا ما رووا وذروا ما رأوا»[٢].

وممّا يؤكّد أنّ خطأ الغلاة ليس في أصل إسناد الأفعال والصفات وإنّما في تعاظمها بنحو يوقعهم في الخطأ الثاني وهو نسبة الربوبية والألوهية إلى المقرّبين من أولياء الله أي رفع حدّهم من العبودية إلى الألوهية والربوبية، ما ورد مستفيضاً عنهم صلوات الله عليهم من التأكيد على مقام عبوديتهم.

الرواية السادسة: في المحاسن عن ابن محبوب عن عمرو بن أبي المقدام عن مالك بن أعين الجهني قال: أقبل إليّ أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا مالك أنتم والله شيعتنا حقّاً، يا مالك تراك قد أفرطت في القول في فضلنا، إنه ليس يقدر أحد على صفة الله وكنه قدرته وعظمته فكما لا يقدر أحد على كنه صفة الله وكنه قدرته وعظمته ﴿ولله المثل الأعلى﴾[٣] فكذلك لا يقدر أحد على صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وفضلنا وما أعطانا الله وما أوجب من حقوقنا، وكما لا يقدر أحد أن يصف فضلنا وما أعطانا الله وما أوجب الله من حقوقنا فكذلك لا يقدر أحد أن يصف حقّ المؤمن ويقوم به ممّا أوجب الله على أخيه المؤمن.

---

١. النساء: ٥٩.

٢. فقه الرضا عليه السلام ٥٠.

٣. النحل: ٦٠.

والله يا مالك إنّ المؤمنين ليلتقيان فيصافح كل واحد منهما صاحبه فما يزال الله تبارك وتعالى ناظراً إليهما بالمحبّة والمغفرة وإنّ الذنوب لتحاتّ عن وجوههما وجوارحهما حتّى يفترقا، فمن يقدر على صفة الله وصفة من هو هكذا عند الله؟[١][٢].

وتشير هذه الرواية إلى خطأ المقصّرة الأوّل والثالث حيث إنّهم تعاظموا بعض الصفات فبنوا على أنّها صفات إلهية مع أنّ شأن الصفات الإلهية أعظم من ذلك، فوقعوا من ثم في الخطأ الثالث من نفي هذه الصفات والأفعال عن المكرّمين من خلقة الله وحسبوا أنّ إسناد هذه الصفات لهم إفراط في القول كما يشير قوله عليه السلام: «يا مالك تراك قد أفرطت في القول في فضلنا...».

ولا يخفى أنّ مالك مع أنه كان على صلة بالمغيرة بن سعيد ومن ثمّ قبضت عليه السلطات الأموية بعد قتل المغيرة إلّا أنّه نجا منهم كما ذكر ذلك الطبري وسيأتي ذكره.

ولذلك قال السيد الخوئي: «فإن قوله: الله أكبر من أن يوصف لا يدل على اختصاص الأكبرية من ذلك به تعالى ونفيها عن غيره فلعلّ هناك موجوداً كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو ملك مقرّب هو أيضاً أكبر من أن يوصف كما أن قوله: الله أكبر من كلّ شيء لا يدل على أنّه تعالى غير محدود بحدّ وغير قابل للوصف بل غايته أن كلّ موجود في الخارج فالله سبحانه أكبر منه، وأما أنّه تعالى أكبر من أن يوصف وأجل من أن يحدد فلا دلالة للكلام عليه. هذا بخلاف قولنا: «الله أكبر» مرسلاً عن كل قيد فإنّه يدل على الأكبريّة المطلقة الشاملة لجميع تلك المعاني، بل وغيرها كما لا يخفى فيكون المعنى أشمل والمفهوم أوسع وأكمل فلا يجوز تغييره بالتقييدين الموجبين للتضييق»[٣].

---

١. راجع الإمامة الإلهية ذيل: «لا تقولوا فينا رباً وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا».
٢. المحاسن / ١٤٣ / ح ٤١.
٣. التنقيح في شرح العروة الوثقى: ١٤ / ١٠٧ و ١٠٨.

ويستشفّ من كلامه رضوان الله عليه أنّ صفاتهم عليهم السلام أكبر من أن يصفها الواصفون كما ورد بذلك روايات مستفيضة سنشير إلى بعضها، إلّا أنه رغم ذلك فصفات الله فوق ذلك، وليس عجز الآخرين عن توصيفهم عليهم السلام هي الضابطة للصفة الإلهية كما قد توهّم ذلك الكثير بل هذه الضابطة منطبقة على صفاتهم أيضاً، بل ضابطة الصفة الإلهية هو الاستقلال وملكية الأسماء الحسنى بالذات، أي الربوبية في مقابل الافتقار وهي العبودية.

الرواية السابعة: قال الإمام أبو محمّد العسكري عليه السلام: قال الرضا عليه السلام: إنّ هؤلاء الضلال الكفرة ما أتوا إلّا عن جهلهم بمقادير أنفسهم حتى اشتدّ إعجابهم بها وكثر تعظيمهم لما يكون منها، فاستبدّوا بآرائهم الفاسدة واقتصروا على عقولهم المسلوك بها غير السبيل الواجب حتى استصغروا قدر الله واحتقروا أمره وتهاونوا بعظيم شأنه. إذ لم يعلموا أنّه القادر بنفسه الغني بذاته الذي ليست قدرته مستعارة ولا غناه مستفاداً والذي من شاء أفقره ومن شاء أغناه ومن شاء أعجزه بعد القدرة وأفقره بعد الغنى. فنظروا إلى عبد قد اختصّه الله بقدرته ليبيّن بها فضله عنده وآثره بكرامته ليوجب بها حجّته على خلقه وليجعل ما آتاه من ذلك ثواباً على طاعته وباعثاً على اتّباع أمره ومؤمناً عباده المكلّفين من غلط من نصبه عليهم حجّة ولهم قدوة فكانوا كطلّاب ملك من ملوك الدنيا ينتجعون فضله ويؤملون نائله ويرجون التفيّؤ بظلّه والانتعاش بمعروفه والانقلاب إلى أهليهم بجزيل عطائه الذي يغنيهم عن كلب الدنيا وينقذهم من التعرّض لدنيّ المكاسب وخسيس المطالب، فبينا هم يسألون عن طريق الملك ليترصّدوه وقد وجّهوا الرغبة نحوه وتعلّقت قلوبهم برؤيته إذ قيل: إنّه سيطلع عليكم في جيوشه ومواكبه وخيله ورجله، فإذا رأيتموه فأعطوه من التعظيم حقّه ومن الإقرار بالمملكة واجبه وإيّاكم أن تسمّوا باسمه غيره أو تعظّموا سواه كتعظيمه فتكونوا قد بخستم الملك حقّه وأزريتم عليه واستحققتم بذلك منه عظيم عقوبته.

فقالوا: نحن كذلك فاعلون جهدنا وطاقتنا فما لبثوا أن طلع علينا بعض عبيد الملك في خيل قد ضمّها إليه سيّده ورجل قد جعلهم في جملته وأموال قد حباه بها، فنظر هؤلاء وهم

للملك طالبون فاستكثروا ما رأوا بهذا العبد من نعم سيّده ورفعوه عن أن يكون هو المنعم عليه بما وجدوا معه. فأقبلوا إليه يحيّونه تحيّة الملك ويسمّونه باسمه ويجحدون أن يكون فوقه ملك أو له مالك.

فأقبل عليهم العبد المنعم عليه وسائر جنوده بالزجر والنهي عن ذلك والبراءة ممّا يسمّونه به ويخبرونهم بأنّ الملك هو الذي أنعم بها عليه واختصّه به وأنّ قولكم بما تقولون يوجب عليكم سخط الملك وعذابه ويفيتكم كلما أمّلتموه من جهته وأقبل هؤلاء القوم يكذّبونهم ويردّون عليهم قولهم.

فما زال كذلك حتى غضب عليهم الملك لمّا وجد هؤلاء قد سمّوا به عبده وأزروا عليه في مملكته وبخسوه حقّ تعظيمه فحشرهم أجمعين إلى حبسه ووكّل بهم من يسومهم سوء العذاب.

فكذلك هؤلاء وجدوا أمير المؤمنين عليه السلام عبداً أكرمه الله ليبين فضله ويقيم حجّته فصغر عندهم خالقهم أن يكون جعل علياً له عبداً، وأكبروا علياً أن يكون الله عزوجل له ربّاً فسمّوه بغير اسمه فنهاهم هو وأتباعه من أهل ملّته وشيعته.

وقالوا لهم: يا هؤلاء إنّ علياً وولده عباد مكرمون مخلوقون مدبّرون لا يقدرون إلّا على ما أقدرهم الله عليه ربّ العالمين ولا يملكون إلّا ما ملّكهم الله لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا قبضاً ولا بسطاً ولا حركة ولا سكوناً إلّا ما أقدرهم الله عليه وطوّقهم وأنّ ربهم وخالقهم يجلّ عن صفات المحدثين ويتعالى عن نعوت المحدودين وإن من اتخذهم أو واحداً منهم أرباباً من دون الله فهو من الكافرين وقد ضلّ سواء السبيل، فأبى القوم إلّا جماحاً وامتدوا في طغيانهم يعمهون فبطلت أمانيهم وخابت مطالبهم وبقوا في العذاب الأليم[١].

وفي هذه الرواية تنصيص على أنّ هذه الصفات والأفعال كرامة منه تعالى

---

١. تفسير الإمام العسكري / ٥٥ / ح ٢٨.

لحجّته على خلقه تمييزاً له على بقيّة خلقه فاستكثروا ما رأوا بهذا العبد من نعم الله تعالى، وأنّ خطأهم الأوّل هذا دفعهم إلى الخطأ الثاني من حسبان هذه الصفات والأفعال هو للإله والخالق ومن ثم قال عليه السلام: «فاستكثروا ما رأوا بهذا العبد من نعم سيّده» وهو يشير إلى الخطأ الأول.

وقوله عليه السلام: «فصغر عنده خالقهم أن يكون جعل علياً له عبداً» يشير إلى خطأ الغلاة الأول أيضاً من استعظام هذه الصفات واستكثارها من جانب، ومن جانب آخر تصغيرهم الخالق عن أن يكون فوق هذه الصفات والأفعال وفوق صاحب هذه الصفات والأفعال.

ومن ثمّ فإنّ أزمة الغلاة هي استعظام هذه الصفات وتصغير قدر الله، أي أنّ الغلاة رغم إفراطهم في التعمّق في المعرفة والتوسّع في آفاقها، إلّا أنّهم ضاق أفقهم وهبطت معرفتهم وقصرت عن إدراك فوقيّة الباري تعالى على كل ذلك، فإنّ هذه الصفات مهما تعاظمت فإنّها شؤون دون أعلائية الباري جل جلاله ولذا قال تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾[1]، وقال: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات التي تنزّه الباري تعالى عن تلك الصفات رغم تعاظم تلك الصفات والشؤون في أعين البشر سواء الغلاة أو المقصّرة، فإنّ كلا الفريقين وقع في شراك هذا الانزلاق وهو الخطأ الأول الرئيسي، ولم يتفطّنوا أنّ البشر لا يقدر على صفة الله وشؤونه إلّا بما وصف الله تعالى به نفسه، وأما تلك الصفات والشؤون التي استكثروها وتعاظموها فهي دون الباري تعالى وهو عزّ شأنه فوقها وحينئذ قام كلّ من الفريقين تارة بتصغير قدر الله عزوجل عن أن يكون فوق ذلك، أي يكون فوق صاحب هذه الصفات وهو عليّ عليه السلام وأكبروا علياً عن أن يكون فوقه ربّ مالك له ولشؤونه فوسموه بالربوبية والألوهية وهؤلاء هم

---

١. الأنعام : ١٠٠ .

٢. الصافات : ١٨٠ .

الغلاة.

وآخرون أيضاً قاموا بتصغير مقام قدر الله عزوجل حيث تعاظموا هذه الصفات فجعلوها صفات الخالق ونفوها عن كونها صفات وليّ الله مع أنّ صفات الله عزوجل فوق ذلك كما أن نفيهم كونها صفات وليّ الله تقصير آخر وتصغير لوليّ الله عن مقامه.

فالمقصّرة قصّروا في مقامين وقاموا بتصغيرين فصغّروا شأن الله عزوجل كما صغّروا شأن وليّه بينما الغلاة قصّروا في مقام واحد فصغّروا قدر الله تعالى.

ويشير قوله عليه السلام: «فنظروا إلى عبد قد اختصّه الله بقدرته ليبيّن بها فضله عنده وآثره بكرامته ليوجب بها حجّته على خلقه وليجعل ما آتاه من ذلك ثواباً على طاعته وباعثاً على اتباع أمره ومؤمّناً عباده المكلّفين من غلط من نصبه عليهم حجّة ولهم قدوة».

فبيّن عليه السلام أنّ إعطاء الله هذه الصفات والقدرة على هذه الأفعال لوليّه في الأرض حكمته وغايته هو قطع الطريق على الجاحدين الذين قصرت معرفتهم بولي الله وحجّته ليبيّن بها مكانته عند الله ووجاهته.

وقوله عليه السلام: «إنّ علياً وولده عباد مكرمون مخلوقون مدبّرون لا يقدرون إلّا على ما أقدرهم الله عليه ربّ العالمين، ولا يملكون إلّا ما ملّكهم الله لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا قبضاً ولا بسطاً ولا حركة ولا سكوناً إلّا ما أقدرهم الله عليه وطوّقهم، وإنّ ربّهم وخالقهم يجلّ عن صفات المحدثين ويتعالى عن حدود المحدودين، وإنّ من اتخذهم أو واحداً منهم أرباباً من دون الله فهو من الكافرين وقد ضلّ سواء السبيل».

صريح في إسناد هذه الصفات والأفعال لعليّ وولده المطهّرين بإقدار من الله تعالى، وإملاك منه عزوجل، فهو عليه السلام ينفي ثبوت هذه الصفات والأفعال منهم باستقلال من أنفسهم عن العطيّة الإلهية.

وهذا الحديث حاكم ومفسّر على جملة من الأحاديث المستفيضة النافية لثبوت هذه الصفات لهم من دون استثناء بأنّ المراد منها ليس نفي الصفات

والأفعال بقول مطلق من الإحياء والإماتة والنشر والقبض والبسط بل نفي استقلالهم بهذه الأفعال والصفات لا نفيها بإقدار من الله تعالى وإملاك منه. فما بنى عليه جماعة من الأعلام من نفيها مطلقاً في غير محلّه اغتراراً بظاهر جملة من الروايات المستفيضة التي لم تتضمّن استثناءً.

بل إنّ ذيل كلامه عليه السلام يشير إلى بيان عقلي برهاني على ثبوتها لهم بإقدار من الله، حيث بيّن عليه السلام أنّ هذه الصفات والأفعال من الإماتة والإحياء والنشر والقبض والبسط والحركة والسكون هي في الأصل صفات المحدثين المخلوقين، لأنّ الإماتة والإحياء والنشر والقبض والبسط عندما كان فعلاً متعلقاً بالمادة والجسم فالفاعل له لابدّ أن يكون له تعلّق بالجسم والجسماني فلابدّ أن يكون له وضع خاص في المادة محاذي للجسم المنفعل المتعلّقة به الروح المحياة أو المماتة أو الروح والجسم المنشر. كما أنّ القبض والبسط والحركة والسكون في الجسم وما يتعلّق بالجسم من نفس ونفوس هو الآخر أيضاً أفعال مادّية يتعالى عزّ اسمه عن الاتّصاف بما تتضمّن من حدوده ونقائصه.

ويؤكّد عليه السلام مرّة أخرى على أنّ خطأ هؤلاء الغلاة ليس في توصيف علي وأولاده بهذه الصفات وإنّما تسميتهم أهل البيت عليهم السلام أرباباً وآلهة أي مستقلّين في التمتّع بهذه الصفات والأفعال، فانحراف الغلاة إنما يكون في التسمية لا في إسناد الصفات والأفعال.

الرواية الثامنة: ما رواه الحضيني عن المفضل بن عمر قال: «يا مولاي أليس قد روينا عنكم أنكم قلتم الغالي نرده والتالي نلحقه بنا قال: يا مفضل ظننت أنّ التالي هم المقصّرة قال: كذا ظننت يا سيّدي قال: كلّا، التالي هم من خيار شيعتنا القائلين بفضلنا المستمسكين بحبل الله وحبلنا الذين يزدادون بفضلنا علماً، وإذا ورد على أحدهم خبر قَبِله وعَمِل به ولم يشكّ فيه، فإن لم يطقه رده إلينا ولم يرد علينا فذلك هو التالي ... ويحك يا مفضل إنّ الغالي في محبتنا نرده إلينا ويثبت ويستجيب ولا يرجع، والمقصّرة تدعوه إلى

الإلحاق بنا والإقرار لما فضلنا الله به فلا يثبت ولا يستجيب ولا يلحق بنا، لأنّهم لما رأونا نفعل أفعال النبيين قبلنا مما ذكرهم الله في كتابه وقص قصصهم وما فرض إليهم من قدرته وسلطانه حتى خلقوا وأحيوا ورزقوا وأبرأوا الأكمه والأبرص ونبأوا الناس بما يأكلون ويشربون ويدخرون في بيوتهم ويعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة بإذن الله وسلموا إلى النبيين أفعالهم وما وصفهم الله وأقروا لهم بذلك، وجحدوا بغياً علينا وحسداً لنا على ما جعله الله لنا وفينا وما أعطاه الله لسائر النبيين والمرسلين والصالحين وازدادنا من فضله ما لم يعطهم إياه وقالوا ما أعطى النبيون هذه القدرة التي أظهرها إنما صدقناها وأنزل بها لأن الله أنزلها بكتابه.

ولو علموا ويحهم أنّ الله ما أعطاه من فضله شيئاً إلّا أنزله بسائر كتبه وصفنا به، ولكن أعداؤنا لا يعلموه وإذا سمعوا فضلنا أنكروه وصدوا عنه واستكبروا[١].

الرواية التاسعة: روى الصفار في البصائر صحيحة علي بن جعفر عن أبي الحسن عليه السلام أنه سمعه يقول: لو أذن لنا لأخبرنا بفضلنا قال: قلت له: العلم منه؟ قال: فقال لي: العلم أيسر من ذلك»[٢].

وروى أيضاً بسند صحيح أعلائي عن محمد بن مسلم قال: «دخلت عليه بعد ما قتل أبو الخطاب قال: فذكرت له ما كان يروي من أحاديثه [ويرتكب] تلك العظام قبل أن يحدث ما أحدث، فقال: بحسبك والله يا محمد أن تقول فينا يعلمون الحلال والحرام وعلم القرآن وفصلها بين الناس فلما أردت أن أقوم أخذ بثوبي فقال: يا محمد وأي شيء الحلال والحرام في جنب العلم؟ إنما الحلال والحرام شيء يسير من القرآن»[٣].

وبمضمون هاتين الروايتين روايات عديدة في تلك الأبواب ويستفاد منها أنّ علم الفقه وأحكام الفروع شيء يسير في جنب علم القرآن، مع أنّ علم القرآن

---

١. الهداية الكبرى / ٤٢١ ـ ٤٢٢.

٢. بصائر الدرجات ٥٣٢ حديث ٢٧، بحار الأنوار ٢٥ / ٣٧٢.

٣. بصائر الدرجات ١ / ٢٨٧ ح ٧٣٠.

كلّه شيء يسير في جنب فضائلهم، مع أن علم القرآن لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات والأرض وفيه خزائن الغيب وما من غائبة في السماء والأرض إلّا فيه، إلّا أنه مع ذلك هو شيء يسير في جنب مقاماتهم العلويّة.

وقال المجلسي في ذيل قوله تعالى: ﴿إنّك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾[١]. قال: وفي هذه القصّة تنبيه لمن عقل وتفكّر للتسليم في كلّ ما روي من أقوال أهل البيت عليهم السلام وأفعالهم مما لا يوافق عقول عامّة الخلق وتأباه أفهامهم وعدم المبادرة إلى ردّها وإنكارها وقد مرّ في باب التسليم وفضل المسلمين ما فيه كفاية لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[٢].

الرواية العاشرة: قال الرضا عليه السلام لجاثليق: ما أنكرت أنّ عيسى كان يحيي الموتى بإذن الله عزوجل.

قال الجاثليق: أنكرت ذلك من قبل، إنّ من أحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فهو ربّ مستحق لأن يعبد.

قال الرضا عليه السلام: فإن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فلم تتخذه أمّته ربّاً ولم يعبده أحد من دون الله عزوجل؟ ولقد صنع حزقيل النبي مثل ما صنع عيسى بن مريم فأحيى خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تتجاوزوا بنا العبودية ثمّ قولوا ما شئتم ولن تبلغوا وإياكم والغلوّ كغلوّ النصارى فإني بريء من الغالين[٤].

---

١. الكهف: ٦٨.
٢. بحار الأنوار ٢٥ / ٣٦٢.
٣. الاحتجاج ٢ / ٤٠٧.
٤. المصدر نفسه / ٤٥٣.

وقال ﷺ: إياكم والغلو فينا قولوا إنا عبيد مربوبون وقولوا في فضلنا ما شئتم[١].

وفي هذه الأحاديث تأكيد على أنّ الصفات والأفعال التي يتعاظمها الكثير هي صفات للمحدثين يتعالى الله عنها وأنّ الاتّصاف بهذه الصفات والأفعال لا يوجب استحقاق الربوبية والألوهية والغناء الذاتي وإن تعاظمتها واستكثرتها الأذهان القاصرة.

كما أنّ تقييد الغلو بغلوّ النصارى هو تنويع وتقسيم لأنماط الغلو وأنّ نمط غلوّ النصارى ونوعه ليس في إسناد الصفات والأفعال العظيمة، بل في تسمية ذلك بالربوبية والألوهية.

---

١. بحار الأنوار ١٠ / ٩٢.

□ الأدلّة على عظمة صفاتهم عليهم السلام ممّا أوجب مروق الغلاة وجحود المقصّرة

تجدر الإشارة هنا إلى نبذة من الأدلة على تعاظم صفاتهم عليهم السلام عن قدرة إدراك البشر، فيوجب مروق الغلاة و جحود المقصرّة فتنكّب الفريقان الجادة الوسطى.

الأول: قوله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾[1].

وسياق الآية وإن كان في النظر الأوّلي هو ما ذكره المفسّرون أن انظر أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف ضرب هؤلاء المشركون له مثلاً فجاروا بذلك عن طريق الحق. إلّا أنّ النظرة الممعنة للآية تقضي بأنّ المشركين راموا أن يصلوا إلى حقيقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد ضربوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عدّة من الاحتمالات لمعرفة ماهيّة نبوّته.

فتارة وصفوه بالسحر وهو ما يرتبط بعالم الخيال وقوى الجنّ وتنزّل الشياطين عليه وأخرى أنّ كلامه من الشعر وفنّ الأدب وهو أيضاً مما يرتبط بعالم الخيال وسيطرة مخائل الجنّ والشياطين، وثالثة أنّه درس عند رجل رومي نصراني أو مولى أعجمي لحويط بن العزّى مع أنّ لسان القرآن لسان عربي مبين

---

١. الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩.

يعجز الفصحاء عن المجيء بمثله. ورابعة أنّه يستقي علمه من أساطير الأولين أي الأكاذيب المسطورة في كتبهم وأنّه قد اكتتبها فما يذكره من القرآن بكرة وأصيلاً من إملاءات تلك الكتب. وخامسة أنّ هذا كذب مخترع من عند نفس النبي ونسبه إلى الله أو أنّه أعانه عليه قوم آخرون، أو أنّ الرسول من الله الآتي بالوحي من غيب الغيوب لابد أن لا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق ولا تكون له حاجيات بشرية، أو أنه لابد أن يكون معه ملك من الملائكة ينذر معه ويصدّقه ويؤازره، وأن الرسول لابدّ أن يكون باذخ الثراء والقدرة في المال وغير ذلك من تصاريف الاحتمالات التي ذكروها.

مع أنّ هذه التصاريف ليست كلّها في صدد تبيانهم للأمور المغايرة للنبوّة بل إنّ جملة ممّا ذكروه هو لبيان حقيقة النبوّة والوحي الغيبي من لدن الملكوت الإلهي، إلّا أنّ في كل من سورة الفرقان وسورة الإسراء ينفي الباري قدرتهم على معرفة واقتناص حقيقة النبوّة فلا استطاعة لهم على سبيل معرفة حقيقة النبوّة، وهذا ممّا يفيد عجز البشر وانتفاء السبيل المقدور للبشر عن الإحاطة بحقيقة النبوّة.

ولا يتوهّم أنّ ذلك يستلزم التكليف بما لا يطاق فإنّه إذا امتنعت معرفة النبوّة فلا تكليف بالإيمان بها، وذلك لأنّ المراد بالامتناع المزبور ليس الامتناع مطلقاً بحيث لا يتسنّى المعرفة بوجه بل المراد الامتناع المحيط بكنهها. ومن أنواع المعرفة المزبورة معرفتها بالمثل والنظير مع أنّ المشركين أخطأوا في المثال فضلاً عن المثل. وهاتان الآيتان الشريفتان تشيران إلى الدليل العقلي الدالّ على ذلك.

الثاني: قد أشار إلى ذلك البرهان العقلي الإمام الباقر عليه السلام في ما رواه المفضل بن عمر عنه عليه السلام من أنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف ورسوله لا يوصف فمن احتمل حديثهم فقد حدّهم ومن حدّهم فقد وصفهم ومن وصفهم بكمالهم فقد أحاط بهم

وهو أعلم منهم ... وهو قول الله عزوجل: ﴿الله نزّل أحسن الحديث﴾[١] فأحسن الحديث حديثنا لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحدّه لأنّ من حدّ شيئاً فهو أكبر منه[٢].

وهذا البيان إشارة إلى استدلال عقلي من أنّ إدراك الشيء بالكنه لا يتمّ إلّا بالإحاطة، والإحاطة تستلزم أكبريّة المحيط من المحاط فكلّ شيء كان أكبر من آخر فلا يمكن للثاني أن يدرك الأوّل بكنهه وإلّا لكان الثاني أكبر من الأول وهذا خلف الفرض. وبنفس هذا الاستدلال استدل على استحالة إحاطة المعلول بكنه العلّة وإنما يحيط المعلول من العلة بقدر قابليّته وسعته إذ المعلول رقيقة مخفّفة وجلوة متنزّلة من العلّة.

الثالث: وممّا يشير إلى ذلك قول الرضا عليه السلام: «الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تناها الأيدي والأبصار ... ولا له مثل ولا نظير ... فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ... هيهات هيهات ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب وخسئت العيون وتصاغرت العظماء وتحيّرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحسرت الخطباء وجهلت الألبّاء وكلّت الشعراء وعجزت الأدباء وعييت البلغاء عن وصف شأن من شؤونه أو فضيلة من فضائله وأقرّت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكلّه أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغنى غناه. لا كيف وأنّى وهو بحيث النجم من يد المتناولين ووصف الواصفين ... أين العقول عن هذا»[٣].

ومفاد بيانه عليه السلام يشير إلى البيان العقلي المتقدّم فلاحظ. وإلّا لكان المأموم إماماً لو أدرك إمامه بكنهه.

الرابع: وأشير إلى ذلك أيضاً في الزيارة الجامعة الكبيرة التي رواها الشيخ والصدوق بسند معتبر في الفقيه والتهذيب قوله عليه السلام: «فبلغ الله بكم أشرف محلّ

---

١. الزمر: ٢٣.

٢. بصائر الدرجات: ٤٤ حديث ١٦، بحار الأنوار ٢ / ١٩٤.

٣. الكافي ج ١ باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته ح ١.

المكرّمين وأرفع درجات المرسلين حيث لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق ولا يسبقه سابق ولا يطمع في إدراكه طامع ... موالي لا أحصي ثناءكم ولا أبلغ من المدح كنهكم ومن الوصف قدركم وأنتم نور الأخيار وهداة الأبرار وحجج الجبار ... بأبي أنتم وأمي ونفسي كيف أصف حسن ثنائكم وأحصي جميل بلائكم وبكم أخرجنا الله من الذلّ وفرّج عنا غمرات الكروب وأنقذنا من شفا جرف الهلكات ومن النار»[١].

أي كيف يصفهم وهم واسطة الفيض لغيرهم وفيض الهداية والكمال وفيض النور وغيرها من الفيوضات إنما يجريها الله تعالى عبرهم وعلى يدهم فغيرهم الذي جرت عليه يد النعمة التكوينية لهم هو دونهم فكيف يدركهم بالكنه وهم أكبر منه.

الخامس: قوله ﷺ فيما روته الخاصّة والعامّة: «يا علي لو لا أن يقول طائفة من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم لقلت فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من المسلمين إلّا أخذوا التراب من تحت رجليك وفضل طهرك يستسقون (يستشفون) علماً»[٢].

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أنّ هناك من صفات العباد المكرمين ما يتعاظمها البشر ويحسبون أنّها من صفات الخاصّة بالله تعالى.

السادس: روى المجلسي عن كتاب الروضة والفضائل عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض غزواته فمررنا بواد مملوء نملاً فقلت: يا أمير المؤمنين ترى يكون أحد من خلق الله تعالى يعلم عدد هذا النمل؟ قال: نعم يا عمار أنا أعرف رجلاً يعلم عدده وكم فيه ذكر وكم فيه أنثى؟ فقلت: من ذلك الرجل يا مولاي؟ فقال: يا عمار ما قرأت في سورة يس: ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[٣]؟ فقلت: بلى يا مولاي، فقال: أنا ذلك الإمام المبين[٤].

---

١. من لا يحضره الفقيه ٣ / ٦٠٩ / ح ٣٢١٦، و تهذيب الأحكام ٦ / ٩٥ / ح ١.

٢. إحقاق الحق ١٥ / ٣٢٠ و ٥٦٢، وج ٢٢ / ٣٥٦ و ٣٥٨.

٣. يس: ١٢.

ورواه الطريحي في المجمع وفيه: «فقال بعضهم سبحان من يعلم عدد هذا النمل فقال عليه السلام: لا تقل كذا قل: سبحان من خلق هذا النمل فقال: كأنك تعلمه يا أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: نعم لأعلمه وأعلم الذكر منه من الأنثى»(٥).

وتقريب الدلالة كما مرّ أنّ إحصاء عدد النمل خارج عن قدرة البشر من دون آليات وأدوات فضلاً عن تمييز الذكر من الأنثى، فلا محالة تعزى القدرة إلى الغيب والمرتكز بنحو مبهم في الأذهان أنّ العلم بالمغيبات من الشؤون الخاصّة الإلهيّة، وهذا الإبهام بإجماله خاطىء فإنّ كل شيء وإن استند إليه تعالى إلّا أنّه لا يعني عينيّته مع الذات الإلهيّة، فإنّ الصفات الذاتية هي التي يكون من شأنها العينيّة مع الذات الإلهيّة. فالإسناد أعم من إسناد الصفات الذاتية له تعالى أو إسناد الصفات ناشئة من إسناد الأفعال له تعالى.

والقاعدة كما مرّ أنّ صفات الأفعال هي كالأفعال مخلوقة ومن شؤون الخلقة، وشؤون المخلوق قائمة حلولاً بالمخلوق وإن كان قيامها في أصل الصدور مستند إلى الباري تعالى وهذه القاعدة بسبب غموضها ودقّة معناها ولطافة مفادها يصعب التنبّه والالتفات إلى مراعاتها في الموارد والشؤون العديدة الكثيرة.

وحيث إنّ بعض الأفعال من أعاظم شؤون الفعل الصادرة من الحضرة الإلهيّة فيصعب على الفطنة إدراك كون الصفة الناشئة من ذلك الفعل من صفات المخلوق، وتلك الصفة وإن أسندت إلى الباري تعالى إلّا أنّه إسناد شؤون الفعل إليه تعالى لا كإسناد الصفات الذاتيّة إليه، بخلاف إسناد تلك الصفة إلى المخلوق فإنّها إسناد إمّا كصفة ذاتيّة لذلك المخلوق أو إسناد فعل له بنحو يكون الفعل قائماً به وهو يغاير إسناد الفعل إلى الحضرة الإلهية الذي هو استناد صدور ونشوء وجود منه تعالى بالذات.

---

٤. بحار الأنوار ٤٠ / ١٧٦ .

٥. مجمع البحرين ١ / ٥٢٨ .

السابع: ومن ثمّ نلاحظ أنّ واحداً من الصفات يسند إليه تعالى تارة وإلى النبي ﷺ أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى﴾[١] وكذلك في قوله تعالى في غزوة الأحزاب: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾[٢] أي بعلي عندما قتل عمرو بن عبدود العامري فدخل الوهن والرعب في قلوب الأحزاب، فصدور إيجاد الفعل في الأصل يكون منه تعالى، وإن كان للمخلوق إسناد توسيط ووساطة ممرّ الفيض وهو الذي يشير إليه التقييد بالباء في الإسناد من دون انقطاع النسبة عن العبد.

الثامن: ومن هذا القبيل ما رواه البرقي عن ابن سنان عن العلاء عن خالد الصيقل عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله فوّض الأمر إلى ملك من ملائكته فخلق سبع سماوات وسبع أرضين فلما رأى أنّ الأشياء قد انقادت له قال: من مثلي، فأرسل الله عليه نويرة من النار. قلت: وما النويرة؟ قال: نار مثل الأنملة فاستقبلها بجميع ما خلق فتخيّل [فتبخل، فتخللت] لذلك حتى وصلت إلى نفسه لما أن دخله العجب[٣].

فهذا الملك رغم عظم ما قام به من فعل إلّا أنه لم يعن ذلك استغناءه بذاته ولا إطلاق قدرته عن الحدود الحاصرة له بلا تناه تنحصر قدرته عندها.

التاسع: وممّا يعزّز إسناد جملة من الصفات العظيمة التي يتعاظمها العقل البشري عن كونها صفات المخلوقين قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[٤].

---

١. الانفال: ١٧.

٢. الأحزاب: ٢٥.

٣. بحار الأنوار ٦٨ / ٢٢٩، وسائل الشيعة ١ / ١٠٢.

٤. الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩.

فنلاحظ أنّ صدور بعض الأفعال الباهرة القاهرة للعقول من أحد الأنبياء أو بعض المخلوقات كالملائكة، أوهم جماعة من البشر إلى القول بأنّ ذلك المخلوق هو من جنس الله وأنّه تولّد من الذات الإلهيّة ـ العياذ بالله ـ لتعاظمهم صفات وأفعال ذلك ا لمخلوق عن أن يكون مخلوقاً. ونلاحظ رغم ذلك لم ينف الله عزوجل صدور تلك الأفعال وثبوت تلك الصفات عن ذلك المخلوق وإنّما نفى إيجابها الألوهيّة وأنّهم رغم ما لهم من أفعال وصفات تتعاظم في عقول البشر إلّا أنهم لا يخرجون بذلك عن العبوديّة.

أمّا تقريره تعالى لثبوت تلك الصفات والأفعال فلقوله تعالى: ﴿مكرمون﴾ أي إنّ الباري تعالى حباهم، وحبوهم بالكرامات التكوينيّة فلم ينف تلك الصفات والأفعال وعظمتها عن أولئك المخلوقين في حين أثبت لهم العبوديّة أيضاً فقال ﴿عباد مكرمون﴾ وأكّد بعد ذلك أنّ عظمة تلك الصفات والأفعال لا تستوجب الألوهية حيث قال: ﴿ومن يقل منهم إنّي إله ...﴾.

العاشر: ما ورد في المستفيض من لزوم الإيمان بباطن الأئمة عليهم السلام كلزوم الإيمان بظاهرهم ولزوم الإيمان بسرهم كلزوم الإيمان بعلانيتهم. فقد ورد في الزيارات المأثورة المستفيضة قولهم عليهم السلام: «إني بسركم مؤمن ولقولكم مسلم»[١]، وقولهم: «مؤمن بسرّكم وعلانيتكم»، في الزيارة الجامعة[٢] وفي زيارة أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام [٣].

وفي رواية عيسى بن المستفاد عن موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: ولما كانت الليلة التي أصيب حمزة في يومها دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا حمزة يا عمّ رسول

---

١. مصباح المتهجد / ٨٢١.

٢. من لا يحضره الفقيه ٢ / ٦٠٨، و تهذيب الأحكام ٦ / ٩٩.

٣. الكافي ٤ / ٥٧٩، كامل الزيارات / ٥٠٤ و ٥٢٣، عيون أخبار الرضا ١ / ٣٠٤، تهذيب الاحكام ٦ / ١٠٣.

الله يوشك أن تغيب غيبة بعيدة فما تقول لو وردت على الله تبارك وتعالى وسألك عن شرايع الإسلام وشروط الإيمان، فبكى حمزة وقال: بأبي أنت وأمي أرشدني وفهّمني فقال: يا حمزة تشهد أن لا إله إلّا الله مخلصاً وأنّي رسول الله تعالى ... وأنّ علياً أمير المؤمنين... الأئمة من ذريته الحسن والحسين، وفي ذريته ... فاطمة سيدة نساء العالمين ... وأنّ محمّداً وآله خير البريّة تؤمن يا حمزة بسرّهم وعلانيتهم وظاهرهم وباطنهم تحيى على ذلك وتموت[١].

وروى في الكافي عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قال: تقول إذا أصبحت: أصبحت بالله مؤمناً على دين محمد وسنته ودين علي وسنته ودين الأوصياء وسنتهم آمنت بسرّهم وعلانيتهم وشاهدهم وغائبهم ...[٢].

وفي التهذيب أيضاً: آمنت بسرّهم وعلانيتهم[٣].

وغيرها من الموارد العديدة التي يجدها المتتبّع، المتضمّنة للتأكيد الشديد على أنّ من شروط الإيمان هو الإيمان بسرّهم على حذو لزوم الإيمان بعلانيتهم، وكذا لزوم الإيمان بباطنهم على درجة لزوم الإيمان بظاهرهم. فلا يكفي الإيمان بأنّ محمداً رسول الله بل من الإيمان أيضاً بباطن ذلك وسرّه وما يتضمّنه ذلك من الأعماق والأغوار الّتي لا تدركها عقول البشر؛ وكذلك الحال في أنّ علياً أمير المؤمنين وإمامة الأئمة الاثني عشر وكون فاطمة سيّدة النساء، فإنّ لحقيقة ذلك باطناً وعمقاً لابد من الإيمان به إجمالاً؛ بل باطنه وسرّه على درجات كحبل ممدود من عند الله إلى ما هو ظاهر بين أيدي الناس.

ومن ثم ورد توصيفهم صلوات الله عليهم بحبل الله المتين أي ذوو درجات ومقامات تتصاعد إلى قرب العنديّة للحضرة الإلهيّة.

---

١. بحار الأنوار ٢٢ / ٢٧٨ عن كتاب اللهوف للسيد ابن طاووس نقلاً من كتاب الوصيّة لعيسى بن المستفاد.
٢. الكافي ٢ / ٥٢٣.
٣. تهذيب الاحكام ٣ / ١٤.

ففي مصحّح جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أمرنا سر في سر وسر مستسر وسر لا يفيد [لا نعيد] إلّا سر وسر على سر وسر مقنّع بسرّ[١].

وروى ابن محبوب عن مرازم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ أمرنا هو الحق وحق الحق وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بسرّ[٢].

١. بصائر الدرجات / ٤٨ ومختصر بصائر الدرجات / ١٢٦ .
٢. مختصر البصائر / ١٢٧، وبصائر الدرجات / ٤٩ .

□ إثارات حول الغلوّ

النقطة الأولى:

كيف يوفّق بين حيويّة الاختيار ومسؤولية التكليف والتي تقوم على العمل وإمكان التغيير، وبين حتميّة القضاء والقدر وما في اللوح المحفوظ إذا اطلع عليه المعصوم عليه السلام سواء على الصعيد الفردي أو على صعيد المسؤولية السياسي والاجتماعي والإصلاح.

والجواب أن حتميتهما على وفق صدور الأفعال عن اختيار وقدرة وعلم لا إلجاء وإرغام؛ هذا مضافاً إلى عموم البداء الأعظم وهيمنته على لوح القضاء والقدر.

النقطة الثانية:

أنّ القول باطّلاعهم على التدبير الغيبي والقضاء والقدر يعني اشتراط هذه الأوصاف في الحاكم وبالتالي تجميد وسدّ الطريق أمام إقامة الحكومة والحكم الإسلامي لتصوير أنّ الحكومة الإلهيّة العادلة ممتنعة على غير المعصوم عليه السلام .

والجواب أنّ الدولة الإلهية ممتنعة إدارتها على غير خليفة الله في الأرض لكن ذلك لا يستلزم القيام بأدوار مقطعية في بقاع من المسؤولية مناصرة لمنهاج الهدى ومؤازرة للأئمة المعصومين عليهم السلام.

النقطة الثالثة:

إنّ الغلاة يرهنون ويعلّقون التسليم والطاعة للمعصومين عليهم السلام باتّصاف المعصومين عليهم السلام وواجديتهم للصفات العليا الملكوتية، وهذا استكبار على أمر الله وولايته بطاعة المعصومين عليهم السلام نظير إباء أقوام الأنبياء الذين جحدوا نبوّاتهم وعلّقوا الطاعة والتسليم على كون الأنبياء ملائكة أو على وجود صفات غيبيّة لابدّ أن يطّلع أولئك الأقوام على وجودها فيهم كما حصل من استكبار إبليس على آدم وقد بيّنها الإمام عليه السلام في الخطبة القاصعة.

وبعبارة أخرى هناك جدلية: هل المعرفة التفصيلية توجب تسليماً وإيماناً أكبر، أم أنّ التسليم الحاصل من المعرفة الإجمالية والإقرار بالعجز هو أعظم إيماناً وكمالاً أو الجمع بينهما «قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا»[1]، والضابطة أن التسليم الإجمالي المبني على المعرفة الإجمالية لابد أن تستمر على الدوام إقراراً بالعجز عن الإحاطة بالكنه ولكن ازدياد العلم التفصيلي يؤكد متانة المعرفة الإجمالية.

النقطة الرابعة:

إنّ هناك إثارة حول أنّ الغلو والتركيز على الجانب الغيبي للمعصومين يسلب كونهم قدوة.

وفيه أنّ كونهم عليهم السلام ذوي جنبتين بشرية عادية وغيبية ملكوتية يجعل منهم نموذجاً ونبراساً في كيفية ترقي الجانب البشري إلى درجات ومقامات عليا وما هو المسير إلى ذلك، فيظل الجانب العلوي منهم جذاباً والجانب الداني منهم يفتح الأمل بإمكان الترقي والتكامل.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا من شهد بالحق

---

١. الاحتجاج: ٢/ ٢٣٣.

وهم يعلمون﴾[١] دال على أنه لاتنال المقامات العالية إلّا بالتسليم بالحق عن معرفة و علم.

١. الزخرف / ٨٦.



مدارس الرواة و تنوعهم في فقه المعارف

□ تنوّع المدرسة القمّية

مشيخة القميين ورؤساء محدّثيهم فريقان

فقد اشتهر أنّ القميين من أصحابنا كانوا متشدّدين في رفض روايات المعارف الغامضة ذات الطابع الدقيق في الأسرار كأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي ومحمد بن الحسن بن الوليد؛ وقد قال الشيخ المفيد في شرح اعتقادات الصدوق:

«فأمّا نصّ أبي جعفر ﷺ بالغلو على من نسب مشايخ القميين وعلمائهم إلى التقصير فليس نسبة هؤلاء القوم إلى التقصير علامة على غلوّ الناس إذ في جملة المشار إليهم بالشيخوخة والعلم من كان مقصّراً وإنّما يجب الحكم بالغلو على من نسب إلى التقصير سواء كانوا من أهل قم أم غيرها من البلاد وسائر الناس.

وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن الوليد ﷺ لم نجد لها دافعاً في التقصير وهي ما حكي عنه أنّه قال: أوّل درجة في الغلوّ نفي السهو عن النبي ﷺ والإمام ﷺ، فإن صحّت هذه الحكاية عنه فهو مقصّر مع أنّه من علماء القميين ومشيختهم.

وقد وجدنا جماعة وردوا إلينا من قم يقصّرون تقصيراً ظاهراً في الدين وينزلون الأئمة ﷺ عن مراتبهم ويزعمون أنّهم كانوا لا يعرفون كثيراً من الأحكام الدينية حتّى ينكت في قلوبهم ورأيت من يقول إنّهم كانوا يلجأون في حكم

الشريعة إلى الرأي والظنون ويدّعون مع ذلك أنّهم من العلماء وهذا هو التقصير الذي لا شبهة فيه»[١].

إلّا أنّ الذي نجده بالتتبّع أنّ هناك فريقاً آخر من كبار القميين وأعاظمهم قد حرصوا على جمع روايات المعارف الغامضة ذات الأسرار الدقيقة، نظير سعد بن عبد الله الأشعري في كتاب بصائر الدرجات والذي اختصره حسن بن يحيى الحلّي في مختصر بصائر الدرجات، وكذلك محمد بن الحسن بن الفروخ الصفّار في كتاب بصائر الدرجات، وأحمد بن إسحاق القمي حيث روى كتاب الحسن بن العباس بن الحريش في شأن ﴿إنّا أنزلناه ...﴾ ومحمّد بن عبد الله الجعفري. وكذلك علي بن محمد بن علي الخزاز القمي صاحب كتاب كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، وكذلك جعفر بن محمد بن قولويه صاحب كتاب كامل الزيارات والذي ضمّنه لطائف عالية من المعارف والبصائر، وعلي بن إبراهيم بن هاشم صاحب التفسير وكذا محمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي صاحب كتاب النوادر وأحمد بن محمد بن خالد البرقي صاحب كتاب المحاسن، وغيرهم؛ فإنّهم قد رووا في الفضائل من أسرار المعارف وغوامضها الدقيقة وكذا رووا كتباً لكثير من الرواة ممن يتمحّض في هذا المجال.

ولولا رواية هذا التيار القمي من الرواة لها لضاعت عن الوصول إلينا، وملاحظة هذه الظاهرة في المدرسة القمية ضرورة في إعطاء صورة واضحة عن معالم مذهب أهل البيت عليهم السلام في زمن الأئمة عليهم السلام وعصر الرواة المعاصرين لهم، وتبيين وتوضيح لما هو مرتكز من ثوابت المذهب والمنهاج لهم عليهم السلام، وأنّ التيار الآخر القمي وتيار المدرسة الكلامية أو التيار الفقهي للرواة المتمحض في فقه الفروع لا يستحوذ على التمثيل المطلق لسيرة أتباع وأصحاب أهل البيت عليهم السلام كما

---

١. تصحيح الاعتقاد / ١٣٥ ـ ١٣٦.

أن موقف هؤلاء لا يشكل تسالماً قاطباً شمولياً لعلماء المذهب، وأنه لابد من دراسة أطياف مدارس الرواة وتياراتهم المتنوّعة كي تتضح الأبعاد المختلفة للشخصية العلمية لأئمة أهل البيت عليهم السلام وأنهم ذوو زوايا عديدة من العلوم وأنواع المعرفة. وكم دراسة دونت من باحثين شطّ بهم البحث للعكوف على مدرسة معينة من الرواة وتصوير أنهم يمثلون تمام معالم أهل البيت عليهم السلام آنذاك. وعلى هذا يتم التقييم لكثير من المباني التي بنى عليها النجاشي والكشي في التضعيف والجرح.

□ نضج المعارف بنحو العمق العالي عند ثلّة من الرواة من أصحاب الأئمّة في القرون الثلاثة الأولى

قد عُرف عند غير واحد من الأكابر أنّ المعارف في مقامات النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام في هذه القرون قد تبلورت واتّضحت بنحوٍ تفصيلي، وقد تبدّهت كثير من الحقائق مما كانت خفيّة على الرواة وأصحاب الأئمة عليهم السلام وطبقات الشيعة في الصدر الأول. وقد توهّم من هذه المقولة جملة من الخصوم أو ممّن هم من المقصّرة في معارف أهل البيت عليهم السلام أنّ مثل هذه الحقائق الاعتقادية في شأن أهل البيت عليهم السلام وليدة هذه القرون المتأخّرة، وأنّ معالم نظام هذه المعارف لم يكن بهذا الشكل في الأزمان الأولى.

ولكنّ هذه المقالة إن صحّت على تقدير فهي خاطئة من تقدير آخر، أي أنّها تصحّ بلحاظ أكثر الرواة والجملة الوافرة من أتباع أهل البيت عليهم السلام ولا تصحّ عند ثلّة الرواة الأخرى ممّن عرفوا بروايات المعارف وقد طعن عليهم الفريق الأول بالغلوّ والارتفاع والطيّارة، بل ربما وصفهم بفساد المذهب ورموهم بضعف الحديث وأنّهم يأتون بالمناكير أو المخلّطون إلى غير ذلك من التعابير التي يشاهدها المتتبّع مشحونة في كتب الرجال والحديث من الفريق الأول من الرواة أو الرجاليين تجاه الفريق الثاني، مع أنّ الذي يرويه الفريق الثاني هو من أسرار المعارف. فوجود هذه القائمة الكبيرة جداً من تعداد الرواة المطعون عليهم بالغلوّ والارتفاع والطيارة

وعبر طبقات متقادمة في الرواة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أو الحسنين عليهما السلام فضلاً عن عهد زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام فضلاً عن الأئمة اللاحقين عليهم السلام، شاهد على انتشار البحث المعرفي حول دقائق الأسرار ولطائف البصائر منذ ذلك الزمن.

فوجود ظاهرة الغلاة والغلوّ ولو كالطعن الصادر من المخالفين ومن وسط الرواة ذوي الطابع الكلامي الفقهي ـ منذ تلك الأزمنة ـ شاهد على أن مستوى البحث المعرفي العقائدي لم يكن سطحياً كما يتصوّر، وأن العمق حادث في القرن الثالث أو الرابع والخامس.

كما أنّ وجود ثلة من الحواري لأمير المؤمنين عليه السلام ممن أعطوا علم المنايا والبلايا وغيرها من علوم غرائب القدرة كميثم التمار ورشيد الهجري وأمثالهم كجابر بن يزيد الجعفي والمفضل بن عمر الجعفي ومحمد بن سنان وكثير من غيرهم في تلك الطبقات هو الشاهد الثالث على علوّ مستوى البحث المعرفي والعقائدي في زمن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

والشاهد الرابع: أنّا قد ذكرنا في طابع المدرسة القمية أنّ هناك تيار كبير أصيل، من أصحاب الجواد عليه السلام والعسكريين قد كانوا يدمنون رواية المعارف العالية ودقائقها ورعاية نقل كتبها.

والشاهد الخامس: ما يلاحظ ممّا رواه الفريقان من ظواهر تعامل المسلمين والمؤمنين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام مما تعكس عمق في المعرفة في الجملة بمقاماتهم الملكوتيّة؛ نظير ازدحام الناس على التبرك بفضل وضوء رسول الله، حتى الشافعي حكم بطهارة بول ودم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما حكاه العلامة في التذكرة، لأنّ بعض المسلمين ممّن عاصروا رسول الله أقدموا على شربهما[1] فقد روى الحاكم

١. تذكرة الفقهاء ١ / ٤٩ و ٥٧، وراجع: فتح العزيز ١ / ١٧٨ ـ ١٧٩، والوجيز ١ / ٧.

النيسابوري في مستدركه أن أم أيمن شربته[١] وأن أبا ظبية الحجام شرب دم النبي[٢].

وليتنبّه القارىء أنا لسنا في صدد بيان حكم هذه الأشياء؛ وإنما في صدد بيان مدى الإرهاصات التي كان يشاهدها من يتعايش مع النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بحيث كانت تدفعهم إلى مثل هذه الأفعال.

وكذا ما رواه ابن شهرآشوب والكشي وغيرهما من أن جماعة عندما شاهدوا بعض الآيات التي جرت على يد عليّ عليه السلام قالوا بتأليهه[٣].

وقد حكي عن بعض أصحاب الحسين حينما رؤي منه استماتة في الفداء وعدم الاكتراث بأهوال في واقعة كربلاء قيل له: أجننت؟[٤].

وكذا ما روي من انفراج المسلمين عند الكعبة سماطين في أوج ازدحام الحج للإمام علي بن الحسين عليه السلام ولم يفرجوا لهشام بن عبد الملك رغم مجيئه مع جلاوزته وأزلامه فظل ينتظر، فسألوه عن هذا الرجل الذي أفرج له الناس فانبرى الفرزدق بقصيدته العصماء المعروفة والتي تضمّنت مثل قوله:

هذا ابن فاطمة الغراء نسبته ... في جنّة الخلد يجري باسمه قلم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم[٥]

---

١. مستدرك الحاكم ٤ / ٦٣.

٢. تلخيص التحبير ١ / ١٧٩.

٣. رجال الكشي / رقم ١٣٨ و ٥٥٦، مناقب آل أبي طالب ١ / ٢٢٧.

٤. بحار الأنوار ٤٥ / ٣٥٨.

٥. الاختصاص / ١٩١، مناقب ابن شهرآشوب ٣ / ٣٠٧.

إلى غير ذلك من عشرات بل مئات الموارد التي يقف عليها المتتبّع من أحوال وسيرة الناس معهم، ممّا تعكس وجود ارهاصات غيبيّة وآيات إعجازيّة تنمّ وتعكس عن مقامات غيبيّة للنبي وأهل بيته عليهم السلام استشفّها الناس وعاينوها ولمسوها، وإن أدّت بعض الحالات إلى الغلو والانحراف، إلّا أنّ ذلك لم يكن من فراغ بل لما شاهدوه من أشعة الملكوت المنيرة من النبي وأهل بيته عليهم السلام، كما هو الحال في غلوّ النصارى في عيسى، فإنّ الغلو وإن كان انحرافاً إلّا أن منشأه ما شاهدوه من ولادة النبي عيسى من غير أب وإحيائه الموتى وشفائه للأعمى والأكمه والأبرص ومن كونه مباركاً أينما كان.

وهذا يفنّد ما يدّعى ويقال إنّ هذه المعارف العميقة في مقامات أهل البيت عليهم السلام إنما تبلورت في القرون اللاحقة المتأخّرة من الغيبة الكبرى ولم تكن في مذهب أهل البيت في زمن المعصومين عليهم السلام. فإنّ المتتبّع كما ذكرنا لو توسّع في البحث والاستقصاء لشاهد العجائب والغرائب مما يفوق ما عليه الآن من المعرفة والنظرة تجاه مقامات أهل البيت عليهم السلام. فلاحظ ما كتبه المزّي ـ وهو من علماء أهل السنة وكان صديقاً حميماً لابن تيميّة ومعاصراً للذهبي ـ في تهذيب الكمال في ترجمة الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام من إرهاصات ومعجزات وكمالات تفوق البشر بأسانيد متّصلة عنده. وكذا ما رواه ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين وبقية الأئمة بأسانيد متّصلة وكذا غيرهم من أرباب التراجم من علماء أهل السنة.

□ وجود التنافر بين تيارات الرواة في المعارف

١ ـ روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن السري بن الربيع قال: لم يكن ابن أبي عمير يعدل بهشام بن الحكم شيئاً وكان لا يغبّ إتيانه ثم انقطع عنه وخالفه وكان سبب ذلك أن أبا مالك الحضرمي كان أحد رجال هشام ووقع بينه وبين ابن أبي عمير ملاحاة في شيء من الإمامة. قال ابن أبي عمير: الدنيا كلّها للإمام عليه‌السلام على جهة الملك وأنه أولى بها من الذين هي في أيديهم، وقال أبو مالك: ليس كذلك، أملاك الناس لهم إلّا ما حكم الله به للإمام من الفيء والخمس والمغنم فذلك له. وذلك أيضاً قد بين الله للإمام أين يضعه وكيف يصنع به فتراضيا بهشام بن الحكم وصار إليه، فحكم هشام لأبي مالك على ابن أبي عمير، فغضب ابن أبي عمير وهجر هشاماً بعد ذلك[1].

وهذا المشهد يشير إلى اختلاف المشرب الكلامي عند الرواة المتمثّل في هشام بن الحكم والمشرب الحديثي الذوقي الإشاري المتمثّل في ابن أبي عمير.

وفي هذه المشادّة يتبيّن غموض لطائف المعاني على أصحاب المنهج الكلامي والمنهج الفقهي بخلاف ذوي المنهج الإشاري الحديثي فإنّهم يصطادون اللطائف والدقائق ويقتدرون على التوفيق الفقهي لأدقّ وأصعب المسائل.

١. الكافي ١ / ٤١٠، باب أن الأرض كلها للإمام.

فإنّ ملكيّة الإمام للأرض هنا ليس على حذو الملكيّة الشخصيّة وأحكامها وآثارها، بل المراد ما هو أعظم وأشد ملكيّة وهو ملك التدبير والتصرّف المعبّر عنه بالولاية، ولا ريب أنّ الأرض كلّها تحت ولاية وتدبير وقيادة الإمام، إذ هو خليفة الله في الأرض ومن ثم كان النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وكذلك خلفاؤه وأوصياؤه من بعده فلا تقاطع الملكيّة الشخصية.

٢ ـ وروى الكشي بسنده عن جعفر بن محمد بن حكيم الخثعمي قال: اجتمع هشام بن سالم وهشام بن الحكم وجميل بن درّاج وعبد الرحمن بن الحجّاج ومحمد بن حمران وسعيد بن غزوان ونحو من خمسة عشر رجلاً من أصحابنا، فسألوا هشام بن الحكم أن يناظر هشام بن سالم فيما اختلفوا فيه من التوحيد وصفة الله عزوجل وغير ذلك لينظروا أيّهما أقوى حجة فرضي هشام بن سالم أن يتكلّم عنه [عند] محمد بن أبي عمير ورضي هشام بن الحكم أن يتكلّم عنه [عند] محمد بن هشام، فتكالما وساق ما جرى بينهما وقال: قال عبد الرحمن بن الحجّاج لهشام بن الحكم: كفرت والله بالله العظيم وألحدت فيه، ويحك ما قدرت أن تشبه بكلام ربّك إلّا العود يضرب به! قال جعفر بن محمد بن حكيم: فكتب إلى أبي الحسن موسى عليه السلام يحكي له مخاطبتهم وكلامهم ويسأله أن يعلّمه القول الذي ينبغي تدين الله به من صفة الجبّار؟ فأجابه في عرض كتابه:

«فهمت رحمك الله، رحمك الله إنّ الله أجل وأعلى وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه وكفّوا عما سوى ذلك»[1].

وهذا المجلس ونحوه من الندوات العلميّة تعكس مدى تنوّع وتعدّد مشارب المعرفة لدى ا لرواة بل تنوّع المدارس الكلامية في نفسها فضلاً عن الفروق بينهما ورواة اللطائف والإشارات في العقائد والمعرفة.

---

١. رجال الكشي / رقم ٥٠٠.

والجدير بالذكر أنّ هشام بن سالم والذي تلمّذ عليه ابن أبي عمير أيضاً كان ذا مشرب يعتمد التحليل والتذوّق لغوامض المعاني يغاير مسلك هشام بن الحكم الذي كان ذا عارضة كلاميّة قويّة وذا باع جدلي متمرّس.

٣ـ محمد بن الحسن البراني وعثمان قالا حدثنا محمد بن يزداد عن محمد بن الحسين عن الحجّال عن أبي مالك الحضرمي عن أبي العباس بقباق، قال: تدارء ابن أبي يعفور ومعلّى بن خنيس فقال ابن أبي يعفور: الأوصياء علماء أبرار أتقياء، وقال ابن خنيس: الأوصياء أنبياء. قال: فدخل على أبي عبد الله ﷺ قال: فلمّا استقرّ مجلسهما، قال: فبدأهما أبو عبد الله ﷺ، فقال: يا عبد الله ابرأ ممّن قال أنّا أنبياء[1].

والحديث يبيّن صعوبة فهم المسائل المعرفية وغموضها حتى على الفضلاء من الرواة ممن لهم اهتمام في رواية المعارف.

---

١. رجال الكشي / ٣٢١ / ح ٤٥٦ .

□ رواة المعارف ورواة الفروع

١ ـ روى الصفار في البصائر بسند صحيح أعلائي قطعي الصدور عن محمد ابن مسلم قال: دخلت عليه بعدما قتل أبو الخطاب قال: فذكرت له ما كان يروي من أحاديثه (ويرتكب) تلك العظام قبل أن يحدث ما أحدث، فقال: بحسبك والله يا محمد أن تقول فينا يعلمون الحرام والحلال وعلم القرآن وفصل ما بين الناس.

فلما أردت أن أقوم أخذ بثوبي فقال: يا محمد وأيّ شيء الحلال والحرام في جنب العلم؟ إنّما الحلال والحرام في شيء يسير من القرآن[1].

وهذا الحديث يبيّن مدى أهمّية أبواب العقائد على أبواب فروع الفقه، وأنّ كلّاً من العلمين وإن كان من أجزاء الدين الحنيفي العظيم كما جاء في التوصية النبوية: «العلم ثلاثة: آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة، وما سواهن فضل» إلّا أنّه ﷺ ابتدأ أوّلاً بتصدير العقائد وهي الآية المحكمة، ثم السنّة القائمة وهي علوم الأخلاق وتهذيب النفس والآداب، ثم الفريضة العادلة وهي فقه الفروع وإن فسّرت بمسائل الإرث، إلّا أنّ أهمية المعارف والعقائد أهمية لا يقاس بها فقه الفروع.

وقد استنبط غير واحد من المحققين من هذا الحديث النبوي أنّ الاستقامة

---

١. بصائر الدرجات ١ / ٣٨٧ ح ٧٣٠.

في المعرفة الدينية لا تستتمّ إلّا بهذه العلوم الثلاثة، فلو اقتصر على أحدها دون الآخرين لسبّب إخفاقاً، وهو استظهار متين، إلّا أنّ ذلك لا يعني عدم المفاضلة بين هذه العلوم وشدّة درجة علوم المعارف، كما أنّ المفاضلة لا تعني الاقتصار على ما هو أفضل وترك المفضول بعد ضرورة كلّ منها ووجوبه، فلا إفراط ولا تفريط، إلّا أنّ الكلام في صدد بيان أهمية علوم العقائد والمعارف وأنّ رواة المعارف ذوو درجة عالية من المكانة والمقام وإن كان ذلك لا يستلزم الحطّ من رواة الفقه والآداب والسنن. وأنه كما وردت مدائح عظيمة في مثل زرارة ومحمد بن مسلم وبريد وأبي بصير فقد وردت مدائح عظيمة في مثل جابر بن يزيد وسلمان وأبي ذر والمقداد والمفضّل ومحمد بن سنان.

والحاصل: أنّه لابدّ من إقعاد قواعد رصينة متينة في مباني الرجال مستندة إلى أصول المعارف غير مقتصرة على ما عند أرباب الجرح والتعديل من الاقتصار على قواعد فقهية في الفروع فقط أو قواعد كلامية جدلية، وهذا ما يبيّن بإلحاح ضرورة مواصلة الدراسات في تراث المعارف من أبواب وزوايا عديدة ومن أهمّ تلك الأبواب دراسة أبواب رواة المعارف ومدارسهم ومشاربهم.

ومع ذلك ترى النجاشي يقول في مقام الطعن على جابر بن يزيد الجعفي: «وكان في نفسه مختلطاً ... وقلّما يورد عنه شيء في الحلال والحرام».

قال الميرزا النوري تعليقاً على كلام النجاشي: «قد كان جملة من المسائل المتعلّقة بالمعارف عند جماعة من أعاظم هذا العصر من المناكير التي يضلّلون معتقدها وينسبونه إلى الاختلاط، كوجود عالم الذرّ والأظلّة عند الشيخ المفيد، وطيّ الأرض عند علم الهدى، ووجود الجنّة والنار الآن عند أخيه الرضي، وأمثال ذلك ممّا يتعلّق بمقاماتهم عليهم السلام وغيره، مع تواتر الأخبار وصيرورتها كالضروريات في هذه الأعصار. وظاهر أنّ من يرى الذي يروي خلاف ما اعتقده ينسبه إلى الاختلاط بل الزندقة، ومن سبر روايات جابر في هذه الموارد وغيرها يعرف أنّ

نسبة الاختلاط إليه اعتراف له ببلوغه المقامات العالية والذروة السامية من المعارف».

وقال في معرض ردّه أيضاً بعد ما بيّن كثرة روايات جابر في الحلال والحرام: «ومع الغضّ نقول ليس هذا وهناً فيه، فإنّ القائمين بجمع الأحكام في عصره كان أكثر من أن يحصى، فلعلّه رأى أن جمع غيرها مما يتعلّق بالدين كالمعارف والفضائل والمعاجز والأخلاف والساعة الصغرى والكبرى أهمّ ونشرها ألزم، فكلّها من معالم الدين وشعب شريعة خاتم النبيين كما أنّ قلّة ما ورد من زرارة وأضرابه في هذه المقامات لا تورث وهناً فيهم ولكلّ وجهة هو مولّيها»[1].

٢ ـ وممّا يشير إلى تنوّع اختصاص الرواة وتخصّص بعضهم بأحكام الفروع بخلاف بعض آخر، ما ورد من الروايات في مدح زرارة وأبي بصير ومحمد بن مسلم وبريد من تخصيص باعهم العلمي بالحلال والحرام، ففي صحيح سليمان ابن خالد الأقطع قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ما أحد أحيى ذكرنا وأحاديث أبي إلّا زرارة وأبو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما استنبط أحد هذا. هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة[2].

وهذه الرواية دالّة بوضوح على أنّ التخليط في المعارف والزيغ فيها لا يعالج إلّا بالاستقامة على وفق مقتضى ظاهر الشريعة، وهو الذي يؤمنه فقه الفروع. ومن ثمّ كان أصحاب أبي الخطاب أشدّ عداوة مع هؤلاء الأربعة من الرواة الآخرين من أصحاب المعارف.

٣ ـ ويعكس هذه الظاهرة أيضاً ما في مصحّحة مفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يوماً ودخل عليه الفيض بن المختار فذكر له آية من كتاب الله

---

١. خاتمة المستدرك ٤ / ٢١٨ ـ ٢١٩.

٢. رجال الكشي / ح ٢١٩.

عزوجل تأوّلها أبو عبد الله عليه السلام فقال له الفيض: جعلني الله فداك، ما هذا الاختلاف الذي بين شيعتكم قال: وأيّ الاختلاف يا فيض؟ فقال له الفيض: إنّي لأجلس في حلقهم بالكوفة فأكاد أن أشكّ في اختلافهم في حديثهم حتّى أرجع إلى المفضل ابن عمر فيوقفوني من ذلك على ما تستريح إليه نفسي ويطمئن إليه قلبي فقال أبو عبد الله عليه السلام: أجل هو كما ذكرت يا فيض إنّ الناس أولعوا بالكذب علينا ـ إلى أن قال عليه السلام: ـ فإذا أردت بحديثنا فعليك بهذا الجالس وأومأ إلى رجل من أصحابه فسألت أصحابه عنه فقالوا: زرارة بن أعين[1].

فإنّ هذا الحديث أيضاً يشير بوضوح إلى أنّ الراوي لما أشكل عليه اختلاف الحديث حتى أدّى به ذلك إلى الشك ـ مما يدلّ على توسط بصيرته ومعرفته ـ لم يرجعه الإمام إلى المفضل بن عمر وإنّما أرجعه إلى زرارة حيث إنّه بالتمسك بواضح الأحكام وظاهر الشريعة من الحلال والحرام يؤمن من التحيّر والوقوع في الزيغ والانحراف.

٤ ـ ومما يعكس أيضاً اختلاف رواة الفروع عن رواة المعارف ما رواه علي ابن أسباط قال: أخبرني عبيد الله بن راشد، عن عبيدة بن زرارة قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وعنده البقباق ـ يعني أبا العباس ـ فقلت له: رجل أحبَّ بني أميّة أهو معهم؟ فقال لي: نعم، قال: قلت: فرجل أحبّكم أهو معكم؟ قال: فقال لي: نعم، قال: قلت: وإن زنى وإن سرق؟ فالتفت إلى البقباق فوجد منه غفلة، فقال برأسه: نعم[2].

ويلاحظ أنّ الفضل بن عبد الملك أبا العباس البقباق رغم جلالته ووثاقته ـ وقد عدّه الشيخ المفيد من الفقهاء الأعلام والمأخوذ منهم الحلال والحرام ـ إلّا أنّه لم يتمرّس في المعارف ولم يجمع بين الفقاهة وعلوّ المعارف العقائديّة كعبيد بن

---

١. رجال الكشي / ح ٢١٦.
٢. الأصول الستة عشر ـ كتاب نوادر علي بن أسباط / ٣٤٤ / ح ٥٧٤.

زرارة الذي كان له حظٌّ من ذلك، فمن ثم كان الإمام يتحاشى اطلاعه على لطائف المسائل المعرفيّة.

ولا يتوهّم من هذا الحديث أنّ المؤمن إذا ارتكب المعاصي لا يبتلى بما يمحّصه ويطهّره من الذنوب من الابتلاءات والعقوبات. وقد أوضح ذلك في مكاتبة الصادق للمفضل بن عمر التي ستأتي في هذا الجزء ببسط وتفصيل فلاحظ.

رواة المعارف أقوى في بحوثها من رواة الفروع

من الأمور التي يتميز بها رواة المعارف الذين يختصّون برواية لطائف المعارف والإشارات فيها عن أهل البيت عليهم السلام أنّ تمرّسهم وغورهم في أعماق المسائل العقائدية أكفأ بكثير من رواة الفروع ومن متكلّمي الرواة، حيث إنّ نجوم متكلّمي الرواة هم أنفسهم نجوم رواة الفقه من الحلال والحرام.

ومن الشواهد على ذلك ما يلاحظ من الحواريّات والنقاشات الدائرة بين تيّار البترية[1] وكلّ من رواة المعارف ورواة الفروع، حيث يرى أنّ رواة المعارف بسبب تضلّعهم وتبحّرهم في هذا المجال لا يقوى البترية على مجابهتهم ومواجهتهم بل يضعفون وينتكسون أمامهم، ومن ثم يستفزّ البترية مقالات وروايات أصحاب المعارف كما سنتعرّض إلى جملة من النماذج.

وعلى عكس ذلك يلاحظ في النقاش الدائر بين تيّار البترية ورواة الفقه والكلام فإنّه قد يلاحظ من رواة الفقه التوقّف والانقطاع أمام إثارات البترية وعدم القدرة على الجواب حتى يلجئهم الحال إلى استعلام الجواب التفصيلي وتقديم السؤال على الأئمة عليهم السلام .

---

١. سيأتي في هذا الجزء نبذة من أحوال البترية تلك الجماعة المخلّطة الذين خلطوا ولاية أهل البيت عليهم السلام مع ولاية الخلفاء الغاصبين، ولا يتحمّلون كثيراً من مقامات أهل البيت عليهم السلام.

فمن نماذج **النمط الأوّل** ما يظهر من موقف جابر الجعفي الذي هو من كبار رواة المعارف والمختصين بلطائف الأسرار ـ وقد مضت ترجمته في الجزء السابق ـ ومغيرة بن سعيد وأبا الخطّاب مع روّاد البترية، كأمثال سفيان الثوري وابن عيينة وكثير النواء.

نظير ما رواه الكشي عن الحميدي قال: سمعت ابن أكثم الخراساني قال لسفيان: أرأيت يا أبا محمد الذين عابوا على جابر الجعفي قوله: حدثني وصيّ الأوصياء؟ فقال سفيان: هذا أهونه[١].

فإنّه ظاهر بيّن من مفاد هذه الرواية أنّ مقالات جابر ورواياته تصعب على روّاد البترية سماعها أو الحديث عنها وأنّها كانت تستفزّهم.

وكذا ما رواه ابن عدي في الكامل بسنده عن شهاب قال: سمعت ابن عيينة يقول: تركت جابر الجعفي وما سمعت منه، قال: «دعا رسول الله ﷺ علياً يعلّمه ما يعلمه ثم دعا علي الحسن فعلّمه ما يعلم ثم دعا الحسن الحسين فعلّمه ما يعلم حتى بلغ جعفر بن محمد» قال: فتركته لذلك ولم أسمع منه.

وروى أيضاً عن الحميدي يقول: سمعت سفيان الثوري يقول: سمعت جابر الجعفي يقول: انتقل العلم الذي كان في النبي ﷺ إلى علي ثم انتقل من علي إلى الحسين بن علي ثم لم يزل حتى بلغ جعفر بن محمد قال: وقد رأيت جعفر بن محمد[٢].

ومن هاتين الروايتين يظهر أنّ مقالة رواة أسرار المعارف كانت هي الشغل الشاغل المثيرة لدى البترية وأنّ روّاد الحاملين لراية أهل البيت عليهم السلام في الرواة هم ذلك الفريق الذين يختصّون برواية لطائف المعارف وغورها.

وكذا ما رواه القطب الراوندي عن جابر قال: كنّا عند الباقر عليه السلام نحواً من

---

١. رجال الكشي رقم ٣١٦، والكافي ١ / ٣٩٦.

٢. الكامل في ضعفاء الرجال ٢ / ١١٥، وقد رواه الذهبي في ميزان الاعتدال: ١/٣٨١.

خمسين رجلاً إذ دخل عليه كثير النوّاء فسلّم وجلس ثم قال: إنّ المغيرة بن عمران عندنا بالكوفة يزعم أنّ معك ملكاً يعرّفك الكافر من المؤمن وشيعتك من أعدائك.

قال: ما حرفتك؟ قال: أبيع الحنطة، قال: كذبت، قال: وربما أبيع الشعير قال: ليس كما قلت، بل تبيع النوى، قال: من أخبرك بهذا؟ قال: الملك الذي يعرّفني شيعتي من عدوّي، لست تموت إلّا تائهاً.

قال جابر الجعفي: فلما انصرفنا إلى الكوفة ذهبت في جماعة نسأل عن كثير فدللنا على عجوز فقالت: مات تائهاً منذ ثلاثة أيام[1].

وفي هذا الحديث دلالة على عدم تحمّل كثير النواء الذي كان من البترية مقالة ورواية المغيرة فمن ثمّ كانت مقالته تهيج روّاد البترية ككثير النواء.

كما يظهر من هذه الرواية أنّ نمط المعارف التي كان يرويها هي من تحف ونفائس بحوث ومسائل المعارف.

وكذا ما رواه ابن أبي الحديد عن كثير النواء قال: قلت لأبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام: جعلني الله فداك أرأيت أبا بكر وعمر هل ظلماكم من حقّكم شيئاً ـ أو قال: ذهبا من حقّكم شيء ـ فقال: لا والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ما ظُلمنا من حقّنا مثقال حبّة من خردل قلت: جعلت فداك أفأتولاهما؟ قال: نعم ويحك تولّهما في الدنيا والآخرة وما أصابك ففي عنقي ثم قال: فعل الله بالمغيرة وبنان فإنّهما كذبا علينا أهل البيت[2].

وكذا ما رواه في الخرائج والجرائح عن داود بن كثير الرقي قال: كنت عند الصادق عليه السلام أنا وأبو الخطاب والمفضّل وأبو عبد الله البلخي إذ دخل علينا كثير النواء فقال: إنّ أبا الخطاب هذا يشتم أبا بكر وعمر ويظهر البراءة منهما.

---

١. الخرائج والجرائح ١ / ٢٧٦.

٢. شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٢٠.

فالتفت الصادق عليه السلام إلى أبي الخطاب وقال: يا محمد ما تقول؟ قال: كذب والله ما سمع منّي قطّ شتمهما، فقال الصادق: قد حلف ولا يحلف كاذباً. فقال: صدق لم أسمع أنا منه ولكن حدّثني الثقة به عنه، قال الصادق عليه السلام: وإن الثقة لا يبلّغ ذلك. فلمّا خرج كثير قال الصادق عليه السلام: أما والله لئن كان أبو الخطاب ذكر ما قال كثير لقد علم من أمرهما ما لم يعلمه كثير والله لقد جلسا مجلس أمير المؤمنين عليه السلام غصباً فلا غفر الله لهما ولا عفا عنهما ...[1].

ويظهر من هاتين الروايتين أنّ البترية كانوا يتحسّسون بشدّة من التبرّي عن الشيخين الذي كان يجاهر به جملة من رواة المعارف، ويتثارون بتلجلج في كيفية مواجهتهم.

ومن نماذج **النمط الثاني** ما رواه الكشي عن زرارة قال: لقيت سالم بن أبي حفصة فقال لي: ويحك يا زرارة إنّ أبا جعفر قال لي: أخبرني عن النخل عندكم بالعراق ينبت قائماً أو معترضاً؟ قال: فأخبرته أنه ينبت قائماً، قال: فأخبرني عن ثمركم حلو هو؟ وسألني عن حمل النخل كيف يحمل؟ فأخبرته.

وسألني عن السفن تسير في الماء أو في البر؟ قال: فوصفت له أنّها تسير في البحر ويمدونها الرجال بصدورهم، فأنتم بإمام لا يعرف هذا. قال: فدخلت الطواف وأنا مغتم لما سمعت منه فلقيت أبا جعفر عليه السلام فأخبرته بما قال لي، فلما حاذينا الحجر الأسود قال: إله عن ذكره والله لا يؤول إلى خير أبداً.

قال الميرداماد: ولعمر الحبيب أنّ سالم بن أبي حفصة في البلادة وكلال الفطانة لعريض القفا، لم يحم حول سر كلام أبي جعفر عليه السلام ومعناه ولم يهتد لسمت سبيله ومغزاه.

«فالنخل عندكم بالعراق» تعبير عن أهل العراق لما بين الإنسان والنخل من

---

١. الخرائج والجرائح ١ / ٢٩٧.

كمال المناسبة وشدّة المشابهة ومن هناك في الحديث اكرموا عمّتكم النخلة.

«ونباته قائماً أو معترضاً» كناية عن نشوء المرء مستقيماً في الدين أو معوجاً في الاعتقاد.

وثمركم عبارة عن أبنائكم وأولادكم، كما قد ورد في تفسير قوله عزّ من قائل: ﴿ونقص من الأولاد والأنفس والثمرات﴾[١].

و «حلو» هو سؤال عن حلاوة المذهب والسلامة عن مرارة فاكهة السيرة وبشاعة طعم العقيدة.

و «السفن» المراد الأئمة الحجج صلوات الله عليهم لقوله ﷺ: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح.

والسؤال عن «سيرها في الماء أو في البر» معناه أنّهم عليهم السلام عندكم أهل العراق مطاعون في الحكم أو معطلون عن الاتباع والإطاعة.

كان زرارة رحمه الله تعالى أيضاً طفيف القسط من توقد الفطنة والتفطّن لدخلة الأسرار وإلّا فما وجه الاغتمام لذلك[٢].

أقول: وفي هذه الرواية إشارة إلى أنّ رواة الفقه يختلف تمرّسهم عن رواة المعارف ولم تكن لهم المهارة التي امتاز بها رواة المعارف.

وقد تحدث بين رواة الفقه والبتريّة وهم التلفيقيون بين ولاية أهل البيت عليهم السلام وولاية أصحاب السقيفة والذين ينكرون المقامات الغيبية للأئمة عليهم السلام نزاعات ومشادّات حول تلك المقامات لا سيّما وأنّ فريق رواة المعارف ينشرونها فينثاروا في الساحة الفكرية بينهم لغط وتجاذب في التفسير العلمي لتلك المقامات المروية ولم يكن فارس هذا الميدان إلّا رواة المعارف.

ومن **نماذج هذا النمط** أيضاً ما رواه الكشي عن أبي عبيدة الحذّاء قال: قلت

---

١. البقرة: ١٥٥.

٢. رجال الكشي بتعليقة ميرداماد ٢ / ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

لأبي جعفر عليه السلام: إنّ سالم بن أبي حفصة يقول لي: ما بلغك أنه من مات وليس له إمام كانت ميتته ميتة جاهلية؟ فأقول: بلى فيقول: من إمامك؟ فأقول: أئمتي آل محمد عليه وعليهم السلام، فيقول: ما أسمعك عرفت إماماً! قال أبو جعفر عليه السلام: ويح سالم وما يدري سالم ما منزلة الإمام منزلة الإمام يا زياد أعظم ممّا يذهب إليه سالم والناس أجمعون(١).

وتبيّن هذه الرواية أنّ أبا عبيدة مع كونه من فقهاء الرواة إلّا أنّه مع ذلك لم يدل لسالم بن أبي حفصة بجواب متقن بل أخذ عليه السلام يوقفه ويبيّن له أهمّ قواعد معرفة الإمام ولكن بنحو إجمالي وببيان ابتدائي أوّلي.

وكذا ما ذكره الكشي من أنّ عمر بن رياح البتري كان أولاً يقول بإمامة أبي جعفر عليه السلام ثم إنه فارق هذا القول وخالف أصحابه مع عدّة يسيرة بايعوه على ضلالته، فإنه زعم أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها بجواب، ثم عاد إليه في عام آخر وزعم أنّه سأله عن تلك المسألة بعينها فأجابه فيها بخلاف الجواب الأوّل، فقال لأبي جعفر عليه السلام: هذا خلاف ما أجبتني في هذه المسألة عامك الماضي فذكر أنّه قال له: إنّ جوابنا خرج على وجه التقية فشكّ في أمره وإمامته، فلقي رجلاً من أصحاب أبي جعفر عليه السلام يقال له: محمد بن قيس فقال: إنّي سألت أبا جعفر عليه السلام عن مسألة فأجابني فيها بجواب ثم سألت عنها في عام آخر فأجابني فيها بخلاف الجواب الأول فقلت له: لم فعلت ذلك؟ قال: فعلته للتقيّة، وقد علم الله أنّي ما سألته إلّا وأنا صحيح العزم على التديّن بما يفتيني فيه وقبوله والعمل به ولا وجه لاتّقائه إيّاي وهذه حاله.

فقال له محمد بن قيس: فلعلّه حضرك من اتّقاه، فقال: ما حضر مجلسه في واحدة من الحالين غيري، لا ولكن كان جوابه جميعاً على وجه التخيّب ولم

---

١. رجال الكشي رقم ٤٢٨.

يحفظ ما أجاب به في العام الماضي فيجيب بمثله فرجع عن إمامته[١].

وفي هذه الرواية أيضاً يظهر بوضوح عدم خوض محمد بن قيس ـ مع كونه من فقهاء الرواة ـ في عمق الاستدلال على الإمامة وبراهين حججها ونظام التأويل في كلماتهم عليهم السلام وأحوالهم.

---

١. رجال الكشي رقم ٤٣٠.





إذاعة أسرار المعارف



□ خطورة إفشاء أسرار المعارف

روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما قتلنا من أذاع حديثنا قتل خطأ ولكن قتلنا قتل عمد[1].

وروى الحلي في مختصر البصائر عن المعلّى بن خنيس، قال لي أبوعبدالله عليه السلام: «يا معلى اكتم أمرنا ولا تذعه ... إنّ الله يحبّ أن يعبد في السرّ كما يحب أن يعبد في العلانية، يا معلى المذيع أمرنا كالجاحد له»[2].

روى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّه ليس من احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته من غير أهله فأقرئهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلى نفسه، حدّثوهم بما يعرفون واستروا عنهم ما ينكرون ثم قال: والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره، فإذا عرفتم من عبد إذاعة فامشوا إليه وردوه عنها فإن قبل منكم وإلّا فتحملوا عليه بمن يثقل عليه ويسمع منه، فإنّ الرجل منكم يطلب الحاجة فيلطف فيها حتى تقضى له، فالطفوا في حاجتي كما تلطفون في حوائجكم، فإن هو قبل منكم وإلّا فادفنوا كلامه تحت أقدامكم ولا تقولوا: إنّه

---

١. وسائل الشيعة / ١٦ / ٢٥٠ / أبواب الأمر والنهي / ب ٣٤.

٢. مختصر البصائر / ٢٨٥ / ح ٢٨٨.

يقول ويقول، فإن ذلك يحمل عليّ وعليكم. أما والله لو كنتم تقولون ما أقول لأقررت أنكم أصحابي، هذا أبو حنيفة له أصحاب وهذا الحسن البصري له أصحاب، وأنا امرؤ من قريش قد ولدني رسول الله ﷺ وعلمت كتاب الله وفيه تبيان كل شيء بدؤ الخلق وأمر السماء وأمر الأرض وأمر الأولين وأمر الآخرين وأمر ما كان وأمر ما يكون كأني أنظر إلى ذلك نصب عيني[1].

أقول: يظهر من هذا الحديث أنه عليه السلام يقرّر الانتماء له بالصحبة بشرط مراعاة حفظ العلوم والمعارف التي لا يطيقها عامّة الناس، فضلاً عن جمهور أهل السنة وسلطان بني أمية وبني العباس، لأنّ فيها تبياناً لفضائلهم ومقاماتهم التي نصبهم الله لها وبالتالي ففيها إدانة وتبيان لعدم شرعية بني أمية وبني العباس، وتخطئة لمنهاج خصوم أهل البيت. فيقرّر عليه السلام أنّ الانتماء إليه بالصحبة هو بحفظ هذه التعاليم الأمنية حول علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام وأنه من يقوم بالإخلال بهذا البرنامج الأمني ويفرّط في حفظه فلا محالة يستحقّ القطيعة والهجران والبراءة منه. وهذا يفسّر تبرّيهم عليهم السلام من رواة أسرار المعارف الذين فرّطوا في كتمانها وإذاعتها وسبّبوا نشوء فرق منحرفة بسبب عدم وعي جملة من عموم الناس لحقائق معاني تلك المعارف بوجهتها الصحيحة المستقيمة، فانطبعت لديهم أفهام خاطئة منحرفة عن حقيقتها.

وروى الكليني بسنده عن أبي خالد الكابلي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنّ الله عز وجل جعل الدين دولتين دولة آدم وهي دولة الله ودولة إبليس، فإذا أراد الله أن يعبد علانية كانت دولة آدم وإذا أراد أن يعبد سرّاً كانت دولة إبليس والمذيع لما أراد الله ستره مارق من الدين[2].

قد جعل عليه السلام ترك التحفّظ وترك الكتمان للمعارف الحقّة الغامضة بمثابة

---

١. الكافي ٢ / ٢٢٣ حديث ٥.

٢. الكافي ٢ / ٣٧٢ حديث ١١.

المروق من الدين، فإذاعة تلك المعارف الثقيلة الصعبة التي ينجم من نشرها انطباع خاطىء منحرف لدى الخواص فضلاً عن العوام يسبّب المروق من الدين، فهو بمثابة المروق.

عن جابر قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام وأنا شابٌ فقال: من أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: ممّن؟ قلت: من جعفيّ، قال: ما أقدمك إلى هاهنا؟ قلت: طلب العلم، قال: ممّن؟ قلت: منك، قال: فإذا سألك أحد من أين أنت فقل من أهل المدينة قال: قلت: أسألك قبل كلّ شيء عن هذا، أيحلّ لي أن أكذب؟ قال: ليس هذا بكذب، من كان في مدينة فهو من أهلها حتى يخرج قال: ودفع إليّ كتاباً وقال لي: إن أنت حدّثت به حتى تهلك بنو أمية فعليك لعنتي ولعنة آبائي وإذا أنت كتمت منه شيئاً بعد هلاك بني أمية فعليك لعنتي ولعنة آبائي، ثم دفع إليّ كتاباً آخر، ثم قال: وهاك هذا فإن حدّثت بشيء منه أبداً فعليك لعنتي ولعنة آبائي[1].

وهناك روايات أخرى ذكرناها في ترجمة جابر بهذا المضمون وفيها ذكر عدد الأحاديث التي أمر بكتمانها وأنها تصل إلى سبعين ألف حديث[2].

وهذه الأحاديث صريحة في استحقاق لعنة الإمام عليه السلام ولعنة آبائه لمن يفرّط في كتمان غوامض المعارف، وأنّ اللعنة منهم عليهم السلام لمثل هؤلاء المفرّطين إنّما هو بسبب نشر وكشف المعارف التي لا يطيق فهمها على الوجه الصحيح الخواص فضلاً عن العوامّ، ممّا يسبّب نشوء انحرافات وفرق ضالّة بسبب الفهم الخاطىء لتلك المعارف الثقيلة الغامضة الصعبة المستصعبة، وعدم وعي وجوه معانيها الصحيحة الصائبة الحقّة البعيدة عن انحراف التأليه أو زعم النبوّة ونحو ذلك.

وروى الصفار في البصائر عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله

---

١. رجال الكشي ٢٦٥ /ح ٣٣٩.

٢. الاختصاص /٦٦، والكافي ٨ / ١٥٧ /ح ١٤٩، ورجال الكشي /ح ٣٢٩ و ٣٤٢ و ٣٤٣.

تبارك وتعالى: ﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[١] قال: تريد أن تروي عليّ؟ هو الذي في نفسك[٢].

وروى أيضاً عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ قال: أما أنت لسامع ذلك منّي لتأتي العراق فتقول: سمعت محمد بن علي عليه السلام يقول كذا وكذا، ولكنّه الذي في نفسك[٣].

والظاهر من الخبرين أنّ زرارة رضوان الله تعالى عليه حيث كان دأبه الصدع بالحقّ بقوة كان الباقر عليه السلام يتحفّظ من التصريح له بمقتطفات من خفايا المعارف التي كان يصعب تقبّل الوسط العام لهضمها.

وروى الحلي في مختصر البصائر عن حفص الأبيض قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام أيام قتل المعلّى بن خنيس وصلب فقال: يا حفص إنّي نهيت المعلّى عن أمر فأذاعه فقوبل بما ترى قلت له: إنّ لنا حديثاً من حفظه حفظ الله عليه دينه ودنياه ومن أذاعه علينا سلبه الله دينه.

يا معلى لا تكونوا أسرى في أيدي الناس بحديثنا إن شاؤوا منّوا وإن شاؤوا قتلوكم، يا معلى إنّ من كتم الصعب من حديثنا جعله الله نوراً بين عينيه ورزقه العزّ في الناس، يا معلى من أذاع الصعب من حديثنا لم يمت حتى يعضّه السلاح أو يموت بخبل.

إني رأيته يوماً حزيناً فقلت: مالك أذكرت أهلك وعيالك؟ فقال: نعم، فمسحت وجهه فقلت: أنّى تراك؟ فقال: أراني في بيتي مع زوجتي وعيالي فتركته في تلك الحال مليّاً ثم مسحت وجهه فقلت: أنّى تراك؟ فقال: أراني معك في المدينة فقلت له: احفظ ما رأيت ولا تذعه فقال لأهل المدينة: إنّ الأرض تطوى لي فأصابه ما قد رأيت[٤].

---

١. التوبة: ١٠٥.

٢. بصائر الدرجات: ٤٥٠ حديث ٤، بحار الأنوار ٢٤ / ٣٤٧ / ٤٩.

٣. بحار الأنوار ٢٤ / ٣٤٧ / ٥٠.

٤. مختصر البصائر / ٢٧٩ /ح ٢٧٩.

وفي الرواية إشارة إلى أنّ أسرار المعارف وغوامضها هي جملة من مقاماتهم عليهم السلام التي أعطاها الله إياهم مما لا يتحمّله عموم العامّة ويحسبون أنّه خرق للناموس الإلهي وغلوّ في أئمة أهل البيت عليهم السلام عن مقام البشريّة، أو أنّ ذلك قول باستقلالهم في القدرة الغيبيّة من دون مشيّة الله عزوجل. وهذا ما يؤكّد أنّ طعن العامّة على جملة من الرواة بادعاء الألوهيّة والنبوّة منشأه مثل هذه الأمور الّتي لا تستوعبها تصوّراتهم الاعتقادية ومبانيهم في المسائل الكلاميّة.

هذا مضافاً إلى حميّتهم وعصبيّتهم وردّة الفعل التي لديهم تجاه تبرّي أولئك الرواة من أبي بكر وعمر، بل إنّ في نشر المعارف العالية دلالة على بطلان وزيغ من تقلّد الخلافة بغير نصّ إلهي.

وروى سعد بن عبد الله الأشعري بسند مصحّح عن أبي أسامة زيد الشحّام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمر الناس بخصلتين فضيّعوهما فصاروا منها على غير شيء: الصبر والكتمان[1].

وهاتان الخصلتان ـ كما سيأتي ـ هما اللتان أخفق فيها عبد الله بن سبأ والمغيرة وأبو الخطاب وأمثالهما، فقاموا وانطلقوا بثورات سياسية بنحو عفوي اندفاعي غير مدروس كما بثّوا أسرار وغوامض المعرفة مما أوقعهم في الانزلاق في شطط وشذوذ وسبّب انحراف اتباعهم اللاحقة فيما بعد.

الجدلية بين حرمة الإذاعة وحرمة الكتمان

نشر معارفهم عليهم السلام ـ والتي هي المعارف الدينية ـ وقعت بين جدليّة ثنائية تتجاذبها بين قاعدة حرمة إذاعة أسرارهم، وبين قاعدة ﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[2] التي هي بلسان لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه

---

١. مختصر البصائر / ٢٨٠ / ٢٨٠.

٢. النحل: ١٢٥.

الشمس[١].

ربما يتداعى إلى ذهن البعض ما استفاض عنهم عليهم السلام من حرمة إذاعة أسرارهم، أنّها توصية من قبلهم عليهم السلام لإخفاء وكتمان المعارف الحقّة بكلّ ما أوتينا من القدرة، وربما يتمادى بالبعض فهم معنى هذه القاعدة إلى لزوم تناسي هذه المعارف وجعلها في بوتقة النسيان. ومن ثمّ يسجّلون المؤاخذة على أنّ تعاطي المعارف العميقة والغامضة هو مخالفة لهذه التوصية منهم عليهم السلام ، فضلاً عن محاولة نشرها وبثّها والقيام بانتشارها، فإنّ هذا أضرّ عليهم من جيش يزيد وابن سعد.

مع أنّ المشاهد لدى أهل البيت عليهم السلام أنّهم لم يفتأوا يبثّون المعارف والعلوم جيلاً بعد جيل، حتى تبدّهت كثير من الحقائق التي كانت نظرية في الجيل الأوّل من المسلمين بل ربما كانت مستنكرة وأمثلة ذلك كثيرة.

منها: إبطال التجسيم والتشبيه، فقد كان في الرعيل الأول في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثير ممّن يتوهم التجسيم والتشبيه إلّا أنّهم عليهم السلام استطاعوا أن يبدّهوا بطلان التجسيم.

وكذلك الحال في إبطال الجبر والتفويض، فإنّ شبهة الجبر كانت عالقة في أذهان المسلمين في الأجيال الأولى إلّا أنّهم عليهم السلام فيما بذلوه من الجهود في تعليم الأمّة استطاعوا أن يبدّهوا بطلان الجبر والتفويض.

إلى غير ذلك من الحقائق التي بنوا معرفتها في عقليّة المسلمين.

هذا مضافاً إلى التوصيات العديدة في الآيات والروايات بدعوى نشر معارف الحقّ كالآية التي مرّت، وكقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[٢] وجملة من آيات حرمة الكتمان ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس أولئك الذين يلعنهم الله

---

١. الكافي: ٥/٣٨ حديث ٤.

٢. التوبة: ١٢٢.

ويلعنهم اللاعنون﴾[١].

وغيرها من الروايات والآيات الحاضّة على النشر.

مضافاً إلى ما استفيض لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تعطوها غير مستحقّها فتظلموها[٢].

ومن المعلوم أنّ العلم يموت بموت أهله ويندرس وينطمس، وهذه العلوم الإلهية لم تنزل من السماء لترفع بل ليتكامل الإنسان بها، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فالتوفيق بين هاتين القاعدتين وبيان عدم تنافيهما فيما بينهما يبتني على بيان أصول:

الأصل الأول: أنّ المراد هو الطريق الوسط، وهو اعتماد التدريج في التعليم والهداية كما هي سنّة الله ورسوله، واعتماد محاسبة درجة قابلية الأفراد والأوساط التي يوجّه إليها الخطاب التعليمي، كما ورد عنه ﷺ: إنّا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم[٣].

ومعنى هذا الحديث الشريف ليس أن لا يكلّم الناس ولا يعلّمهم بل أن يكلّموا الناس بقدر قابليتهم فتتّسع شيئاً فشيئاً.

الأصل الثاني: لابدّ من مراعاة لغة التعليم ولغة الخطاب، فإنّها مؤثّرة غاية التأثير في حصول قابلية الطرف الآخر فإنّ حقيقة ما ومعنى ما إذا ألقي في قالب لغة معيّنة فإنّه سيُقبل وتدرك حقيقته ويُهضم، بخلاف ما إذا ألقي بقالب آخر، فإنه يستوحش منه وينكر وينفر منه. وهذا أصل آخر في الموازنة بين هداية الناس ودعوتهم إلى الرشاد وبين تجنّب إلقائهم فيما لا يطيقون مما يسبب إثارتهم وحصول التشنّج لديهم وجحدهم وإنكارهم ما لا يفقهون.

---

١. البقرة: ١٥٩.

٢. بحارالانوار: ٢١٧/٢٦ حديث ١٩.

٣. المحاسن ١ / ١٩٥ .

وهذا أصل عظيم جدّاً فإنّ الكثير من المعارف الحقّة إذا اعتمد في بيانها وتبيانها ما يحاذيها من لغات العلوم المعاصرة فإنّ ذلك يوجب وضوح فهمها وبلاغة البيان لتوضيحها، فاعتماد الترجمة العلمية لهذه المعارف أمر بالغ الأهمية، فإنّ الملاحظ أنّ هناك جملة من الثوابت الدينية على صعيد الأحكام الفرعية الشرعية والقوانين العملية فضلاً عن العقائد قد وقع فيها التشكيك والاضطراب نتيجة عدم فهم الجيل المعاصر لحقيقتها وفي الحقيقة أنه لا يفهم لغتها التقليدية، ولو بيّنت له بلغة معاصرة لاستوضحها.

قال الصادق عليه السلام في وصف المؤمنين الكاملين: ألسنتهم مسجونة وصدورهم وعاء لسرّ الله، إن وجدوا له أهلاً نبذوه إليه نبذاً وإن لم يجدوا له أهلاً ألقوا على ألسنتهم أقفالاً غيّبوا مفاتيحها وجعلوا على أفواههم أوكية صلب صلاب أصلب من الجبال لا ينحت منهم شيء[١].

فتبين هذه الرواية أنّ الميزان هو الأهلية والقابلية ومن الواضح أنّها تدريجية ونسبيّة ومتفاوتة بين الأفراد والأشخاص والبيئات ولا يعني تفاوتها في الدرجات انعدامها من رأس وعدم وجودها.

وفي صحيح حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسألك أصلحك الله؟ قال: نعم، قال: كنت على حال وأنا اليوم على حال أخرى، كنت أدخل الأرض فأدعوا الرجل والاثنين والمرأة فينقذ الله من يشاء وأنا اليوم لا أدعو أحداً، فقال: وما عليك أن تخلّي بين الناس وبين ربّهم؟ فمن أراد الله أن يخرجه من ظلمة إلىٰ نور أخرجه ولا عليك إن آنست من أحد خيراً أن تنبذ إليه الشيء نبذاً، قلت: فأخبرني عن قول الله: ﴿ومن أحياها فكأنّما أحيى الناس جميعاً﴾[٢] قال: من حرق أو غرق أو غدر ثم سكت،

---

١. الأصول الستة عشر: ٧.

٢. المائدة: ٣٢.

فقال: تأويلها الأعظم أن دعاها فاستجابت له[١].

فيظهر من الحديث أنّ نشر وإلقاء معارف أهل البيت ودعوة الناس إليهم من أعظم مصاديق الآية الشريفة، لكن شريطة الأهليّة والقابليّة، فإن أنس من أحد خيراً وعلم منه أنّه ليس بصدد العناد واللجاج فينبذ إليه نبذاً من علوم أهل البيت عليهم السلام أي يعطيه المعارف تدريجاً فيخرجه الله من الظلمات إلى النور شيئاً فشيئاً، فإذا علم من حال أحد خيراً لا يلقي إليه من العلوم إلّا شيئاً يسيراً بقدر فهمه واستعداده حتى يكمل شيئاً فشيئاً.

---

١. المحاسن ١ / ٢٣٢.

□ السفلة أهل النصب والحيلة والدجلة ودورهم في إذاعة أسرار المعارف

إنّ هناك شريحة يصفها أئمة أهل البيت عليهم السلام بالسفلة وهم أتباع الأهواء والشهوات والنزعات الدينيّة الدنيويّة السافلة الذين حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها وليس لهم همّ إلّا الوصول إلى أغراضهم السافلة الّتي من أهمّها وأعظمها عندهم الرئاسة المعنوية والملكوتية على الناس. فإنّ من الناس من كان همّه الدينار والدرهم، ومنهم من يهمّه السمعة والشهرة، ومنهم من يهمّه الشهوات الدينيّة والمنكرة، ومن الناس من يفدي جميع ذلك للوصول إلى مقام الرئاسة فإنّ المعشار من حلاوتها لا يساوي عندهم جميع الشهوات والأهواء واللذّات السافلة الدنيوية. فهو يحلّ ما حرّم الله ويحرّم ما أحلّ الله ويترك لذّة الأموال والنعم المباحة المحلّلة طلباً للرئاسة.

وليعلم أنّ الرئاسة الملكوتية أشدّ وأقوى وأعظم وأدوم من الرئاسة الملكية وذلك:

أوّلاً: أنّ الرئاسة الملكية وإن تحدث بسرعة إلّا أنّه تزول كذلك، فيُرى أنّ حاكماً من الحكّام وسلطاناً من السلاطين ما إن انقضت مدّة حكمه وسلطانه انقضت عزّته وسمعته، والذين يقبلون اليه ويتملّقونه يدبرون عنه ويذمّونه؛ فهذه الرئاسة سريعة الزوال؛ بينما الرئاسة الملكوتية والحكومة على قلوب الناس لا

تنقضي بسهولة ولا يمكن عزل ذلك الرئيس عبر مكتوبة أو ما شاكل ذلك، بل هو يظلّ يترأس ويحكم على قلوب العباد ولو وقع في السجن تحت أشدّ العقوبات.

وثانياً: أنّ الرئاسة الملكوتية حكمها أنفذ وأوقع في القلوب، فإنّك ترى أنّ بعض الناس يبذلون أنفسهم وأعراضهم فضلاً عن أموالهم وأولادهم وسمعتهم وأسرتهم في سبيل من يحكم على قلوبهم ولا يرون في ذلك غضاضة، بل يبذلونها على الرحب والسعة معترفين بالتقصير عن أداء واجبهم تجاه ذلك الحاكم الملكوتي، بينما الناس تراهم يحاولون الفرار بكلّ ما لديهم من القدرات عن العمل بالأحكام الصادرة من السلاطين الملكية لا سيما إذا تمسّهم تلك الأحكام بسوء.

وثالثاً: إنّ من يقبل حكومة الحاكم الملكي على نفسه ويطبّق أحكامه في سلوكيّاته ويأتمر بأوامره وينتهي عن زواجره لا يفعل ذلك إلّا للخوف عن أذاه أو للطمع إلى دنياه، فأنت ترى أنّه لو رفعت العقوبة على مخالفة القوانين الحكومية وكذا لو رفعت العطايا الدنيوية الدينيّة لن يتحمّل أحد مشقّة العمل بأحكامه على عاتقه وليرفض ذلك تماماً.

فأتباع الحاكم الدنيوي إنّما يتبعونه لينالوا من دنياه أو ليصونوا من عقابه، بينما أتباع الحاكم الملكوتي يتبعونه لأجله حتّى لو لم ينالوا من دنياه شيئاً، بل لو تعرض دنياهم إلى الخطر وأنفسهم إلى الضرر فلا يرضون بأن يهملوا مراداته حتّى لو لم ينطقها بلسان.

فلأجل هذه الأمور وغيرها كانت الرئاسة الملكوتية منذ أن أهبط الله آدم عليه السلام إلى الأرض مطمح نظر طلاّب الدنيا وأهل الأهواء والشهوات، ولأجل هذا ادّعى بعضهم النبوّة بغير حقّ أو الوصاية والخلافة والولاية فهؤلاء الجماعة يحاولون بكلّ ما لديهم من الاستطاعة والقدرة أن يصلوا إلى ذلك المقام من الحكومة على قلوب العباد وقد يترك بعضهم لذّات الدنيا بأجمعها ويعيش طوال عمره في حالة

حرجة وضيّقة للوصول إلى ذلك المقام يوماً مّا، نظير بعض رؤساء الصوفية والدراويش.

فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: قال علي بن الحسين عليه السلام:

إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وتماوت في منطقه وتخاضع في حركاته فرويداً لا يغرّنكم ما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدين فخّاً له فهو لا يزال يحيل الناس بظاهره فإن تمكّن من الحرام اقتحمه.

وإذا رأيتموه (وجدتموه ـ خ) يعفّ عن المال الحرام فرويداً لا يغرّنكم فإنّ شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من ينبو عن المال الحرام وإن كثر ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة، فيأتي منها (بها ـ خ) محرّماً.

فإذا وجدتموه يعفّ عن ذلك فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا ما عقده عقله فما أكثر من ترك ذلك أجمع ثمّ لا يرجع إلى عقل متين فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله.

فإذا وجدتم عقله متيناً فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا أمع هواه يكون على عقله؟ أو يكون مع عقله على هواه؟ وكيف محبّته للرياسات الباطلة وزهده فيها؟ فإن في الناس من خسر الدنيا والآخرة بترك الدنيا للدنيا ويرى أنّ لذّة الرياسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحلّلة فيترك ذلك أجمع طلباً للرياسة حتى ﴿إذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1] فهو يخبط خبط عشواء يقوده أول باطله إلى أبعد غايات الخسارة ويمدّ ربّه بعد طلبه لما يقدر عليه في حياته (طغيانه ـ خ) فهو يحلّ ما حرّم الله ويحرّم ما أحلّ الله. لا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته التي قد شقي (يتق ـ خ) من أجلها فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً مهيناً[2].

فهذه الجماعة من الناس الذين ليس لهم همّ إلّا الوصول إلى تلك الرئاسات

---

١. البقرة: ٢٠٦.

٢. بحار الأنوار ٢ / ٨٤، والاحتجاج ٢ / ١٥٩.

الباطلة يستخدمون أيّ وسيلة تمكنهم الاستفادة منها في سبيل أغراضهم الدينية وقد اصطلح أئمة أهل البيت عليهم السلام عنهم بالسفلة.

فقد ورد في الأخبار أنّ السفلة هم الذين تقلّ فيهم النجابة والكرامة وتغلب فيهم الدناءة ولا يرجون ثواب الله ولا يخافون من عقابه.

روى الكشي عن إبراهيم بن علي الكوفي قال: حدّثنا إبراهيم بن إسحاق الموصلي عن يونس بن عبد الرحمن عن العلاء بن رزين عن المفضّل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إياك والسفلة إنّما شيعة جعفر من عفّ بطنه وفرجه واشتدّ جهاده وعمل لخالقه ورجا ثوابه وخاف عقابه[١].

وروى الكليني عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن إسماعيل، عن منصور بن بزرج، عن مفضّل قال: إياك والسفلة، فإنّما شيعة علي من عفّ بطنه وفرجه واشتدّ جهاده وعمل لخالقه ورجا ثوابه وخاف عقابه فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر[٢].

قال العلامة المجلسي: والحاصل أنّ السفلة أراذل الناس وأدانيه وقد ورد النهي عن مخالطتهم ومعاملتهم وفسر بالحديث بمن لا يبالي ما قال ولا ما قيل له وهاهنا قوبل بالشيعة الموصوفين بالصفات المذكورة وحذّر عن مخالطتهم ورغّب في مصاحبة هؤلاء. انتهى[٣].

أقول: فمن لم يعفّ بطنه ولا فرجه وقلّت رياضته وكثرت لذّاته وعمل للرياء فهو من السفلة. والسفلة إنّما تقابل الشيعة.

وروى الصدوق بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّه سئل عن السفلة فقال: من

---

١. رجال الكشي ٣٧٢ / ح ٥٥٢.
٢. الكافي ٢ / ٢٣٣ حديث ٩.
٣. بحار الأنوار ٦٥ / ١٨٨.

يشرب الخمر ويضرب بالطنبور ذنبان أحدهما أشد من الآخر[١].

وفي حديث الأربعمائة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: احذروا السفلة فإنّ السفلة من لا يخاف الله عزوجل، فيهم قتلة الأنبياء وفيهم أعداؤنا[٢].

وقال الصدوق في الفقيه: جاءت الأخبار في معنى السفلة على وجوه فمنها أنّ السفلة هو الذي لا يبالي ما قال وما قيل له، ومنها أن السفلة من يضرب بالطنبور، ومنها أنّ السفلة من لم يسرّه الإحسان ولا تسوؤه الإساءة، والسفلة من ادّعى الإمامة وليس لها بأهل وهذه كلّها أوصاف السفلة من اجتمع فيه بعضها أو جميعها وجب اجتناب مخالطته[٣].

وفي تحف العقول أنّه سئل عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن السفلة فقال: من كان له شيء يلهيه عن الله[٤].

وروى ابن إدريس في مستطرفات السرائر نقلاً عن جامع البزنطي قال: سئل أبو الحسن عليه السلام عن السفلة فقال: الذي يأكل في الأسواق[٥].

ونقل الشيخ في الأمالي عن الفضيل بن عياض سئل ابن المبارك فمن السفلة قال: الذي يأكل بدينه[٦].

وقد يعبر عنهم في ا لروايات بالغوغاء ـ كما أشار إليه العلّامة المجلسي في البحار[٧] ـ وقال في القاموس: سفلة الناس بالكسر كفرحة أسافلهم وغوغاهم ـ فقد روى الشيخ بسنده عن علي بن محمد الرضا عليه السلام بسرّ من رأى يقول: الغوغاء

---

١. الخصال / ٦٢.
٢. الخصال / ٦٣٥.
٣. من لايحضره الفقيه ٣ / ١٦٥.
٤. تحف العقول / ٤٤٢.
٥. وسائل الشيعة ٢٤ / ٣٩٥.
٦. الأمالي / ٣٩٧.
٧. بحار الأنوار ٥٠ / ١٧٥.

قتلة الأنبياء والعامّة اسم مشتق من العمى ما رضي الله لهم أن شبههم بالأنعام حتّى قال ﴿بل أضلّ سبيلاً﴾[١].

وهذه الصفات والخصوصيات كلّها نابعة عن الدناءة والرذالة والخلود إلى الدنيا السافلة وعدم الخوف من الله وقلّة التقوى، فصاحبه لا يبالي ما يفعل إذا سلمت له دنياه ومتى ما رأى رواج الدين يجعله بضاعة يشتري بها دنياه وقد ألهاه حبّ الرياسات الباطلة عن الله.

وقال العلّامة النمازي في بيان ذم السفلة ولزوم الاحتراز عنهم بأنّه يمكن تأويل الأسفلين وأسفل السافلين في الآيتين بأعداء آل محمد عليهم السلام. انتهى[٢].

وعلى هذا الاحتمال يمكن أن يقال بأنّ وجه تسميتهم بالسفلة لأجل كونهم في الدرك الأسفل في النار وبما أنّ هذه المرتبة من النار إنّما هي محلّ المنافقين كما قال تعالى: ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[٣] فيمكن أن يقال إنّ السفلة أظهروا الإيمان وموالاة أهل البيت عليهم السلام وأبطنوا الكفر ومعاداتهم طلباً للدنيا وأنّهما من أقسام النفاق الآتية ذكرها.

السفلة وأسرار المعارف

ومن أهمّ ما يمكنهم استخدامه للوصول إلى مطامعهم هي المعارف الغامضة والأسرار الشاهقة من علوم أهل البيت عليهم السلام فإنّه بتوسّطها يترأسّون على قلوب العباد لما في هذه المعارف من طلاوة وطراوة وعمق وعلوّ، فبنقل هذه المعارف العميقة وتذييعها يجعلون أنفسهم في موقع المتعمّق الراسخ في الأسرار والمعارف ويخدعون الناس فيها، ولأجل ذلك حذر أئمة أهل البيت عليهم السلام عن

---

١. بحار الأنوار ١ / ١٩٥.

٢. مستدرك سفينة البحار ٥ / ٦٥.

٣. النساء / ١٤٥.

إعطاء المعارف لهم وتحديثهم بأحاديث فيها نكت وظرائف الأسرار، وذلك لأنّ وقوع هذه المعارف في أيديهم معناه امتلاكهم للثروة الفاخرة الّتي يتمكّنون بها من الوصول إلى أغراضهم الدينية السافلة.

ولأجل هذا حذّر أئمة أهل البيت عليهم السلام بشدّة وقوّة عن إعطائهم بغوامض المعارف وأسرارها فإنّهم يجعلونها بضاعة ووسيلة للوصول إلى أغراضهم الدينية السافلة.

فمن ذلك ما روى الكشي عن جبريل بن أحمد، حدّثني محمد بن عيسى، عن عبد الله بن جبلّة الكناني عن ذريح المحاربي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن جابر الجعفي وما روى؟ فلم يجبني وأظنّه قال: سألته بجمع فلم يجبني فسألته الثالثة؟ فقال لي: يا ذريح! دع ذكر جابر فإنّ السفلة إذا سمعوا بأحاديثه شنعوا أو قال أذاعوا[١].

وروى عن آدم بن محمد البلخي قال: حدّثنا علي بن الحسن هارون الدقّان قال: حدّثنا علي بن أحمد قال: حدّثني علي بن سليمان قال: حدّثني الحسن بن علي بن فضّال عن علي بن حسان عن المفضّل بن عمر الجعفي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير جابر؟ فقال: لا تحدّث به السفلة فيذيعوه، أما تقرأ في كتاب الله عزوجل: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾[٢] إنّ منّا إماماً مستتراً فإذا أراد الله إظهار أمره نكت في قلبه فظهر فقام بأمر الله[٣].

وروي عن محمد بن سنان عن عبد الله بن جبلّة الكناني عن ذريح المحاربي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام بالمدينة: ما تقول في أحاديث جابر؟ قال: تلقّاني بمكة، قال: فلقيته بمكة فقال: تلقّاني بالمدينة، قال: فلقيته بمنى فقال لي: ما تصنع بأحاديث

---

١. رجال الكشي ٢٦٦ /ح ٣٤٠.
٢. المدثر: ٨.
٣. رجال الكشي ٢٦٥ /ح ٣٣٨.

جابر؟ أُله عن أحاديث جابر فإنّها إذا وقعت إلى السفلة أذاعوها.

قال عبد الله بن جبلّة: فأحسب ذريحاً سفلة[١].

وعن محمد بن العباس عن الحسين بن أحمد عن محمد بن عيسى عن يونس عن جميل قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أحدّثهم بتفسير جابر؟ قال: لا تحدّث به السفلة فيوبّخوه[٢].

فيستفاد من هذه الأحاديث شدّة حرص الأئمّة عليهم السلام على عدم وصول هذه المعارف إلى السفلة فإنّ جابر بن يزيد الجعفي هو من بحور معارف أهل البيت عليهم السلام وأسود هذا الميدان، وقد حمّله الإمام الباقر عليه السلام وقراً من العلم ولقد قال: رويت خمسين ألف حديث ما سمعه أحد منّي[٣].

وقال: حدثني أبو جعفر عليه السلام سبعين ألف حديث لم أحدّث بها أحداً قطّ، ولا أحدّث بها أحداً أبداً. قال جابر: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك إنّك قد حمّلتني وقراً عظيماً بها حدثتني من سرّكم الذي لا أحدّث به أحداً. فربما جاش في صدري حتّى يأخذني منه شبه الجنون. قال عليه السلام: يا جابر فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبان فاحفر حفيرة ودل رأسك فيها ثم قل: حدّثني محمد بن علي بكذا وكذا[٤].

وقد مرّ ترجمته في الجزء السابق وبيّنا هناك أنّه أوحديّ في رواة المعارف الذين لم يزلزلهم عواصف الدهر وثبتوا على الصراط المستقيم.

ولأجل هذا نهى الإمام عليه السلام عن تحديث السفلة بأحاديث جابر وتفسيره.

---

١. رجال الكشي ٤٣٩ / ح ٦٩٩.
٢. بحار الأنوار ٨ / ٥٠.
٣. رجال الكشي / ح ٣٤٢.
٤. رجال الكشي / ح ٣٤٣.

دور السفلة في انحراف بعض رواة المعارف

يظهر من بعض الأخبار أنّ من جملة أسباب انحراف من انحرف من رواة المعارف نظير أبي الخطّاب، مخالطتهم ومعاشرتهم مع السفلة، وهذه المعاشرة والمصاحبة أثّرت في بزوغ بعض الانحرافات لديهم نظير إذاعة الأسرار الذي هو بدوره سبّب مشاكل ومخاطر عظيمة مهولة.

فقد روى الكشي عن حمدويه قال: حدّثنا يعقوب بن يزيد عن العباس القصباني ابن عامر الكوفي عن المفضّل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتّق السفلة واحذر السفلة، فإنّي نهيت أبا الخطاب فلم يقبل منّي[١].

فإنّ تحذير الإمام الصادق عليه السلام المفضّل عمّا وقع فيه أبو الخطاب ـ حيث حذّره الإمام عليه السلام عن مصاحبة السفلة ـ مما يدلّ على أنّ من وصل إلى مقامات علمية قد يجرهم السفلة لابتداعهم المذاهب المنحرفة. وهذا ما يشاهد في انحرافات الصوفيّة من دخول أصحاب الشهوات والأراذل فيهم كي يصل إلى أغراضهم الدنية السافلة خسائس الغرائض بتقمّص سلوكيات ومقالات المعرفة.

وقال الكشي: محمد بن مسعود قال: حدثني علي بن محمد قال: حدّثني محمد بن أحمد عن محمد بن عيسى عن الحسن بن ميّاح عن عيسى قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إياك ومخالطة السفلة فإنّ السفلة لا يؤول إلى خير[٢].

وروى الكشي عن محمد بن مسعود قال: حدثني علي بن محمد القمي قال حدثني محمد بن أحمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن موسى بن سلام عن حبيب الخثعمي عن ابن أبي يعفور قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فاستأذن عليه رجل حسن الهيئة، فقال: اتّق السفلة فما تقارّت في الأرض حتّى خرجت، فسألت عنه

---

١. رجال الكشي ٣٦٣ / ح ٥٢٠.

٢. رجال الكشي ٣٦٦ / ح ٥٣٦.

فوجدته غالياً[١].

وروى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد ومحمد بن الحسين عن محمد بن سنان عن عمّار بن موسى قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا عمّار إن كنت تحبّ أن تستتبّ لك النعمة وتكمل لك المروءة وتصلح لك المعيشة، فلا تشارك العبيد والسفلة في أمرك فإنك إن ائتمنتهم خانوك وإن حدّثوك كذبوك وإن نكبت خذلوك وإن وعدوك أخلفوك[٢].

أقول: فمن لم تتوفّر فيه أصول الأدب والنجابة والكرامة ولم يكن كريم الطبع رجل سفل لا سيما كانت رذالته باطنة غير ظاهرة، ومن أجل هذا ينبغي التجنب عنهم وعن مخالطتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم، فإنّ مصاحبتهم يؤدّي إلى الوقوع في الانحرافات الخطيرة.

---

١. رجال الكشي ٣٧٣ / ح ٥٥٣.

٢. الكافي ٢ / ٦٤٠ حديث ٥.

□ إذاعة أسرار المعارف تسبّب الانطباع الخاطىء منها لدى الجمهور

إنّ كثيراً من رواة المعارف وأسرار المقامات قد رووا في صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته معاني لم يعقلها الكثير من الرواة الآخرين ممّن هم ذوي مشارب ومسالك أخرى واتّجاه خاص معيّن، كالاتّجاه الفقهي أو الكلامي أو في السنن والآداب أو اتّجاه التنسك والمندوبات أو التفسير والقراءات، فوضعوها على غير حدودها وحرّفوها عن وجهتها فأنكروها وطعنوا على الرواة لها، واتّهموهم بما طبع لديهم من الخطأ في تفسيرها وتأويلها. لا سيّما وأنّ جملة من هذه الروايات قد وصلت إلى مسامع رواة العامة ممّن ليس له أيّة معرفة بحقائق أصول مذهب أهل البيت عليهم السلام فشدّد الطعن على مضامين تلك الروايات والرواة وقذف رواتها بالغلوّ والإفراط والقول بتأليه أهل البيت عليهم السلام أو القول بنبوّاتهم، وكلّ ذلك بسبب عدم المعرفة بحقائق أصول معارف أهل البيت عليهم السلام .

ولنذكر لذلك نماذجاً مع أنّ الحري بنا في المقام استقصاء تلك الموارد لكن لا يسقط الميسور بالمعسور:

النموذج الأول: الفرق بين النبي والمحدّث

إنّ الارتباط بالغيب عند العامة مطلقاً لا يفسّر إلّا بالنبوّة وأنه وحي نبوي، مع أنه من أصول القرآن الكريم ومذهب أهل البيت عليهم السلام أنّ هناك قنوات مختلفة غير

قناة النبوّة للارتباط بالغيب لدى الأوصياء والمصطفين من الحجج، كما ضرب القرآن أمثالاً لذلك كطالوت ومريم وذي القرنين والخضر وصاحب سليمان آصف بن برخيا وعزير وأمّ موسى ولقمان وغيرهم من الحجج والأصفياء والأولياء. ومن تلك القنوات العلم اللدني وعلم الكتاب والبسط في العلم والتمكين من الأسباب والحكمة والتوسّم وغيرها ممّا استعرضه القرآن الكريم وممّا هو مستفيض ومتواتر في أحاديث النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام .

بينما يرى ذلك العامة سواء محدّثيهم أو متكلّميهم أو مفسريهم أو فقهائهم - عدا من كان له مشرب صوفي - أنّ ذلك قول بالنبوّة، فتراهم يطعنون على رواة تلك المعاني والصفات في الأئمة عليهم السلام بأنّهم قائلون بالنبوّة. وما أن يتفشى وينتشر ذلك الطعن حتى يتلقّاه جملة من رواة الأئمة عليهم السلام ممّن هم ذوي مشرب ومسلك مختلف مع أسرار المعارف، فيثير لديهم الحفيظة والتحسّس تجاه رواة المعارف فيتفشى ويترسّخ الطعن.

لا سيما ويساعد هذا الأمر أنّ إذاعة وانتشار تلك الروايات يصل إلى ضعاف العقول فيتأولونه على غير حدّه ويقيمون تلك الصفات في غير مقامها، فيستفحل الخطب.

ولا سيما وأنّ هناك شريحة أخرى يصفها أئمة أهل البيت عليهم السلام بالسفلة وقد مرّ أنّهم الذين تملكهم الشهوات وحبّ السمعة، ويقلّ فيهم صفة النجابة وكرامة الطبع، وتقوى فيهم الرذيلة فيتوصلون إلى أغراضهم الدنية السافلة بتقمّص سلوكيات ومقالات المعرفة، ويوغلون في تحريف المعاني والابتداع في تفسيرها ويتّخذون من ذلك مدعاة لاستغفال بسطاء العقول ومصيدة لهم كي يقيموا لأنفسهم الرئاسات الباطلة، وجمع الأموال والمردة، والنيل من الأعراض ونواميس الناس، فيشتدّ الأمر صعوبة ويكثر العضال وتنوب الطامات. ولأجل ذلك حرّم الأئمة عليهم السلام إذاعة ونشر وإفشاء تلك المعارف إلّا للخواصّ ممّن له قدرة في

التحمل ووعي المعاني بالاتزان وطهارة في الأخلاق بعيداً عن ذوي النزعات النفسية وأصحاب الميول والأهواء.

وقد أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام على بيان الفرق بين النبي والرسول والمحدث وأنهم محدّثون.

فمنها ما رواه الكليني بسنده عن عبيد بن زرارة قال: أرسل أبو جعفر عليه السلام إلى زرارة أن يعلم الحكم بن عتيبة أن أوصياء محمد عليه وعليهم السلام محدّثون[١].

أقول: يظهر من الحديث أنّ الحكم بن عتيبة ـ الذي كان من البترية ـ يزعم أنّ الارتباط الغيبي لدى الأئمة عليهم السلام معناه وصولهم إلى درجة النبوّة فأعلمه الإمام بأنهم محدّثون لا أنبياء.

وقد ورد أنّ أبا الخطاب هلك لأنّه لم يدر ما تأويل المحدّث والنبي[٢].

وروى الكليني بسند صحيح عن حمران بن أعين قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ علياً عليه السلام كان محدّثاً. فخرجت إلى أصحابي فقلت جئتكم بعجيبة فقالوا: ما هي؟ فقلت: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان علي عليه السلام محدّثاً، فقالوا: ما صنعت شيئاً ألا سألته من كان يحدّثه فرجعت إليه فقلت: إنّي حدّثت أصحابي بما حدّثتني فقالوا: ما صنعت شيئاً ألا سألته من كان يحدّثه؟ فقال لي: يحدّثه ملك. قلت: تقول: إنّه نبي؟ قال: فحرّك يده هكذا: أو كصاحب سليمان أو كصاحب موسى أو كذي القرنين أو ما بلغكم أنّه قال: وفيكم مثله[٣].

أقول: يظهر من الحديث أنّ المرتكز عند حمران وأصحابه هو أنّ الارتباط الغيبي إنّما يفسّر بالنبوّة وقد نبّهه الإمام عليه السلام على بطلان هذه المزعمة واستشهد بآيات من القرآن حيث إنّه يصرّح فيها بأنّ آصف بن برخيا والخضر وذي القرنين

---

١. الكافي ١ / ٢٧٠ باب أن الأئمة عليهم السلام محدثون مفهّمون / ح ١.
٢. نفس المصدر / ح ٢.
٣. الكافي ١ / ٢٧١ / ح ٥.

كانوا على ارتباط مستمر مع الساحة الربوبية وعالم الغيب والملكوت مع أنّهم ليسوا بأنبياء. ونظيرها ما ورد في شأن مريم وأمّ موسى فلقد خاطبهما الملائكة وتحدّثوا مع جبرئيل، بل يظهر من بعض الآيات أنّ الله تبارك وتعالى كلّم مريم من دون واسطة جبرئيل.

النموذج الثاني: حقيقة الإلهام

فإنّ من يقوم بالإلهام عند العامة ليس إلّا الله تعالى أي أنّ هذا الفعل يسند إليه تعالى لا لغيره، فالملهِم هو الباري تعالى والذي يُلهَم لا يكون إلّا نبيّاً، مع أنّ القرآن الكريم يسند فعل الإلهام إلى الملائكة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿أو يرسل رسولاً فيوحي ما يشاء بإذنه﴾ فأسند الإيحاء هاهنا إلى الرسول بإذن الله تعالى، فالموحي هو الرسول والموحى إليه هو البشر الذي يخصّه الله بالكلام من المصطفين الأطهار، فالملهِم ـ بالكسر ـ هو غيره تعالى ولكن بإذنه، والملهَم من يصطفيه الله. وهذا الإلهام ليس من الضرورة أن يكون من الوحي النبوي بل عن أقسام الارتباط بالغيب الأخرى كما في شأن مريم وأمّ موسى وغيرهما من الأمثلة المضروبة في القرآن.

لكنّ العامة حيث خصّوا الفاعل للإلهام به تعالى والملهَم ـ بالفتح ـ هو النبي ارتكز عندهم أنّ صفة فاعل الإلهام من الصفات الألوهيّة وصفت من يلقى إليه الإلهام هو من صفات النبوّة، فإذا سمعوا بمقالات أو بمضامين روايات أنّ الأئمة عليهم السلام يلهمون نوابّهم الخاصّين ومن يتّخذوه باباً لهم كما ورد في شأن سلمان وجملة ممن كانوا أبواباً للأئمة عليهم السلام وكما في النوّاب الأربعة، حسبوا بأنّ هذه الصفة هي الصفة الألوهية للأئمّة عليهم السلام وأنّ أبوابهم أنبياء.

فأخذ العامّة في طعن أصحاب تلك المقالات واتهامهم بأنهم يدّعون الألوهية في الأئمة عليهم السلام وأنّ هؤلاء الأبواب يدّعون النبوّة والرسالة وأنّ الأئمة عليهم السلام بعثوهم، وعندما يتفشى طعنهم يتلقفه بقيّة رواة الإمامية ممّن ليس لهم مشرب

ومسلك روايات المعارف ويشتدّ الطعن حينئذٍ ويترسّخ. ويزداد الأمر خطباً إذا سرى ذلك إلى السفلة وضعاف العقول فإنّهم يتّخذون هذا التحريف دعوةً ومنهاجاً، ومن ثمّ كانت الإذاعة لهذا النمط من المعارف مدعاة للتحريف ولبروز ونشوء الفرق الضالّة ولتشنيع العامّة بهتاناً بما لا يفقهون.

ومن أمثلة هذه الروايات:

ما رواه الكشي بسنده عن الصادق عليه السلام أنه قال في الحديث الذي روي فيه أنّ سلمان كان محدّثاً قال: إنه كان محدّثاً عن إمامه لا عن ربّه، لأنّه لا يحدّث عن الله عزوجل إلّا الحجّة[١].

مع أنه في الروايات فسّر التحديث بالإلهام والنقرة في الأذن.

وما ورد في زيارة النواب الأربعة: أشهد أنّ الله اختصّك بنوره حتى عاينت الشخص فأديت عنه وأدّيت إليه[٢].

فإنّ المعاينة المذكورة هنا ليس من سنخ المعاينة الظاهرية التي تحصل للبرّ والفاجر بل هي سنخ آخر من العيان الذي لا يحصل إلّا لمن اختصّه الله بنوره، وهو بعد هذه المعاينة يؤدّي عن الإمام عليه السلام فالقناة التي تربط الباب والسفير إلى الإمام قناة غيبي إلهامي.

ومن ذلك يُعلم أنّ انحراف جملة من رواة أسرار المعارف هو في إذاعتهم تلك المعارف التي لا يحتملها الآخرون وتنطبع لديهم معانيها على غير وجهها، فيضعونها على غير حدودها ويحرّفونها ولا يعقلونها، فيدبّ الانحراف ويفشو وكل ذلك بسبب الإذاعة للمعاني الصعاب المعضلات التي لا يتحمّل وعي معانيها وحقائقها الآخرون، فيكون إذاعة أولئك الرواة هو السبب في نشوء هذا الانحراف وهو موجب لصدور اللعن من الأئمة عليهم السلام لهم على ما فعلوه.

---

١. رجال الكشي / ح ٣٤.
٢. تهذيب الأحكام ٦ / ١١٨.

□ السبب الأعظم لجرح الرواة والطعن عليهم عدم تحمّل الأسرار في أحاديث أهل البيت عليهم السلام

إنّ هناك المستفيض من الروايات المتضمّنة لكون علم أهل البيت عليهم السلام ذا طبقات بل هذه الروايات متواترة مع اختلاف ألسنتها وصنوفها، وهي دالّة على وجود علم صعب مستصعب لا يتحمّله نبي مرسل ولا ملك مقرّب ولا مؤمن ممتحن، فكيف يتحمّلة أرباب الجرح في علم الرجال كالفضل بن شاذان وأتباعه من مدرسته والنجاشي وابن الغضائري أو التيّار المتشدّد من القمّيين الذين كان ديدنهم الحدّة في تضعيف الرواة ومضامين الأحاديث في المعارف. وإن لم يكن ذلك التيّار متفرّداً بالساحة العلمية في مدرسة قم الروائية فقد كانت التيّارات على الطرف المعاكس له كما بيّناه سابقاً.

ووجود مثل هذه العلوم والمعارف في روايات أهل البيت عليهم السلام الذي هو على طبقات ودرجات ـ كما يظهر بوضوح لمن تصفّح هذه الروايات ـ لا يمكن إنكاره فلا غرو في أن يتعرّض الرواة الراوون لأبواب وفصول من طبقات هذا العلم إلى أشدّ المواجهة والتكذيب والتفسيق بل إلى القتل كما أشارت إليه هذه المرويات نظير ما ورد في معلّى بن خنيس أنه أذاع السرّ فابتلي بالحديد[1].

---

١. بحار الأنوار ٢ / ٧١ ح ٣٤.

وممّا يشهد على أنّ بعض التضعيفات والجروح الواردة في حق بعض الرواة كان بسبب عدم وعي وتحمّل ما يرويه ذلك الراوي من أسرار المعارف، طوائف من الروايات بألسنة مختلفة:

الطائفة الأولى:

ما دلّ على أنّ بعض الأصحاب كانوا ينكرون بعض الأسرار من المعارف ولا يقفون عن رمي راويها والوقيعة فيه.

فمنها: ما رواه العبيدي عن أخيه جعفر قال: كنّا عند أبي الحسن الرضا عليه السلام وعنده يونس بن عبد الرحمن إذ استأذن عليه قوم من أهل البصرة فأومأ أبو الحسن عليه السلام إلى يونس: ادخل البيت فإذا بيت مسبّل عليه ستر وإياك أن تتحرك حتى يؤذن لك، فدخل البصريون وأكثروا من الوقيعة والقول في يونس وأبو الحسن عليه السلام مطرق حتّى لما أكثروا وقاموا فودّعوا وخرجوا فأذن ليونس بالخروج فخرج باكياً فقال: جعلني الله فداك إنّي أحامي عن هذه المقالة وهذه حالي عند أصحابي. فقال له أبو الحسن عليه السلام: يا يونس وما عليك ممّا يقولون إذا كان إمامك عنك راضياً. يا يونس حدّث الناس بما يعرفون واتركهم ممّا لا يعرفون كأنك تريد أن تكذب على الله في عرشه. يا يونس وما عليك أن لو كان في يدك اليمنى درّة ثم قال الناس بعرة أو بعرة فقال الناس درّة هل ينفعك ذلك شيئاً؟ فقلت: لا. فقال: هكذا أنت يا يونس إن كنت على الصلوات وكان إمامك عنك راضياً، لم يضرك ما قال الناس[1].

ويظهر من هذا الحديث أنّ مقال يونس كان حقّاً صحيحاً وقد رضي عنه الإمام عليه السلام وكان يونس يحمي ويذود عنها بكلّ قوة، بينما كان ذلك المقال والمعتقد عند بعض أصحاب يونس ممّا يوجب القدح والوقيعة في يونس.

ومنها: ما رواه الكشي عن حمدويه عن اليقطيني عن يونس قال: قال العبد

---

١. رجال الكشي / رقم ٩٢٤.

الصالح عليه السلام: يا يونس ارفق بهم فإنّ كلامك يدقّ عليهم، قال: قلت: إنّهم يقولون لي: زنديق. قال لي: ما يضرّك أن تكون في يديك لؤلؤة فيقول لك الناس: هي حصاة، وما كان ينفعك إذا كان في يدك حصاة فيقول الناس هي لؤلؤة[١].

ومنها: ما رواه الحلي في مختصر البصائر عن معاوية بن عمار الدهني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا معاوية أتريدون أن تكذّبوا الله عزوجل فوق عرشه لا تحدّثوا الناس إلّا بما يحتملون فإنّ الله تبارك وتعالى لم يزل يعبد سرّاً[٢].

ومنها: ما رواه الشيخ في الأمالي عن المفيد عن أبي علي محمد بن همام الأسكافي عن الحميري عن ابن عيسى عن الحسين بن سعيد عن ابن حديد عن ابن عميرة عن مدرك بن الهزهاز قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: يا مدرك إنّ أمرنا ليس بقبوله فقط ولكن بصيانته وكتمانه عن غير أهله، اقرأ أصحابنا السلام ورحمة الله وبركاته وقل لهم: رحم الله امرأ اجترّ مودّة الناس إلينا فحدّثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون[٣].

ومنها: ما رواه العياشي في تفسيره عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن الأمور العظام التي تكون ممّا لم تكن فقال: لم يأن أوان كشفها بعد وذلك قوله: ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾[٤].

ونظيره ما رواه العياشي أيضاً عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام [٥].

ومنها: ما رواه الكشي بسنده عن داود بن كثير قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: إذا

---

١. بحار الأنوار ٢ /ح ٦.

٢. مختصر البصائر / ٢٨٢ / ٢٨٤.

٣. أمالي الطوسي: ٨٦ حديث ١٣١، بحار الأنوار ٢ / ٦٨ /ح ١٥.

٤. يونس: ٣٩.

٥. تفسير العياشي: ١٢٢/٢ حديث ١٩ و ٢٠، بحار الأنوار ٢ / ٧٠ /ح ٢٥ و ٢٦.

حدّثت عنّا بالحديث فاشتهرت به فأنكره[١].

ومنها: ما رواه الكشي بسنده عن جابر قال: دخلت على أبـي جـعفر عليه السلام ... ودفع إليّ كتاباً وقال لي: إن أنت حدّثت به حتى تهلك بنو أميّة فعليك لعنتي ولعنة آبائي وإذا أنت كتمت منه شيئاً بعد هلاك بني أميّة فعليك لعنتي ولعنة آبائي، ثم دفع إلي كتاباً آخر ثم قال: وهاك هذا فإن حدثت بشيء منه أبداً فعليك لعنتي ولعنة آبائي[٢].

والحديث دالّ على أنّه ليس لجابر أن يحدّث ما أودع في الكـتاب الثـاني أحداً أبداً حتى لكبار الرواة وأجلّاء الطائفة كزرارة ومحمد بن مسلم وغـيرهما. ومن هنا لما اشتكى إلى الإمام من ثقل ذلك في صدره أمره الإمام بأن يحفر حفيرة ويدل رأسه فيها ثم يقول للأرض تلك الأسرار[٣] ولا يقولها لهؤلاء الأجلاء من رواة الطائفة.

ومنها: ما رواه النعماني في الغيبة بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لحذيفة ابن اليمان: يا حذيفة لا تحدّث الناس بما لا يعلمون فيطغوا ويكفروا. إنّ من العلم صعباً شديداً محمله لو حملته الجبال عجزت عن حمله إنّ علمنا أهل البيت يستنكر ويبطل وتقتل رواته ويساء إلى من يتلوه بغياً وحسداً لما فضّل الله به عترة الوصي وصيّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٤].

قال الفيض في الأصول الأصيلة:

وعن الصادق عليه السلام: خالطوا الناس بما يعرفون ودعوهم مما ينكرون ولا تحملوا على أنفسكم وعلينا أنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

فقال في توضيح الحديث: وذلك لأنّ أسرار العلوم على ما عليها لا يطابق ما

---

١. بحار الأنوار ٢ / ٧٥ / ح ٥١.
٢. رجال الكشي / رقم ٣٣٩.
٣. رجال الكشي / رقم ٣٦٣.
٤. الغيبة النعماني: ١٤٢ ح ٣، بحار الأنوار ٢ / ٧٨ / ح ٦٥.

يفهمه الجمهور من ظواهر الشرع فلابدّ أن يكون الإنسان أحد رجلين إمّا محقّقاً صاحب كشف ويقين أو مقّلداً صاحب تصديق وتسليم وأما الثالث فهالك وهو الذي يمزج الحق بالباطل ويحمل الكتاب والسنة على رأيه ويخلطهما بعقله الناقص كما ورد في الأخبار الكثيرة[١].

والحاصل من هذه الطائفة من الروايات أنّ جملة من معارف أهل البيت عليهم السلام فوق طاقة وتحمّل البعض، ولأجل ذلك أمروا عليهم السلام بكتمانها عن غير أهلها، وبإنكارها إذا اشتهر بها وذلك لأنّ هذه الأحاديث والمعارف صعب لا يتحمّله غير المتمحّض فيها فيحملهم ذلك على التكذيب والوقيعة في الحديث وراويه.

ومنه يظهر أنّ كثيراً من الجرح والوقيعة والتضعيف للرواة كان ناشئاً من هذا المنشأ كما قال تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾[٢]، فلا يستغرب الباحث من كثرة طعن الرجاليين كابن الغضائري والنجاشي والكشي وغيرهم في رواة المعارف الراوين لمسائل وفصول عديدة لم يحصل لأولئك الرجاليين الخوض فيها أو القدرة على البحث فيها، فلا محالة يكون موقفهم منها موقف مستنكر طاعن متحامل عليها بشدّة.

هذا فضلاً عن التأثر بطعون العامّة في أولئك الرواة وإرسالهم لتلك الطعون إرسال المسلّمات إلى درجة يهاب الباحث الرجالي من الخدشة فيها أو التروّي في صحّتها.

الطائفة الثانية:

ما ورد في أنّ أبا ذرّ ومقداد لا يتحملان علم سلمان وكذا العكس.

منها: ما رواه الكشي عن طاهر بن عيسى الوراق رفعه إلى محمد بن سفيان

---

١. الأصول الأصيلة / ١٦٩ .

٢. يونس: ٣٩.

عن محمد بن سليمان الديلمي عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا سلمان لو عرض علمك على مقداد لكفر، يا مقداد لو عرض علمك على سلمان لكفر[١].

ونقله المفيد بسند آخر: ابن قولويه عن سعد بن عبد الله عن محمد بن الحسين عن محمد بن أسلم الجبلي عن علي بن أبي حمزة مع تفاوت في آخره يا مقداد لو عرض صبرك على سلمان لكفر[٢].

ومنها: ما رواه الكشي: قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا ذر إنّ سلمان لو حدّثك بما يعلم لقلت رحم الله قاتل سلمان، يا أبا ذر إنّ سلمان باب الله في الأرض من عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً وإنّ سلمان منّا أهل البيت عليهم السلام[٣].

ومنها: ما رواه أيضاً عن مسعدة بن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: ذكرت التقية يوماً عند علي عليه السلام فقال: إن علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما فما ظنّك بسائر الخلق[٤].

وروى الصفّار قال: حدثنا عمران بن موسى ومحمد بن علي وغيره عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة مثله[٥].

ومنها: ما رواه الكشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خطب سلمان فقال: ... إلى أن قال: ولو أخبرتكم بكلّ ما أعلم لقالت طائفة: مجنون، وقالت طائفة أخرى: اللهم اغفر لقاتل سلمان[٦].

---

١. رجال الكشي ٧٢ / ح ٢٣.
٢. الاختصاص: ١١.
٣. رجال الكشي: ٧٧ / ح ٣٣.
٤. رجال الكشي: ٧٩ / ح ٤٠.
٥. بصائر الدرجات: ١ / ٧١ح ٢٠ باب في أئمة آل محمد عليهم السلام، وأنّ حديثهم صعب مستصعب.
٦. رجال الكشي: ٨٣ / ح ٤٧.

وروى في الاحتجاج عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه قال: خطب الناس سلمان الفارسي رضي الله عنه بعد أن دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام فقال: ألا أيها الناس اسمعوا عنّي حديثي ثم اعقلوه عنّي ألا وإني أوتيت علماً كثيراً فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين لقال طائفة منكم هو مجنون وقال طائفة أخرى اللهم اغفر لقاتل سلمان.(١)

قال العلّامة المجلسي رحمه الله: قوله عليه السلام: في قلب سلمان ـ في ما رواه مسعدة بن صدقة ـ أي من مراتب معرفة الله ومعرفة النبي والأئمة صلوات الله عليهم فلو كان أظهر سلمان له شيئاً من ذلك لكان لا يحتمله ويحمله على الكذب وينسبه إلى الارتداد أو العلوم الغريبة والآثار العجيبة التي لو أظهرها له لحملها على السحر فقتله، أو كان يفشيه ويظهره الناس فيصير سبباً لقتل سلمان على الوجهين. وقيل الضمير المرفوع راجع إلى العلم والمنصوب إلى أبي ذر أي لقتل وأهلك ذلك العلم أبا ذر أي كان لا يحتمله عقله فيكفر بذلك أو لما يطيق ستره وصيانته فيظهره للناس فيقتلوه(٢).

وقال الخاقاني: من مارس الأخبار وتصفح الآثار لا يشك في أنه قد كان لكل واحد من الأئمة عليهم السلام خواص من شيعته يطلعونهم على عجائب أمورهم وغرائب أخبارهم ولم يطلعوا سواهم عليها لعدم اتساع صدورهم لتحمل مثل تلك الأمور النادرة، فإذا حدث أولئك الخواص بتلك الأحاديث التي لم يشاركوا في روايتها بادر طوائف من الشيعة إلى تكذيبهم والرد عليهم ونسبتهم إلى الغلو وارتفاع القول كما وقع في شأن سلمان وأبي ذر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله(٣).

والجامع في هذه الأحاديث عن سلمان أنّ ما يعلمه سلمان لو اطّلع أبو ذرّ

---

١. الإحتجاج: ١/١٥١.

٢. بحار الأنوار ٢٢ / ٣٤٣.

٣. رجال الخاقاني: ١٦٠ .

على مقالته لحسبها أنها من الكفر أي أنّ تلك المقالة والأمور التي يعتقدها سلمان هي كفر بحسب الأفق العلمي والقناعات المعرفية عند أبي ذرّ، وعلى هذا التقدير فلو صدر القول بالتكفير عن أبي ذرّ في حقّ سلمان لما كان له حقيقة لعدم إخلال سلمان بحقيقة التوحيد وبقيّة أصول المعارف، وإنّما يحسب أبو ذرّ أنّ تلك المقالات التي يتبنّاها سلمان هي تطرّف وإفراط في القول وإسناد الشؤون الإلهيّة لغير الله.

فإذا كان هذا موقف أبي ذر وهو ممّن بلغ الدرجة التاسعة من الإيمان تجاه معارف سلمان الذي بلغ الدرجة العاشرة فكيف بسائر الخلق ممّن هو في الدرجات الدانية من الإيمان كما بيّن ذلك في موثقة مسعدة بن صدقة، بل كيف يتوقع نظرة غير المؤمن من سائر المسلمين تجاه تلك المعارف.

ومن ثمّ نخرج بنتيجة أنّ إسناد الكفر تجاه رواة المعارف والأسرار لابدّ من التثبّت فيها والتروّي والوقوف على حقيقة مقال من أسند إليه الغلوّ أو التكفير. ومن ثمّ مارس سلمان التقية في تلك المعارف مع أبي ذرّ ولو أقدم على إذاعتها وإفشائها لرمي سلمان بالكفر كما رمي غيره.

وبعبارة أخرى: أنّ هناك معنى للغلو غير ما اشتهر من معناه ـ كما سيأتي في مبحث معاني الغلو ـ وهو التعويل على مقالة حقّ، فيها من المعرفة العظيمة بحيث يتعاظم العارف بها إلى ما يؤدّي إلى التفريط بالأعمال والحدود والأحكام الظاهرة ويبلغ من عظم المعرفة في تلك المقالة استنكارها من الخواصّ فضلاً عن عموم العامّة وذلك لعدم وعيهم حقايقها وتأويلها، وهذا يؤكّد أنّ جملة من المقالات الحقّة لها مثل هذه التداعيات وردّ الفعل المنطبع على الآخرين بهذا النحو.

وبعبارة ثالثة: إنّ جملة من المعارف الحقّة لصعوبة فهمها ودركها على نخبة العقول فضلاً عن عموم الأذهان يستعصي فهمها بنحو موزون سديد لا يقع تأويلها وتفسيرها على معنى منحرف خاطىء، يحظر إفشائها ونشرها على السطح

العامّ لأنّها تُحدث معنى خاطئاً انحرافياً لدى الكثير، فيكون الغلوّ في هذا النمط هو الإفراط في الإذاعة والنشر أو تسبيب وقوع والتغرير بجرّ جماعة من السذّج إلى الالتزام بمقالات يفرط فيها القول. وممّا يؤكّد وجود هذا المعنى من الغلو عدة طوائف من الروايات الأخرى وسيأتي ذكرها.

الطائفة الثالثة:

ما ورد في أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام من مقامات لم يظهرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعدم تحمّل الناس.

قال علي عليه السلام: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتحت خيبر: لولا أن يقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النصارىٰ في عيسى بن مريم لقلت فيك مقالة لا تمرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا من تراب رجليك ومن فضل طهورك يستشفون به[1].

وهذا الحديث ممّا رواه الفريقان، ويظهر هذا الحديث أنّ هناك جملة من النعوت والصفات والمقامات لعلي عليه السلام لم يظهرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أنّها معرفة حقّة لا تتنافى مع عبودية علي عليه السلام لله ومخلوقيته، إلّا أنّ طوائف من هذه الأمة حيث لا تعقل تلك الصفات ولا تعيها على حقائقها تدفع بها تلك الأحاديث النبوية ـ لو اُفشيت ـ إلى تخيّل وتوهّم الألوهية في علي عليه السلام كما قالت النصارى بالألوهية في عيسى بن مريم عليه السلام. ولا يخفى أن مناسبة صدور هذا الحديث من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو يوم فتح خيبر الذي قلع فيه أمير المؤمنين عليه السلام باب خيبر بمفرده ورمى به من أعلى الحصن إلى أسفل الوادي والذي ورد في بعض الروايات والله ما قلعت باب خيبر ورميت بها خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسديّة ولا حركة غذائية لكنّي أيّدت بقوة

---

١. إحقاق الحق ٢٢ / ٢٥٦ عن توضيح الدلائل للشافعي الشيرازي، وإحقاق الحق ٢٢ / ٣٥٨ عن الوسيلة للخضر الموصلي، وإحقاق الحق ١٥ / ٢١٩ عن مناقب ابن المغازلي الشافعي.

ملكوتية ونفس بنور ربها مضيئة[١].

وكان فتح أمير المؤمنين عليه السلام لخيبر عندما عجز المسلمون حيث انتدب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر في أحدىٰ الحملات ثم عمر ثم عمرو بن العاص وكلّ منهم رجع يجبّن الناس ويجبّنونه.

فهو عليه السلام رغم كمائن الوادي التي لا يمكن اجتيازها، ثم أطواق بيوت اليهود حول الجبل والحصن التي هي بمثابة الدرع الثاني للقلعة، ثم الصعود إلى باب القلعة فوق الجبل مع تسلّط اليهود من فوق القلعة والجبل على من يرومهم من الأسفل، فكلّ هذا الفتح كان إعجازاً فوق قدرة البشر حيث ورد الوسام النبويّ: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار ثم لا يرجع حتى يفتح الله على يديه[٢].

فمناسبة صدور الحديث أنّ في مقالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي لم يظهرها صفات غيبيّة وملكوتية لعلي عليه السلام لا تحتملها الأذهان وتندفع في تفسيرها وتأويلها إلى التأليه توهّماً منهم أنّ تلك الصفات هي الصفات الألوهية، مع أنّها صفات المخلوق فالعقدة والانحراف والبطلان ليس في أصل تلك الصفات ومنشأ تلك المقولات بل هي في تأويلها الخاطىء وتفسيرها المنحرف.

وقد مرّ أنّ عمّاراً لمّا مر مع أمير المؤمنين بواد النمل كان يستعظم أن يعلم عددها مخلوق فنبّهه عليه السلام أنه يعلمه وهو الإمام المبين الذي أحصاه الله فيه كلّ شيء[٣].

ومن ذلك ما نسب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام من قوله:

---

١. الأمالي للشيخ الصدوق / ٦٠٤. روضة الواعظين / ١٢٧، ونظيره نهج البلاغة / كلمات قصار ٦٢٦.

٢. الاحتجاج ١ / ٤٠٦.

٣. راجع بحار الأنوار ٤٠ / ١٧٦.

إنــي لأكــتم مــن عـلمي جـواهـره كي لا يرى الحـقّ ذو جـهل فـيفتتنا
وقـد تـقدّم فـي هـذا أبـو حسـن إلى الحسين وأوصـى قبله الحسنا
فـربّ جـوهر عـلم لو أبـوح بـه لقـيل لي أنت مـمن يـعبد الوثـنا
ولاسـتحل رجال المسلمين دمـي يـرون أقـبح مـا يأتـونه حسـنا[١]

والبيت الأول دال بوضوح أنّ من نفائس المسائل العلمية ما لو أظهر لعامّة الأذهان والعقول لسبّب افتتانها أي ينطبع معنى خاطئها بدل ذلك المعنى الصحيح ولما قدرت تلك العقول على تصوّره بما هو عليه. ويشير البيت الثالث أن جواهر تلك العلوم هي مرتبطة بمقامات النبي وأهل البيت عليهم السلام وأنّه لو أظهرت للعقول القاصرة لظنّت أنّ ذلك تأليه لهم ويشير البيت الرابع أنّ كثيراً من طعون التكفير لأصحاب المقالات المرميّين بالغلو فيهم هـي بسـبب عـدم تـحمّل نسبة هـذه الصفات لهم عليهم السلام مع أنّها ليست إلّا من باب عباد مكرمون بكرامات الله وتمكينه لهم.

الطائفة الرابعة:

ما ورد في أنّ حديثهم صعب مستصعب.

كما روى الصدوق في حديث الأربعمائة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: خالطوا الناس بما يعرفون ودعوهم ممّا ينكرون ولا تحملوهم على أنفسكم وعلينا إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد قد امتحن الله قلبه للإيمان[٢].

وروى الصفّار عن ابن أبي الخطاب عن محمد بن سنان عن عمار بن مروان عن المنخل عن جابر قال: قال أبو جعفر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ حديث آل محمد صعب مستصعب لا يؤمن به إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قـلبه للإيمان فما ورد عليكم من حديث آل محمد صلوات الله عليهم فلانت له قلوبكم وعرفتموه

١. الغدير ٧ / ٥٢ نقلاً من تفسير الآلوسي ٦ / ١٥٠ .
٢. الخصال: ٦٢٤ ح ١٠، بحار الأنوار ٢ / ١٨٣ .

فاقبلوه وما اشمئزت قلوبكم وأنكرتموه فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد عليهم السلام وإنما الهالك أن يحدّث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا ـ ثلاثاً ـ[١].

وروى أيضاً عن ابن عيسى عن محمد بن سنان عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ حديث آل محمد صعب مستصعب ثقيل مقنّع أجرد ذكوان لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله للإيمان أو مدينة حصينة فإذا قام قائمنا نطق وصدّقه القرآن[٢].

وروى عن سلمة عن محمد بن المثنى عن إبراهيم بن هشام عن إسماعيل بن عبد العزيز قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثنا صعب مستصعب، قال: قلت: فسّر لي جعلت فداك، قال: ذكوان ذكي أبداً. قلت: أجرد؟ قال: طريّ أبداً، قلت: مقنّع قال: مستور[٣].

قال العلّامة المجلسي: الذكاء التوقد والالتهاب أن ينوّر الخلق دائماً والأجرد الذي لا شعر على بدنه ومثل هذا يكون طرياً حسناً فاستعير للطراوة والحسن[٤].

وروى عن محمد بن عبد الجبار عن الحسن بن الحسين اللؤلؤي عن محمد ابن الهيثم عن أبيه عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ثلاثة: ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، ثم قال: يا أبا حمزة ألست تعلم أنّ في الملائكة مقربين وغير مقربين وفي النبيين مرسلين وغير مرسلين وفي المؤمنين ممتحنين وغير ممتحنين قلت: بلى، قال: ألا ترى إلى صفوة أمرنا أنّ الله اختار له من الملائكة مقربين ومن النبيين مرسلين ومن المؤمنين

---

١. بصائر الدرجات: ٤٠ ح ١، بحار الأنوار ٢ / ١٨٩ .
٢. بصائر الدرجات: ٤١ ح ٣، بحار الأنوار ٢ / ١٩١ .
٣. بصائر الدرجات: ٤٢ ح ٨.
٤. بحار الأنوار ٢ / ١٩١ .

ممتحنين[١].

وغير ذلك من الأخبار الكثيرة.

وفي هذه الأخبار إشارة واضحة إلى أنّ جملة من معارف أهل البيت عليهم السلام لا يحتملها عموم المسلمين من المذاهب الأخرى ومن ثمّ يندفعون إلى إنكارها أشدّ الإنكار بل يسبّب ذلك تحاملهم على أهل البيت عليهم السلام وعلى أتباعهم بالنكير أي التكفير والتضليل، فأمر أهل البيت عليهم السلام وشأنهم عليهم السلام ووجودهم وأرواحهم الأمريّة صعب، فإنّه قد وصف في بعض الروايات الصعب هو الذي لا يركب والمستصعب هو الذي يفرّ من أوّل مشاهدة له[٢].

وقال العلامة المجلسي: الصعب هو الجمل الذي يأبى عن الركوب والحمل وظاهر أنّ المراد به هنا الامتناع عن الإدراك والفهم.

بل قد ورد في بعض الأخبار أنّ حديثهم وأمرهم لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا عبد مؤمن قال الراوي: فمن يحتمله فقال الإمام عليه السلام: نحن نحتمله[٣].

فهناك جملة من المعارف الغامضة التي اختص بها أهل البيت عليهم السلام ولا يعيه ولا يحتمله غيرهم مهما بلغ.

فمن ذلك ما رواه الحلي في مختصر البصائر بسنده عن ابن أبي عمير عن الباقر عليه السلام، قال: لقد سأل موسى عليه السلام العالم مسألة لم يكن عنده جواب ولو كنت شاهدهما لأخبرت كل واحد منهما بجوابه ولسألتهما مسألة لم يكن عندهما فيها جواب[٤].

ويبيّن هذا الحديث والذي يطابق قاعدة أنّ القرآن مهيمن على كتب الأنبياء السابقين وأنّ علم القرآن كله قد ورثه أهل البيت عليهم السلام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ النبي

---

١. بحار الأنوار ٢ / ١٩٦.

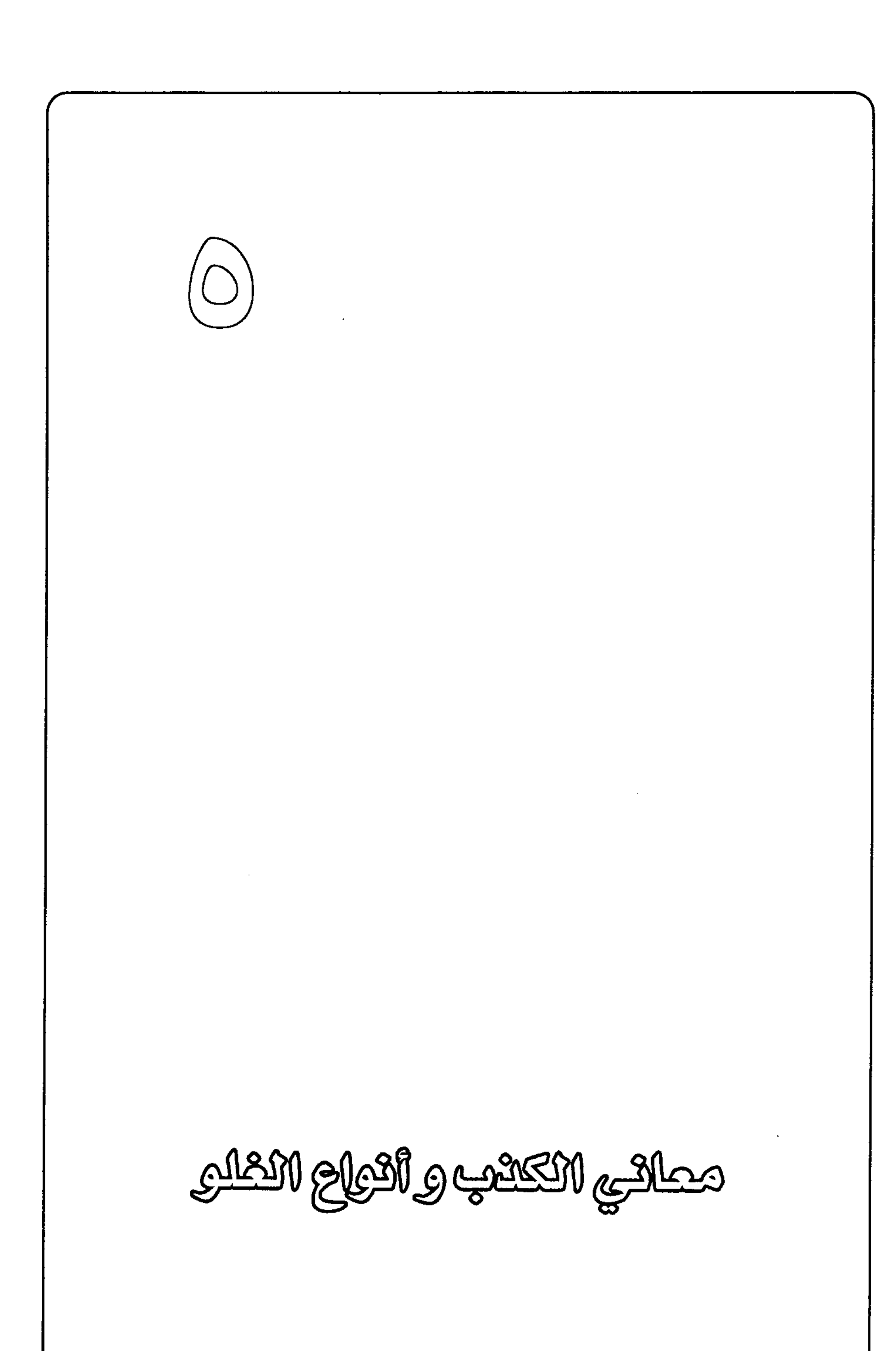
٢. بحار الأنوار ٢ / ١٩٤.

٣. بحار الأنوار ٢ / ١٩٣ / ح ٣٦ و ٣٩.

٤. مختصر البصائر / ٣٠٢ / ح ٣١٧.

موسى عليه السلام ثقل عليه الصبر على علم الخضر فكيف يكون حال النبي موسى مع علم أهل البيت الذي هو فوق علم الخضر، بل إنّ الخضر حاله مع علم أهل البيت كما هو حال موسى معه فإذا كان الخضر والنبي موسى يصعب عليهم تحمل علم أهل البيت عليهم السلام فكيف الحال بمن دونهما؟

وجملة أخرى من معارفهم إنّما يحتمله من الملائكة المقربين منهم، ومن الأنبياء المرسلين منهم، ومن المؤمنين الممتحنين منهم، فهذه الطائفة من المعارف لو وصلت إلى الملائكة غير المقربين أو الأنبياء غير المرسلين أو المؤمنين غير الممتحنين لاشمأزوا منه وينكروه ولا يقروا به، وإذا كان هذا حال بعض الملائكة والأنبياء فما ظنّك بغيرهم من الذين لم يخوضوا في المعارف بنحو العمق العالي كأمثال النجاشي وابن الغضائري.



٥

معاني الكذب و أنواع الغلو

□ معاني الكذب في اللغة

إنّ الكثير يتوهّم أنّ للكذب معنى واحداً وهو الكذب في الإخبار، فإذا اتّصف راو معين بالكذب فمعناه أنه يجعل الخبر من عند نفسه وينسبه للإمام عليه السلام لا سيما إذا قيل إنّه كذّاب. وهذا غفلة عن حقيقة الحال فإنّ للكذب معان وأقسام عديدة، وقد استعملت الكلمة في الروايات وأطلقت على الغلاة. وفي كثير من تلك المعاني ليس الكذب بمعنى الإخبار بخلاف الواقع من حيث مضمون الخبر، وإن كان مخالفاً للواقع أو للموازين المقرّرة من جهات أخرى، كما هو الحال في نقيض الكذب وهو الصدق.

فإنّ للكذب في اللغة معانٍ كثيرة:

١ ـ ففي لسان العرب أنه استعمل في مخالفة الوعد أو العهد.

٢ ـ وفيه أيضاً أنه استعمل أيضاً في الرد فقيل في قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾[1] أي ليس يردّها شيء كما عن الزجاج، أو ليس لها مردود ولا ردّ كما عن الفرّاء.

٣ ـ وأيضاً استعمل في الوهم كما قيل في قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما

١. الواقعة: ٢.

رأى﴾[١] أي ما أوهمه الفؤاد أنّه رأى ولم يرى بل صدقه الفؤاد رؤيته.

٤ ـ واستعمل أيضاً في التمنّي بغير الحق كما يقال: كذبته نفسه أي منّته بغير الحق، وفي مجمع البحرين: والكواذب النفوس الأمّارة الخادعة للإنسان بالآمال الكاذبة[٢]، أي الأمر بغير الحق والخداع به ومنه قول لبيد:

أكــذب النــفس إذا حــدّثتها ... غــير أن لا تكــذبنّها فــي التـقى

أي منّ نفسك العيش الطويل لتأمل الآمال البعيدة فتجدّ في الطلب لأنّك إذا صدّقتها فقلت: لعلك تموتين اليوم أو غداً قصر أملها وضعف طلبها[٣].

٥ ـ وفي المجمع أيضاً، والكذب هو الانصراف عن الحق وكذلك الإفك.

٦ ـ وفيه أيضاً: وكذب قد يكون بمعنى وجب ومنه الحديث «ثلاثة أسفار كذبت عليك» ومنه «كذب عليكم الحج»[٤].

أقول: هذا إذا لم يكن اشتباه من النساخ في رواية الحديث وإن اللفظ بصورة «كتبت عليكم» أو «كتب عليكم».

٧ ـ وفي اللسان أيضاً: كذّب عنه أي أحجم وحمل عليه، فما كذّب أي ما انثنى فيكون بمعنى الإحجام والانثناء[٥]، وقريب منه ما قيل إنه بمعنى الفتور كما في تاج العروس[٦].

٨ ـ واستعمل أيضاً بمعنى الخطأ من دون تعمد الخلاف.

٩ ـ ويستعمل أيضاً بمعنى الإغراء تقول للرجل إذا أمرته بشيء وأغريته:

---

١. النجم: ١١.

٢. مجمع البحرين: ٤/٢٧.

٣. تاج العروس: ١/٤٤٩.

٤. مجمع البحرين: ٤/٢٧.

٥. لسان العرب: ١/٧٠٨.

٦. تاج العروس: ١/٤٥٠.

كذب عليك كذا أي عليك به، فهو بمعنى حرّض وحرّش وأمكن منه.

١٠ ـ ومنه أيضاً كذّب بالأمر أي أنكره.

ومن ثم يتبيّن أن إسناد الكذب في الاستعمال الروائي لبعض الرواة ليس من الضروري أن يكون بمعنى الإخبار بخلاف الواقع فإذا ورد كذب عليّ فلان وأذاع سرّي يحتمل فيها جملة هذه المعاني العشرة الأخرى.

ولا نريد من تعدّد هذه المعاني تعدّدها بلحاظ أصل المعنى، بأن يكون للكذب عشرة معان بنحو المشترك اللفظي، بل المراد أنّ المعاني المستعمل فيها الكذب ولو بلحاظ المناسبات الموجودة بينه وبين المعاني الأخرى هو بتعداد عشرة معاني أخر كثيرة الاستعمال، فالاستعمال المتقدّم يحتمل فيه أن يكون بمعنى: كذب عليّ أي خالف عهدي، أو بمعنى ردّ عليّ ما قد أمرته به، أو بمعنى وهم في بعض ما قال،أو بمعنى تمنّى عليّ الأماني الباطلة أي أراد منه ما ليس بحق.

□ أقسام الكذب التي ارتكبها الغلاة

ظهر ممّا ذكرنا في موارد استعمال الكذب في اللغة أنّه ليس كلّ كذب بمعنى الإخبار بخلاف الواقع، بل قد يكون الخبر مطابقاً للواقع ومع ذلك يكون المخبر كاذباً في إخباره. ولا يستغرب ذلك.

فقد ورد هذا الاستعمال في القرآن المجيد حيث وصف من أخبر بما لا ينبغي الإخبار به ـ لعدم توفّر شرائط الإخبار وظروفه المناسبة ـ كاذباً، وذلك لما يسبّب هذا الإخبار الوقوع في المهالك الموهلة. فقد اشتهر أنّه لا يسوغ الإخبار بكلّ صدق أي أنّ بعض الإخبارات الصادقة من حيث مطابقتها للواقع ليس المصلحة في إبرازها بل فيه مفسدة فهو كذب من جهة أخرى.

فمن ذلك قوله تعالى في الإفك: ﴿ولولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾[1].

فإنّه علّل في الآية كونهم من الكاذبين عند الله عدم إتيانهم بالشهداء لا كون كلامهم خلاف الواقع. فإنّ من يشهد بأمر رآه بأمّ عينه كيف يكون كاذباً لأجل عدم إتيانه بالشهداء غيره، فالمعنى أنّه ما لم يتوفّر لديه أربعة شهداء فالإخبار بما رآه مخالف لموازين الستر والعفاف؛ فهو كاذب أي أنّه أخبر بما لا ينبغي الإخبار به

---

١. النور: ١٣.

وإن كان الإخبار مطابقاً للواقع.

ومن لطائف الآية أنّه تعالى يعتبرهم كاذبين عند الله وليس عند الناس، أي بالمقايسة والموازنة مع أحقّ الحقائق والواقعيات. وهذا دليل وبرهان على أنّ الكذب بهذا المعنى ليس معنى مجازياً غير حقيقي، بل إنّ كذبهم هذا لأجل أداء الشهادة في حين عدم توفّر بقية الشهود كذب في مقياس الله الذي هو أحقّ الحقائق وليس فوقه حقيقة.

ونظير ذلك ما ورد في آية قذف المحصنات حيث قال تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ... أولئك هم الفاسقون﴾.[١]

فإنّه تعالى علّل كونه من الفاسقين لعدم إتيانهم بأربعة شهداء لا إخبارهم بما يخالف الواقع فلو كان الرامي رأى بعينه وسمع بأذنيه فلو أخبر بذلك من دون زيادة ونقصان فهو فاسق ويجب جلده ولا تقبل شهادته أبداً، لأنّه ليس له أن يخبر بذلك ما لم يتوفر لديه أربعة شهداء.

ونستخلص من الآيتين أنّ المخبر إذا لم يكن مرخّصاً في الإخبار فإخباره يكون كذباً وهو كاذب عند الله، حتّى لو كان ما أخبر به عين متن الواقع.

وعلى ضوء ذلك يمكن أن يقال إنّ من أخبر بحديث سمعه من الإمام عليه السلام يكون كاذباً فيما إذا كان هذا الإخبار مخالفاً للموازين المقرّرة عندهم عليهم السلام، ولذلك ورد في من أذاع أسرار أهل البيت عليهم السلام أنّه كذب عليهم لأجل أنّ في هذا الإخبار مفسدة من حيث عدم تحمّل السامعين ممّا يسبّب الوقوع في المخاطر الاعتقادية لدى السامع، أو يسبّب تحريض الطغاة على إمحاء معالم أهل البيت عليهم السلام فيكون المذيع بذلك هو المسبّب لهذه المخاطر فهو كمن قاتلهم عمداً لا سهواً.

---

١. النور: ٤.

ولاية الأخبار وصلاحية الناطق الرسمي

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ءالله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[1].

فإنّه قد وقع التقابل بين الإذن والافتراء، وهذه الآية من الملاحم التي وقع المفسرون في حيص وبيص فإنّ الذي يقابل الافتراء هو الصدق، والذي يقابل الإذن هو التصرّف في ما لا يملك الإنسان فيكون تقحّماً في ملك الغير فكيف تتمّ هذه المقابلة. وعلى أي تقدير يظهر من الآية أنّ الإخبار عن الله أو عن دين الله يشترط فيه الإذن والترخيص لأنّ هذا الإخبار مهما تنزّلت درجته فإنّه يأخذ طابعاً ولائياً يحتاج إلى صلاحية معطاة وذلك بسبب كونه إخباراً عن الله أو عن دينه وهو من الشؤون الراجعة إلى تعالى، فإفشائه وكشفه أو إيصاله إلى الغير يحتاج إلى ترخيص وتولية من قِبله تعالى.

ودرجات هذا الإخبار قد تكون في المرتبة العالية كما في إبلاغ رسالة الرسول والنبي وكما في الإبلاغ عن الرسول الأمور التي لم يتصدّى ﷺ لإبلاغ الناس مباشرةً وهو إبلاغ الإمام عن الرسول الذي يشير إليه قول الله في الحديث القدسي الذي أتى به جبرئيل في تبليغ سورة البراءة: ولا يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك[2].

وكما في الترخيص للفقهاء بشرط أن يكون نفرهم وتحصيلهم للعلوم من الرسول أو المعصوم ليتفهموا الدين عنهم ومن ثمّ يسوغ لهم الإنذار والإفتاء.

ومن ثمّ يعرّف الناطق الرسمي باسم الدولة أو باسم الحكومة أو باسم المجلس النيابي أو باسم أيّ هيأة عليا أو سلطة أنّه لا يزاول عملية إخبار محضة، بل يتقلّد نحو ولاية وصلاحية مقام. ويتبيّن بذلك أنّ الإعلام والإظهار لأمور بطبيعتها مكتومة وبطبيعتها في طيّ حراسة الخفاء يحتاج إلى صلاحية وإذن، ومن

---

١. يونس: ٥٩.

٢. الإرشاد: ١/٦٥، مناقب آل أبي طالب: ١/٢٩١.

دونه يكون هذا المظهر والمذيع كاذباً لأنّه يتقلّد ويمارس صلاحيات لم يرخّص له بها وبالتالي فإنّه يتقمّص مقام الناطق الرسمي باسم من يخبر عنه وهذا كذب وافتراء، فيؤول إلى ادّعاء مقام الخاصّ من مقامات ذات الصلاحية.

ومن ثمّ يكون تقحّماً ويستحقّ اللعن بذلك، وليعلم أنّ التكذيب بهذاالمعنى وفي هذا الباب يعني تقحّم الصلاحيّات والمناصب لا سيما أنّ هذا المنصب ليس هو مقام الرواية أو الفقاهة بل هو يعلوهما.

وأمّا الروايات فقد ورد فيها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام نسبة الكذب إلى بعض الرواة لا سيما المتهمين بالغلوّ وليس منها الكذب المصطلح بمعنى الإخبار بخلاف الواقع بل لهما معان أخر نذكرها تباعاً:

الأول: إذاعة الأسرار وإفشائها

هناك كذب اصطلاحي عندهم عليهم السلام وهو بمعنى إذاعة السرّ، وعقوبته إذوقة حرّ الحديد كما بيّن في ترجمة المعلّى وغيره من الرواة أنّه أذيق حرّ الحديد لإذاعة السرّ وإن لم يوصف بالكذب.

فقد روى الكشي عن أبي علي أحمد بن علي السلوليّ المعروف بشقران، قال: حدّثنا الحسين بن عبد الله القمّي عن محمد بن أورمة عن يعقوب بن يزيد عن سيف بن عميرة عن المفضّل بن عمر الجعفي قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام يوم صلب فيه المعلّى، فقلت له: يابن رسول الله ألاترى هذا الخطب الجليل الذي نزل بالشيعة في هذا اليوم، قال: وما هو؟ قلت: معلّى بن خنيس، قال: رحم الله معلّى قد كنت أتوقّع ذلك لأنّه أذاع سرّنا وليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤنة علينا من المذيع علينا سرّنا، فمن أذاع سرّنا إلى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضّه السلاح أو يموت بخبل[1].

---

١. رجال الكشي: الرقم ٧١٢.

وروى الكشي: حدّثني محمد بن قولويه قال: حدّثني سعد بن عبد الله قال: حدّثني أحمد بن محمد بن عيسى عن أبي يحيى زكريّا بن يحيى الواسطي؛ وحدّثنا محمد بن عيسى بن عبيد عن أخيه جعفر بن عيسى وأبي يحيى الواسطي قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: كان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد[1].

وروى أيضاً عن سعد قال: حدثنا محمد بن الحسن والحسن بن موسى، قال: حدّثنا صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عمّن حدّثه من أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: لعن الله المغيرة بن سعيد أنه كان يكذب على أبي فأذاقه الله حرّ الحديد، لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآلنا ومعادنا وبيده نواصينا[2].

أقول: ومما يشهد على أنّ الكذب هنا بمعنى إفشاء الأسرار ما ورد في حديث من المقابلة بين المغيرة وجابر، حيث إنّ جابر بن يزيد الجعفي ـ كما مر ترجمته في الجزء السابق ـ ممّن خاض في لباب معارف أهل البيت عليهم السلام وبلغ منها ذروته ومع ذلك لم ينزلق في مزلقة كشف الأسرار وحافظ على كتمان ما أمر بكتمانه. وقد اشتكى للإمام من ذلك فأمره عليه السلام بحفر حفرة في الأرض والحديث فيها ليخفف عنه؛ فإنّه يدلّ على كون مورد الشطط في المغيرة وأبي الخطّاب هو كشف الأسرار المنهي عنه.

قال الكشي: حمدويه وإبراهيم، قال: حدّثنا محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن زياد بن أبي الحلال، قال: اختلف أصحابنا في أحاديث جابر الجعفي، فقلت لهم: أسأل أبا عبد الله عليه السلام فلما دخلت ابتدأني، فقال: رحم الله جابر الجعفي كان

---

١. رجال الكشي ٢٩٧ / ح ٣٩٩.
٢. رجال الكشي ٢٩٧ / ح ٤٠٠.

يصدق علينا، لعن الله المغيرة بن سعيد كان يكذب علينا[١].

وروى الكشي عن سعد قال: حدثني أحمد بن محمد بن عيسى عن أبي يحيى سهل بن زياد الواسطي ومحمد بن عيسى بن عبيد عن أخيه جعفر وأبي يحيى الواسطي قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: كان بيان يكذب على علي بن الحسين عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، وكان محمد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد الله عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، والذي يكذب عليّ محمد بن فرات.

قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتّاب فقتله إبراهيم بن شكلة[٢].

وروى الكشي عن حمدويه وإبراهيم ابني نصير، قالا: حدّثنا الحسين بن موسى عن إبراهيم بن عبد الحميد عن عيسى بن أبي منصور، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول، وذكر أبا الخطاب فقال: اللهمّ العن أبا الخطاب فإنّه خوّفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي اللهم أذقه حرّ الحديد[٣].

وروي عن الصادق عليه السلام في وصيته لمؤمن الطاق: ... يابن النعمان إنّ العالم لا يقدر أن يخبرك بكل ما يعلم لأنّه سرّ الله الذي أسرّه إلى جبرئيل عليه السلام وأسرّه جبرئيل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسرّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي عليه السلام وأسرّه علي عليه السلام إلى الحسن عليه السلام وأسرّه الحسن عليه السلام إلى الحسين عليه السلام وأسرّه الحسين عليه السلام إلى علي عليه السلام وأسرّه علي عليه السلام إلى محمد عليه السلام وأسرّه محمد عليه السلام إلى من أسرّه، فلا تعجلوا فوالله لقد قرب هذا الأمر ثلاث مرات فأذعتموه فأخّره الله والله ما لكم سرّ إلّا وعدوكم أعلم به منكم. يابن النعمان ابق على نفسك فقد عصيتني لا تذع سرّي فإنّ المغيرة بن سعيد كذب على أبي وأذاع سرّه فأذاقه الله حرّ الحديد

---

١. رجال الكشي ٢٦٥ / ح ٣٣٦.
٢. رجال الكشي ٣٦٩ / ح ٥٤٤.
٣. رجال الكشي ٣٥٨ / ح ٥٠٩.

وإنّ أبا الخطاب كذب عليّ وأذاع سرّي فأذاقه الله حرّ الحديد ومن كتم أمرنا زيّنه الله به في الدنيا والآخرة وأعطاه حظّه ووقاه حرّ الحديد[١].

وفي هذا المقطع من الوصية لمؤمن الطاق صرّح الإمام عليه السلام بأنّ المراد من الكذب هنا إذاعة الأسرار، وذلك لأنّ محطّ الكلام إنّما هو في الأسرار التي أسرّها الله إلى أهل البيت عليهم السلام والتحذير عن إفشائه وإذاعته وليس الكلام في تعمّد الكذب عليهم، ثم بعد ذلك نهى عليه السلام مؤمن الطاق عن الإذاعة، ثم رتّب على هذا النهي كبيان الدليل والحكمة في النهي عن الإذاعة بأنّ المغيرة كذب على أبي جعفر عليه السلام وأذاع سرّه فأذاقه الله حرّ الحديد، والظاهر أنّ العطف هنا للتفسير أي تفسير الكذب بإذاعة السرّ وكذا قوله في أبي الخطّاب أنّه كذب عليّ وأذاع سرّي فأذاقه الله حرّ الحديد. فإنّ ابن النعمان ما كان ليكذب على الإمام عليه السلام وينسب إليه ما لم يسمعه منه وليست الوصية في تحذيره عن هذا.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد ذلك رغّبه في الكتمان وأنّه إذا كتم أمرهم وقاه الله حرّ الحديد، وبقرينة المقابلة يعلم أنّ إذاقة حرّ الحديد إنّما هو عقوبة الإذاعة والوقاية من ذلك أجر الكتمان فكلام الإمام عليه السلام صدراً وذيلاً إنّما هو في النهي عن الإذاعة والتحريض على الكتمان فالكذب الذي ذكره عليه السلام إنّما هو بمعنى إذاعة الأسرار لا الكذب بمعنى الإخبار المخالف للواقع.

والكذب هنا يحتمل عدّة معان ولعل كلها مرادة والجامع بينها أنّ أصل ما اتّخذ منهم الكلام وما هو المنشأ له ليس بكذب عليهم بل هو قول مسموع، فنسبة الكذب إلى أولئك الذين أذاعوا أسرار أهل البيت عليهم السلام يمكن أن يكون لبعض هذه الوجوه:

١ ـ إنّ المذيع والكاشف للأسرار والمعارف الغامضة عندما يحكيها عن

---

١. بحار الأنوار ٧٥ / ٢٩٠.

المعصوم عليه السلام من دون إذن منه فإنّه يرتكب كذباً على المعصوم عليه السلام من جهة أنّ الإخبار يتضمّن الإنشاء وهو التزام المخبر وتعهّده بصدق الخبر لدى المخاطب، والمعصوم عليه السلام لم يتعهّد بحكاية ذلك المفاد إلى الجميع فيكون إخبار الراوي عنه كذباً من هذا الوجه.

فإنّ التعريف الدارج للإخبار بالقول الحاكي والكاشف عن الواقع ـ فإذا كان مطابقاً للواقع صار صدقاً وإلّا فيكون كذباً ـ ليس وافياً بحقيقة الإخبار وبما ينطوي فيه من أمور. فإنّ الحكاية هي بنفسها إنشاء وليست مجرّد إراءة، فإنّ المتكلّم إذا لم يتعهّد بالحكاية والقيام بالإراءة والكشف فإنّه لا يتحقق منه الإخبار ولا يعتدّ السامع بنفس الألفاظ ومجرّد الكلمات، ولا يصدق على مجرّد إلقاء صوت الألفاظ والتكلّم بها أنه إخبار، ومن ثمّ كان معنى الإخبار من المعاني والمدلولات التصديقية لا التصورية المحضة.

والتصديق عمل سواء لوحظ من جانب السامع أو من جانب المتكلّم إلّا أنه من جانب السامع هو الإذعان ومن جانب المتكلّم هو الإنشاء والتعهّد. وبذلك يظهر أنّ التحام حقيقة الإنشاء بالإخبار هو في منتهى العمق كما أنّ الحال في العكس كذلك فإنّ الإنشاء والجملة الإنشائية في الحقيقة تتضمّن جملة من الإخبارات والحكايات وليست متمحّضة في الإنشاء الصرف. وعلى ضوء ذلك يتّضح أنّ الجملة الواحدة الخبرية أو الإنشائية تفكّك إلى عدّة مداليل خبرية وإنشائية كثيرة وعديدة مدمجة ومنطوية ومتعالقة بالمضمون المطابقي ومن ثمّ يصحّ الصدق والكذب ويتعدّد ويتكثّر بلحاظها فقد يكون المتكلّم صادقاً في بعضها وكاذباً في بعض آخر.

٢ ـ إنّ الراوي عندما تلقّى وتحمّل الرواية عن المعصوم عليه السلام، أخذ منه المعصوم عليه السلام التعهد أن لا يفشيه، فعندما ينكث هذا العهد فقد كذب بما التزم به؛ فهو كاذب الوعد في مقابل صادق الوعد.

٣ ـ إنّ المعصية ومطلق المعاصي كذب في العمل بخلاف الطاعة والتقوى فإنها الصدق، ومن ذلك قيل للصدّيق صدّيق، والوجه في هذا الكذب والصدق أنّ كل من يقرّ بالشهادتين والشهادة الثالثة فإنّه أقرّ على نفسه بالطاعة فإذا عصى فقد كذّب بما التزم به إجمالاً، فالراوي حينما يذيع السر فقد ارتكب ذنباً فيصحّ وصفه بالكذب لمخالفته وتكذيبه لما التزم به إجمالاً من إطاعة الله والرسول وأولي الأمر.

٤ ـ إنّ المعنى الخاطىء الذي ينطبع عند إفهام العامة أو المخالفين من الرواية التي يرويها راوي أسرار المعارف كذب؛ فإنّ الراوي بإفشائه وإذاعته للأسرار لمن لا يتحمّلها سبّب في انطباع المعنى الخاطىء لدى السامع. فهذا المعنى الخاطىء الذي تسبّب الراوي في انطباعها لدى الإفهام بإفشائه لتلك الروايات كاذب.

٥ ـ إنّ ما يقوله القائل أو يقرّ به إن كان مطابقاً للحقّ فيكون صدقاً وإن كان مخالفاً للحق فيكون كذباً ومن ثمّ وصف أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنهم موازين الصدق أي أنّ صدق الصادقين إنّما يوزن ويعيّر بهم عليهم السلام، فالصدق هو الحقّ والكذب هو الباطل.

فحينما يعصي أولئك الرواة في إفشاء الحقائق العلمية الغامضة وتؤدّي إذاعتهم إلى الإخلال بصراط الهداية والرشاد إلى إيجاد الضلال والغواية فيكون فعلهم ذلك باطلاً وكذباً، فالصدق ما كان على نهج الحقّ والكذب ما كان على نهج الغواية والباطل.

الثاني: وضع حدود لأشياء سُمعت حقيقة

فإنّ الراوي إذا سمع حديثاً من الإمام عليه السلام ثم يضع لها حدوداً من عند نفسه يكون كاذباً في جعل هذه الحدود. فهو يخبر بمعان سمعها حقيقة من الإمام إلّا أنه يضع حدوداً لتلك المعاني والأشياء بالقياس والرأي، وبحدود ما يفهمه عقل السامع، فلا يضعها على حدود ما أمر بها ـ بسبب عدم تعقّله حدّ ما سمع وعدم فهمه له ـ فيكون وضعه حدوداً لتلك الأمور والأشياء كذباً وافتراء كما جاء في

مكاتبة المفضل بن عمر المعروفة مع الإمام الصادق عليه السلام عند قوله عليه السلام:

إنّ هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ... فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذباً وافتراء على الله ورسوله[١].

ومن نماذج هذا القسم الخطأ في التأويل قصوراً أو تقصيراً.

الثالث: تطبيق المعنى على غير مصداقه

روى محمد بن الحسن الطوسي بإسناده عن سعد بن عبد الله عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن حمّاد، عن عاصم قال: حدّثني مولى لسلمان عن عبيدة السلماني قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: يا أيّها الناس اتّقوا الله ولا تفتوا الناس بما لا تعلمون فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال قولاً آل منه إلى غيره وقد قال قولاً من وضعه غير موضعه كذب عليه فقام عبيدة وعلقمة والأسود وأناس معهم فقالوا: يا أمير المؤمنين فما نصنع بما قد خبرنا به في المصحف؟ فقال: يسأل عن ذلك علماء آل محمد عليهم السلام[٢].

وهذا معنى آخر من التكذيب من تطبيق المعنى على غير مصداقه وهو نحو من التأويل الخاطىء والباطل وفي هذا المعنى لا يكون أصل المعنى العام باطلاً أو مكذوباً بل التطبيق والاستنتاج باطل.

الرابع: إسناد الاستنتاجات والاحتجاجات التفصيلية إليهم عليهم السلام مع كونها منطلقة من قواعدهم الكلية الإجمالية

فقد روى الكشي عن محمد بن مسعود عن علي بن محمد القمي، عن أحمد بن محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن فضيل بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام ـ في حديث ـ إنّه ذكر مؤمن الطاق فقال: بلغني أنّه جدل وأنه يتكلّم، قلت: أجل، قال:

---

١. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٨٨ عن بصائر الدرجات.

٢. وسائل الشيعة، ج ٢٧ / أبواب صفات القاضي / ب ٤ / ح ١٩ .

أما لو شاء طريف من مخاصميه أن يخصمه فعل؟ قلت: كيف؟ قال: يقول: أخبرني عن كلامك هذا من كلام إمامك؟ فإن قال: نعم، كذب علينا، وإن قال: لا، قال له: كيف تتكلّم بكلام لا يتكلّم به إمامك[١].

وظاهر الحديث أنّ كلام مؤمن الطاق هو منطلق من قواعد وأصول منهم عليهم السلام، غاية الأمر ترامي الاستنتاج إنما هو بفعل مؤمن الطاق فالتكذيب إنما يكون إذا أوحى من طريقة كلامه إسناده إليهم عليهم السلام .

الخامس: الكذب المخبري

إنّ كل إخبار يتضمّن حكايتين فأكثر:

١ ـ المفاد المطابقي لمضمون القول.

٢ ـ حكايته عن علمه بثبوت المضمون المطابقي.

ومن ثمّ فقد يكون الخبر صادقاً إلّا أنّ المخبر كاذب فيقال حينئذٍ تحقّق الصدق الخبري مع وقوع الكذب المخبري أو الصدق في الخبر كفعل ولكنّ الكذب فاعلي، وذلك لكذب المخبر في ادّعاء العلم فإنّه قد يكون ظانّاً ليس بجازم أو شاك مرتاب أو محتمل.

السادس: الصدق والكذب بلحاظ أبعاض الكلام وأجزائه أو انحلاله في الأفراد

فإنّ الكلام قد يكون مشتملاً على الجمل المتعدّدة فضلاً عن الفقرات المتكثّرة، وحيث يطلق الكلام على مجموع ذلك كما يطلق على أبعاضه فيصحّ حينئذٍ وصفه بالصدق تارة وبالكذب بلحاظ تعدّد الجمل والفقرات، كما أنّ الجملة الواحدة ذات المعنى العامّ الكلّي يتعدّد ويتكثّر انطباقها على المصاديق والأفراد فيتولّد وينحلّ منها أحكام على كلّ فرد وفي كلّ مورد وبلحاظ هذا التكثّر فيصحّ تعدّد الصدق والكذب.

---

١. وسائل الشيعة / ابواب صفات القاضي / ب ٧ / ح ٢٨ .

□ حقيقة الغلو وأنواعه في الروايات

إنّه قد عُرّف الغلو بتعاريف عديدة فتارةً بتأليه الأنبياء والرسل أو الأوصياء، وأخرى بالقول بنبوّة الأوصياء والأئمّة، وثالثة بالقول بوجود صفات ومقامات للمعصومين هي فوق درجتهم وحدّهم الوجودي وهي أشبه بالصفات الإلهية، ورابعة بالقول فيهم وبنعتهم بما ليس فيهم.

ولكن هناك تعاريف أخرى نجدها في جملة من الروايات، والجامع بينها هو الإيمان بحقيقة الباطن مع الإفراط والتطرف في جانب آخر. وبعبارة أخرى الجامع بينها أنّ ما يثبته الغلاة في هذه الأقسام من صفات لولي الله ليس هو غلواً وإفراطاً من القول وإن تعاظمت تلك الصفات في نظر تلك الغلاة أو نظر الطاعنين عليهم بل موضع الغلو والإفراط هو أمر آخر مسبّب عن الانبهار من عظمة تلك الصفات.

فقد روى المفضل أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام: يا مولاي أليس قد روينا عنكم أنكم قلتم الغالي نردّه إلينا والتالي نلحقه بنا.

قال: يا مفضل ... وأما الغالي فليس قد اتخذنا أرباباً من دون الله وإنما اقتدى بقولنا: اجعلونا عبيداً مربوبين مرزوقين فقولوا بفضلنا ما شئتم فلن تدركوه.

قال المفضل: يا مولاي إنّ الغالي من ذكر أنكم أرباباً عند الشيعة من دون الله.

قال: ويحك يا مفضل ما قال أحد فينا إلّا عبد الله بن سبأ وأصحابه العشرة الذين حرقهم أمير المؤمنين بالكوفة وموضع إحراقهم يعرف بصحراء أخدود وكذا عذّبهم أمير

المؤمنين بعذاب الدنيا وهو النار عاجلاً وهي لهم آجلاً، ويحك يا مفضل إنّ الغالي في محبّتنا نردّه إلينا ويثبت ويستجيب ولا يرجع والمقصّرة تدعوه إلى الإلحاق بنا والإقرار بما فضّلنا الله به فلا يثبت ولا يستجيب ولا يلحق بنا[١].

وهذه الرواية صريحة في أنّ الأصل في معاني الغلو الذي ارتكبه الغلاة ليس هو ادعاء الربوبيّة كما ادّعى ذلك جمهور العامة وتفشّى ذلك عند الخاصّة حتى عند المفضّل رغم أنه من كبار رواة المعارف، وإنما الشطط في جهات أخرى والتطرّف إنما يكون في جهات سنذكرها تباعاً.

وتشير الرواية إلى أنّ الغلاة لديهم شطط وانحراف خالفوا فيه تعاليم أهل البيت عليهم السلام وليس شططهم في أصل المعرفة، كما أنّه يظهر من هذا الحديث أنّ المغيرة بن سعيد وأبا الخطاب وبنان وأمثالهم لم يدّعوا الربوبية في أهل البيت أو الألوهيّة وإنما ارتكبوا شططاً آخراً ممّا سنبيّنه مما استدعى انطباع معنى التأليه والربوبية لدى تيّار الخطابية والمغيريّة فأوجب ضلالهم.

وروى في الكافي بإسناده إلى سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: يا بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو والشك والشبهة ... والغلو على أربع شعب: على التعمّق بالرأي والتنازع فيه والزيغ والشقاق فمن تعمّق لم ينسب إلى الحق ولم يزدد إلّا غرقاً في الغمرات ولم تحتبس عنه فتنة إلّا غشيته أخرى وانخرق ذنبه فهو يهوى في أمر مريج.[٢]

ويشير الحديث إلى أنّ شطط الغلو هو في الانغمار في معمعة التفاصيل والحيرة في تكثّرها وكثرتها ممّا يضيّع على النظر التركيز على أمّهات الحقائق والمسائل التي هي المحكمات فيتشبّث بالمتشابهات الحادثة له من الغور في التفاصيل، فيعمى عن الأمهات التي هي المحكمات المهيمنة على الحدود والأبواب فيزيغ عنه جادّة الطريق الأصلي ويكثر عليه الشقاق مع الآخرين.

---

١. الهداية الكبرى / ٤٣١ ـ ٤٣٢.

٢. الكافي ٢ / ٢٨٨.

وقد استعمل الغلو في الروايات في معان عديدة، وليس ذلك من قبيل المشترك اللفظي بل هي في الحقيقة أنماط وأنواع التطرّف والتجاوز عن الحد الذي ارتكبه الغلاة وهي أمور:

الأول: الإيمان بالباطن والكفر بالظاهر

أي الكفر بظاهر الشريعة مع الإيمان بحقيقة الباطن، فهؤلاء الغلاة قد فرّطوا في عدم التزامهم بأحكام وفروع الدين، وذلك مسبّب عن تعاظم باطن الدين عندهم فلا يقيمون للظاهر وزناً وقيمة.

ومنه يعرّف التقصير بأنه الإيمان بالظاهر والتقيّد بمراعاته مع التفريط والكفر بالباطن.

وقد أشير إلى ذلك في روايات عديدة، كصحيحة هيثم التميمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

يا هيثم التميمي إنّ قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم شيء، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً ولا إيمان بظاهر إلّا بباطن ولا بباطن إلّا بظاهر[1].

وهذا التعريف ـ كما سنشير ـ تعريف للغلوّ الذي يغاير التعريفات المعهودة السابقة في الأذهان، حيث يشير إلى أنّ ما تقول به جملة من فرق الغلاة ليس في نفسه باطل بل هو في نفسه أمر حقّ، وإنما التطرّف عند هؤلاء الغلاة ناشيء من

---

١. بحارالأنوار ٢٤ / ٣٠٢ ح ١١، عن بصائر الدرجات ج ٢ الجزء ١٠ / ب ٢١ ح ٥ ص ٥١٨.

عدم التقيّد والالتزام بالشريعة الظاهرة بسننها وفرائضها، كما أنّ المقصّرة هم من اقتصر في حقائق هذا الدين.

ففي موثّق الحسن بن علي بن فضّال عن حفص المؤذّن ـ ولم يطعن عليه بشيء واستظهر أنّه مؤذن علي بن يقطين ـ قال: كتب أبو عبد الله عليه السلام: إلى أبي الخطاب: بلغني أنّك تزعم أنّ الخمر رجل وأنّ الزنا رجل وأنّ الصلاة رجل وأنّ الصوم رجل وليس كما تقول، نحن أصل الخير وفروعه طاعة الله وعدوّنا أصل الشرّ وفروعه معصية الله، ثم كتب: كيف يطاع من لا يعرف وكيف يعرف من لا يطاع[١].

ورواه الكشي عن حمدويه عن محمد بن عيسى عن يونس بن عبد الرحمن عن بشير الدهان[٢].

وهذه الرواية معتبرة سنداً على الأقوى وموثوق صدورها، وبشير وإن لم يوثّق إلّا أنه لم يطعن عليه بشيء، وهناك من القرائن ما يعتبر بها حاله، وقد عرفت أنّ للرواية طريقاً آخراً.

ومفاد هذه الرواية يطابق مفاد صحيحة التميمي من أنّ المعرفة ولو كانت في أعلى درجاتها لا يمكن أن تنفك عن الطاعة والعمل، كما أنّ الطاعة لا يمكن أن تنفك عن المعرفة، والمعرفة محلّها القلب والروح وهي الباطن الخفيّ ومتعلّقة بغيب مستور والعمل ظاهر جليّ.

---

١. بصائر الدرجات ج ٢ الجزء ١٠ / ب ٢١ ح ٢.

٢. رجال الكشي / الرقم ٥١٢.

الثاني: الخطأ في التأويل

وهو أيضاً يتضمن الإيمان بحقيقة الباطن المكنون مع الخطأ في التأويـل. فهؤلاء آمنوا بباطن الدين لكنّهم أخطأوا في تأويله وتطبيقه.

وممّا يشير إلى هذا المعنى من الغلوّ أيضاً ما في مكاتبة الصادق عليه السلام للمفضّل المروية في بـصائر الدرجـات للـصفّار وبـصائر الدرجـات لسـعد بـن عـبد الله الأشعري، كما أخرجها عنه صاحب الوسائل وأخرجها في مختصر البصائر أيضاً حسن بن سليمان.

وقد سأل فيها المفضّل بن عمر عن عدّة من مقالات أبي الخطاب والخطّابية في المعرفة، وأنهم قالوا بكفاية العقيدة عن العمل، وأنّ للأمور ظهراً وبطناً وأنّ أصل الدين معرفة الرجال ومن عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعلمه به من غـير عمل، وهذه المقالة استفظعها المفضل بن عمر حين بلغته، وأنه كتب يسأل عن تفسير ذلك، فأجابه عليه السلام بقوله:

وأنا أبيّنه حتى لا تكون من ذلك في عمى ولا في شبهة وقد كتبت إليك في كتابي هذا تفسير ما سألت عنه فاحفظه كلّه كما قال الله في كتابه: ﴿وتعيها أذن واعية﴾[1] وأصفه لك بحلاله وأنفي عنك حرامه إن شاء الله، كما وصفت ومعرّفكه حتى تعرفه إن شاء الله، فـلا

---

١. الحاقة: ١٢.

تنكره إن شاء الله ولا قوّة إلّا بالله والقوّة لله جميعاً أخبرك أنه من كان يدين بهذه الصفة التي كتبت تسألني عنها فهو عندي مشرك بالله تبارك وتعالى بيّن الشرك لا شكّ فيه، وأخبرك أنّ هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ولم يعطوا فهم ذلك ولم يعرفوا حدّ ما سمعوا، فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذباً وافتراءً على الله ورسوله وجرأة على المعاصي، فكفى بهذا لهم جهلاً. ولو أنّهم وضعوها على حدودها التي حدّت لهم وقبلوها لم يكن به بأس، ولكنّهم حرّفوها وتعدّوا الحق وكذّبوا وتهاونوا بأمر الله وطاعته. ولكني أخبرك أنّ الله حدّها بحدودها لئلّا يتعدّى حدودها أحد، ولو كان الأمر كما ذكروا لعذّر الناس بجهلهم ما لم يعرفوا حدّ ما حدّ لهم، ولكان المقصّر والمتعدّي حدود الله معذوراً ولكن جعلها حدوداً محدودة لا يتعدّاها إلّا مشرك كافر، ثم قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾[1].

وفي كلامه عليه السلام عدّة من الشواهد على هذا المعنى من الغلو وسابقه الذي ابتلي به بعض تلك الفرق:

أولاً: عبّر عليه السلام عنهم بأنهم تعدّوا الحق والحدود في مقابل المقصّرين، وأنّه كما أنّ هؤلاء غير معذورين فإنّ المقصّر عن معرفة تلك المعارف أيضاً غير معذور.

ثانياً: أنّ مقالة هؤلاء أصلها أحاديث سمعوها منهم عليهم السلام إلّا أنهم لم يعقلوا معانيها.

ثالثاً: أنّ مقالاتهم لأنّها في الأصل هي معان حرّفت عن الأحاديث المسموعة، فلها أصل وتفسير صحيح. ومن ثم عبر في صدر كلامه عليه السلام بأنّ ما يذكره تفسير ما هو الأصل الصحيح لهذه المعاني المحرّفة من مقالاتهم، وأنّ ما هو الأصل التي اتّخذت منه معاني مقالاتهم له وصف حلال يفترق عن الوصف

---

١. بصائر الدرجات، الجزء العاشر باب ٢١، ح ١ المجلد الثالث ص ٥٠٠، وبحار الأنوار ٢٤ / ٢٨٧.

الحرام الذي تعدّوه إليه ولذا قال ﷺ: وأصفه لك بحلاله وأنفي عنك حرامه. فهم قد أخطأوا في تأويل ما هو الحق الثابت الصادر عنهم، وهذا غلوّهم وإفراطهم.

رابعاً: أنّه لابد من التمييز بين ما هو الأصل الذي اتخذت منه تلك المعاني المنحرفة وبين تلك المعاني التي حصل بها التعدي، فالأصل لابد من التعرّف عليه وعدم إنكاره كما في قوله ﷺ: ومعرّفكه حتى تعرفه إن شاء الله فلا تنكره ومن ثم قال ﷺ أيضاً: ولو أنّهم وضعوها على حدودها التي حدّت لهم وقبلوها لم يكن به بأس.

وفيها قوله ﷺ أيضاً:

كذلك جرى بأنّ معرفة الرجال دين الله، والمعرفة على وجهين: معرفة ثابتة على بصيرة يعرف بها دين الله ويوصل بها إلى معرفة الله، فهذه المعرفة الباطنة الثابتة بعينها الموجبة حقّها المستوجب أهلها عليها الشكر لله التي منّ عليهم بها منّ من الله يمنّ به على من يشاء، مع المعرفة الظاهرة ومعرفة في الظاهر، فأهل المعرفة في الظاهر الذين علموا أمرنا بالحق على غير علم لا تلحق بأهل المعرفة في الباطن على بصيرتهم، ولا يصلون بتلك المعرفة المقصّرة إلى حق معرفة الله كما قال في كتابه: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾[1] فمن شهد شهادة الحق لا يعقد عليه قلبه ولا يبصر ما يتكلم به، لا يثاب عليه مثل ثواب من عقد عليه قلبه على بصيرة فيه؛ كذلك من تكلّم بجور لا يعقد عليه قلبه لا يعاقب عليه عقوبة من عقد عليه قلبه وثبت على بصيرة. فقد عرفت كيف كان حال رجال أهل المعرفة في الظاهر والإقرار بالحقّ على غير علم في قديم الدهر وحديثه، إلى أن انتهى الأمر إلى نبيّ الله وبعده إلى من صاروا إلى من انتهت إليه معرفتهم، وإنما عرفوا بمعرفة أعمالهم ودينهم الذي دان الله به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وقد يقال: إنه من دخل في هذا الأمر بغير يقين ولا بصيرة خرج منه كما دخل فيه رزقنا الله وإياك معرفة ثابتة على بصيرة[2].

---

١. الزخرف: ٨٦.

٢. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٩٠.

وهاهنا يشير عليه السلام بوضوح أنّ الآية الكريمة تؤكّد على لزوم معرفة الحق والشهادة به معرفة مستندة إلى العلم بالبصيرة النافذة إلى أعماق الحقيقة دون معرفة المقصّرة المقتصرة على السطح الظاهر.

وفي قوله عليه السلام أيضاً:

وأنّه من عرف أطاع ومن أطاع حرّم الحرام ظاهره وباطنه، ولا يكون تحريم الباطن واستحلال الظاهر، وإنّما حرّم الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر معاً جميعاً، ولا يكون الأصل والفروع وباطن الحرام حرام وظاهره حلال، ولا يحرّم الباطن ويستحلّ الظاهر. وكذلك لا يستقيم أن يعرف صلاة الباطن ولا يعرف صلاة الظاهر، ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحجّ ولا العمرة ولا المسجد الحرام ولا جميع حرمات الله وشعائره، وأن يترك معرفة الباطن، لأنّ باطنه ظهره ولا يستقيم ان ترك واحدة منها إذا كان الباطن حراماً خبيثاً فالظاهر منه إنّما يشبه الباطن، فمن زعم أنّ ذلك إنّما هي المعرفة وأنّه إذا عرف اكتفى بغير طاعة فقد كذب وأشرك ذاك لم يعرف ولم يطع وإنّما قيل: «اعرف واعمل ما شئت من الخير» فإنه لا يقبل ذلك منك بغير معرفة فإذا عرفت فاعمل لنفسك ما شئت من الطاعة قلّ أو كثر فإنّه مقبول منك[1].

وفي هذه الفقرات يشاهد تركيز واضح منه عليه السلام على لزوم التقيّد في العمل بأحكام الفروع مما هو ظاهر التشريع، كلزوم التقيّد بنافذ البصيرة في المعرفة وأنّه لا تنفك الطاعة في الفروع عن المعرفة في الأصول، ولا يكتفى بالمعرفة عن الطاعة، كما لا يكتفى بالطاعة عن المعرفة. وهذا كلّه تأكيد على أنّ نمط الانحراف السائل في هذه الفرق هو في التفكيك بين الجانبين والجهتين لا في أصل ما يتعمّقون فيه من مقالات معرفيّة، بل إنّ تلك المقالات لها أصل سمعوه وحديث رووه إلّا أنّهم لم يعقلوا حدود معناه ولم يقفوا على مفهومه وأخطأوا في تأويله.

---

١. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٩٢.

الثالث: ترك التقية بإظهار التبرّي جهاراً

وهو الإفراط في إظهار وإفشاء البراءة من الشيخين وإظهار القول بكفرهما، رغم خطورة الجوّ الأمني من قبل السلطات الأمويّة والعباسية، إذ إفشاء وانتشار هذه المقالة يعني إثارة السؤال حول مصدر مشروعيّة الحكم والحاكم، وهذا مما يفجّر الوضع السياسي من رأس كيوم السقيفة ويثير السؤال حول مبدأ الحاكمية ومنطلقها.

ثمّ إنّ المخالفين يدينون من يذهب إلى القول بكفرهما ويقولون إنّ ذلك بسبب الإفراط في موالاة علي عليه السلام وتقديسه، وهو على حدّ القول بألوهيّته وإلّا لما استلزم تولّي علي عليه السلام التكفير لهما. وهذا المعنى صرّح به كثير من أهل التراجم عند العامّة وعليه شواهد تاريخية عديدة هي التي دعت إلى الطعن بتهمة الغلو على أصحاب مثل هذه المقالة.

وقد اتّخذ العامّة والبتريّة أسلوب الطعن بالغلوّ على كلّ من لاحظوه يتشدّد في البراءة من الشيخين وأعداء أهل البيت عليهم السلام، أو يروي مثالبهم فطعنوا عليه بذلك بغية إسقاط ما يرويه من المثالب في مناوئيهم وشيّدوا هذا المعنى للغلوّ. وقد يسري مثل هذا المعنى عند بعض أرباب الجرح والتعديل من الإمامية إمّا غفلة عن واقع الحال أو بسبب اختلاطهم بجملة من مشائخ العامّة فتشبّعوا بمثل هذا المذاق وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء السابق.

ومما يشهد على ذلك:

١ ـ ما رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال عن عبد الأعلى بن أبي المسوار قال: سمعت المغيرة بن سعيد الكذّاب يقول: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل﴾ علي بن أبي طالب ﴿والإحسان﴾ فاطمة ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ الحسن والحسين ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ كان أبو بكر من أفحش الناس ﴿والمنكر﴾ عمر بن الخطاب. كذب عليه لعنة الله[1].

٢ ـ وقال العقيلي: وكان (المغيرة) من ألحن الناس فخرج يقول: كيف الطريق إلى بنو حرام[2].

ومراده من بني حرام «بنو أميّة».

٣ ـ روى العقيلي عن الأعمش قال: أوّل من سمعت ينتقص أبا بكر وعمر المغيرة بن سعيد المصلوب.

وفي رواية أخرى عن الأعمش أنّه قال: أوّل من سمعت يسبّ أبا بكر وعمر المغيرة بن سعيد[3].

٤ ـ وروى العقيلي عن إبراهيم بن الحسن قال: دخل عليّ المغيرة بن سعيد وأنا شاب وكنت أشبه برسول الله ﷺ فذكر من قرابتي وشبهي وأمله فيّ. قال: ثم ذكر أبا بكر وعمر فلعنهما وبريء منهما. قال: قلت: يا عدو الله أعندي قال: فخنقته خنقاً قال: فقلت له: أرأيت قولك للمغيرة «فخنقته خنقاً» أخنقته بالكلام أم بغيره قال: بل خنقته حتى أدلع لسانه[4].

٥ ـ روى العقيلي عن نضر بن عبد الله قال: كنت جالساً عند الشعبي وإلى

---

١. الكامل ٦ / ٣٥٢ ـ الضعفاء للعقيلي ٤ / ١٧٨ ـ ميزان الاعتدال ٤ / ١٦٠ .
٢. الضعفاء للعقيلي ٤ / ١٧٩ ـ ميزان الاعتدال ٤ / ١٦١ .
٣. الضعفاء للعقيلي ٤ / ١٨٠ .
٤. الضعفاء للعقيلي ٤ / ١٨٠ ـ سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٨٦ .

جنبه المغيرة بن سعيد. قال الشعبي: افترق الناس على أربع فرق محب لعليّ مبغض لعثمان ومحب لعثمان مبغض لعلي ومحبّ لهما جميعاً ومبغض لهما جميعاً قال: قلت: يا أبا عمرو ومن أيهم أنت فضرب على فخذ المغيرة بن سعيد فقال: أما إنّي مخالف لهذا قال: قلت: قد علمت[١].

أقول: وهذا النصّ يعطي أنّ المغيرة بن سعيد كان مشتهراً ببغضه للخلفاء والغاصبين آنذاك وكان يسبّهم جهاراً وسيأتي بعض الشواهد الأخرى أنّ تيّار البتريّة كانوا يجتنبون عنهم ويتبرّأون منهم لشدة إظهارهم البراءة من الغاصبين للخلافة الإلهية عليهم لعنة الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين.

١. الضعفاء للعقيلي ٤ / ١٨١ ـ تاريخ مدينة دمشق ٢٥ / ٣٧١.

الرابع: الغلو في التسمية لا في إسناد الصفات والأفعال

فإنّ ظاهر مستفيض الروايات أنّ جلّ الغلاة ارتكبوا هذا النمط من الغلو، وهم لم يخطئوا في إسناد الصفات والأفعال إلى أولياء الله المقرّبين وحججه المعصومين، وإنما أخطأوا في تسمية صاحب هذه الصفات والأفعال باسم الربوبية والألوهية، فليس إفراطهم في إسناد الصفات ولم يتجاوزوا الحدّ في ذلك وإنّما تجاوزوا الحدّ في التسمية.

والمقصّرة حيث رأوا هذا الانزلاق من الغلاة ولم يتفطّنوا ولم يعلموا موضع الخطأ عندهم، وتعاظم لديهم تلك الصفات أيضاً قاموا بإنكار ثبوت تلك الصفات لأولياء الله المقرّبين.

فالإفراط في تعاظم الصفات واستكثارها وإكبارها، وكذا الأفعال المتضمّنة للقدرة والقوّة والكمال، عن أن تكون صفة لمخلوق أي أكبر أن تكون تلك الصفات صفة لمخلوق، هو المنشأ لوقوع كلا الفريقين في الخطأ فالغلاة جعلوا صاحبها إلهاً وربّاً لا مخلوقاً ومربوباً وعبداً، فهم بما قاموا به من إكبار قدر هذه الصفات وإعظام درجتها وحدّها أعظموا هذه الصفة عن أن يكون صاحبها مخلوقاً، أي عن أن يكون فوقه خالقاً وربّاً. وهم بذلك وإن لم يقوموا بالكذب والافتراء في نفس الصفة أو في نسبتها إلى المقرّبين من أولياء الله والحجج المصطفين إلّا أنّهم صغّروا الخالق، أي أحالوا ومنعوا ـ بسبب قصور إدراكهم

وهبوط حدّ معرفتهم واستبدادهم برأيهم وعدم اخباتهم إلى هداية الوحي ـ أن يكون الخالق فوق هذه الصفات وفوق هذه المكانة، ومن ثمّ أكبروا هذا العبد المخلوق المقرّب الذي حباه الله بهذه الصفات عن أن يكون فوقه خالق وربّ وعن أن يكون مربوباً.

فالزيغ والانحراف والغلو الذي ارتكبوه ليس في حقيقة هذه الصفات ولا في نسبتها لولي الله المصطفى، بل في تصغير مقام الله تعالى بسبب انبهارهم بعظمة هذه الصفات فلم يفطنوا أنّ صفات الله فوق تلك الصفات، وإكبارهم لولي الله عن أن يكون عبداً مربوباً وقد تقدّم بيان ذلك في الفصل الثاني من هذا الجزء.

وقد تكرّر التأكيد في الروايات على وقوع هذا القسم والمعنى من الغلوّ حيث أكّدوا على أنّ الغلاة صغّروا قدر الله وأكبروا وأعظموا مقام ولي الله. وهذا النوع من الغلوّ هو الذي وقع فيه النصارى فإنّهم لما رأوا صدور إحياء الموتى من النبي عيسى وشفاء المريض وخلق الطير أعظموا تلك الصفات وانبهروا بها فقالوا: إنّ تلك الصفات لا يمكن أن تكون لمخلوق ولا يمكن أن يكون فوق صاحبها خالق وربّ، فصغّروا مقام الله إذ لم يثبتوا لله مقاماً وصفاتاً فوق تلك الصفات، كما أنهم أكبروا المخلوق حيث نعتوه بالألوهية. فهذه الصفات والأفعال رغم أنّها ثابتة لعيسى وقد أكّد عليها القرآن الكريم فهي كانت حقيقية ومنسوبة إلى ولي الله، إلّا أنهم أفرطوا في قدر تلك الصفات، فظنّوا أنها صفات إلهيّة مع أنّها حيث لم تكن للمخلوق بذاته بل بإقدار من الله كانت تلك الصفات بالغير وصفات خلقية، فتعاظمهم لتلك الصفات أي انبهارهم لعظمتها جعلهم لا يثبتون لله صفاتاً فوقها فصغّروا قدر الله.

وهذا المحذور لم يقع فيه الغلاة فقط، بل وقع فيه من طعن عليهم أيضاً، حيث إنّ جماعة الطاعنة سواء من العامة ـ وهم الأكثر ـ أو من غيرهم، حسب أنّ موضع الغلو والإفراط هو القول بثبوت تلك الصفات لولي الله فأنكر ثبوتها. فهم

أيضاً تعاظموا تلك الصفات أي انبهروا بعظمتها وعدّوها من الصفات الإلهية ولم يثبتوا لله صفاتاً فوقها. فهم بالتالي أيضاً وقعوا في تصغير قدر الله، وزعموا أنّ صاحب تلك الصفات لابدّ أن يكون إلهاً، فلم يبتعدوا عن محذور ما وقع فيه الغلاة بل قد يكونوا زادوا عليهم، حيث تعاظموا تلك الصفات، أن أنكروا ثبوت تلك الصفات لولي الله.

فيصحّ أن يقال: إنّ الفريقين ـ المطعون عليهم والطاعن ـ جهل مقام وقدر الباري تعالى وأنّه فوق ذلك، إلّا أنّ الفريق الأول وهو المطعون عليه أجاد معرفة ولي الله من جانب ثبوت تلك الصفات وإن جهله من جانب آخر بأنه مخلوق وعبد مربوب.

والفريق الثاني وهو الطاعن جهل معرفة ولي الله بتلك الصفات من جانب وإن عرفه من جانب آخر من كونه عبد مخلوق مربوب. وتقدّم ذكر الروايات الدالة على هذا النمط من الغلوّ، والمهم في هذا المعنى أنّ ثبوت تلك الصفات لولي الله ليس غلوّاً ولا إفراطاً في القول وإنّما تعاظم تلك الصفات وعدم التفطّن لوجود صفات أعلى منها إلهية هو موضوع الخطأ والزيغ.

الخامس: التطرّف السياسي والاندفاع الثوري

إنّ ظاهرة الحدّة في إرادة التغيير السياسي ومقارعة نظام بني أمية وبني العباس كانت من الملامح البيّنة لدى الفرق الشيعية المطعون عليهم بالغلو. وكان منشأ هذا التطرّف السياسي لديهم هو ما التزموا به من مقالات في أوصاف أئمة أهل البيت عليهم السلام وشؤونهم، فقد تبدّهت لدى هذه الفرق كثيراً من مقامات أهل البيت عليهم السلام وتميّزهم عن بقية الأمّة وكفاءتهم في تدبير الأمور. ومن أجل ذلك كان استحقاق الأئمّة للحكم السياسي والحاكمية العامّة من الواضحات، وهذا سبب ملحّ لدى تلك الفرق في القيام بنهضة سياسية مناوئة لنبي أمية وبني العباس.

وكان النظام الأموي والعباسي يجد في مقالات تلك الفرق حول مقامات أئمة أهل البيت رسالة سياسية واضحة معبّئة لجمهور الناس ضدّ النظام، لا أنّها ذات طابع عقيدي بحت.

فكانت روايات هذه الفرق تنطوي على تخطئة منهج السقيفة في كيفية انتخاب الحاكم السياسي، وعلى تأكيد ودعم لحصريّة صلاحية قيادة الأمة والإمامة السياسية بأهل البيت عليهم السلام وبالإمام الذي يتمتّع بمقامات غيبيّة لا تتوفّر في الرجل المنتخب من الأمّة.

ولك أن تلاحظ أنّ المواجهة العسكرية السريعة من النظام الأموي والعباسي ضد هذه الفرق والجماعات تبيّن درجة التحسّس والتخوّف لدى الأنظمة الحاكمة

من ناحية أمنية وعسكرية وسياسية. لا سيّما وأنّ المؤرخين قد ذكروا لرؤساء هذه الجماعات ـ كالمغيرة بن سعيد وبيان وأبي الخطّاب ونحوهم ـ خروجاً على النظام الأموي والعباسي، والخروج مصطلح في الثورة السياسية، والملفت أنّ المغيرة بن سعيد وبيان وجماعة من تيّار المغيرة وروّادهم قد قاموا بالخروج على النظام الأموي في سنة ١١٩ أي قبل خروج زيد بن علي في سنة ١٢١ كما سيأتي كلام المؤرّخين في ذلك.

لا سيّما وأنّ شعار الخروج والثورة السياسية التي قام بها المغيرة بن سعيد وحلفاء تيّاره هو تحكيم إمامة الصادقين عليهما السلام بالاسم، وهذا الشعار كما سيأتي أخصّ وألصق بأهل البيت من شعار زيد بن علي.

وكان خروج ونهوض المغيرة بن سعيد بمثابة فتح الباب وشرع الطريق أمام خروج وثورة زيد بن علي.

والحاصل: أنّ الباحث في هذه الفرق الشيعية المطعون عليها بالغلو العقائدي يقف على شواهد عديدة على أنّ تلك الظواهر لم تكن مسائل عقائدية جدليّة بحتة، بل كانت ذات تداعيات سياسية شديدة جدّاً مما يستوقف المتتبّع عن حقيقة الطعون العقائدية التي روّجها النظام الأموي والعباسي ضدّ مقالات هؤلاء، وأنّ طعن السلطات الحاكمة عليهم بتأليه الأئمة أو القول بنبوّة الأئمة كانت دعاية قامت بها السلطات بكلّ قوّة للحيلولة دون انتشار وتوسّع هذه التيّارات وصيرورتها جبهة محدّدة لبقاء حياة النظام.

وكان ذلك أحد أسباب تخطئة أئمة أهل البيت عليهم السلام لهذه الفرق والجماعة، حيث كانت تجنّد هذه المعارف للتبعئة السياسية والشحن الجماهيري باندفاع وتهوّر، فكان التموّج الذي يحدثوه بنحو مربك فوضوي يفتح الطريق أمام ذوي الأطماع السياسية بالاندساس في صفوفهم وركوب هذا التيار للوصول إلى مكاسب ومناصب سياسية، وقد عبّر واصطلح في الروايات ـ كما مرّ ـ عنهم

بالسفلة أي الذي يجيّر الحقائق الدينية لمكاسب سياسيّة مصلحية دنيئة لنفسه.

ونذكر جملة من الشواهد على تطرّفهم السياسي في الفصل السادس.

السادس: الاستئكال بمحبّتهم وإظهارها لأجل الوصول إلى الأطماع الدنيويّة

فقد روى المفضّل عن الصادق ﷺ: وأمّا المرتفعة هم الذين يرتفعون بمحبّتنا وولايتنا أهل البيت وأظهروه بغير حقيقة وليس هم منّا ولا نحن منهم ولا أئمّتهم أولئك يعذبون بعذاب الأمم الطاغية حتى لا يبقى نوع من العذاب إلّا وقد عذّبوا به[1].

والظاهر من هذه الرواية أنّ هؤلاء حرصوا على إظهار محبّة وولاية أهل البيت بإصرار وترائي شديد طمعاً في الوجاهة بين المؤمنين والوصول إلى مواقع رئاسيّة في جماعات أهل الإيمان فمناسبة تسميتهم بالمرتفعة أنّهم تصاعدوا في تقمّص الولاء رياءً وتلبيساً.

---

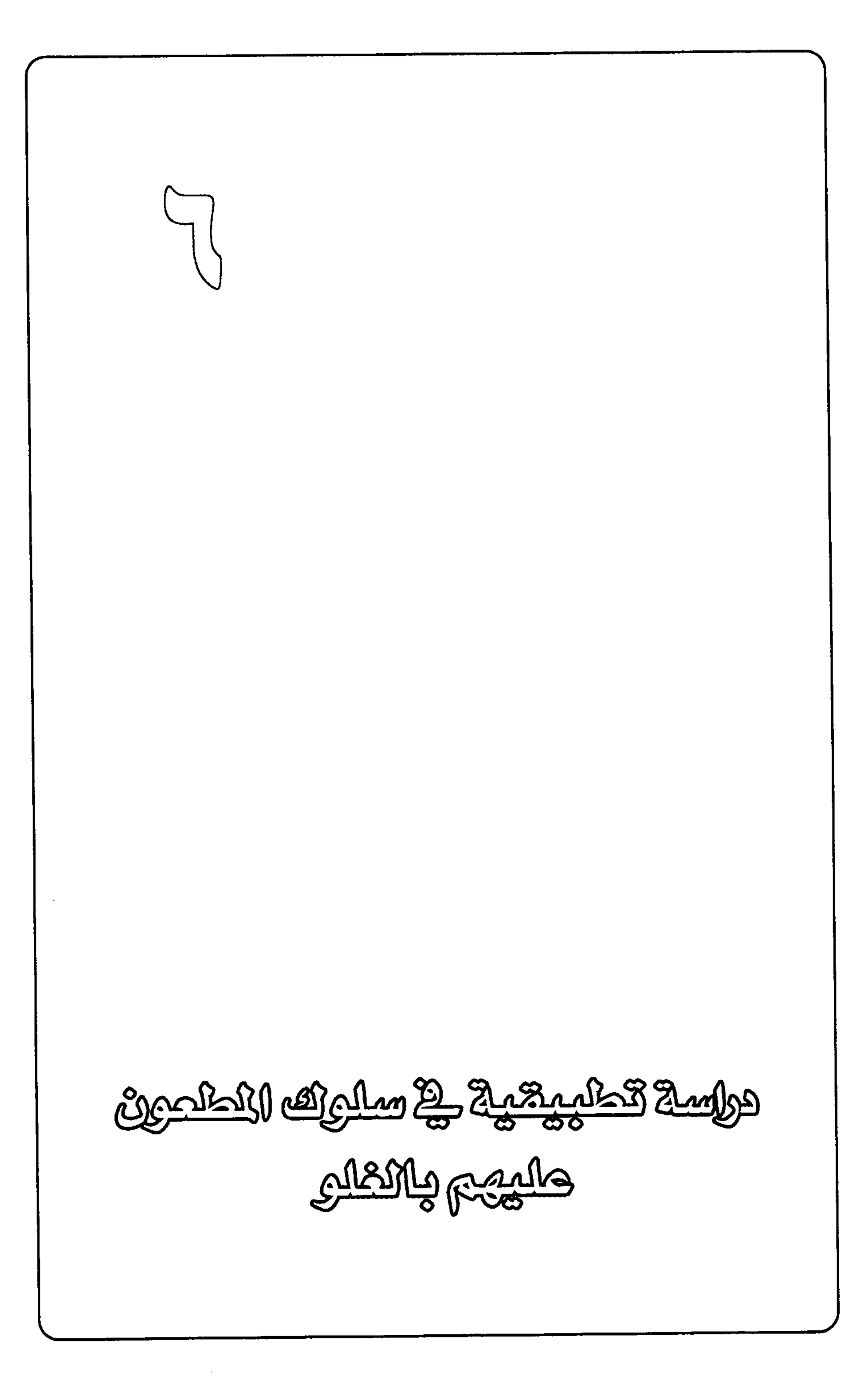
١. الهداية الكبرى / ٤٣١.

السابع: إسناد الأفعال الخطيرة في الخلقة إلى المقرّبين من دون تقييدها بـإذن الله

نظير إحياء الموتى وإماتة الأحياء وإبراء ذوي العاهات والعلم بـالمغيّبات ونحو ذلك؛ فهذه الأمور ليس في القول بصدورها عنهم عليهم السلام ـ كما صدرت عن أنبياء الله ـ أيّ محذور، إنما المحذور في عدم تقييد ذلك بأنّه بإذن الله كما قيّد ذلك في قوله تعالى: ﴿إني خالق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله﴾[1] والتسامح في إسناد هذه الصفات والأفعال إليهم من دون التقييد يوجب إيهام الآخرين بألوهيّتهم عليهم السلام. ومن ثم قد وردت روايات كثيرة في النهي عن إسناد هذه الأفعال لهم عليهم السلام والمقصود أنّ إسناده ولو مع التقييد بإذن الله يغري عامة الناس إلى إسنادها بنحو مطلق من دون تقييد مما يتضمّن شبهة الاستقلال والإيهام بالربوبيّة ومن ثمّ عبّر عنه بالغلو.

---

١. آل عمران / ٤٩.



٦

دراسة تطبيقية في سلوك المطعون عليهم بالغلو



□ قواعد في دراسة أحوال الفرق

إنّ هناك قواعد مهمّة يجب التدقيق فيها و دراستها للتعرّف على أحوال الفرق المختلفة:

القاعدة الأولى: المفارقة بين روّاد الفرق وطبقات الأتباع

إنّ من الضروري ـ في تقييم عقائد الفرق ودراستها ـ التدقيق والتفكيك بين حقيقة مقال الروّاد والزعماء لتلك الفرق عن مقالات تلك الفرق التي نشأت لاحقاً في الأجيال المتعاقبة عنهم، وليس من السديد توحيد ما يذهب إليه المتأخّرون من أتباع تلك الفرق مع صورة المفاهيم المعتقدة لدى زعيم تلك الفرقة. فإنّ الانحراف وإن بدأ قليلاً إلّا أنه يزداد سعة كلما أوغل فيه حتى يكون في الحلقات المتعاقبة لاحقاً فلاحقاً كبيراً جداً ثم يتفاقم أكثر فأكثر، فيحسب الباحثون في علم الملل والنحل والفرق والأديان أنّ زعيم ومبدأ تلك ا لفرقة والجماعة تحمل في طيّاتها كل انحرافات الأجيال المتأخّرة منه. وهذا ما يبهم حقيقة الحال في مبدأ الفرق وروّادها.

بل يصعب على الحاذق الدقيق الفطن التمييز بين حقبة وأخرى في الفرقة الواحدة، فخذ مثالاً على ذلك: أنّ البابية التي أصبحت بهائيّة كفرقة منتشرة مارقة من الإسلام كانت في بدء أمرها تدّعي النيابة الخاصّة، بل ربّما تكون قد انبثقت من

رائد سابق لا يدّعي النيابة الخاصّة ولكن يدّعي ويتوهّم التشرّف أو الإلهامات الروحيّة أو التسديد والتوفيق بعناية خاصّة وامتياز فائق ونحو ذلك من الجهالات والغفلات الناشئة من السذاجة أو العجب أو الغرور أو التأويلات الخاطئة للمعارف غير المستندة إلى موازين وقواعد صحيحة وسديدة وثابتة.

وهذا ما يجب أن يدقق فيه الباحثون في الفرق وتياراتها وحلقاتها المتعاقبة لئلّا يختلط الحابل بالنابل والغث بالسمين فيضيع من تراث الحديث في المعارف الكمّ الجمّ تحت طائلة الخلط في الجرح والتضعيف بلا تمييز دقيق.

ثم إنّه لا يتوهّم من هذه القاعدة التشطيب على قاعدة أخرى في الملل والنحل وهي أنّ مذهب رؤساء الجماعات إنّما يعرف من خاصّته والمؤتمّين به، وذلك لأنّ هذه القاعدة يراد بها الدوائر التي تحيط بشخصيّة المركز واتباعه الذين عاصروه وقرب عهدهم منه بينما كلامنا في المقام هو بلحاظ الدوائر البعيدة.

كما أنه لا يتوهّم من هذه القاعدة أنّ مفادها كون الأصل في مقالات الطبقات المتأخّرة من الأتباع هو المغايرة مع الروّاد فليس الأصل الغالب يبني فيه على التغاير، بل إنّ حقيقة المقصود من هذه القاعدة أنّ كلاً من الحكم بالتغاير أو التوحيد لابدّ وأن يبنى على شواهد ومستندات نزيهة عن التحريف تثبت الاتّحاد أو تثبت التغاير، وأنّ تقصّي مقالات زعيم أيّ فرقة يجب أن يتوصّل إليها بالقصاصات والمستندات على حدة خاصّة بذلك الزعيم لا من خلال ما يقوله عنه مناوئوه وخصومه. وهذا التفكيك والتدقيق لم نشاهده لدى أرباب التراجم وأصحاب كتب الملل والنحل.

القاعدة الثانية: تفكيك الأصول الصحيحة لغوامض
المعارف عمّا لفّق بها من تأويلات خاطئة

إنّ من الأمور البالغة الأهمّية في دراسة تراث أهل البيت عليهم السلام وما ينسب إلى الغلاة من الرواة من مقالات والتي على ضوئها يتمّ تقييم مضامين الروايات، هو

المداقّة في معرفة مبدأ نشوء المقالات والأصل الذي كانت عليه وما طرأ على ذلك الأساس من تغييرات وتفكيك ذلك الأساس عمّا قد يضمّ إليه ويخلط به من انطباعات خاطئة حدثت إمّا لدى متأخري الأتباع أو حدثت لدى الخصوم والمناوئين.

فإنّ الدمج والخلط بين ذلك يضيّع ويقضي على ذلك الأصل والأساس الذي ربما كان معنى صحيحاً سديداً وإن كان غامضاً يصعب رفع إبهامه على عامّة الأذهان.

وعملية التفكيك والتدقيق تتطلّب تضلّعاً ونظراً ثاقباً يقتدر على تجريد بعضها عن البعض بقدرة تحليلية عقليّة وحدس ذوقي قوي يصل بإدراك سريع وقّاد إلى المقدّمات الاستدلاليّة، بجانب باع كبير في التتبّع والاستقصاء ومراس وإدمان في البحث في الأبواب، كي يتسنّى له بذلك معرفة أصل المقالة المرويّة عنهم عليهم السلام عن الهيئات الأخرى للمقالة المغيّرة لها عن وجهتها وحدّها الأصلي.

وسيأتي في مكاتبته عليه السلام للمفضل بن عمر مثال لذلك من مقال نسب إلى الخطّابية من أن الدين هو معرفة الرجال وأنه إذا عرفت فاعمل ما شئت وأن الصلاة والزكاة والصوم وأبواب الدين وكل الطاعات أصلها معرفة أئمة الهدى وكذلك كلّ أبواب الحرام والفواحش أصلها أئمة الكفر وكيف أن هذه المقالات حرّفت عما كانت عليه من أصل صحيح وكم ترى عليها من تغيير. وغيرها من موارد عديدة كثيرة جداً.

ومن ذلك ما قاله السيد المرتضى في الشافي: «فأما ما حكاه عن بعضهم من أنه لولا الإمام لما قامت السماوات والأرض ولا صحّ من العبد فعل فليس نعرفه قولاً لأحد من الإماميّة ولا تأخّر اللهم إلّا أن يريد ما تقدّم حكايته من قول الغلاة، فإن أراد ذلك فقد قال: إن الكلام مع أولئك ليس بكلام في الإمامة وأحال به على ما مضى في كتابه من أنّ الإله لا يكون جسماً، على أنّ من قال بذلك من الغلاة ـ إن

كان قاله ـ فلم يوجبه من حيث كان إماماً وإنّما أوجبه من حيث كان إلهاً وصاحب الكتاب إنّما شرع في حكاية تعليل من أوجب الإمامة وذكر أقوال المختلفين فيها وفي وجوبها وما احتيج له إلى الإمام»[١].

وهذه المقولة حرّفت عمّا هي عليه في الأصل وأصلها ما هو مروي عند الفريقين كما رواه في الكافي ولو بقيت الأرض بغير إمام لساخت، ولو أنّ الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله[٢].

وروى الحاكم في مستدركه على الصحيحين قول الله تعالى لآدم وللنبي عيسى: لو لا محمد لما خلقتك ولا خلقت أرضاً ولا سماءً ولا جنّة ولا نوراً.

وهذه الروايات تبيّن أنّ غاية الخلقة هو المخلوق الأكمل، نظير قوله تعالى: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾[٣] وبعد فرض انتفاء الغاية لا يكون للمعنى بقاء.

فحرّف هذا المعنى وأوّل على غير وجهه الصحيح.

القاعدة الثالثة: عدم اعتماد مصادر السنّة في حقيقة مقالات فرق الشيعة

إنّ من الأخطاء المنهجيّة لدى جملة من الباحثين وأرباب الجرح والتعديل من أصحابنا وبعض من كتب في الملل والنحل والتراجم أو تاريخ الفرق أنّهم يستندون في تعريف وشرح فرق الشيعة وطوائف الرواة عن أهل البيت، إلى ما قاله العامّة في كتب التاريخ والرجال والملل والنحل لديهم، وكذا الحال في المطعون عليهم بالغلوّ والمرميّين بالتكفير. وفي هذه المراجعة إليهم عدّة ملاحظات:

---

١. الشافي ١ / ٤٢.

٢. الكافي ١ / ١٧٩ باب أن الأرض لا تخلو من حجّة /ح ١٠ و ١٢.

٣. الذاريات: ٥٦.

الأولى: أنّ العامة لا يحتمل فيهم الحياد والإنصاف في بيان الحقائق في هذا المقام فكيف يعوّل عليهم؟

الثانية: أنّ آراء العامّة حول مقالات الشيعة ناشئة عن عدم الفهم لحقيقة معارف الشيعة في جملة من مسائل وأبواب المعارف. فمثلاً مقالة الشيعة ولا سيّما الإمامية في أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لهم علم لدنّي وحبل ونافذة ينفتحون بها على الملكوت والسماء ـ كما هو الحال في طالوت وذي القرنين والخضر ومريم، مع أنّ هذه القناة ليست بنبوّة ولكنّها ارتباط لدنّي ـ تنطبع عند العامة أنّه قول بالنبوّة والوحي النبوي ويطعنون بذلك عليهم. مع أنّ السور القرآنية غير واضحة لديهم في نماذج الحجج التي استعرضها القرآن الكريم وأنواع المناصب الإلهية التي بيّنها وأنّها لا تنحصر في النبوّة والرسالة، بل تشمل الإمامة والاصطفاء والحجّية وغيرها من المقامات.

مثال آخر: وراثة روح القدس الذي اوحاه الله إلى نبيّه كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[١].

مع أنّ هذا الروح الأمري والذي هو روح القدس هو الذي أيّد الله به عيسى ويصرّح القرآن الكريم بتوريثه وانتقاله إلى من يشاء من عباده كما في قوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[٢] وكذا أشير إليه في ذيل آية الشورى السابقة: ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾.

وهذا الروح الذي هو من عالم الأمر والذي هو الكتاب قد ورّثه الله الذين اصطفاهم من هذه الأمة وهم أهل البيت عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾[٣].

---

١. الشورى: ٥٩.

٢. غافر: ١٥.

٣. فاطر: ٣٣.

وهذا الانتقال حيث إنّه ليس انتقال ذات شخص من أنبياء الله إلى نبي آخر ولم ينتقل ذات النبي إلى نبي آخر، وإنّما هي قوّة من القوى الغيبية الملكوتية زوّد بها وأيّد بها نبي، يرثها نبيّ من بعده أو وصيّ نبيّ من الأوصياء والأئمة.

وهذا يغاير مقالة التناسخيّة، إلّا أنّ عدم فطنة العامّة بهذه المباحث الدقيقة القرآنية أوقعتهم في الأوهام أنّ هذه المقالة مؤدّاها تناسخ أرواح الأنبياء والأوصياء، لا سيما وأنّ جملة من أتباع بعض الفرق ممّن لا يتقن حقيقة هذه المقالة القرآنية شبّهت له بتناسخ الأرواح وانتقال النفوس من بدن إلى بدن، وهذا ممّا يزيد في تشويش حقيقة الصورة ويختبط معترك الكلام لدى العامّة.

ففي البدء والتاريخ: «أما السبائية فإنّهم يقال لهم الطيّارة ... ومن الطيّارة قوم يزعمون أنّ روح القدس كانت في النبي كما كانت في عيسى ثم انتقلت إلى علي ثم إلى الحسين ثم كذلك في الأئمة وعامّة هؤلاء يقولون بالتناسخ والرجعة ومنهم من يزعم أنّ الأئمة من نور الله تعالى وأبعاض من أبعاضه وهذا مذهب الحلاجيّة»[1].

ولا يخفى أنّه ليس غرضنا الاهتمام بأشخاص الرواة بقدر ما هو الاهتمام في حقيقة المعارف ومضامين الروايات وواقع المقالات.

ومن نماذج تأثّر عدّة من الأصحاب بما يروج عند العامّة من الطعون على فرق الشيعة ما سيأتي من كلام النوبختي حول الخطّابية وحول إيمان أبي طالب عليه السلام، وما ذكره علي بن إبراهيم القمي في تفسيره في عديد من موارد أسباب النزول من دون أن يسنده إلى رواية أهل البيت عليهم السلام تأثّراً بما عند العامّة حتى في قصّة ما لفّقوه من سبب نزول الآية في عدم إيمان أبي طالب عليه السلام .

وكذلك ما ذكره الكشي في عديد من الموارد فيما ذكره عن فرق الشيعة أو

---

١. البدء والتاريخ ٥ / ١٣٠ .

في تراجم مفردات الشخصيّة للرواة.

القاعدة الرابعة: الصراع السياسي والرمي بالغلوّ

إنّ ظاهرة رموز وروّاد الغلو والطيّارة تسترعي توقّف الباحث مليّاً عندها، ولا يمكن لمن أراد الوصول إلى الحقيقة السماع والإنصات إلى الطرف الطاعن من دون تقصّي أحوال المطعون الذي هو طرف آخر في الخصومة والنزاع.

والبحث وإن لم يكن غايته الانتصاف لمن طُعن عليهم بالغلوّ ووصف الطيّارة بقدر ما هو عزم على الوصول للحقيقة، كي لا تتكرّر مثل هذه الظاهرة ولا تعمّم على الأبرياء من سائر الرواة، وليتمّ التعرّف على الخلفيّات والأسباب الخفيّة التي تقف وراء مثل هذه الظاهرة.

فإنّه لا يمكن استبعاد منهج القراءة السياسية للحدث وإن لم يصحّ الاقتصار على هذا المنهج بل لابدّ من إعمال المناهج المختلفة الحديثي والكلامي والتاريخي المحض والرجالي والفقهي وغيرها كلّ في مجاله وبحسب زاويته، كي تتّضح الصورة كاملة ولا تقتصر الشواهد على جوانب دون أخرى ولا يتمّ استبعاد العوامل المتعدّدة الموثرة.

فمن جملة العوامل التي لا يمكن إغفالها في بحث ظاهرة الغلاة ورميهم بالغلوّ هو الصراع السياسي الذي كان بين الفرق الشيعية وبين السلطات الأمويّة والعباسية، إذ لا ريب أنّ بثّ الثقافة الداعية إلى تسليط الضوء على أهل البيت عليهم السلام كقيادات منقطعة النظير، عديمة الشبيه متميّزة النعوت، يمتنع مشاركتها في المقامات، وذكر ما لهم من الصفات المرتبطة ممّا تعكس ارتباطهم بالملكوت، كلّ ذلك يقطع السبيل على غيرهم في منافستهم على الشرعيّة ويفقد الشرعيّة عن الأمويين والعباسيين في تسلّطهم على مقام الخلافة والحكم في بلاد المسلمين.

ومن الواضح أنّ هذا يمثّل ثورة سياسية على بني أمية وبني العباس ويربك الأرضيّة في عموم قاعدة المسلمين على بنيانهم، فلا محالة أنّ التيار الذي يقوم

بعبء نشر معارف مقامات أهل البيت عليهم السلام يعتبر في الحقيقة نشاطاً سياسياً معارضاً للسلطات ولا محالة ينجرّ بعد ذلك إلى تحرّك السلطة الأموية والعباسية ضدّ هذا التيار ولمواجهة هذه الثقافة التي تخلق أزمة الشرعية عنهم. ولا محالة مواجهة هذا الفكر لابدّ أن يكون بأدوات فكرية قبل أن يكون بأدوات سياسية وأمنيّة وإن كانت السلطات الأموية والعباسية قد استخدمت كل الأدوات، ولكن في البدء استعملت في المواجهة أدوات من النمط ا لأوّل وهو الطعن بالغلوّ والانحراف والتكفير والتفسيق نظير الحكم بالردّة على الكثير من مانعي الزكاة للخليفة الأوّل والمصرّين على لزوم تولية مقام الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام .

فإنّ عصا التكفير والرمي بالبدع والغلوّ لم يكن أمراً مستبعداً من المستولين على الخلافة الإسلاميّة في مواجهة القواعد العديدة من جماهير المسلمين الداعية إلى مناصرة أهل البيت عليهم السلام، لا سيّما ذلك التيّار الفكري الذي يدعو إلى تبيان البراهين والدلائل والبيّنات على حصر الشرعية في الإمامة والخلافة لأهل البيت عليهم السلام وذلك عبر بيان نعوتهم وتفسير مقاماتهم بحسب نصوص القرآن ومتواتر السنّة النبويّة وتأويلها بعمق يبيّن الحكمة والعلّة في كون الإمامة والخلافة ضرورةً بالنصّ الإلهي والجعل الربّاني وأنّها كمقام النبوّة والرسالة من جهة أنّها منصب إلهي وإن اختلفت عنها في السنخ والنوع، وهذا ممّا يصعّد القدرة الفكرية على مواجهة بني أمية وبني العباس بصورة أكفأ وأقوى من البنية الفكرية من أصحاب التيّار الكلامي الجدلي البحت.

فإنّ أصحاب التيار الكلامي وإن كانت لهم إسهامات مهمّة في مواجهة السلطة الأموية والعباسية والدفاع عن منهاج أهل البيت عليهم السلام، إلّا أنّ هذه المواجهة لم تخل من إرباك بسبب تجنيد السلطة الأموية والعباسية تيّاراً كلاميّاً مضادّاً قام بتخوية المعاني وتسييب حدود المعاني وتمطيط الموازين الفكرية وإيجاد الكثير من اللغط الجدلي الذي يعتّم على كثير من الأذهان رؤية الحقيقة، وهذا بخلاف

التيّار لرواة المعارف والمقامات الغيبيّة لأهل البيت عليهم السلام والذي يقوم بانتزاع هذه المعارف من حقائق المعاني القرآنية أو دراية النصوص النبويّة، فإنّ هذا الطرح المعرفي يصعب مواجهته ولا يمكن ادّعائه في شأن غير أهل البيت عليهم السلام من مناوئيهم وخصومهم وبني أميّة وبني العباس.

فإنّ هذا النمط من البيان والخطاب والدلائل لحقّ أهل البيت عليهم السلام يسعّر قوّة المواجهة ويعرّي عن حقيقة الطرف الآخر وظلمه واستبداده واستئثاره بدرجة تضيّع عليه الفرصة في القدرة على المواجهة، وهذا مما كان يتطلّب تحرّكاً سريعاً من السلطات الأمويّة والعباسية لمحاصرة تولّد تلك التيّارات والإجهاز عليها في مهد بيئاتها.

ومن ثمّ لم يكتفوا بالتكفير والطعن عليهم بالغلوّ بل بادروا بعد تشهيرهم بهذا الطعن إلى المواجهة الأمنيّة والعسكرية، كما حصل مع المغيرة بن سعيد وزملائه ومع أبي الخطّاب وجماعته وغيرهم من هذه الجماعات. بل استطاع مدّ السلطة أن يشيّع الساحة ضدّ هؤلاء فكرياً بتوسّط هذا الطعن بأنه تأليه والقول بالربوبية لأهل البيت عليهم السلام. وهذا النمط من أسلوب المواجهة لم يكن جديداً بل قد رُفع شعاره من قبل المستولين على الخلافة والحكم منذ أوّل يوم من وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث رفع شعار «من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت»[1] فيتضمّن هذا الشعار أنّ هذا الولاء لسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم إفراط وعبودية وغلوّ في شخصيّته صلى الله عليه وآله وسلم وتأليه له. وكذا قالها الثاني مخاطباً سلمان: «أليس قد أزالها الله عن أهل البيت الذين اتّخذتموهم أرباباً من دون الله»[2].

---

١. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ١: ١٧٧ و ٢ / ٤٠ و ١٣ / ٣٥، وبحار الأنوار ٣٠ / ٥٩٠.

٢. بحار الأنوار ٢٨ / ٢٧٨.

والملاحظ أنّ جملة الأبحاث الرجالية التي خاضت في تحليل هذه الظاهرة لم تستوف العامل السياسي ودوره، مع أنّ حدثاً بمثل هذه الضخامة في عمق البيئة الاجتماعية والسياسية وتداعياتها فإنه يتفاعل بقوة مع الخطط السياسية وتنازع القدرة، لا سيّما وأنّ مثل المغيرة وأبي الخطّاب وأمثالهما لم يكونوا أصحاب دعوة فكرية فقط بل كانوا يحملون توجّهاً إلى مشروع سياسي كبير، حتى أنّ المصادر التاريخيّة لم تستطع إخفاء ذلك كما سيأتي التعرّض إلى جملة من القصاصات الشاهدة على ذلك، بل أنّ عبد الله بن سبأ لم تستطع المصادر التاريخية إخفاء طابع تحرّكه السياسي المناهض للخط الحاكم السياسي وهذا يفتح الباب لقراءة خلفيّة الطعون التي رُمي بها هؤلاء من الغلوّ والمروق العقائدي.

كما يسترعي الباحث للبحث في الفارق والمائز بين جملة من ثورات العلويين ضدّ بني أمية وبني العباس والتي أيضاً كانت ثورات سياسية مناهضة لسلطة الحكم السياسي، إلّا أنّه رغم ذلك لم يطعن عليها بمثل هذه الطعون مما يكشف عن أنّ الشعار العقائدي الذي رفعه مثل هؤلاء كمنطلق للتحرك السياسي يختلف عن طابع ثورات العلويين، فإنّ هؤلاء كانوا يركّزون على إمامة ووصاية الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام دون من سواهم، وينطلقون في تبيان نظام الشرعية السياسية من منطلقات معرفيّة حول مقامات أهل البيت عليهم السلام، ممّا يسدّ الباب على بقيّة وجوه بني هاشم من العلويين والفاطميين ومن الحسنيين والحسينيين فضلاً عن الأمويين والعباسيين، وينطلقون في الحقّ الحصري للأئمة الاثني عشر عليهم السلام في القيادة السياسية للأمة والقيادة الدينية من أسس معرفيّة عقديّة وهي علوّ مقامات أهل البيت عليهم السلام من المواهب اللدنية الإلهيّة. وهذا بمثابة ترويج ثقافي وعقائدي يهيّىء الأرضية لتبرير وتفسير الدعوى السياسية والعسكرية لأهل البيت عليهم السلام.

إلّا أنّ هؤلاء أخفقوا في دراسة الظروف وتقييمها كما أنّهم أخفقوا في اعتماد

البرامج السديدة الصائبة والخطط المرحلية. فكان ما اعتمدوا من تدبير وتخطيط وأساليب مضرّ غاية الإضرار بمسيرة أهل البيت عليهم السلام، بل وسبّب تداعيات سلبية شديدة من إرباك الوضع الأمني، وفتح الباب للسلطات الحاكمة للقيام بالمزيد من الضغط والحصار على مسارهم عليهم السلام، فضلاً عن استقلال جماعات أخرى انتهازية تتحيّن الفرصة في ظلّ الالتباسات في المفاهيم الدينية لكي تقوم بتحشيد الاتباع، وتسويغ دعايات رئاساتها الباطلة، ولو كلّف ذلك المتاجرة والتلاعب بكلّ مقدسات الدين وتحريف الحقائق. إذ أنّ أيّ تحرّك اجتماعي سواء كان طابعه عقائدياً أو سياسياً أو علمياً محضاً فإنه يتفاعل مع الشرائح الاجتماعية على اختلاف ألوانها ومآربها.

هذا مضافاً إلى إخفاق هؤلاء في فهم وتنظير جملة من المعارف الغامضة وتغييرها بالصورة السديدة، وكذلك ضبط جملة من الأحكام الشرعية كي لا يحصل منها انطباع خاطىء، ولا يستغلّ أصحاب الأغراض والميول والأهواء استثمارها في مآربهم الخسيسة.

ففي ظلّ جملة هذه الإخفاقات والتمرّد على وصايا أئمة أهل البيت عليهم السلام وتأكيداتهم في المنهج والمنهاج، وفي ظلّ معترك التجاذبات والتصارع السياسي والاجتماعي تموّج مثل هذه الظاهرة الغامضة التي لا يمكن تفسيرها وتحليلها والوقوف على حقائق الأحداث إلّا بتفكيك القصاصات والشواهد والعوامل والأسباب ودوافع الأطراف بمنهج متثبّت وتروّي وتدبر مليء بالنظر الثاقب.

وهذا المنهج من المواجهة هو الذي نشاهده من الأنظمة السياسية التي تتّخذ من السلفيّة ذراعاً لمحاربة أتباع أهل البيت عليهم السلام، فإنّهم يقومون برفع سيف التكفير كذريعة لجحد واستئصال جملة من أركان الدين كالتوسّل وبناء المشاهد المشرفة ومعالم الآثار التاريخية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة وسائر أرجاء المعمورة. فإذا كان هذا التيّار الحاكم على رقاب المسلمين ـ

منذ الصدر الأوّل إلى أن تطالت القرون وإلى يومنا هذا ـ لا يتحمّل وجوده في السلطة وتقمّصه لمشروعية الحكم ظاهر بعض مقامات وصلاحيّات أهل البيت عليهم السلام فكيف بتلك الصلاحيات الأعلى النابعة من صفات ونعوت وفضائل لا يكاد مثل هؤلاء العتاة من الحكّام أن يتصوّروا جانباً مخفّفاً منها فضلاً عن أن يحتملوا إمكانها.

القاعدة الخامسة: إيهام حال جملة من الرواة لانتحال الطيارة والغالية لهم

إنّ جملة من الفرق المنحرفة قد سعت لتقوية دعوتها وشوكتها وتجلية وجهها إلى إلصاق جملة من الرواة الكبار والشخصيات اللامعة إليها، وذلك بجعل جملة من الأسانيد تنتهي إلى أولئك الرواة ونسبة متون من الروايات الموضوعة كقول ومقالة يتبنّوها أو كمتن رواية ينسبونها إلى المعصوم على لسان أولئك الرواة.

كما تقوم الطيارة الغالية بوضع روايات كثيرة على لسان أولئك الرواة في كتبها، وكما تقوم الواقفة بإسناد روايات الوقف إلى جملة من الرواة الذين هم ليسوا منهم.

وهذا مما يسبّب تولّد التهمة والشبهة لدى عدّة من الرجاليين حول أولئك الرواة، بل فتح باب الطعن من أولئك الرجاليين على أولئك الرواة. وقد وقع ذلك للكشي والنجاشي وابن الغضائري في جملة من الموارد، بل ما يزيد على الشبهة والتهمة افتراء العامة على أولئك الرواة جملة من المفتريات وقد يطابق مفتريات الطيارة والغالية وغيرهم فتستحكم الشبهة والتهمة حينئذٍ.

فمثلاً قال المحقق التستري في قاموسه في المفضل بن عمر: «والظاهر أنّ منشأ طعن ابن الغضائري فيه حمل الغلاة في حديثه حملاً عظيماً كما اعترف به نفسه وكما عرفت من الكشي من قوله: «وذكرت الطيارة الغالية في بعض كتبها عن المفضل... الخ» وزاد الشبهة فيه والتهمة له افتراء العامة عليه، شأنهم مع أجلّة

الشيعة كما عرفت من قول الكشي «قال يحيى بن عبد الحميد ... الخ»[١] بل الواقفة أيضاً افتروا عليه أنه روى الوقف فنقل الغيبة عن كتاب عليّ بن أحمد الموسوي في نصرة الواقفة: أنه ذكر إسناداً عن المفضّل عن الصادق عليه السلام قال: إنّ بني العباس سيعبثون بابني هذا ولن يصلوا إليه»[٢].

وقال المامقاني في تنقيح المقال في ترجمة المفضّل في ردّ قول الكشي واعتماده في الطعن على المفضل على الكتب الطيّارة الغالية قال: «إنّه بعد اعتراف الكشي بأنّ الناسب إلى المفضل هذه الكلمات التي لا تصدر إلّا من أهل الهذيان الشاربين للبنج أو الخمر أو المجانين، هم الطيارة الغالين فما معنى جعله قادحاً في المفضّل، بعدما أشرنا إليه آنفاً من جريان عادة أهل المذاهب الفاسدة على الاهتمام بإدخال اسم جليل في جماعتهم ليقوى به مذهبهم الفاسد، كنسبة المتصوّفة التصوّف إلى أمير المؤمنين عليه السلام ... فكما أنّ ذلك منهم لا ينقص أمير المؤمنين عليه السلام فكذا هذه النسبة من الغلاة لا تنتقص المفضل الذي هو بمقتضى الأخبار المزبورة معدن الفضل».

وقال: «لما جرت عليه العادة من اهتمام أهل المذاهب الفاسدة إلى نسبة مذهبهم الفاسد إلى جليل من أهل الحق لتقوية مذهبهم والتعمية على الجهّال ... فعلى فرض عدّ الغلاة المفضل منهم لا يكون حجّة على غلوّ المفضّل فإنّ الإنسان يملك لسان نفسه ولا يملك لسان غيره»[٣].

ومما يشهد على ذلك أيضاً أنّ النجاشي قد ضعّف داود بن كثير الرقّي وعرّض بأنه من الغلاة بمجرد رواية الغلاة عنه، مع أنّ الكشي قال في شأنه إنه لم

---

١. نقل كلام قاضي العامة شريك بن عامر في المطاعن على المفضل بن عمر مع أنّ جملة من تلك المطاعن هي فضائل ومعارف يحسبها العامة مطاعن.

٢. قاموس الرجال ١٠ / ٢١٤ .

٣. تنقيح المقال ٣ / ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

يسمع أحداً من مشايخ العصابة يطعن فيه ولا عثرت من الرواية على شيء غير ما أثبتّه في هذا الباب، قاله ردّاً على الغلاة حيث زعموا أنّ داود من أركانهم[1].

القاعدة السادسة: فرق الصوفية من الفرق الشيعيّة

إنّ من الأمور الهامّة التي تستدعي وقفة مليّة عندها هو تحديد انتماء فرق الصوفية وهي بالعشرات لا سيّما وأنها تشكّل المساحة الضاربة في العالم الإسلامي سواء العربي أو غيره.

ولتنقيح ذلك نبين جملة من الأمور:

الأول: أنّ الصوفية والتصوّف منهج عقائدي وليس بمنهج فقهي، ومن ثم وقع الخطأ الشائع عند أصحاب التراجم وأرباب الجرح والتعديل في كتب الملل والنحل حيث عدّوا فرق الصوفية من فرق أهل السنة باعتبار انتمائهم في الفروع لأحد المذاهب الأربعة، بينما غفلوا عن انتمائهم العقائدي إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنّ جلّ الفرق الصوفية ينسبون أنفسهم إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام[2] مع أنّ المدار في علم الملل والنحل والفرق وعلم الدراية والرجال والتاريخ هو الانتساب العقائدي لا الفقهي.

الثاني: أنهم يعتقدون بأنّ الأئمة الاثني عشر أئمة الملكوت وأنهم وسطاء الفيوضات الربانية وأنهم شهداء لله على خلقه يوم الحساب وهداة الخلق إلى الله، وأنّ الخلفاء الثلاثة إنّما هم أئمة الظاهر أئمة سياسة دنيوية دون الولاية الأخرويّة والغيبيّة.

وهذه الدرجة من التبرّي من أئمة الظاهر ـ حيث لا يثبتون لهم الولاية الغيبيّة

---

١. رجال النجاشي ص ٤٧١، ورجال الكشي ذيل ح ٧٦٦.

٢. عدا فرقة النقشبندية حيث تنسب نفسها إلى أبي بكر مع أنها تعتقد بإمامة أهل البيت عليهم السلام في الملكوت.

والأخرويّة ـ لا نجدها في فرق الزيدية مع أنها معدودة من فرق الشيعة.

الثالث: أنه من الجهة السابقة يتبين أنّ فرق الصوفية أخصّ بالإماميّة من الزيدية، وكذا هم أخصّ بها من الإسماعيلية والواقفية والناووسية وغيرهم من الفرق الشيعية التي لا تدين بولاية الأئمة الاثني عشر، بينما هؤلاء يدينون بولاية الأئمة الاثني عشر بأسمائهم ونسبهم وبولادة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وبأنه سيظهر، فهم أخصّ بالإمامية من بقيّة الفرق من هذه الجهة. ومن ثم فهم عقائدياً لا صلة بينهم وبين الأشاعرة ولا السلفية ولا أهل سنة الخلافة وجماعة السلطان ولا المعتزلة ولا الكرّامية والماتريدية والجهمية وغيرهم من فرق أهل السنة، بل حيث قدّموا علياً وولده في إمامة الملكوت والعلوم اللدنّية وأقرّوا بقطبية الاثني عشر فهم من فرق الشيعة عقائدياً.

الرابع: أن تبنّيهم في الفروع لأحد المذاهب الأربعة السنّية لا يقطع نسبتهم العقائدية إلى فرق الشيعة لأنّ النسبة في الفرق قائمة في الأساس على الانتماء العقائدي لا الانتماء الفقهي، وإلّا فإنّ فرق الزيدية في فقه الفروع أقرب إلى المذاهب الأربعة منها إلى الإمامية ومع ذلك لم يخرجهم عن تعداد فرق الشيعة.

الخامس: أنهم قائلون بمقامات عظيمة لأئمة أهل البيت عليهم السلام وبلطائف في معرفة مناقبهم وإشارات لا يصل إلى دقائقها جملة كثيرة من فرق الشيعة.

السادس: أنّ الفرق الصوفية هي النسبة الضاربة من أتباع المذاهب الأربعة وليس ذلك في قرننا الحاضر فقط بل منذ القرون الأولى لتأريخ المسلمين.

السابع: أنّ منشأ تولّد وبزوغ الفرق الصوفية هو امتداد لأتباع الفرق الباطنية الشيعية وما يسمّى بفرق الغلاة، فإنّ أدبيّاتهم جلّها مستوحاة مما كان متداولاً عند تلك الفرق، ويظهر ذلك جلياً بيّناً لمن تتبّع وبحث بشكل مقارن لمنظومة الأبحاث والاصطلاحات عند هذه الفرق، فيظهر لديه أنّ جذورها ومبدءها كان عند تلك الفرق الشيعية.

الثامن: قد يفسّر التلفيق الذي تبنّته الفرق الصوفية من الانتماء العقائدي في المعارف إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام من جانب، ومن جانب آخر تبنّي أحد المذاهب الأربعة في الفروع والالتزام بالإمامة السياسية أنّ ذلك نحواً من التقية المفرطة في الطبقات الأولى من فرق الصوفية في مقام العمل ومقام الولاء السياسي، حيث أدّى بهم هذا الإفراط في التقية إلى التمادي في الطبقات اللاحقة بحيث التزموا بالجانب الثاني كمبدأ في العمل ومبدأ في الولاء السياسي، إلى أن وصل الحال بما يرى من التلفيق الذي هم عليه في القرون المتأخّرة. وعلى أيّ تقدير فالأصل في النسبة وانتماء الفرق هي الجهة العقائدية المقدّمة في النسبة على المتبنّيات في الفروع العمليّة.

التاسع: إنّ من الشواهد على عدم انتساب فرق الصوفية لأهل السنّة أنك ترى الأشاعرة والسلفية وغيرهم من فرق السنة يكفّرون الصوفية في معتقداتهم، أو يطعنون عليها بالبدعة والغيّ والضلال ونحو ذلك، ولربّما راج التعبير لديهم أنّ التصوّف قنطرة التشيّع. ونحن إذ ندرجهم في فرق الشيعة وأنهم أخصّ بالإمامية من جملة من الفرق لا نريد بذلك إدراجهم في الإمامية الاثني عشرية، ولا ننكر وجود الفوارق الكثيرة والمؤاخذات التي سجّلها علماء الإمامية عليهم في جملة من أبحاثهم وكتبهم والمسائل والقواعد التي حكموا بالانحراف عليهم فيها، بل نحن في صدد بيان أنّ قواعد علم الملل والنحل والفرق الإسلامية وبحوث علم الرجال والدراية ومباحث التاريخ تعيّن اندراجهم في الفرق الشيعية وأنّ لهم جهات مشتركة مع الإمامية، وأنّ محتد تولّدهم ومهد ترعرعهم في التاريخ الإسلامي هو امتداد لجذور الفرق الشيعية. وحسب الناظر المقارنة بين المقالات المأثورة في الأبحاث المعرفيّة لجملة من فرق الشيعة مع مقالات الصوفية.

العاشر: وعلى ما تقدّم من النقاط يتبيّن النظر فيما يدّعى من أنّ أكثريّة العالم الإسلامي عبر القرون الأربعة عشر أكثريّته من أهل السنة، بل الأكثرية هي من فرق

الشيعة ولو أردنا تحييد فرق الصوفية عن كل من الشيعة والسنّة فالأشعرية والسلفية والمعتزلة والكرّامية ونحوهم لا يشكّلون أكثريّة العالم الإسلامي، بل إنّ هذا التحييد لفرق الصوفيّة كوسط بين الطرفين لا يخفى أنه يوجب أكثرية مذاهب التشيّع كعقيدة وإن أوجب أكثريّة التسنّن كمذاهب فقهيّة.

القاعدة السابعة: تنقيح التراث الإسلامي عن النصب والغلو

إنّ هناك الدعوات والنداءات الكثيرة المطالبة بتنقيح التراث الواصل ممن نقل وروى عن الغلاة أو أخذ من مصادرهم وذلك لعدم الأمن منهم على الصدق في النقل والأمانة في الرواية. والغريب أنّ هذه الدعوات تقتصر على التحسّس والحذر من الغلاة فقط وتهمل دور النواصب والمقصّرة في التأثير على التراث، فلا نجد أرباب الجرح والتعديل عند أهل السنّة يتحسّسون من الأخذ عن النواصب بل نجدهم يوثّقونهم.

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني قال: قال الخلّال: «إبراهيم جليل جدّاً كان أحمد بن حنبل يكاتبه ويكرمه إكراماً شديداً. وقال ابن حبان في الثقات كان حروري المذهب[١] ولم يكن بداعية وكان صلباً في السنّة حافظاً للحديث إلّا أنه من صلابته ربما كان يتعدّى طوره. وقال ابن عدي: كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق في الميل على عليّ».

وقال السلمي عن الدارقطني بعد أن ذكر توثيقه: «لكن فيه انحراف عن علي اجتمع على بابه أصحاب الحديث فأخرجت جارية له فرّوجة لتذبحها فلم تجد من يذبحها فقال: سبحان الله فرّوجة لا يوجد من يذبحها وعلي يذبح في ضحوة نيفاً وعشرين ألف مسلم».

---

١. الحروري: خارجي.

قال ابن حجر: «قلت وكتابه في الضعفاء يوضح مقالته ورأيت في نسخة من كتاب ابن حبان حريزي المذهب ـ وهو بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وبعد الراء زاي نسبة إلى حريز بن عثمان المعروف بالنصب[١] ـ».

وقال الذهبي في ترجمته: «أحد أئمة الجرح والتعديل ... كان مقيماً بدمشق يحدّث على المنبر وكان أحمد يكاتبه فيتقوّى بكتابه ويقرأه على المنبر»[٢].

فهذا تصريح منهم باعتماد أرباب الجرح والتعديل والمحدثين فيهم على النصاب من الرواة: بل اعتمدوا النصب سنّة يتديّنون بها ويجد المتتبع في كتب الرجال عندهم الكثير جدّاً من هذه النماذج و كتب الحديث لديهم مملوءة برواياتهم وقد كتب وجمع الكثير من المحققين من الإمامية قوائم بتعداد ذلك، فلاحظ ما كتبه الأميني في الغدير والمظفر في دلائل الصدق والإفصاح والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في رسالة مستقلّة في ذلك وما ذكرناه من نماذج في كتابنا عدالة الصحابة وفي الجزء الثاني من الرجال.

والحاصل: أنّ تراثهم في الحديث والسيرة والتاريخ وروايات أسباب النزول وغيرها من كتب التراث مشحونة بالنقل عن الرواة الموصوفين بالنصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام .

---

١. تهذيب التهذيب ١ / ١٥٩ رقم ٣٣٢.

٢. ميزان الاعتدال: ١ / ٧٥ و ٧٦.

□ تحقيق مركز انحراف المطعون عليهم بالغلو

لابدّ من الالتفات إلى أنّ جماعة ممّن تعاطى المعارف رواية ودراية كعبد الله ابن سبأ ومغيرة بن سعيد وبنان وأبي الخطاب لا ريب في انحرافهم عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام ووصاياهم، إلّا أنّ الكلام كلّ الكلام هو في تحديد وتشخيص هوّية ذلك الانحراف الذي ارتكبوا ومركز الانحراف، فهل هو ـ كما ينسب إليهم في كتب العامة ـ ادّعاء الألوهيّة والربوبيّة، أو قولهم بألوهية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، أو قولهم بالتناسخ؟

لكن الملاحظ أنّ انحرافهم إنّما كان في أمور أخر، منها: إذاعة السر وإشاعة المعارف الثقيلة والمعاني الغامضة التي يسبّب نشرها وإذاعتها وشيوعها عند عامة أهل العلم فضلاً عن عموم الناس، انطباع معاني خاطئة وتصوّرات باطلة وينسبق لديهم تأويلات زائغة باسترسال المبادرة في المعاني من غير فهم حقيقة تأويلها أو وجوه معانيها الصحيحة، فسبّب ذلك الانطباع الخاطىء في أذهان عموم الناس انحرافاً آخر من القول بالألوهية أو النبوّة.

لا سيما وأنّ هناك كانت جماعات ثانية خاصّة توصف في الروايات بالسفلة، وهم الانتهازيون الذين يستأكلون بالعلم متاع الدنيا ويطمعون في الرئاسة وتحشيد الأتباع، وذلك عبر الدجل والحيلة وتقمّص الادعاءات الباطلة من دون أن يتحرّجوا في إضلال الناس. فكان انتشار مثل هذه المعارف التي ظاهرها

متشابه مادّة ومنبعاً يوظّفونه لمآربهم ومصيدة لمكائدهم، يلبسون بتعمية تلك المعاني على الناس كي يصطادونهم في حبائلهم. فنشأت بسبب هؤلاء (السفلة) فرق منحرفة تزعم الألوهية والنبوّة، وكان الذي مهّد ذلك هو إذاعة ونشر المجموعة الأولى فهو الذي فتح الطريق أمام المجموعة الثانية.

ومن ثمّ حذّر الأئمة عليهم السلام عن الانحراف الأوّل وهو إذاعة أسرار المعارف، ولعنوا من يرتكب هذا الانحراف لأنّه الذي يسبّب وقوع الانحراف الثاني وإن لم يكن أصحاب الانحراف هم ممّن يقول بالانحراف الثاني.

كما في رواية ذريح المحاربي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن جابر الجعفي وما روى؟ فلم يجبني وأظنّه قال: سألته بجمع فلم يجبني، فسألته الثالثة فقال لي: يا ذريح دع ذكر جابر فإنّ السفلة إذا سمعوا بأحاديثه شنعوا ـ أو قال ـ أذاعوا[1].

وفي رواية المفضّل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير جابر؟ فقال: لا تحدّث به السفلة فيذيعوه[2].

وأيضاً في رواية يونس عن جميل قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام أحدّثهم بتفسير جابر؟ قال: لا تحدّث به السفلة فيوبّخوه[3].

فالطعن عليهم بالغلوّ في الألوهية والقول بالنبوّة يرجع إلى عدّة أسباب، كما سيظهر من استقراء جملة من الموارد والحالات وتجميع عدّة من القصاصات والشواهد الآتية استعراضها مفصّلاً ونلخّص تلك الأسباب بما يلي:

الأول: أنّ جملة من المعاني للمعارف التي قاموا بإذاعتها وكشفها كانت من الأمر المستصعب الذي يثقل وعيه على قلوب الخاصّة فضلاً عن العامة، لا سيّما في تلك الأزمان التي لم ترتق بعد ذهنيّة المعرفة عند عموم المؤمنين إلى المستوى

---

١. رجال الكشي / ح ٣٤٠.
٢. رجال الكشي / ح ٣٣٨.
٣. بحار الأنوار ٨ / ٥٠.

العميق العالي. فإنّ جملة من المعارف الحقّة لم تكن في صدر الإسلام بتلك الدرجة من الوضوح والبداهة، ولكن بفضل جهود أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم استطاعوا أن يوضّحوها لعقول عموم الأمة ويصلوا بتلك العقائد إلى درجة البداهة. وذلك نظير تنزّه الباري تعالى عن الجسمية والشبه والمثل، ونفي الجبر والتفويض، وكون الجنة والنار مخلوقتين، وتبيان صفة العدل في الباري تعالى، وكون القرآن ذا منازل ومواقع غيبيّة، وعصمة الأنبياء والمرسلين وتنزيههم عن الزلل والقبائح، وتبيين كمال الشريعة الإسلامية ودين الله، وأنّ لله تعالى في كل واقعة حكماً وإن جهله العباد ولكن يعلمه المستحفظون للكتاب من الربانيين الأوصياء، وأنّ الأرض لا تخلو من حجة لله تعالى بعد النبي وهو الإمام الذي تأتيه أخبار السماء وإن لم يكن ذلك وحياً نبوّياً ولكنه علم لدنّي من الله تعالى ووراثة لعلوم النبي وللكتاب العزيز.

إلّا أنّ جملة من المباحث والمسائل المرتبطة بمعرفة الإمامة أو شؤون نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن قد تجلّت بوضوح في تلك الآونة والفترة وإن كانت موادّ وحي كتاب الله العزيز والسنة المطهّرة حاوية لكل ذلك ولأعماق غزيرة من بحور لا تنفد.

فأبواب المعارف في ذهنية عامة أجيال المؤمنين ـ لا أجيال نخب المؤمنين ـ فضلاً عن المسلمين قد مرّت بمراحل في الوعي والفهم والإدراك والتدرّج في عمق وسعة المعرفة، فجملة من المعارف في الإمامة ومقاماتها التي تعدّ في أفق البحث العلمي في هذه الأعصار من الواضحات وأنّها مطابقة للموازين والقواعد ومحكمات الكتاب والسنّة، ولا يتوهّم فيها غلو أو إفراط من القول ـ لأنّها لا تخرج للمخلوق الذي اصطفاه نبياً أو إماماً عن العبودية والافتقار إلى الباري تعالى، وإنّما هي مقامات عظيمة، إلّا أنّ عظمتها ولو بلغت العرش العظيم فهي مخلوقة قائمة به تعالى ومن فيضه وإنعامه لا تخرج عن حيطته وقدرته وإرادته ومشيّته ـ لكنّها كان

يتوهّم منها في تلك الأزمنة عندما يكشف عنها النقاب أنّها من الصفات الألوهية أو أنّها من صفات النبوّة الخاصّة وذلك لقصور المستوى العلمي السائد آنذاك.

فمن ثم القول بوجود الأسرار والدقائق في المعارف وغوامض المسائل العقائدية لا يوجب قدحاً ولا جرحاً، كما قال المحقق الشيخ محمد علي الأراكي: «أما الدراويش فإن كانوا يقولون: إنه علاوة على هذه العلوم الشرعية المتكفّلة للواجبات والمستحبّات المسطورة في الدفاتر المنقولة عن الأئمة يكون هنا علوم أخر مأثورة عنهم عليهم السلام في الأخلاق على سبيل الأسرار والانتقال من صدر إلى صدر ومع ذلك يعتقدون بصحّة ما بأيدينا من الأخبار ويعملون بواجباتها ومستحبّاتها وغير ذلك وأنّ الجاهل لابدّ وأن يقلّد عن العالم فلا يكون وجه لكفرهم ونجاستهم ... وبالجملة فحال هذه الطائفة حينئذٍ مثل ما لو ادّعى أحدٌ وجدانه بعضاً من الأصول الأربعمائة المفقودة إلى هذا الزمان ورأى فيه ذكراً لم يكن يعرفه أحد إلى اليوم فدعوى هذه الطائفة أيضاً راجعة إلى أنّا وجدنا من الأئمة شيئاً ما وجدتموه وهذا لا يوجب الكفر وإن كانت دعواهم كاذبة»[1].

وكلامه رحمه الله إنما هو حول فرق الصوفية التي انحدرت انحرافاً أكثر من الفرق الباطنية، والتي هي منحدرة ومنحرفة أكثر من الرواة المطعون عليهم بالغلو الذين اعتراهم الزيغ في إفشاء غوامض ودقائق المعرفة لعامة الناس الذين تنطبع لديهم الحقائق الدقيقة بشكل مقلوب وبنحو معكوس عن واقعيتها فتؤدي للانحراف بدل الهداية ويتسع الزيغ بدل الاستقامة، فإذا كان الحكم الفقهي حول الدراويش الصوفية ذلك فكيف الحال بالرواة المطعون عليهم بالغلو الذين شطّ بهم الإفشاء لدقائق المسائل.

ومما يقرّب هذه الحقيقة أنّك تشاهد في العصر الراهن رغم ما وصلت إليه

---

١. كتاب الطهارة، الشيخ محمد علي الأراكي ١ / ٥٤٨.

الأبحاث العلمية من عمق وسعة وبسط وتبيين، سواء في المباحث العقلية أو الكلامية أو بحوث التفسير والحديث، إلّا أنّ جملة من علماء أهل سنة جماعة الخلافة لا يستوضحون العلم اللدنّي في الشخص الذي يختاره الله إماماً لعباده، كما لا يستوضحون تحديث الملائكة لمريم ولا يستوضحون بسط الله العلم لطالوت وبعثة الله له ملكاً إماماً لا بعثة نبوّة، ولا إيتاء الله الحكمة للقمان، ولا تمكين الله عزوجل الأسباب لذي القرنين، ولا وراثة علم الكتاب لآصف بن برخيا مما يعطيه القدرة التكوينية على جلب عرش بلقيس في لحظة من اليمن إلى فلسطين.

فهذه المواقع وغيرها من مناصب الإمامة لا تكاد تجد لها ترجمة في عقائد المذاهب الإسلامية عدا مدرسة ومنهاج أهل البيت عليهم السلام .

ومن ثم ترى أنّ النظرة عند علماء المذاهب العامّة إلى مثل هذا الارتباط اللدنّي الغيبي، أنّ مثل هذه المقامات هي نمط من النبوّة وأنّ القول بثبوتها لأئمة أهل البيت هو غلوّ في توصيفهم بالنبوّة، رغم أنّ القرآن أكّد أنّ هذه المقامات ثابتة لثلّة من مصطفين غير أنبياء بل أئمة وحجج. فكيف تتوقّع مستوى النظرة عند علماء العامة في القرن الأول والثاني إلى مثل هذه المعارف والأمور، ومن ثمّ فإنّ الطعن من قبل العامة على جملة من الرواة المتقدّمين بالغلو والقول بالألوهية أو النبوّة في أئمة أهل البيت هو ناشيء من هذه المفارقة والتباين في أسس المعرفة وقصورهم عن إدراك مثل هذه المباحث فبدأ الطعن منهم إلى أن تفشّى في وسط الخاصّة.

ومن ذلك أيضاً ما رواه سليم بن قيس من قول عمر لسلمان وأمثاله: إنكم اتخذتم أهل هذا البيت أرباباً من دون الله. وكذلك ما روى من قول هشام بن عبد الملك لبطانته في المسجد الحرام عندما سئل عن احتفاء الناس بالباقر عليه السلام قال: إنّه نبي أهل الكوفة.

وفي هذين المقالين دلالة على عدم تحمّل خصوم أهل البيت عليهم السلام فضائلهم ومقاماتهم وتعاظمها لديهم أن تسند إلى أهل البيت وأنها من قبيل الأفعال والصفات الربوبيّة.

الثاني: أنه قد ساعد على رواج هذا الطعن تداعى الانطباع الخاطىء لدى جملة من أهل الفضل من الخاصّة فضلاً عن العوام كما مرّ بيانه.

الثالث: أنّ السفلة وهو اصطلاح خاصّ في روايات أهل البيت ويراد به المستأكلين بالعلم والانتهازيين ذوي النصب والحيل قد اغتنموا الفرصة ووجود الإيهام والتشابه في التأويل ليحتالوا في حشد الأتباع ونيل الأطماع بترويج المعنى والتأويل الباطل لهذه المعارف.

مضافاً إلى أنّهم أنفسهم لم يقفوا على حقائق تأويل تلك المعارف، وقد مرّ بسط الكلام فيهم في الفصل الرابع.

الرابع: أنّ نشر هذه المعارف كان يثير حفيظة سلطات الوقت من خلفاء بني أمية أو بني العباس، بل كان يثير عموم العامة من أتباع الخلافة. وذلك لأنّ القول بمثل هذه المقامات لأئمة أهل البيت يدلّ بالالتزام ويبرهن بالبيان على إدانة الطرف الآخر وإثبات غصبه للخلافة لأنّها تبيّن أجدريّة أهل البيت واستحقاقهم لإمامة المسلمين وقيادتهم، فما كان من الطرف الآخر إلّا اتخاذ أسلوب الطعن في مواجهة مثل هذه المعارضة الثقافية والمعارضة السياسية المبطنة، ومن ثم كان يهمّهم أن يشدّدوا في الطعن ويشيعوه بكثافة كتحصين وقائي عن تأثيراته السلبية عليهم.

فالدواعي السياسية لترويج هذا الطعن مشهودة بوضوح وسنذكر جملة من نمط هذه الطعون بعينها قد أبداها الحكّام آنذاك على عموم أتباع أهل البيت عليهم السلام .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن مسكويه في تجارب الأمم:

«أمّا المغيرة بن سعيد فكان يتشيّع ثمّ نسبت إليه أمور شنيعة فيها تزييد

وإسراف»[١].

الخامس: أنّ الرموز المهمّة من هذه المجموعة من الرواة كما سيأتي كانت تتبنّى الثورة السياسية وتصعيد المعارضة المسلّحة في مواجهة النظام الأموي والعباسي رغم أنّ الظروف لم تكن مؤهّلة ولا مؤاتية، لكنّهم كان لديهم اندفاع وتسرّع شديد في هذا المجال. وهذا ممّا يقلق النظام الأموي والعباسي ويدفعهما إلى الطعن والتسقيط لهذه الرموز كي لا ينفتح على النظام الباب الذي لا يمكن سدّه بعد ذلك.

وكان هذا الفعل منهم يفتح الباب أيضاً على أئمة أهل البيت بإثارة سلطات بني أمية وبني العباس ضدّهم ويوجب الإرباك البالغ في الوضع الأمني، فكان موقفهم عليهم السلام في حرج شديد من ذلك وكان لابد لهم من تبرئة ساحتهم عن مواقف هؤلاء ونسبتهم إليهم.

لا سيما أنه كما سيأتي أنّ المغيرة بن سعيد قد أعلن الثورة المسلّحة والتصعيد السياسي ضدّ نظام بني أمّية في الكوفة قبل ثورة زيد بن علي رضي الله عنه بسنتين أي في سنة ١١٩ هـ كما ذكر ذلك الطبري وثورة زيد بن علي رضي الله عنه كانت في سنة ١٢١ هـ.

تلخيص وتعقيب

ظهر ممّا ذكرنا أنّ انحراف من طعن عليهم بالغلوّ لا سيما روّاد بعض هذه التيّارات والفرق وما سبّب انحراف أتباعهم ممّا أدّى إلى الوقوع في بعض المخاطر المهولة ليس كما يزعم في معتقدهم بأنّهم كانوا يرفعون الأئمة عليهم السلام فوق شأنهم أو أنّهم كانوا يدسّون في الأحاديث بما لم يتفوه به الإمام عليه السلام وغير ذلك ممّا قد يسجّل في ملفّهم من مؤاخذات قاسية، وقد يستظهر ذلك من بعض

---

١. تجارب الأمم ٣ / ١٠٣.

الأحاديث، لكنها ناشئة عن قلّة التدبّر والفحص في الروايات والشواهد التاريخية.

فقد روى الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿وهل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفّاك أثيم﴾[١] قال: هم سبعة المغيرة وبيان وصائد وحمزة بن عمارة البربريّ والحارث الشامي وعبد الله بن الحارث وأبو الخطّاب[٢].

قال العلامة المجلسي رحمه الله: المغيرة وهو ابن سعيد من الغلاة المشهورين وقد وردت أخبار كثيرة في لعنه وسيأتي بعضها. وبيان في بعض النسخ بالباء الموحّدة ثم المثنّاة وفي بعضها ثمّ النون وهو الذي ذكره الكشي بالنون وروى بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: لعن الله بنان البيان، وإنّ بناناً لعنه الله كان يكذب على أبي أشهد كان أبي عليّ بن الحسين عليهما السلام عبداً صالحاً.

أقول: قال مؤلّف كتاب ميزان الاعتدال من علماء المخالفين: بيان الزنديق قال ابن نمير: قتله خالد بن عبد الله القسري وأحرقه بالنار. قلت: هذا بيان بن سمعان النهديّ من بني تميم ظهر بالعراق بعد المائة وقال بإلهية علي عليه السلام وأنّه جزءاً إلهياً متّحد بناسوته، ثم من بعده في ابنه محمد بن الحنفيّة ثم في أبي هاشم ولد محمد ابن الحنفية ثم من بعده في بيان هذا وكتب بيان كتاباً إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام يدعوه إلى نفسه وأنّه نبي.[٣] انتهى كلامه.

والصائد هو النهدي الذي لعنه الصادق عليه السلام مراراً وحمزة من الكذّابين الملعونين وسيأتي لعنه. وكذا الحارث وابنه وأبو الخطّاب محمد بن أبي زينب ملعونون على لسان الأئمة عليهم السلام وسيأتي بعض أحوالهم»[٤] انتهى كلام العلاّمة المجلسي رفع مقامه.

---

١. الشعراء: ٢٢١.

٢. بحار الأنوار ٢٥ / ٢٧٠ .

٣. ميزان الإعتدال: ١/٣٥٧ الرقم ١٣٣٥.

٤. بحار الأنوار ٢٣ / ٢٧٠ و ٢٧١ .

أقول: وسيأتي توضيح أن انحراف هؤلاء ليس في ادعاء الألوهية لعلي أو النبوة في الأئمة أو لأنفسهم كما طعن عليهم بذلك بل هو انحراف آخر سنبسط الكلام فيه.

ومن جملة هؤلاء الذين طعن عليهم بالغلو وادّعاء النبوّة وغيرها هم:

مسيلمة الكذاب، وعبد الله بن سبأ، والحارث الشامي والمختار وبيان وحمزة ابن عمارة البربري والمغيرة بن سعيد وبزيع والسرّي وأبو الخطاب ومعمر وبشّار الشعيري وصائد النهدي وأبو منصور العجلي ومحمد بن فرات وعلي بن حسكة.

ونحن وإن لم نكن في صدد تبرئة هذه الجماعات، إلّا أنّ المهم هو الالتفات إلى مركز الانحراف وأنّه ليس في الجعل أو الإفراط عن الحدّ أو بطلان المعتقد وغيرها ممّا تمسّ حجّية مروياتهم بسوء، بل الانحراف إنما حدث في أمور أخرى، وهذه وإن أحدثت منزلقات ومهلكات عظيمة هائلة جداً لا سيّما في الأجيال اللاحقة من تلك الفرق والجماعات، إلّا أنّ ذلك ليس ممّا يسلب وصف الحجّية عن مرويّاتهم فيما يوافق أصول المذهب رغم إيجابيّات عديدة في روّاد هذه الفرق والتيّارات ممّا أثّر في حيويّة المذهب وسيره إلى الأمام. فإنّ بجهود بعض هذه الجماعات تبدّهت بعض معالم أهل البيت عليهم السلام ولولاه لاندرست ووقعت في بوتقة النسيان بجهود أتباع السلطة الأمويّة والعبّاسيّة؛ مع أنّ هناك شريحة أخرى وهي ما نعبّر عنه برواة المعارف الذين خاضوا في لباب معارف أهل البيت عليهم السلام وسلموا من الانحرافات التي وقع التيار الأوّل فيها وهؤلاء وإن لميسلموا من طعن وجرح بعض المدارس الفكرية الذين لا يتحمّلون تلك الأسرار والمعارف إلّا أنّه رغم ذلك سلموا من مزلقات الفريق الأول.

وقد مرّ في الفصول السابقة أن من جملة سلبيات هذه الفرق والجماعات:

١ ـ أنّهم كانوا يذيعون ويفشون بعض المعارف الغامضة التي لا تتحمّلها الأوساط الشيعية العامّة فضلاً عن الأوساط العامّة. وقد سبّبت هذه الإذاعة انحراف

عدد كبير من الذين لا يعون ولا يحيطون علمها كما استغلّ هذه المعارف المذيعة السفلة (أهل النصب والحيلة والدجلة) فجعلوها قنطرة للوصول إلى أغراضهم الدينية السافلة.

٢ ـ أنّهم كانوا من المتطرّفين في الاندفاع السياسي وقد يعبّر عنهم بالمستعجلين، وهذا الإفراط والتطرّف السياسي جعل أرباب السلطة يتسرّع ويجتهد في محو وإبادة المذهب.

٣ ـ قد يشاهد في سلوكهم بعض الشذوذات الفقهية المسبّبة عن تهاونهم بظاهر الشريعة اغتراراً بأهميّة الباطن.

٤ ـ تركهم التقيّة التي أمروا بحفظها.

وغيرها من المؤاخذات التي سجّلنا عليهم وأنّ أصحاب رواة المعارف قد سلموا من الوقوع في هذه المهالك.

وقد مرّ أنّ للكذب والغلو معانٍ واصطلاحات في روايات أهل البيت عليهم السلام ليس بمعنى فساد المعتقد أو القول بخلاف الواقع، كما مرّ أنّ من أعظم أسباب جرح هؤلاء الرواة هو في إذاعة هؤلاء بعض الأسرار ممّا لا يتحملها الآخرون، فإنّ الرواة والأصحاب بل المؤمنين على درجات ومستويات مختلفة فسلمان وأبو ذر رغم كونهما من الثلة العالية والمتقدمين في الإيمان إلّا أنّ هناك معارف وأسرار يعيها سلمان ولا يعيها أبو ذر. وقد مرّ التأكيد على لزوم التفرقة والتفكيك بين روّاد الجماعات المطعون عليهم بالغلوّ وبين أتباعهم لا سيما في الأجيال اللاحقة فإنّ جملة من الانحرافات قد حدثت عند الأتباع بسبب عدم التحمّل وعدم الوعي لما ذكره روّاد هذه الفرق.

وقد عقدنا هذا الفصل لكي نرصد ونعقّب سلوكيات هذه الفرق والجماعات ممّا يدعم ويبرهن ما مرّ في الفصول السابقة.

□ إثارات جديدة في سلوك المطعون عليهم بالغلو

فإنّ هناك اثارات جديدة و نقاط دقيقة في سلوك المطعون عليهم بالغلوّ، نذكرها تباعاً:

١ ـ مكاتبة الإمام الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر في تبرئة الخطابية وتبيين أحوالهم

وهذه المكاتبة تشهد على أنّ انحراف رواة المعارف هو في إذاعتهم أسرار المعارف، مما لا يتحملها ولا يعي حقائقها الآخرون ويحرّفونها عن حقائقها، مع أنّ تلك المعاني ليست كما يتأوّلها الآخرون بإيهام غلوّ وتأليه؛ كما أنّ فيها بياناً لجملة من الأمور التي لم يفهم حقيقتها الآخرون ممّا سبّب تتابع الافتراءات عليهم، ويظهر منها أنّهم كانوا ذوي باع في أصول المذهب والفقه مما أوقفهم على بعض التخريجات الفقهيّة التي لا يهتدي إليها آخرون.

وقد رواه سعد بن عبد الله الأشعري كما في المختصر للحسن بن سليمان الحلّي عن القاسم بن ربيع الورّاق ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب عن محمد ابن سنان عن صباح المدائني عن المفضّل بن عمر أنّه كتب إلى أبي عبد الله عليه السلام[١].

ورواه الصفّار في بصائر الدرجات عن علي بن إبراهيم بن هاشم عن القاسم

---

١. مختصر بصائر الدرجات، باب في نوادر مختلفة / ح ٤ (مسلسل ٢٤٧).

ابن ربيع الورّاق. ورواه في البحار عن بصائر الدرجات[١].

وأخرجه صاحب الوسائل عن كتاب البصائر لسعد بن عبد الله[٢] وقال بعد ذلك ورواه الصفار في بصائر الدرجات الكبير عن القاسم بن الربيع.

ونصّ المكاتبة:

أنّه كتب المفضّل إلى أبي عبد الله عليه السلام يسأله عن قوم يعرفهم الإمام عليه السلام وكان يعجب المفضّل نحوهم وشأنهم، وأنّ المفضّل أبلغ عنهم أموراً تروى عنهم كرهها المفضّل لهم. مع أنّ المفضّل لم ير بهم إلّا هدياً حسناً وورعاً وتخشّعاً. والظاهر أنّ مراد المفضّل من هؤلاء القوم هو ابن أبي زينب المقلاص وخاصّته لا جميع من انتسب إلى الخطّابية.

فبدأ عليه السلام بجواب المفضّل عن أسئلته ويفسّر له ما التبس عليه من أمر هذه الجماعة ومقالاتهم، مع أنّ مقالاتهم في بدو النظر ينطبع منها في الأذهان غير حدودها الحقيقية، أي ينطبع منها الغلو والافراط من التأليه ونحوه واستحلال المحرّمات والتهتك للدين مع أنّ حقائقها هي على غير هذا الوجه.

الطعون الواردة عليهم مما أثار إعجاب المفضل

فقال عليه السلام: كتبت تذكر أنّ قوماً أنا أعرفهم كان أعجبك نحوهم وشأنهم وأنّك أبلغت عنهم أموراً تروى عنهم كرهتها لهم، ولم تر بهم إلّا طريقاً هدياً حسناً وورعاً وتخشّعاً، وبلغك أنهم يزعمون أنّ الدين إنّما هو معرفة الرجال ثمّ بعد ذلك إذا عرفتهم فاعمل ما شئت، وذكرت أنّك قد عرفت أنّ أصل الدين معرفة الرجال فوفّقك الله، وذكرت أنّهم يزعمون أنّ الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام

---

١. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٨٦.

٢. سعد بن عبد الله عن القاسم بن الربيع ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب ومحمد بن سنان عن صباح المدائني عن المفضّل. (وسائل الشيعة / أبواب المتعة / ب ٢٣ / ح ٥).

والمشعر الحرام والشهر الحرام هم رجال (هو رجل)[١]، وأنّ الطهر والاغتسال من الجنابة هو رجل، وكلّ فريضة افترض الله على عباده هو رجل، وأنّهم ذكروا ذلك بزعمهم أنّ من عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعلمه به من غير عمل وقد صلّى وآتى الزكاة وصام وحجّ واعتمر واغتسل من الجنابة وتطهّر وعظّم حرمات الله والشهر الحرام والمسجد الحرام، وأنّهم ذكروا أنّ من عرف هذا بعينه وبحدّه وثبت في قلبه جاز له أن يتهاون، فليس له أن يجتهد في العمل. وزعموا أنّهم إذا عرفوا ذلك الرجل فقد قبلت منهم هذه الحدود لوقتها وإن لم يعملوا بها.

وأنه بلغك أنهم يزعمون الفواحش التي نهى الله عنها الخمر والميسر والربا والدم والميتة ولحم الخنزير هو رجل (هم رجال)، وذكروا أنّ ما حرّم الله من نكاح الأمهات والبنات والعمّات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وما حرّم على المؤمنين من النساء ممّا حرّم الله إنّما عنى بذلك نكاح نساء النبي ﷺ وما سوى ذلك مباح كلّه، وذكرت أنّه بلغك أنهم يترادفون على المرأة الواحدة، ويشهدون بعضهم لبعض بالزور، ويزعمون أنّ لهذا ظهراً وبطناً يعرفونه فالظاهر ما يتناهون عنه يأخذون به مدافعة عنهم والباطن هو الذي يطلبون وبه أمروا بزعمهم. وكتبت تذكر الذي عظم ذلك عليك، وكتبت تسألني عن قولهم في ذلك أهو حلال أو حرام، وكتبت تسألني عن تفسير ذلك وأنا أبيّنه حتى لا تكون من ذلك في عمى ولا في شبهة.

تمييز الإمام بين الحق من كلامهم والباطل وبيان أساس الانحراف

ثم أضاف عليه السلام : وقد كتبت إليك في كتابي هذا تفسير ما سألت عنه فاحفظه كلّه كما قال الله في كتابه: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ [٢] وأصفه لك بحلاله وأنفي عنك حرامه، كما وصفت ومعرّفك حتى تعرفه إن شاء الله فلا تنكره إن شاء الله ولا قوة إلّا بالله والقوة لله جميعاً.

---

١. في مختصر البصائر.

٢. الحاقة: ١٢.

أخبرك أنّه من كان يدين بهذه الصفة التي كتبت تسألني عنها فهو عندي مشرك بالله بيّن الشرك لا شكّ فيه، وأخبرك أنّ هذا القول كان من قوم سمعوه ما لم يعقلوه عن أهله ولم يعطوا فهم ذلك ولم يعرفوا حدّ ما سمعوا فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذباً وافتراءً على الله ورسوله وجرأةً على المعاصي، وكفى بهذا لهم جهلاً. ولو أنّهم وضعوها على حدودها التي حُدّت لهم وقبلوها لم يكن به بأس، ولكنّهم حرّفوها وتعدّوا [تعدّوا الحقّ][1] وكذبوا وتهاونوا بأمر الله وطاعته، ولكني أخبرك أنّ الله حدّها بحدودها لئلّا يتعدّى حدوده أحد. ولو كان الأمر كما ذكروا لعذر الناس بجهلهم ما لم يعرفوا حدّ ما حدّ لهم، ولكان المقصّر والمتعدي حدود الله معذوراً ولكن جعلها حدوداً محدودة لا يتعدّاها إلّا مشرك كافر ثم قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾[2].

أقول: فبيّن عليه السلام أنّ القول في أصله حقّ وأنّهم قد سمعوه من مصدر الحقّ فقوله عليه السلام: أصفه لك بجلاله أي معناه الصحيح والذي لا ينافي صفات المخلوق وشؤونه ولا حدود التشريع كما أنّ قوله: أنفي عنك حرامه أي تبيانه عليه السلام للمعنى الخاطىء لهذه الصفات والشؤون، كما أنّ قوله عليه السلام: ومعرّفك فلا تنكره أي أنّ أصول ما يرويه هؤلاء هي حقائق مروية عنهم عليهم السلام من أسرار المعارف ولكن أنكرها جمهور الناس لعدم وعيهم وعمق بصيرتهم بحقائق تأويل هذه المعاني؛ إلّا أنّ الانحراف ناشىء من سببين أو على نمطين:

الأول: الفهم الخاطئ وعدم المعرفة بحقيقة المراد من قِبَل العوام.

الثاني: الانطباع الخاطئ لدى عامّة المخالفين من ممارسات وسلوك جملة ممّن أخذ وعمل بهذه الأقوال.

وهذان النمطان هما اللذان مرّت الإشارة إلى وقوعهما بسبب إذاعة ونشر

---

١. في مختصر البصائر.

٢. البقرة: ٢٢٩.

وإعلان رواة أسرار المعارف لهذه المرويّات، فإنّ معانيها الثقيلة أو قواعد تشريعها ممّا تنفر منها العقول والأفهام لغموضها وإبهامها عليها، هذا بلحاظ أمور المعارف الاعتقادية، أو تنفر الطباع المجبولة على الأعراف المعتادة لغرابة تلك التشريعات وغموض تخريج وجهها الشرعي لديها فتستوحش منها وتستنكرها.

ثمّ بيّن عليه السلام نماذج عديدة لهذين النمطين، وأنّ الإذاعة لمثل هذه المعارف والأمور وكشف تلك الأسرار العلمية وإفشائها ينجرّ إلى نشوء هذه الانحرافات، ومن ثمّ يستحقّ المذيع والكاشف لها اللعن والبراءة وتكذيبه فيما تسبّب من إيصال معنى خاطىء منحرف في أذهان العوام وعامّة المخالفين، حيث ينجم من ذلك شيوع وانتشار تيّار ينتهج التحريف والتعدّي عن الحدود الإلهيّة بتخيّل أنّها حقائق الدين الخفيّة.

وقد عدّد المفضّل جملة من الأمور الملتبسة التي رآها في تيّار بعض الجماعات التي تنتمي إلى بعض رواة أسرار المعارف وهي جملة أمور:

■ زعمهم أنّ الدين إنّما هو معرفة الرجال وأنه إذا عرفتهم فاعمل ما شئت.

■ أنهم يزعمون أنّ الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والمشعر الحرام هم رجال، وأنّ الطهر والاغتسال عن الجنابة هو رجل وكذا كل فريضة افترض الله على عباده هو رجل، وأنّ من عرفهم فقد اكتفى بعلمه من غير عمل أي إذا عرفه بعينه وحدّه وثبت له في قلبه جاز له أن يتهاون.

وزعموا أنّ الفواحش التي نهى الله عنها هم رجال.

■ وزعموا ما حرّم الله من نكاح الأمّهات والبنات والعمّات وغيرها من أصناف النساء إنّما عنى بذلك نكاح نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما سوى ذلك مباح كلّه.

■ أنّهم يترادفون المرأة الواحدة.

■ ويشهد بعضهم لبعض بالزور.

■ يزعمون أنّ لهذا ظهراً وبطناً يعرفونه، فالظاهر يتناهون عنه ليدفعوا عن أنفسهم طعن الآخرين والباطن هو الذي يطالبون ويأمرون به.

ثم أنه أردف المفضّل أنّ هؤلاء رغم ما بلغه عنهم من هذه الأمور فإنه لم ير بهم إلّا طريقاً هدياً حسناً وورعاً وتخشّعاً، وهذا الذي زاد في استغرابه وتعجّبه في شأنهم. ورغم كلّ هذا الاستعجاب والاستنكار وتعاظمه عليه طلب من الإمام عليه السلام تفسير ذلك له، وهو عليه السلام لم يرفض وجود تفسير لذلك، رغم أنهم خلطوا معاني محرّفة مع ما سمعوه من حقائق غامضة.

ثمّ أخذ عليه السلام في توضيح واحد واحد من هذه الأمور.

نسبة القول بكفاية العقيدة عن العمل إليهم وتفسير الإمام عليه السلام لها

أما المحور الأول والثاني: فقال عليه السلام: فأخبرك بحقائقها إنّ الله تبارك وتعالى اختار الإسلام لنفسه ديناً ورضي من خلقه ...

وقد بسط الإمام عليه السلام الكلام في هذين المحورين مما يقرب من خمس صفحات.

ونلخّص ما قاله عليه السلام في تفسير هذه الأمور حيث إنّه عليه السلام بسط البيان في ذلك لئلّا يقع الالتباس في دقائق هذه المعاني وغوامض هذه المعارف وملخّصه:

أنّ الله تبارك وتعالى اختار الإسلام لنفسه ديناً ورضيه من خلقه، فلم يقبل من أحد إلّا به، وبه بعث أنبياءه ورسله ونبيّه محمد صلى الله عليه وآله. فأصل الدين [فأفضل الدين] معرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم، وهي أصل الحلال الذي أحلّه الله وفروع الحلال ما أحلّوه والمحرّم ما حرّموه. فأمروا شيعتهم وأهل ولايتهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجّ البيت والعمرة وتعظيم حرمات الله والمشاعر والبيت الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام والطهور ومكارم الأخلاق ومحاسنها وجميع البر.

وعدوّهم أصل الحرام المحرّم والشرّ وأصل كلّ شرّ، ومن عدوّهم تفرّع

فروع الشرّ والحرام كلّه، حيث استحلّوا كلّ حرام من تكذيب الأنبياء وجحود الأوصياء وركوب الفواحش الزنا والسرقة وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم والربا والخدعة والخيانة وركوب الحرام كلّها وانتهاك المعاصي. فشيوع كلّ هذه المحرّمات كأعراف وسنن سيئة في الأمم والقرون سببها وأصلها رجال بثّوها وجذّروها في عادات الناس، فهم أصل كلّ حرام وولايتهم كعبادة وثن، فإنّهم مجمع الرذائل ومنهم انتشرت في الناس، كالعدوى التي تصيب الأصحّاء ممّا هو أصل المرض فهم منبع ومجسّمة كلّ الرذائل والمحرّمات.

وفي الطرف المقابل الأنبياء والرسل والأوصياء هم منبع الفضائل ومجسّمة الفضل، ومن روائحهم الطيّبة انتشر عبق الطيب في باقي الناس، فهم أصل الدين واليقين والإيمان، وهو الإمام المنصوب من الله للهدى، فمن عرفه عرف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه، ولا يعرف الله ودينه وحدوده وشرائعه بغيره. فمن ثمّ كانت معرفة الرجال دين الله. فكلّ عبادة وعمل صالح يعرف بالنبي ﷺ ولولا معرفته والإيمان به والتسليم له ما عرف ذلك كلّه ولم يعرف شيئاً من هذا، وهو الذي دعا إلى كلّ ذلك ودلّ عليه، وعرّف البشر وأمرهم به فأوجب الله للنبي على العباد الطاعة فلا يسعهم جهل من هو فيما بينهم وبين الله، وهو الذي أتاهم بالدين. فكيف يكون الدين غيره؟ وكيف لا يكون الدين معرفة ذلك النبي ﷺ؟ وإنّما ينكر الدين بإنكار ذلك النبي ﷺ والتكذيب به، فعُرف الله تبارك وتعالى بأنبيائه ورسله وأوصيائهم وأطيع بطاعتهم وهم السبيل إليه والوجه الذي منه يُؤتى إليه تعالى كما قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾[1].

فالفرائض كلّها فريضة واحدة وهي طاعة هذا الرجل ومعرفته، فلا تغني

---

١. النساء: ٨٠.

شهادة أن لا إله إلّا الله بترك شهادة أنّ محمداً رسول الله، ولا يقبل الله من العباد العمل بالفرائض على حدودها إلّا مع معرفة من جاءهم به من عنده ودعاهم إليه.

ولم يبعث الله نبياً قط يدعو إلى معرفة ليس معها طاعة في أمر ونهي، أمر بالبر والعدل والمكارم ومحاسن الأخلاق والأعمال، ونهي عن الفحشاء ما ظهر منها وما بطن.

وبيان هذا المقطع الأخير من كلامه أنّه إنما يقبل الله تعالى بقيّة الطاعات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والبر إذا كان طاعة لله تعالى، ولا تكون طاعة لله إلّا بامتثال أوامره المتعلّقة بذلك الفعل، بأن يكون إتيان الفعل خضوعاً وانقياداً لتلك الأوامر المتعلّقة بذلك الفعل. وأوامره إنّما وصلت إلينا عبر رسوله ﷺ، فلا يمكن إطاعتها إلّا بإطاعة رسوله. كما أنّ بنود طاعته تعالى قد فصّلها في كتابه بأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم أي ضمن ثلاث فصول فلا تتمّ طاعته تعالى إلّا بطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من أوصيائه من أهل بيته، مع ما تقدّم من أنّ أوامر الله التي هي عبارة عن الفرائض في قبال سنن النبي ومنهاج أوصيائه تلك الفرائض لم تصل إلينا إلّا عبر نبيّه ﷺ.

فلا تتحقّق طاعة الله إلّا بطاعة رسوله، لأنّه المؤدّي عن الله فرائضه وأوامره. فكلّ أبواب العبادات والبرّ والإحسان هي في المرتبة الأولى طاعة لله ولرسوله، وفي المرتبة الثانية هي إتيان للصلاة والصوم والحج والزكاة وبقية الفرائض والبرّ. فهذه الأعمال من حيث الصورة لها هذه الأسماء، ومن حيث اللبّ فهي طاعة لله ورسوله ولأولي الأمر من أوصيائه، فهناك صلاة ظاهرة وهناك لبّ للصلاة وهي الطاعة، كما ذكر ذلك الفقهاء أنّ روح العبادة النيّة والنيّة ليست إلّا قصد إتيان الصلاة والزكاة والصوم والحجّ امتثالاً وطاعة لأمر الله وأمر رسوله وأمر أولي الأمر، لأنّ تلك الأعمال عبارة عن مجموعة من الفرائض وسنن النبي ﷺ وسنن أوصيائه عليهم السلام فلا يمكن تحقّق عباديّة تلك العبادات إلّا بقصد امتثال وطاعة أمر الله

وأمر رسوله ﷺ وأمر أوصيائه عليهم السلام. كما لا يمكن طاعة الله ورسوله وأولي الأمر من أوصيائه إلّا بإتيان الصلاة الظاهرة والصوم والحج والعمرة والزكاة، والاجتناب عن جميع حرمات الله، فمن زعم أنّه إذا عرف الله ورسوله وأولي الأمر من قبله اكتفى بغير طاعة فقد كذب وأشرك ولم يعرف ولم يطع.

وإنّما قيل: اعرف واعمل ما شئت من الخير فإنّه لا يقبل عمل بغير معرفة، فإذا عرفت فاعمل لنفسك ما شئت من العمل قلّ أو كثر فإنّه مقبول. فمن صلّى وزكّى وحجّ واعتمر وفعل ذلك كلّه بغير معرفة من افترض الله عليه طاعته، لم يصلّ ولم يصم ولم يزكّ ولم يحجّ ولم يعتمر ولم يغتسل من الجنابة ولم يتطهّر ولم يحرم لله حراماً ولم يحلّل لله حلالاً وإن ركع أو سجد وأخرج ماله، وذلك لأنّه لم يأت بما هو العماد لذوات تلك العبادات وهو الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر من أوليائه.

ونظيره ما روى الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل له: إنّ أبا الخطاب يذكر عنك أنّك قلت له: إذا عرفت الحقّ فاعمل ما شئت. فقال: لعن الله أبا الخطّاب والله ما قلت له هكذا ولكنّي قلت له: إذا عرفت الحقّ فاعمل ما شئت من الخير يقبل منك[١].

وهذا النصّ يشهد على ما ذكرناه من أنّ المكاتبة إنّما هي بصدد تبيين مواقف وآراء الخطّابية.

ويستفاد من تفسيره عليه السلام:

أولاً: أنّ سبب المعنى الانحرافي المتفشّي عند أوساط الفرق الباطنية كالخطابية والمغيرية هو سوء فهمهم وخطأ تفسيرهم واشتباه تأويلهم لغوامض المعارف وأسرارها.

---

١. معاني الأخبار / ١٨١، ومستدرك الوسائل ١ / ١٤٨.

ثانياً: إنّ المتتبّع والمتقصّي لجملة الروايات الواردة في هذه القاعدة المعرفيّة، من أنّهم عليهم السلام حقائق الطاعات وأعداءهم حقائق المعاصي والفواحش، يلاحظ أنّ أصل بدء انتشار هذه القاعدة قد كان من أبي الخطّاب حيث إنّه قد قام برواية ذلك عن الصادق عليه السلام ولم تكن هذه الرواية قد برزت إلى أحد من الرواة، وإنّ أبا الخطاب وإن أساء فهمها وأخطأ في تأويلها إلّا أنه هو الذي تصدّر روايتها عنه عليه السلام ومن ثم قام بقية الرواة بالمساءلة والاستفسار عن ذلك ـ وقد جمع المجلسي في البحار[1] في هذا الباب سبعة عشر رواية ـ وهذا مؤشّر مهمّ على أنّ ما يرويه جملة من رؤساء الفرق الباطنية ممّن كانت لهم فترة استقامة لها أصول صحيحة سديدة ومعرفيّة غامضة، يخفى فهمها ويدقّ معناها على كثير من أهل العلوم والرواية من الرواة فضلاً عن عامّة الناس. وهذا ما يسبّب الإرباك وتولّد التيارات المنحرفة بسبب ذلك وأنّه لأجل ذلك كانت الإذاعة والإفشاء والنشر في العلن لها سبباً للانحراف وللكذب على أئمة أهل البيت عليهم السلام من قِبل من يقوم بالإفشاء والإذاعة.

ثالثاً: أنّ جملة من رواة أسرار المعارف وغوامض المعاني عندما وقفوا على بواطن المعاني وخفايا التأويل، لم يدركوا ولم يتفطّنوا لكيفية الجمع بينها وبين حدود المعاني الظاهرة، وهذا كان منشأ الانحراف وإلى هذا يشير الإمام الصادق عليه السلام في جملة من الروايات كما في رواية بصائر الدرجات في صحيح هشام عن الهيثم التميمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا هيثم التميمي إنّ قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم شيء، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً، ولا إيمان بظاهر إلّا بباطن ولا بباطن إلّا بظاهر[2].

وروى الكشي عن حمدويه، قال: حدّثني محمد بن عيسى عن يونس بن

---

١. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٨٦ ـ ٣٠٤.

٢. بصائر الدرجات: ٥٥٦ ح ٥.

عبد الرحمن عن بشير الدهّان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كتب أبو عبد الله عليه السلام إلى أبي الخطّاب: بلغني أنّك تزعم أنّ الزنا رجل وأنّ الخمر رجل وأنّ الصلاة رجل والصيام رجل والفواحش رجل وليس هو كما تقول، أنا أصل الحق وفروع الحقّ طاعة الله وعدوّنا أصل الشر وفروعهم الفواحش وكيف يطاع من لا يعرف وكيف يعرف من لا يطاع؟[1].

أقول: فإنّ هذا يدعم أنّهم تلقّوا جملة من المعارف لكنّهم حرّفوها عن حقائقها ومن ثمّ وصف في بعض الروايات أنّ أبا الخطاب أحمق كان لا يحفظ ويزيد من عنده.

فقد روى الكشي عن محمد بن مسعود قال: حدّثني جبريل بن أحمد قال: حدّثني محمد بن عيسى بن عبيد قال: حدّثني يونس بن عبد الرحمن عن رجل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبو الخطاب أحمق فكنت أحدّثه فكان لا يحفظ وكان يزيد من عنده[2]. ولعله إشارة إلى الخطأ في التأويل أي أنه لقلّة وعيه كان يؤوّلها تأويلاً فاسداً.

كما أنه يلحظ من ذلك أنّ هذا الانحراف سرى من الفرق الباطنية الشيعية إلى فرق الصوفية، بل إنّ التتبّع في جملة ما لدى فرق الصوفية المختلفة من قواعد تأويلية يلاحظ أنّها في الأصل متلقّاة من الفرق الباطنية وأنّ التصوّف ترعرع وتولّد من الفرق الباطنية.

نسبة القول بحلية نكاح ذوات الأرحام وتفسير الإمام عليه السلام وبيان دور العامة فيها

فقال: وأما ما ذكرته أنّهم يستحلّون نكاح ذوات الأرحام التي حرّم الله في كتابه فإنّهم زعموا أنّهم إنّما حرّم علينا بذلك نكاح نساء النبي فإنّ أحقّ ما بدأ به من تعظيم حقّ الله وكرامة رسوله وتعظيم شأنه وما حرّم الله على تابعيه ونكاح نسائه من بعد قوله: ﴿وما كان

---

١. رجال الكشي ٣٥٩ / ح ٥١٢.

٢. رجال الكشي ٣٦٢ / ح ٥٢٢.

لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنّ ذلك كان عند الله عظيماً﴾[١] وقال تبارك وتعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم﴾[٢] وهو أب لهم، ثم قال: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾[٣] فمن حرّم نساء النبي ﷺ لتحريم الله ذلك فقد حرّم ما حرّم الله في كتابه من الأمّهات والبنات والأخوات والعمّات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وما حرّم الله من الرضاع، لأنّ تحريم ذلك كتحريم نساء النبي ﷺ فمن استحلّ ما حرّم الله عزوجل من نكاح ما حرّم الله فقد أشرك بالله إذا اتخذ ذلك ديناً.

أقول: ظاهر هذا التفسير وفحواه أنّ ما نُسب إليهم من استحلال نكاح ذوات الأرحام وحصره في نساء النبي ﷺ، أنه عليه السلام لا يثبت هذه النسبة على الخطابية وأنّ مقصودهم حيث لم ينسجم مع العامّة طعنوا عليهم بهذه النسبة. إذ أنّ زعمهم هو أنّ ما ذكر من أمومة نساء النبي ﷺ في الآية إنما هو بلحاظ تحريم النكاح لا بلحاظ التعظيم وإعطاء مكانة خاصة في الدين. فأصل مقالتهم إنما تشير إلى ذلك، أي إلى أنّ ذكر الأمومة لنساء النبي ﷺ إنما هو بلحاظ تحريم نساء الآباء، وأنّ تحريم نكاح نساء ذوات الأرحام الأصل فيه من حيث تعظيم الرتبة هو النبي ﷺ. والظاهر من العامة أنّهم بعد ما سمعوا ذلك منهم أخذوا بالطعن عليهم بالفرية، وهذا يعزّز ما تقدّم سابقاً من أنّ جملة من الأمور المطعون بها على هذه الفرق هي من مفتريات العامة عليهم قذفاً أو لسوء فهمهم للمقصود من مقالاتهم كما هو ديدن الصراعات السياسية والمذهبية في الأعصار.

---

١. الأحزاب: ٥٣.

٢. الأحزاب: ٤.

٣. النساء: ٢٢.

نسبة السفاح إليهم نتيجة عدم الوقوف على أحكام المتعة

أما ما قاله عليه السلام حول المحور الرابع:

فقال: أما ما ذكرت أنّ الشيعة يترادفون المرأة الواحدة فأعوذ بالله أن يكون ذلك من دين الله ورسوله، إنما دينه أن يحلّ ما أحلّ الله ويحرّم ما حرّم الله، وإنما أحلّ الله المتعة من النساء في كتابه، والمتعة في الحج أحلّها ثم لم يحرمها فإذا أراد الرجل أن يتمتع من المرأة فعلى كتاب الله وسننه نكاح غير سفاح تراضياً على ما أحبّا من الأجر والأجل كما قال الله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهنّ أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾[1].

ثمّ بيّن عليه السلام عدة المتعة أنها نصف عدّة الدائم وأنّ المرأة بعد انقضاء العدّة إن شاءت تمتّعت من آخر وهلّم جرّاً ما شاءت من الرجال ما بقيت على الحدود الشرعية، كما هو الحال في الدائم فيما لو طلّقت وخرجت من العدّة. وهو بذلك يبيّن عليه السلام أنّ هذا الطعن صادر من العامة لأخذهم بتحريم الخليفة الثاني وتركهم العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، ويشنّعون على الحلال بمثل هذه الأراجيف، ومن ثمّ قرن عليه السلام ذكر متعة النساء بمتعة الحجّ وأنها ممّا قد نبذه العامّة. وكأنّ غرضه عليه السلام من ذلك بيان عدم الاستيحاش من الإقامة على كتاب الله وسنّة نبيّه وإن هجرها الآخرون وطعنوا بالمتمسك بها. وهذه الفقرة تبيّن مدى البصيرة الفقهية النافذة في بعض ممارسات هذه الفرق، وأنهم إنما تفرّدوا بها لوقوفهم على بعض فرائد وفنون التخريجات الفقهية وأنّ الناظر من بعيد يشنّع عليهم لعدم فطنته بأصول هذه السنن التي باتت مهجورةً وهو نظير المحور اللاحق.

---

١. النساء: ٢٤.

نسبة القول بجواز شهادة الزور إليهم وبيان الإمام عليه السلام لشدة تظلّعهم الفقهي

وقال عليه السلام في المحور الخامس:

وأما ما ذكرت أنهم يستحلّون الشهادات بعضهم لبعض على غيرهم، فإنّ ذلك ليس هو إلّا قول الله فإن ذلك لا يجوز ولا يحلّ وليس هو على ما تأوّلوا لقول الله عزّوجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم...﴾[1] وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقضي بشهادة رجل واحد مع يمين المدّعي، ولا يبطل حقّ مسلم ولا يرد شهادة مؤمن فإذا أخذ يمين المدعي وشهادة الرجل قضي له بحقّه، وليس يعمل (اليوم) بهذا وقد ترك. فإذا كان للرجل المسلم قبل آخر حق يجحده ولم يكن له شاهد غير واحد، فإنه إذا رفعه إلى ولاة الجور أبطلوا حقّه ولم يقضوا فيه بقضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وقد كان في الحقّ أن لا يبطل حق رجل مسلم) فيستخرج الله على يديه حقّ رجل مسلم ويأجره الله ويحيى عدلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل به.

أقول: ويظهر من صدر كلامه عليه السلام أنّ ما استشنعه العامة من القضاء بشاهد مؤمن ويمين قد ورد في الآية الكريمة ما هو أعظم منه وهو القضاء بشاهدين غير مؤمنين أو كافرين، مع أنّ شهادة المؤمن الواحد أثبت من شهادة غير مؤمنين أو كافرين، وأنّ هذا ممّا قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهجر. وأنّ ما يقوم به هؤلاء من استنقاذ حق المؤمن إنما هو بعد توفّر شاهد له وهي مدرك ومستند شرعي يثبت الحق، لكنّ أهل الخلاف هجروا هذه السنّة النبويّة فاستشنعوا ذلك ورموا هذه الفرقة بأنهم يشهدون بعضهم لبعض بالزور.

قال في البدء والتاريخ: «وأما الخطابية فهم أصحاب ابن الخطاب يرون الشهادة بالزور على من خالفهم بالدماء والأموال ومن هاهنا لم يجز الفقهاء شهادة الخطابية»[2].

---

١. المائدة: ١٠٦.

٢. البدء والتاريخ: ٥ / ١٣١.

ومن هاتين الظاهرتين الفقهيّتين يُعلم أنّ جملة من الأحكام الشرعية الفقهية إنما بدأ رواجها والتعرّف عليها ومعرفتها لدى الأوساط انطلاقاً من عمل هؤلاء، وهذا ممّا يشير إلى أنّ جملة من أسرار الفقه والأحكام الشرعية الفرعيّة المهجورة بسبب تغيير أهل الخلاف إنما بدأت روايتها عن الأئمة عليهم السلام في أوساط أتباعهم زعماء هذه الفرق الباطنية.

عدم فهم مقامات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام سبب نسبة التأليه إليهم

ثمّ إنّه عليه السلام تعرّض إلى محور آخر: فيما ينسب إليهم من زعمهم أنّ الله ربّ العالمين هو النبي قال عليه السلام:

وأما ما ذكرت في آخر كتابك أنهم يزعمون أنّ الله ربّ العالمين هو النبي، وأنك شبّهت قولهم بقول الذين قالوا في عيسى ما قالوا، فقد عرفت أنّ السنن والأمثال كائنة (قائمة) لم يكن شيء فيما مضى إلّا سيكون مثله حتى لو كانت (هناك) شاة برشاء كان هاهنا مثله. واعلم سيظلّ قوماً على ضلالة من كان قبلهم كتبت تسألني عن مثل ذلك ما هو وما أرادوا به. أخبرك أنّ الله تبارك وتعالى هو خلق الخلق لا شريك له، له الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهو ربّ كل شيء وخالقه، خلق الخلق وأحبّ أن يعرفوه بأنبيائه واحتجّ عليهم بهم، فالنبي عليه السلام هو الدليل على الله عبد مخلوق مربوب اصطفاه لنفسه برسالته وأكرمه بها، فجعله خليفته في خلقه ولسانه فيهم وأمينه عليهم وخازنه في السماوات والأرضين، قوله قول الله لا يقول على الله إلّا الحق، من أطاعه أطاع الله ومن عصاه عصى الله، وهو مولى من كان الله ربه ووليه. من أبى أن يقرّ له بالطاعة فقد أبى أن يقرّ لربه بالطاعة وبالعبودية، ومن أقرّ بطاعته أطاع الله وهداه. فالنبي مولى الخلق أجمعين عرفوا ذلك أو أنكروه، وهو الوالد المبرور فمن أحبّه وأطاعه فهو الولد البارّ ومجانب للكبائر. وقد بيّنت (وقد كتبت لك) ما سألتني عنه وقد علمت أنّ قوماً سمعوا صفتنا هذه فلم يعقلوها بل حرّفوها ووضعوها على غير حدودها على نحو ما قد بلغك، وقد برىء الله ورسوله من قوم يستحلّون بنا أعمالهم الخبيثة، وقد رمانا الناس بها والله يحكم بيننا وبينهم فإنّه يقول ﴿الذين يرمون المحصنات

الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم بما كانوا يعملون * يومئذٍ يوفيهم الله﴾[1] أعمالهم السيئة ويعلمون أنّ الله هو الحق المبين.

وأما ما كتبت به ونحوه وتخوّفت أن يكون صفتهم من صفته فقد أكرمه الله عن ذلك تعالى ربّنا عمّا يقولون علوّاً كبيراً. صفتي هذه صفة صاحبنا التي وصفنا له وعنه أخذناه فجزاه الله عنا أفضل الجزاء، فإنّ جزاءه على الله فتفهم كتابي هذا والقوّة لله.

أقول: ويظهر من كلامه عليه السلام عدّة نقاط:

الأولى: إنما نسب إليهم من أنّهم يزعمون أنّ الله ربّ العالمين هو النبي، فليس صحيحاً، فهم لم يألّهوا سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم كما يطعن عليهم بذلك، بل إنما قالوا: إنّ له صلى الله عليه وآله وسلم ولاية الطاعة على جميع من خلق الله من الجن والإنس وجميع الملائكة والأرواح وجميع ما في ملكوت الله، فهو مولى الخلق جميعاً وهو خليفة الله ليس في أرضه وسماواته فحسب بل على جميع العوالم والخلائق. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أعظم مخلوق خلقه الله تعالى وجعله واسطة بينه وبين خلقه، فهو كما ائتمن على الرسالة مؤتمن على جميع خلقه. وهذه الصفة له لا تخرجه عن كونه مخلوقاً ومربوباً لله تعالى وإنما كرامة من الله تعالى حباه الله تعالى ولابدّ من الالتفات إلى قوله عليه السلام: كتبت تسألني عن مثل ذلك ما هو وما أرادوا به أخبرك أنّ .....

فجعل تفسيره عليه السلام الذي هو يستقيم على أصول التوحيد هو مرادهم لا ما طعن عليه بهم ونسبوه لهم.

الثانية: يظهر من كلامه عليه السلام إنما رمى به هذه الفرق من الغلو والقول بتأليه النبي والأئمة عليهم السلام لا أساس له، وأنّ ما هذا طعن طعن به أهل الخلاف أو من لا باع له في المعارف.

---

١. النور: ٢٤ و ٢٥.

الثالثة: أنّ منشأ طعن أهل الخلاف ومن لا اضطلاع له بغوامض المعاني هو ما قاله عليه السلام: وقد علمت أنّ قوماً سمعوا صفتنا هذه فلم يعقلوها بل حرّفوها ووضعوها على غير حدودها على نحو ما قد بلغك أي على نحو ما بلغ المفضّل.

الرابعة: أنّ هناك جملة من المقامات والصفات ثابتة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وهي لا تخرج عن شؤون المخلوق إلى حدود الألوهيّة والخالقيّة، إلّا أن من لا بضاعة له في أبواب المعارف وأسرار الخلقة يتوهّم أنّ هذه الشؤون هي من صفات الألوهية ومقامات الربوبية، وأنّ من اتّصف بها لا يكون بحال من الأحوال إلّا إلهاً وربّاً، وجحد أن شؤون الإله والربّ هي فوق ذلك. ومن ثم قال عليه السلام عن هذه الظاهرة بالتقصير عن عظم معرفة الله وأنّها السبب في التخبّط بين الحدود والصفات الإلهية وبين الحدود وصفات المخلوق.

غفلة بعض الخواص عن المكاتبة

وهذه المكاتبة توضّح زيف الكثير من طعون العامة والدجل في علاجهم وتواريخهم وأنّ الحقيقة لا يمكن أخذها من أفواههم وأقلامهم فإنّهم أبواق السلطات والبلاط الحكومي الذي يمارس تشويه صورة مخالفيه ومعارضيه بكلّ وسيلة ولا يتورّع عن أيّ كذب وافتراء في ذلك، وكان يخلق جوّاً ورأياً عاماً يكرّسه في الأذهان والصدور والكتب والأشعار حتى آل الأمر إلى تأثّر جملة من أعلام الإماميّة قديماً وحديثاً بهذه الطعون.

فنجد مثل المحقق النوبختي الذي هو من أجلّاء الأصحاب في علم الكلام في الغيبة الصغرى وهو من الجلالة والدقّة العلميّة بمكان إلّا أنّه قد تأثّر في عدّة من المواضع من كتابه الذي كتبه عن فرق الشيعة بما شاع عند العامة من الطعن على تلك الفرق، ومن تلك الموارد ما كتبه عن الخطابيّة من الموارد التي تساءل المفضّل بن عمر عمّا شاع طعنه على الخطابية وقد أوضح عليه السلام في المكاتبة أنّ الخطّابية وإن كانت لديهم شذوذ وشطط إلّا أنّ الطعون التي روّجها العامّة غير

صحيحة.

فقد قال النوبختي «إنّ فرقة من أصحاب أبي الخطاب قالت: إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله جل وعز وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وإنّ أبا الخطاب نبي مرسل أرسله جعفر وأمر بطاعته وأحلّوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض، وقالوا من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له فإن ذلك فرض عليه واجب، وجعلوا الفرائض رجالاً سموهم والفواحش والمعاصي رجالاً وتأوّلوا على ما استحلّوا قول الله عزوجل: ﴿يريد الله أن يخفّف عنكم﴾[1] وقالوا: خفّف عنا بأبي الخطّاب ووضع عنا الأغلال والآصار يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج فمن عرف الرسول النبي الإمام فليصنع ما أحب»[2].

وجملة هذه الطعون قد بيّن الإمام عليه السلام في المكاتبة عدم صحّتها وإنّ مرادهم ليس كما فهمه العامّة من أفعالهم.

وقال أيضاً إنّ فرقة منهم: «أحلّ الزنا والسرقة وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات والأخوات ونكاح الرجال ووضع عن أصحابه غسل الجنابة وقال كيف أغتسل من نطفة خلقت منها وزعم أن لكل شيء أحل الله في القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال»[3].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الكشي:

عن محمد بن مسعود قال: سألت أبا الحسن علي بن الحسن عن اسم أبي خديجة، قال: سالم بن مكرم. فقلت له: ثقة؟ فقال: صالح وكان من أهل الكوفة وكان جمّالاً وذكر أنّه حمل أبا عبد الله عليه السلام من مكّة إلى المدينة. قال: أخبرنا عبد

---

١. المساء: ٢٨.

٢. فرق الشيعة / ٤٢ و ٤٣.

٣. فرق الشيعة / ٤٤.

الرحمن بن أبي هاشم عن أبي خديجة قال أبو عبد الله عليه السلام: لا تكتن بأبي خديجة. قلت: فبم أكتني؟ فقال: بأبي سلمة.

وكان سالم من أصحاب أبي الخطّاب وكان في المسجد يوم بعث عيسى بن موسى ابن علي بن عبد الله بن العباس وكان عامل المنصور على الكوفة إلى أبي الخطّاب لما بلغه أنّهم قد أظهروا الإباحات ودعوا الناس إلى نبوّة أبي الخطّاب وأنّهم يجتمعون في المسجد ولزموا الأساطين يورّون الناس أنّهم قد لزموها للعبادة وبعث إليهم رجلاً فقتلهم جميعاً، لم يفلت منهم إلّا رجل واحد أصابته جراحات فقط بين القتلى يعدّ فيهم، فلمّا جنّه الليل خرج من بينهم فتخلّص وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمّال الملقّب بأبي خديجة. فذكر بعد ذلك أنّه تاب وكان ممّن يروي الحديث[١].

فإنّ تواجد سالم بن مكرم فيهم قرينة على بعد نسبة ادعائهم للألوهية في الأئمة والنبوة في أبي الخطاب، بل اعتراف العامّة بأنّهم ملازمون للمسجد هو الآخر شاهد على تقيّدهم إجمالاً بظاهر الشريعة، كما أنّه متدافع مع ما يقولونه من أنّهم أظهروا الإباحات فكيف يظهرون تارة ويورّون ويخفون أخرى.

أما الطعن عليهم بادّعائهم النبوّة فسيأتي الحديث عنها مفصّلاً وأنه لم يكن ادعاء للنبوّة بل هو ادعاء للنيابة الخاصّة.

وهذا النصّ التاريخي الذي نقله الكشي هو الآخر يدلّ على مدى تأثّر بعض الأصحاب من طعون العامّة المنتشرة في الساحة بكثرة كاثرة.

---

١. رجال الكشي / ٤١٨ / ح ٦٦١.

٢ ـ مكانة أبي الخطاب والمغيرة بن سعيد وعبد الله بن سبأ أيام استقامتهم

فإنّ هناك روايات تدلّ على أنّ لكلّ من هؤلاء كانت فترة استقامة وكانت لهم في تلك الفترة مكانة سامية

١ ـ روى الكشي عن حمدويه، قال حدّثني محمد بن عيسى، عن يونس بن عبد الرحمن عن ابن مسكان، عن عيسى شلقان، قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام وهو يومئذ غلام قبل أوان بلوغه: جعلت فداك ما هذا الذي يسمع من أبيك أنّه أمرنا بولاية أبي الخطّاب ثم أمرنا بالبراءة منه؟

قال: فقال أبو الحسن عليه السلام من تلقاء نفسه: إنّ الله خلق الأنبياء على النبوّة فلا يكونون إلّا أنبياء، وخلق المؤمنين على الايمان فلا يكونون إلّا مؤمنين، واستودع قوماً إيماناً فإن شاء أتمّه لهم وإن شاء سلبهم إيّاه، وإنّ أبا الخطاب كان ممّن أعاره الله الإيمان، فلمّا كذب على أبي سلبه الله الايمان.

قال: فعرضت هذا الكلام على أبي عبد الله عليه السلام، قال: فقال: لو سألتنا عن ذلك ما كان ليكون عندنا غير ما قال[1].

أقول: قد ذكر في صحيحة عيسى شلقان أنّ الإمام الصادق عليه السلام أمر بولاية أبي الخطاب حال استقامته ثمّ أمر بالبراءة منه بعد ما أحدث، والتولّي بالخصوص إشارة إلى موقعية الوكالة والنيابة الخاصة وسيأتي في الفصل السابع بعض الإشارات إلى خطورة مقام النيابة الخاصّة.

٢ ـ روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن حفص

---

١. رجال الكشي / ٣٦٣ / ح ٥٢٣.

ابن البختري وغيره عن عيسى شلقان قال: كنت قاعداً فمرّ أبو الحسن موسى عليه السلام ومعه بهمة. قال: قلت يا غلام ماترى ما يصنع أبوك يأمرنا بالشيء ثم ينهانا عنه. أمرنا أن نتولّى أبا الخطّاب ثم أمرنا أن نلعنه ونتبرّأ منه. فقال أبو الحسن عليه السلام وهو غلام: إنّ الله خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلق خلقاً للكفر لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك أعاره الإيمان يسمّون المعارين إذا شاء سلبهم وكان أبو الخطّاب ممّن أعير الإيمان. قال: فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته ما قلت لأبي الحسن عليه السلام وما قال لي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّه نبعة نبوّة[1].

ويستشف من هذا الخبر الصحيح أنّ أبا الخطاب كانت له نيابة خاصة وليست مجرد وكالة عن الإمام عليه السلام ورغم ذلك فإنه لا يوجب ولا يستلزم ضرورة استقامته إلى الممات كما هو الحال في إعطاء الباري سبحانه الآيات اللدنية لبلعم ابن باعورا.

٣ ـ روى الكشي عن محمد بن مسعود قال: حدّثني علي بن الحسن عن معمّر بن خلّاد قال: قال أبو الحسن عليه السلام: إنّ أبا الخطاب أفسد أهل الكوفة فصاروا لا يصلّون المغرب حتّى يغيب الشفق ولم يكن ذلك إنّما ذاك للمسافر وصاحب العلّة.

وقال: إنّ رجلاً سأل أبا الحسن عليه السلام فقال: كيف قال أبو عبد الله عليه السلام في أبي الخطّاب ما قال ثم جاءت البراءة منه؟ فقال له: أكان لأبي عبد الله عليه السلام أن يستعمل وليس له أن يعزل[2].

وهذا الموثق أيضاً دال على مدى ماكان يتمتع به أبو الخطاب من صلاحيات لدى الإمام عليه السلام وفي نفوذه لدى الشيعة كمرجعية فقهية أيضاً.

٤ ـ روى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن علي بن عقبة قال: كان أبو الخطاب قبل أن يفسد

---

١. الكافي ٢ / ٤١٨ / باب المعارين / ح ٣.

٢. رجال الكشي / ٣٦٢ / ح ٥١٨.

وهو يحمل المسائل لأصحابنا ويجيء بجواباتها[١].

وهذا الصحيح هو الآخر يعكس منزلة أبي الخطاب بين الإمام وعموم فضلاء أصحابه.

٥ ـ روى الكشي في الموثق عن عبد الله بن بكير الرجاني قال: ذكرت أبا الخطاب ومقتله عند أبي عبد الله عليه السلام قال: فوقفت عند ذلك فبكيت، قال: أتأسى عليهم؟ فقلت: لا وقد سمعتك تذكر أنّ علياً عليه السلام قتل أصحاب النهر (النهروان) فأصبح أصحاب علي عليه السلام يبكون عليهم. فقال علي عليه السلام: أتأسون عليهم؟ فقالوا: لا إنّا ذكرنا الألفة التي كنّا عليها والبليّة التي أوقعتهم فلذلك رققنا عليهم. قال: لا بأس به[٢].

وفي هذه الرواية دلالة على مدى الموقعيّة التي كان يتمتع بها أبو الخطاب في أوساط أتباع أهل البيت عليهم السلام .

٦ ـ روى الكليني عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن محمد بن علي بن محمد بن الفضيل عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا الخطّاب يحدّث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ثلاثة لا يجهل حقّهم إلّا منافق معروف بالنفاق؛ ذو الشيبة في الإسلام وحامل القرآن والإمام العادل[٣].

فإنّها تشير إلى موقعيّة أبي الخطاب لدى فضلاء الرواة وأنّهم كانوا يتلقون رواياته أيام استقامته ويخرجونها في الأصول الروائية.

٧ ـ وكذا ما رواه الكليني عن حنان عن أبي الخطّاب عن عبد صالح عليه السلام قال:

---

١. الكافي ٥ / ١٥ / باب فضل التجارة والمواظبة عليها / ح ١٣، وتهذيب الأحكام ٧ / ٤ / باب فضل التجارة وآدابها / ح ٩.

٢. رجال الكشي / ح ٥١٧، ووسائل الشيعة / أبواب الدفن / باب ٨٩ باب جواز البكاء على الأليف الضال.

٣. الكافي ٢ / ٦٥٨ / باب وجوب إجلال ذي الشيبة المسلم / ح ٤.

إنّ الناس أصابهم قحط شديد على عهد سليمان بن داود عليه السلام فشكوا ذلك إليه وطلبوا إليه أن يستسقي لهم. قال فقال لهم إذا صلّيتُ الغداة مضيتُ. فلمّا صلّى الغداة مضى ومَضوا فلمّا أن كان في بعض الطريق إذا هو بنملة رافعة يدها إلى السماء واضعة قدميها إلى الأرض وهي تقول: اللهمّ إنّا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم. قال: فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سُقيتم بغيركم قال: فسقوا في ذلك العام ما لم يسقوا مثله قطّ[1].

٨ـ روى الكليني عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن زرارة قال: حدّثني أبو الخطاب في أحسن ما يكون حالاً قال ...[2].

٩ ـ قال الكشي: وحكى نصر بن صباح عن ابن أبي عمير بإسناده أنّ الشيعة حين أحدث أبو الخطّاب ما أحدث خرجوا إلى أبي عبد الله عليه السلام فقالوا: أقم لنا رجلاً نفزع إليه في أمر ديننا وما نحتاج إليه من الأحكام.

قال: لا تحتاجون إلى ذلك، متى ما احتاج عندكم عرج إليّ وسمع منّي وينصرف. فقالوا: لابدّ. فقال: قد أقمت عليكم المفضّل اسمعوا منه واقبلوا عنه فإنّه لا يقول على الله وعليّ إلّا الحقّ.

فلم يأت عليه كثير شيء حتى شنّعوا عليه وعلى أصحابه وقالوا: أصحابه لا يصلّون ويشربون النبيذ وهم أصحاب الحمام ويقطعون الطريق والمفضّل يقرّبهم ويدنيهم[3].

أقول: وهذا يدلّ على أنّ الموقع الذي نصب فيه المفضّل كان يشغله أبو الخطّاب قبل أن يحدث ما أحدث وهو المقام الذي فزعوا إليه في أمر دينهم وما يحتاج إليه من الأحكام.

١٠ـ روى الكشي بسند معتبر إلى سلمان الكناني قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام:

---

١. الكافي ٨ / ٢٤٦ / ح ٣٤٤.
٢. بحار الأنوار ٢٣ / ٣٦٨ / ٣٩.
٣. رجال الكشي / ٣٩٣ / ح ٥٩٢.

هل تدري ما مثل المغيرة قال: قلت: لا قال: مثله مثل بلعم. قلت: ومن بلعم؟ قال: الذي قال الله عزوجل: ﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[١].

فإنّ تمثيله عليه السلام المغيرة ببلعم ـ حيث أوتي بعض حروف الاسم الأعظم الذي عبّر عنه في سورة الأعراف بأنّه أعطي وأوتي آيات لدنية ـ يفيد أنّه قد أعطي شيئاً من بعض الكرامات المعنويّة والآثار النورانيّة إلّا أنّه سلب ذلك منه عند إذاعته للأسرار مما سبب في انحراف جماعة لانطباع معاني خاطئة باطلة لديهم عن تلك الغوامض من المعارف، وعند تصعيده في المواجهة السياسية مع الخلافة الأموية مما أربك الظروف المحيطة بأتباع أهل البيت عليهم السلام .

١١ ـ في تفسير القمي عن أحمد بن إدريس عن محمد بن أحمد عن الحسين بن سعيد عن محمد بن الحصين عن خالد بن يزيد عن عبد الأعلى عن أبي الخطّاب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فأمّا من أعطى واتّق وصدّق بالحسنى﴾ قال: بالولاية ﴿فسنيسره لليسرى وأمّا من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى﴾ قال: بالولاية ﴿فسنيسّره للعسرى﴾[٢].

وفي البصائر عن أحمد بن محمد عن الأهوازي عن محمد بن كثير عن خالد ابن يزيد عن عبد الأعلى عمّن رواه عنه عليه السلام مثله[٣].

والظاهر أنّ رواية عبد الأعلى عن أبي الخطاب في أيام استقامته وأنّه كان يدمن تلقّي الروايات في المعارف عنهم عليهم السلام كما يظهر الحديث قدرة تحمّله للطائف المعاني في ولايتهم.

١٢ ـ روى الحلي في مختصر البصائر عن محمد بن مسلم قال: سمعت حمران بن أعين وأبا الخطاب يحدّثان جميعاً ـ قبل أن يحدث أبو الخطاب ما

---

١. رجال الكشي / ح ٤٠٦.

٢. تفسير القمي: ٤٢٦/٢، بحار الأنوار ٢٤ / ٤٤ / ح ٨.

٣. بصائر الدرجات: ٥٣٥ ح ٣٩، بحار الأنوار ٢٤ / ٤٤ / ح ٨.

أحدث ـ أنهما سمعا أبا عبد الله عليه السلام يقول: أول من تنشقّ الأرض عنه ويرجع إلى الدنيا الحسن بن علي عليهما السلام وأنّ الرجعة ليست بعامة بل هي خاصّة لا يرجع إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً[1].

١٣ـ روى الثقفي في الغارات في ذكر الأحداث بعد مقتل محمد بن أبي بكر عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه جندب قال: دخل عمرو بن الحمق وحجر بن عدي وحبّة العرني والحارث الأعور وعبد الله بن سبأ على أمير المؤمنين عليه السلام بعدما افتتحت مصر وهو مغموم حزين فقال له بيّن لنا ما قولك في أبي بكر وعمر فقال لهم علي عليه السلام: وهل فرغتم لهذا وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي بها قد قتلت ...[2].

يظهر من هذا الحديث أنّ عبد الله بن سبأ كان أيام استقامته من حواري أمير المؤمنين عليه السلام وأخصّ خاصّته لديه وأنّه كان بدرجة من التمسّك بولاية الأمير عليه السلام والتبرّي من أعدائه.

ويمكن تلخيص دورهم الإيجابي في فترة استقامتهم في نقاط تستفاد مما مرّ في المكاتبة وغيرها ومما سيأتي في ذكر شواهد أحوالهم المختلفة:

الأولى: أنّهم قاموا بنشر البيانات البرهانيّة من القرآن والسنة النبوية وسنن الأنبياء عليهم السلام على النصّ الإلهي على إمامة أهل البيت عليهم السلام ووصايتهم لرسول الله وأنه منصب غيبي، وذلك في فترة وحقبة زمنيّة وصل التظليل الإعلامي لسلطة الخلفاء وبني امية وبني العباس أوجه في التعتيم على ما أنزله الله في القرآن وبيّنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأحاديث في شأن أهل البيت عليهم السلام حتى أصبح مجهولاً لدى الخواصّ فضلاً عن العموم.

الثانية: أنّهم قاموا بنشر جملة من ثوابت التشريع التي سعى خصوم أهل البيت عليهم السلام لمحوها عن أذهان المسلمين نظير القضاء بالشاهد واليمين في الأموال

---

١. مختصر البصائر / ١٠٦ / ح ٧٧.

٢. الغارات ١ / ٣٠٢.

وزواج المتعة وجملة من أحكامها وأنّ ولاية الفيء والخمس للإمام وأنّ أعداءهم يتقلّبون في الحرام من الأموال وسائر المعاملات وأنّ قضاء الحاكم الجائر حكم الطاغوت، وغيرها من ثوابت مذهب أهل البيت عليهم السلام التي كانت آنذاك خفيّة على كبار فقهاء الرواة عند بدء نشرها.

الثالثة: أنّهم شقّوا طريقاً للبحث والفحص عن دقائق المعرفة واستنطاقها من القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام في مقابل التقصير والغفلة عن هذه المعرفة، فولّد ذلك جوّاً فاحصاً باحثاً متسائلاً عن هذه المسائل والبحوث.

٣ ـ إيماء الروايات بشذوذ أبي الخطاب والمغيرة دون دعوى التأليه والنبوّة

روى الحلي في مختصر البصائر عن أحمد بن محمد بن عيسى عن عبد الرحمن بن حماد الكوفي عن حنان بن سدير عن أبي خالد ذي الشامة النحّاس قال: فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إن عمي وابن عمي أصيبا مع أبي الخطاب فما قولك فيهما؟ فقال: أما من قتل معه مسلّم لنا دونه فرحمه الله وأما من قتل معه مسلّم له دوننا فقد عطب[١].

وفي هذه الرواية دلالة على أنّ الخطّابية إلى حين قتل أبي الخطاب لم يكونوا يدّعون الألوهية والتأليه في الأئمة عليهم السلام وإلّا لما كان للتفصيل مجال كما أنّهم لم يكونوا يدّعون النبوّة في أبي الخطاب.

نعم الرواية دالّة على أنّ من سلّم وانقاد تماماً لأبي الخطاب في شططه وشذوذه فقد عطب وأما من كان معه بتخيّل نيابته عن الإمام وكان عزمه على التسليم للأئمة عليهم السلام في الأصل، فهو مغرّر به يرجى له شفاعة الأئمة عليهم السلام.

ومما يستشعر منه سابقة استقامة لكلّ من المغيرة وأبي الخطاب وأن شططهما وشذوذهما لم يكن في دعوى الألوهية في الأئمة والنبوة في حق أنفسهم ما رواه الكشي عن محمد بن الصباح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يدخل المغيرة وأبي الخطاب الجنّة إلّا بعد ركضات في النار[٢].

وهذا الحديث وإن استفيد منه انحرافهما واستحقاقهما بذلك العقاب إلّا أنّ

---

١. مختصر البصائر / ٢٦٤ / ح ٢٥٨.

٢. رجال الكشي / رقم ٤٠٨.

فيه إشارة أيضاً إلى عدم وصول ذلك الانحراف إلى ادّعاء التأليه في أئـمة أهـل البيت عليهم السلام أو ادعاء النبوّة في حقّ أنفسهم، بل غايته الشطط في تأويل غوامض المعارف التي تلقّوها ممّا سبّب انحرافات عقائدية لدى أتباعهم في جـملة مـن التفاصيل.

روى الصفار في البصائر عن محمد بن الحسين عن صفوان عن أبي الصباح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـال لعـلي عليه السلام: أنت أخـي وصاحبي وصفيّي وخالصي من أهل بيتي وخليفتي في أمّتي وسأنبّئك فيما يكون فيها من بعدي يا علي أحب كل ما أحبّه لنفسي واكره لك ما أكرهه لها. فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: هذا مكتوب عندي في كتاب علي ولكن دفعته أمس حين كان هذا الخوف وهو حـين صـلب المغيرة[1].

ويظهر من هذ الحديث أنّ جوّ الرعب والخوف الذي أقامه بـنو أميّة فـي مواجهتهم للمغيرة وقتله وصلبه هو موضوع يرتبط بعقيدة النصّ الإلهي في علي وكونه وصياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واصطفي بالعصمة، وأنّ هذه المفاهيم هي التي قتل لأجل الجهار بها المغيرة فلم تكن دعواه التأليه في الأئمة عليهم السلام وأنّ تلك المفاهيم في عهد بني أميّة وهي بداية عهد إمامة الصادق عليه السلام لم تكن واضحة لعدّة من فقهاء ورواة أصحاب الأئمة عليهم السلام بينما كان المغيرة في ذلك الأفق من المعرفة، رغم ما كان له من شذوذ وتطرّف سياسي وسوء في تدبير ترويج المعارف.

---

١. بصائر الدرجات: ١٨٧ ح ١٩.

٤ ـ موقف الطائفة من أبي الخطاب ونظرائه

قال الشيخ الطوسي في العدّة:

«وأما العدالة المراعاة في ترجيح أحد الخبرين على الآخر فهو أن يكون الراوي معتقداً للحقّ مستبصراً ثقة في دينه متحرجاً عن الكذب غير متهم فيما يرويه ـ إلى أن قال: ـ ولأجل ما قلناه عملت الطائفة بما رواه حفص بن غياث وغياث بن كلوب ونوح بن درّاج والسكوني وغيرهم من العامّة عن أئمتنا عليهم السلام ولم ينكروه ولم يكن عندهم خلافه.

وإذا كان الراوي من فرق الشيعة مثل الفطحيّة والواقفيّة والناووسية وغيرهم نظر فيما يروونه فإن كان هناك قرينة تعضده أو خبر آخر من جهة الموثوقين بهم وجب العمل به وإن كان هناك خبر يخالفه من طرق الموثوقين وجب اطراح ما اختصّوا بروايته والعمل بما رواه الثقة، وإن كان ما رووه ليس هناك ما يخالفه ولا يعرف من الطائفة العمل بخلافه وجب أيضاً العمل به إذا كان متحرجاً في روايته موثوقاً به في أمانته وإن كان مخطئاً في أصل الاعتقاد ولأجل ما قلناه عملت الطائفة بأخبار الفطحيّة مثل عبد الله بن بكير وغيره وأخبار الواقفة مثل سماعة بن مهران وعلي بن أبي حمزة وعثمان بن عيسى ومن بعد هؤلاء بما رواه بنو فضّال وبنو سماعة والطاطريون وغيرهم فيما لم يكن عندهم فيه خلافه.

وأما ما يرويه الغلاة والمتّهمون والمضعفون وغير هؤلاء فما يختص الغلاة بروايته فإن كانوا ممّن عرف لهم حال الاستقامة وحال الغلوّ عمل بما رووه في حال الاستقامة وترك ما رووه في حال خطائهم، ولأجل ذلك عملت الطائفة بما رواه أبو الخطاب في حال استقامته وتركوا ما رواه في حال تخليطه وكذا القول في

أحمد بن هلال العبرتائي وابن أبي عزاقر...»[١].

وهذا الإجماع المنقول من الشيخ حول روايات ابن أبي الخطاب أيام استقامته شاهد واضح على صحّة مضامين الروايات ذات المضامين العالية والدقائق الثاقبة في المعرفة والمسائل العقدية التي رواها أبي الخطاب وأمثاله وأن جهة الانحراف كانت في زوايا أخرى كما أوضحنا ذلك.

---

١. عده الأصول: ١٤٨/١، بحار الأنوار ٢ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٥ ـ تقدّم معرفة أبي الخطّاب درجة وسبقاً على أركان وأوتاد فقهاء الرواة

روى في البحار عن القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن بريد عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الراسخين في العلم فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه التأويل وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه. قال: قلت: جعلت فداك إنّ أبا الخطاب كان يقول فيكم قولاً عظيماً قال: وما كان يقول قلت: قال: إنّكم تعلمون علم الحلال والحرام والقرآن [فقال: علم الحلال والحرام والقرآن] يسير في جنب العلم الذي يحدث بالليل والنهار(١).

ويظهر من هذا الصحيح الأعلائي أنّ جملة من أمّهات المعارف حول مقام الإمامة قد قام أبو الخطاب بنشرها في أيام استقامته بين فضلاء كبار الرواة، حتى أن بريد بن معاوية العجلي وهو من أوتاد الرواة في الفقه لم يكن في التحمل للمعارف الثقيلة بدرجة أبي الخطاب مع أن حقيقة المعرفة أعظم من ذلك كما نبّه الإمام عليه السلام .

ورواه في الاختصاص عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كلام قد سمعته من أبي الخطّاب فقال: اعرضه عليّ فقلت: يقول إنّكم تعلمون الحلال والحرام وفصل ما بين الناس. فسكت، فلمّا أردت القيام أخذ بيدي فقال: يا محمد علم الحلال والحرام يسير في جنب العلم الذي يحدث في الليل والنهار(٢).

---

١. تفسير القمي ٩٦/١، بحار الأنوار ٢٣ / ١٩٢ /ح ١٥ .

٢. الاختصاص: ٣١٤، بحار الأنوار ٢٣ / ١٩٢ / بيان في ذيل ح ١٥ .

وهذا الحديث أيضاً يبين الموقعية والدرجة العلمية التي كان أبو الخطاب يتمتع بها بالقياس إلى مثل محمد بن مسلم، ثم بيّن عليه السلام أن المعارف أعظم بحراً من فقه الفروع الذي هو بمنزلة قطرات إلى ذلك البحر المتلاطم.

وروى في البصائر عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن محمد بن مسلم قال: دخلت عليه بعدما قتل أبو الخطّاب قال: فذكرت له ما كان يروي من أحاديثه تلك العظام قبل أن يُحدث ما أحدث فقال: بحسبك والله يا محمد أن تقول فينا يعلمون الحلال والحرام وعلم القرآن وفصل ما بين الناس، فلمّا أردت أن أقوم أخذ بثوبي فقال: يا محمّد وأيّ شيء الحلال والحرام في جنب العلم؟ إنّما الحلال والحرام في شيء يسير من القرآن[1].

وهذا الصحيح الأعلائي يؤكّد ما مرّ بيانه وأنّ فقه الفروع قطرات يسيرة في علم القرآن كبحر مترامٍ من المعارف والأسرار، وهو الذي يثير حفيظة كبار الرواة تجاه رواة المعارف ويشدّد من استغرابهم أو إنكارهم لما يروونه. فإنّ حديث أهل البيت في بحر المعرفة صعب مستصعب لا يحتمل، يثير الكثير من الاضطراب والنكير والبلبلة لدى عموم أذهان كبار أهل العلم من الرواة فضلاً عن عامّة المؤمنين، وهو الّذي استوجب المحاربة والمواجهة الشديدة واللغط الكبير تجاه رواة المعارف في العديد من الحقب الزمنية حتى عصر النجاشي.

وروى الصدوق في معاني الأخبار عن أبيه عن محمد بن يحيى عن أبي سعيد الآدمي عن الحسن بن علي بن أبي حمزة (عن أبيه) عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أبا الخطّاب كان يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعرض عليه أعمال أمّته كلّ خميس فقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس هكذا ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعرض عليه أعمال أمته كل صباح أبرارها وفجارها فاحذروا وهو قول الله عزوجل: ﴿وقل اعملوا

---

١. بصائر الدرجات ١ / ٣٨٧ / ح ٧٣٠، بحار الأنوار ٢٣ / ١٩٥ / ح ٢٢.

فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1] وسكت، قال أبو بصير: إنّما عنى الأئمة عليهم السلام[2].

ورواه في بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد عن الأهوازي عن القاسم بن محمد عن البطائني عن أبي بصير[3].

وهذا الحديث أيضاً يشير مضافاً إلى الأحاديث السابقة إلى موقعية أبي الخطاب بالإضافة إلى كل من بريد ومحمد بن مسلم وأبي بصير، وأنهم كانوا يتلقّون منه أمهات مسائل المعارف عن الإمام عليه السلام كما حكى الشيخ الطوسي في العدة أن الطائفة كانت تعمل بما يرويه أبو الخطّاب أيام استقامته. وهذا ليس رواية فحسب بل هو مقام تعليم وتتلمذ كما لا يخفى.

---

١. التوبة: ١٠٥.

٢. وسائل الشيعة ١٦ / ١٠٩ / أبواب جهاد النفس / ب ١٠١ / ح ٩.

٣. بصائر الدرجات: ٤٤٤ ح ٤، بحار الأنوار ١٧ / ١٥٠.

٦ ـ معنى كذب المغيرة وأبي الخطاب ودسّهما الحديث في الكتب

روى الكشي قال: حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن بن بندار القمّي قالا: حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن أنّ بعض أصحابنا سأله وأنا حاضر فقال له: يا أبا محمد ما أشدّك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا فما الذي يحملك على ردّ الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقولوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنّة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإنّ المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتّقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسنّة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فإنّا إذا حدّثنا قلنا: قال الله عزّوجل وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين فسمعت منهم وأخذت كتبهم، فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام وقال لي: إنّ أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام لعن الله أبا الخطاب وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسّون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنّا إن تحدّثنا حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة إنّا عن الله وعن رسوله نحدّث ولا نقول قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا إنّ كلام آخرنا مثل كلام أوّلنا وكلام أوّلنا مصادق لكلام آخرنا، فإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه وقولوا أنت أعلم وما جئت به. فإنّ مع كلّ قول منّا حقيقة وعليه

نوراً، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك من قول الشيطان[١].

وقال أيضاً: حدثني محمد بن مسعود قال حدثنا ابن المغيرة، قال حدثنا الفضل بن شاذان عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن حريز عن زرارة قال: ـ يعني أبا عبد الله ـ إنّ أهل الكوفة قد نزل فيهم كذّاب. أما المغيرة فإنّه يكذب على أبي ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ قال: حدّثه أنّ نساء آل محمد إذا حضن قضين الصلاة وكذب والله عليه لعنة الله ما كان من ذلك شيء ولا حدّثه وأمّا أبو الخطاب فكذب عليّ وقال: إنّي أمرته أن لا يصلّي هو وأصحابه المغرب حتّى يروا كوكب كذا يقال له القنداني والله إنّ ذلك لكوكب ما أعرفه[٢].

وروى الكشي أيضاً عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان المغيرة بن سعيد يتعمّد الكذب على أبي ويأخذ كتب أصحابه وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدسّ فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي ثمّ يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يثبتوها [يبثّوها] في الشيعة، فكلّ ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك ما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم[٣].

وروى عن أبي يحيى الواسطي قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: كان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد[٤].

هذا، ويحتمل تفسير الكذب الوارد في هذه الأخبار ودسّ الحديث بجملة من المحتملات:

الأول: ما مرّ كراراً من معنى إفشاء الحديث المتضمّن لغوامض المعارف

---

١. رجال الكشي / ٢٩٨ / ح ٤٠١.
٢. رجال الكشي / ٣٠٠ / ح ٤٠٧.
٣. رجال الكشي / رقم ٤٠٢.
٤. رجال الكشي / رقم ٣٩٩.

وإذاعته حيث إنّ إخبار الآخرين بالحديث وإسناده إلى الإمام يتضمّن أنّه عليه السلام يلتزم حكاية ذلك المضمون للسامعين ويتعهّد لهم بالإخبار بذلك المضمون وهذا كذب على الإمام عليه السلام لأنه لم يلتزم الحكاية لعامّة الناس.

أو أنّ المراد بالكذب الحاصل بالإذاعة والنشر تسبيب الإفشاء لعامة من لا يتحمّل تصوّر المعنى الصحيح لمضمون الخبر، فينطبع في ذهنه المعنى المقلوب الخاطىء فيكون الإفشاء سبباً لحصول تلك المعاني الفاسدة في أذهان عامّة الناس وهي معان كاذبة فيكون الإفشاء كذباً عليهم.

أو أنّ الإفشاء يتلقّاه السفلة وهم طلّاب الرئاسات والزعامات وطلّاب السمعة والجاه من ذوي النفوس الخسيسة التي لا يعنيها طلب الحقيقة والهداية وإنّما تحرص على الترأس كمقام في المقامات المعنوية وجمع الأتباع والمريدين.

فالكذب هو إذاعة هذه الأحاديث، ودسّها هو القيام بنشرها في الأصول الحديثيّة وكتب الأصحاب.

وممّا يؤيّد إرادة هذا المعنى ما رواه الكشي في الصحيح عن زياد بن أبي الحلال قال: اختلف أصحابنا في أحاديث جابر الجعفي فقلت لهم: أسأل أبا عبدالله عليه السلام فلمّا دخلت ابتدأني فقال: رحم الله جابر الجعفي كان يصدق علينا لعن الله المغيرة بن سعيد كان يكذب علينا[1].

حيث إنّ المقابلة بين جابر والمغيرة في الوجه المشترك بينهما من حيث تصدّي كلّ منهما لرواية المعارف، إلّا أنّ أحد الفروق بينهما أنّ جابر كان كتوماً لما استودع من أحاديث لم يؤذن بنشرها وإنما كان ينشر ما أذن له بذلك، بخلاف المغيرة حيث قام بنشرها وإذاعتها.

---

١. رجال الكشي / رقم ٣٣٦.

فقد روى الكشي عن جابر بن يزيد الجعفي قال: حدّثني أبو جعفر عليه السلام بسبعين ألف حديث لم أحدّث بها أحداً قط ولا أحدّث بها أحداً أبداً. قال جابر: فقلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك إنّك قد حمّلتني وقراً عظيماً بما حدّثتني به من سرّكم الذي لا أحدّث به أحداً فربّما جاش في صدري حتى يأخذني منه شبه الجنون قال: يا جابر، فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبان فاحفر حفيرة ودل رأسك فيها ثم قل حدّثني محمد بن علي بكذا وكذا[١].

وروى أيضاً عن جابر أنّه قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام وأنا شاب ... ودفع إليّ كتاباً وقال لي: إن أنت حدّثت به حتى تهلك بنو أميّة فعليك لعنتي ولعنة آبائي وإذا أنت كتمت منه شيئاً بعد هلاك بني أميّة فعليك لعنتي ولعنة آبائي. ثم دفع إليّ كتاباً آخر ثم قال: وهاك هذا فإن حدّثت بشيء منه أبداً فعليك لعنتي ولعنة آبائي[٢].

ومعنى الحديث أنّه من غوامض المعرفة ما لا يصلح نشره أبداً لعامّة الناس فلو قام جابر بمعصية الإمام ونشره بين الناس لصدر اللعن من الإمام عليه السلام في حقّه والبراءة منه لما يوجب ذلك من انطباع معانٍ مقلوبة معكوسة عن حقيقة المعنى الأصلي الغامض مما يوجب إضلال الناس وحدوث الفرق الضالّة.

وهذا معنى المحتمل للكفر والزندقة التي يسندها المغيرة إلى الباقر عليه السلام كما في الحديث المتقدّم. وهو المحتمل أيضاً في معنى قوله عليه السلام: فكلّ ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك ما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم.

لا سيما وقد مرّ في رواية الحضيني في كتاب الهداية عن المفضّل بن عمر عن الصادق عليه السلام أنّه ما قال أحد فيهم بأنهم أرباب من دون الله بل جعلوهم عبيداً مربوبين مرزوقين وقالوا في فضلهم ما شاؤوا ولم يدركوه[٣].

---

١. رجال الكشي / ح ٣٤٣.

٢. رجال الكشي / ح ٣٣٩.

٣. الهداية الكبرى / ٤٣٢.

فالغلو في تلك الأحاديث التي ينشرها المغيرة بمعنى الشطط في نشر أمور من المعرفة تنطبع بنحو خاطئ فاسد لدى عامّة الناس بطراز وثوب من المعاني المقلوبة التي فيها الكفر والزندقة.

وقد مرّت شواهد عديدة على أنّ المغيرة وأبا الخطاب أذاعا سرّهم فأذاقهم الله حرّ الحديد نظير ما ورد في شأن المعلى بن خنيس أنه أذاع سرّهم فأذاقه الله حرّ الحديد[١]. بل قد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في شأن المعلى قوله: رحم الله المعلّى قد كنت أتوقّع ذلك لأنّه أذاع سرّنا وليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤونة علينا من المذيع علينا سرّنا فمن أذاع سرّنا إلى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضّه السلاح أو يموت بخبل[٢].

وهذا الحديث يدلّ على أنّ المذيع عليهم سرّهم يؤذيهم ويدخل الضرر عليهم والإضرار في شيعتهم نظير الناصب لهم حرباً وأنّ إذاقة حرّ الحديد هي من الحوب الذي يصيب من يذيع سرّهم وهو معنى الكذب.

وقد ورد في معنى كذب المغيرة وأبي الخطاب عليهم أنّهم يصيبهم حرّ الحديد فيكون الدعاء عليهم بإذاقة حرّ الحديد إشارة إلى أنّ معنى الكذب عليهم الإذاعة لسرّهم وقد مرّ لذلك شواهد عديدة فلاحظ.

المحتمل الثاني: الخطأ في التأويل، فيسند التأويل الخاطىء إليهم عليهم السلام مع أنّ أصل المضمون هو شيء قد سمعه ورواه وتعلّمه من الإمام عليه السلام، إلّا أنّه فهمه بنحو خاطئ مقلوب فآل المعنى في ذهنه إلى إطار معكوس. ولربّما شاع وكثر هذا النمط من الكذب لدى الكثير نظير المغيرة بن سعيد وأبو الخطاب وبنان [بيان] وبزيع وأمثالهم.

وسيأتي شواهد كثيرة في أبي الخطاب دالّة على خطائه في فهم أسس وأصول قواعد كثيرة في المعارف وسيأتي بعض نماذجها في المغيرة أيضاً.

---

١. رجال الكشي / ح ٧٠٩.

٢. رجال الكشي / ح ٧١٢.

وقد مرّ في مكاتبة الصادق عليه السلام للمفضّل من طعنه عليه السلام على الخطابية بهذا النمط من الكذب حيث قال: إنّ هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ... فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذباً وافتراءاً على الله ورسوله[١].

ثم إنّ الخطأ في التأويل قد ينشأ من التقصير وذلك بسبب خوض المغيرة وأبي الخطاب وأمثالهم في تعاطي العلوم والفنون الغريبة، كما يشير إليه ما رواه الكشي عن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام يوماً لأصحابه: لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهوديّة يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق[٢]. الحديث.

حيث إنّ التعاطي مع هذه الأمور يسبّب انطباع معانٍ قاصرة وفاسدة وباطلة عما يتلقّونه من معارف حقيقية، وذلك لقصور إدراك قوة الخيال عن المعاني العقلية والمعاني المجرّدة فيصعب التجريد في الإسناد والتدقيق في الحقائق.

المحتمل الثالث: هو كذبهم في الأحكام الفقهيّة وقد وقع ذلك أيضاً منهم كثيراً، وفي البدء كان ذلك منهم بسبب قصور الفهم أو اعوجاج السليقة إلّا أنّهم بعد انفكاكهم عن تيار اتباع أهل البيت عليهم السلام بعد ظهور انحرافهم واشتداد المواجهة السياسيّة بينهم وبين السلطة الأمويّة والعبّاسية ازداد شذوذهم الفقهي.

ومرّ قبل قليل ما رواه الكشي عن زرارة في أنّ المغيرة كان يقول إن نساء آل محمد إذا حضن قضين الصلاة وإن أبا الخطاب كان يقول إنّ الإمام أمره أن يؤخّر المغرب حتى يروا كوكب القنداني.

---

١. بحار الأنوار ٢٤ / ٢٨٨.

٢. رجال الكشي / ح ٤٠٣.

٧ ـ ظهور جملة من الغرائب على أيديهم

قال الأعمش: «كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراء على القبور»[١].

وعن الطبري: «ذكر أبو نعيم عن النضر بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قدم علينا رجل من أهل البصرة يطلب العلم فكان عندنا فأمرت جاريتي يوماً أن تشتري لي سمكاً بدرهمين، ثم انطلقت أنا والبصري إلى المغيرة بن سعيد فقال لي: يا محمد أتحب أن أخبرك لم افترق صاحباك؟ قلت: لا قال: أفتحب أن أخبرك لم سماك أهلك محمداً؟ قلت: لا، قال: أما إنك قد بعثت خادمك يشتري لك سمكاً بدرهمين قال: فنهضنا عنه. قال أبو نعيم وكان المغيرة قد نظر في السحر»[٢].

في الطبري في ذكر خبر مقتل المغيرة بن سعيد ونفر معه: «أما المغيرة بن سعيد فإنّه كان ـ فيما ذكر ـ ساحراً. حدثنا ابن حميد قال: حدثنا جرير عن الأعمش قال: سمعت المغيرة بن سعيد يقول: لو أردت أن أحيي عاداً أو ثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم».

ويحتمل أن تكون هذه الأمور كرامات صدرت منهم أيّام استقامتهم إلّا أنّ العامّة تقلب تلك الأمور عن وجهها وكأنّها أفعال شعبذيّة وترائيات تخيّلية في العين من قبيل الأمور السحرية كما طعنوا بذلك على جابر بن يزيد الجعفي، وإن

---

١. تجارب الأمم ٣ / ١٠٣، تاريخ الطبري ٧ / ١٢٨.

٢. تاريخ الطبري ٧ / ١٢٩.

كان جابر لا يقاس به هؤلاء حتى في ايام استقامتهم. وأما القول الأخير فلعلّه مفترى من العامة عليه.

٨ ـ حقيقة ما نسب إلى ابن سبأ من دعوى الربوبية في علي عليه السلام

١ ـ روى الكشي في صحيحة أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ أنه ادّعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام كان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبداً لله طائعاً الويل لمن كذب علينا وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا[١].

٢ ـ وروى أيضاً عن محمد بن قولويه القمّي قال: حدّثني سعد بن عبد الله بن أبي خلف القمي قال حدثني محمد بن عثمان العبدي[٢] عن يونس بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سنان قال: حدثني أبي عن أبي جعفر عليه السلام: إنّ عبد الله بن سبأ كان يدّعي النبوة ويزعم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الله تعالى عن ذلك فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فدعاه وسأله فأقرّ بذلك وقال: نعم أنت هو وقد كان ألقي في روعي أنّك أنت الله وأنّي نبيّ. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتب. فأبي فحبسه واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار وقال: إنّ الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك[٣].

أقول: الظاهر إنّ نسبة ادعاء التأليه في علي لعبدالله بن سبأ ناشئة من أسباب ملتبسة عديدة:

---

١. رجال الكشي / رقم ١٧٢ .

٢. والصحيح محمد بن عيسى العبدي والظاهر وقوع التصحيف في رجال الكشي.

٣. رجال الكشي / رقم ١٧٠ .

السبب الأول: الجهل بالمقامات الغيبية

فلعلّ ما في هذين الصحيحتين وكذا سائر ما ورد عنهم عليهم السلام من نسبة ادّعاء ابن سبأ الربوبيّة في أمير المؤمنين عليه السلام والنبوّة في حقّ نفسه هو ادعاء النيابة الخاصّة والبابيّة أي مقام الباب لنفسه لا التأليه حقيقة، وإنّما عبروا بذلك مجاراة للعامة في تسمية ذلك تأليهاً. إذ مقام النيابة الخاصّة ينطوي على ادّعاء أنّه مُلهَم ومحدَّث ـ بالفتح ـ من قبل أمير المؤمنين عليه السلام فالمحدِّث والملهِم ـ بالكسر ـ هو أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد ورد نظير ذلك في تعريف مقام سلمان كما رواه الكشي عن الصادق عليه السلام أنّه في الحديث الذي روى أن سلمان كان محدّثاً قال: إنّه كان محدّثاً عن إمامه لا يجوز به لأنّه لا يحدّث عن الله عزوجل إلّا الحجّة[1]. وقد ورد أيضاً في وصف سلمان أنّه باب علم الوصي[2].

وهذا المقام ادّعاه عبد الله بن سبأ كذباً على أمير المؤمنين عليه السلام إلّا أنّ حقيقة هذا المقام ليست هي دعوى النبوّة من قبل عبد الله بن سبأ ولا ادّعاء الألوهيّة في علي عليه السلام، لأنّ هذا الإلهام في النيابة الخاصّة ليس من سنخ النبوّة ولا من سنخ العلم اللدني في الإمامة بل هو من درجات الإلهام النازلة عن ذلك. وعلى أيّ تقدير فادّعاء هذا المقام ليس في الحقيقة ادّعاء للنبوّة، ولكن حيث إنّ مثل هذا المقام ومعناه لم يكن بيّناً واضحاً في الصدر الأول لا سيما لدى جمهور العامّة الذين لا يعرفون من المقامات الغيبيّة إلّا النبوّة وأيّ مقام آخر يحسبون أنّه كذلك، فمن ثمّ أطلقوا على ادعاء عبد الله بن سبأ أنه ادّعاء النبوّة وأنّ كون عليّ ملهماً هو ادّعاء ألوهية عليّ عليه السلام فجرى وشاع هذا الطعن على عبدالله بن سبأ.

وهذه الأحاديث صدرت منهم عليهم السلام مجاراة لما عند العامّة، وإن كانت دعوى

---

١. رجال الكشي / رقم ٣٤.

٢. رجال الكشي / رقم ٣٣.

عبدالله بن سبأ في الأصل كاذبة أيضاً، وسيأتي توضيح التقية مجاراة في نهاية المطاف. ونحن لا ننكر صدور الذم والتبرّي منهم عليهم السلام تجاه عبد الله بن سبأ بسبب انحرافه وشططه، إلّا أنّ الكلام هو في تعيين جهة انحرافه في الحقيقة لا بسبب ما اشتهر عند جمهور العامة.

قال في البدء والتاريخ: «أما السبائية فإنّهم يقال لهم الطيارة ... ومن الطيارة قوم يزعمون أن روح القدس كانت في النبي كما كانت في عيسى ثم انتقلت إلى علي ثم إلى الحسين ثم كذلك في الأئمة، وعامة هؤلاء يقولون بالتناسخ والرجعة ومنهم من يزعم أنّ الأئمة أنوار من نور الله تعالى وأبعاض من أبعاضه وهذا مذهب الحلاجية»[1].

وهذا النصّ التاريخي يبيّن بوضوح أكبر ويشهد على ما ادّعيناه من أن جملة طعون العامّة وحكمهم بالكفر والزندقة على هذه الجماعات ناشئ من تقاصر العامّة عن فهم أوليّات معارف القرآن وعقائد أهل البيت عليهم السلام، ككون الإمامة علماً لدنياً وارتباطاً غيبيّاً وهو يغاير النبوّة، وأنّ مريم تتنزّل عليها الملائكة وجبرائيل وإن لم تكن نبية ولكنها حجة مصطفاة صدّيقة، فضلاً عن أسرار وغوامض معارف أهل البيت عليهم السلام فروح القدس الذي يصرّح القرآن بأنّه أيّد الله به نبيّه عيسى[2] ونزّله الله على سيّد أنبيائه[3] يتوهّمون منه أنه انتقال روح في أشخاص متعدّدين فهو نمط من التناسخ عندهم.

كما أنّ مفهوم عقيدة الرجعة يظنون منها أنّها تعني عدم الموت والبقاء حيّاً إلى وقت الرجعة، كما أنّ القول بإسناد بعض الأفعال لأئمة أهل البيت عليهم السلام التي أسندها القرآن إلى بعض الأنبياء يتوهّمون منها أنّها تأليه لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

---

١. البدء والتاريخ ٥ / ١٣٠.
٢. البقرة / ٢٥٣.
٣. النمل / ١٠٢.

فالأزمة ههنا تكمن في الفهم مضافاً إلى شدّة غضبهم على أمثال عبد الله بن سبأ ومغيرة بن سعيد وغيرهما ممن يتشدّد في الولاء لأهل البيت عليهم السلام والتبرّي من الشيخين، فإنّ ذلك يزيد من الدواعي لدى علماء أهل السنة ورواتهم باختلاق الطعون والتكفير لهؤلاء بأدنى ذريعة، كيف وهم لا يتصوّرون حقيقة هذه المعارف ويتعاظمونها أن تكون ثابتة لأئمة أهل البيت عليهم السلام. فهذا الحال يشكّل الفرصة المناسبة لهم لإصدار الطعن والافتراءات والتكفير والزندقة وترويجه ضدّ هؤلاء، لا سيما أنّ مثل عبد الله بن سبأ ومغيرة بن سعيد كانوا مفرطين في إشعال الجدل والمواجهة مع العامّة ففي مقابل ذلك يشتدّ تشنيع العامّة لديهم إلى درجة عبّأوا الرأي العام ضدّهم، حتى وصل الأمر إلى تصديق عامّة الشيعة بتلك الطعون حول هؤلاء وكذا تصديق فقهاء رواة الإمامية لتلك الطعون على أمثال عبد الله بن سبأ والمغيرة بن سعيد وأبي الخطاب.

بل وصل الأمر إلى تصديق مثل المفضل بن عمر الجعفي وهو من أصحاب المعارف وكان له انفتاح مع أبي الخطاب أيام استقامته.

وممّا كرّس هذه الطعون وقوع الانحراف لدى أتباع مثل عبد الله بن سبأ والمغيرة وأبي الخطاب وكل ذلك كان بسبب تطرّف عبد الله بن سبأ والمغيرة في نشر تلك المعارف وإذاعتها والحدّة في جانب الموقف السياسي.

السبب الثاني: التداعيات الحكومية لإفشاء غوامض المعارف وإظهار البراءة جهاراً

ويحتمل أن يكون معنى الكذب الذي ارتكبه عبد الله بن سبأ ليس في ادعاء النيابة فحسب بل هو في إظهار جملة من الأسرار أو الحقائق التي لا يتحمّلها جمهور العامة نظير الإجهار بعقيدة وجود النصّ الإلهي على إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام ووصايته أمام الملأ العام من جمهور التابعين حيث قد أخفى عن الكثير منهم ما كان جليّاً في الصدر الأوّل من الصحابة، وذلك بفعل سياسات الخلفاء بعد النبي حيث منعوا من تدوين الحديث النبوي وأحرقوا مدوّنات

الصحابة من الحديث النبوي.

وكذلك إجهاره بالبراءة من أبي بكر وعمر أو اللعن وهذا لم يتحمّله الجوّ العام آنذاك. كيف؟ وقد ذكر في بعض الروايات أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام أراد أن يمنع في المسجد صلاة التراويح فتعالت صيحات: واعمراه واعمراه[١]، وقال عليه السلام: قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله متعمّدين لخلافه ناقضين لعهده مغيرين لسنته لو حملت الناس على تركها وحوّلتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرق عني جندي حتى أبقى وحدي أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عزوجل وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله ...[٢].

وهذا ممّا يدلّ على استحكام التقيّة وشدّة قبضة الرأي المخالف بحيث كان إظهار الحقائق بتسرّع وحدّة يوجب الإرباك الشديد وردّة الفعل المعاكسة بقوّة، وزيادة التعصّب والعناد واللجاج بدل استقرار جوّ التحاور والبحث العلمي عن الحقيقة.

ومما يدعم استفادة ذلك من الروايات ما نقله النوبختي في فرق الشيعة: «السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ وكان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرّأ منهم وقال: إنّ علياً عليه السلام أمره بذلك، فأخذه علي فسأله عن قوله هذا فأقرّ به فأمر بقتله فصاح الناس إليه يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حبّكم أهل البيت وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فصيّره إلى المدائن.

وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أنّ عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى عليّاً عليه السلام وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في علي بمثل ذلك، وهو أول من شهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف

---

١. وسائل الشيعة / أبواب نافلة شهر رمضان / باب ١٠ / ح ٢.

٢. الكافي ٨ / ٥٩ / ح ٢١.

مخالفيه، فمن هناك قال من خالف الشيعة أنّ أصل الرفض مأخوذ من اليهوديّة»[١].

وقد نقل الكشي عبارة النوبختي مع تغيير في بعض العبارات.

ويستفاد من كلام النوبختي أنّ منشأ الطعن على عبد الله بن سبأ هو الجهار بالطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والبراءة منهم، وقد مرّ أنّ الأجواء لم تكن تتحمّل مثل هذا الموقف وهذا ممّا يجدّد ردّة الفعل بقوّة. كما أنّ هذا النص الذي نقله النوبختي يبيّن أنّ الكذب الذي قام به عبد الله بن سبأ على عليّ هو في ادّعائه المأموريّة الخاصّة من قبل علي والكذب الآخر على عليّ عليه السلام أنّه أمره بالإجهار بالبراءة من الخلفاء الثلاثة، وهذا يدفع ما نسب إلى ابن سبأ الألوهية في علي، كيف وهو يجاهر بوصاية علي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأين الألوهيّة من ذلك؟ كما أنّه ليس في ذلك ادعاء من ابن سبأ للنبوّة في حقّ نفسه وإنّما ادعائه بأنّ علياً أمره بأمر خاصّ وأنّه مأمور يشير إلى ادّعائه النيابة الخاصّة المتضمّنة لدعوى الإلهام من الإمام. وهذا شاهد لحمل الصحيحتين المتقدّمتين وأمثالها من الروايات العديدة على مجاراة العامة في طعنهم على عبد الله بن سبأ تقية وإن كان الطعن الحقيقي منهم عليهم السلام على عبد الله بن سبأ يغاير ما طعن عامة الجمهور على عبد الله بن سبأ.

وممّا يدعم عدم ادعاء عبد الله بن سبأ الألوهيّة في علي وعدم ادّعائه النبوّة في نفسه، وأنّ منشأ الطعن عليه هو مجاهرته بالبراءة والطعن على الشيخين فيكون تاركاً للتقيّة في تلك الحقبة الشديدة ولا دين لمن لا تقية له هو ما رواه الطبري في تاريخه قال:

«كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمّه سوداء فأسلم زمان عثمان ثم تنقّل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز، ثم البصرة ثم الكوفة ثم

---

١. فرق الشيعة / ٢٢.

الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر وقال لهم فيما يقول: لعجب ممّن يزعم أنّ عيسى يرجع ويكذّب بأنّ محمّداً يرجع وقد قال الله عزوجل: ﴿إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد﴾[١] فمحمد أحقّ بالرجوع من عيسى فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلّموا فيها. ثم قال لهم بعد ذلك إنّه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ومن أظلم ممن لم يجز وصيّة رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمّة إنّ عثمان أخذها بغير الحقّ وهذا وصي رسول الله ﷺ»[٢].

وهذا النصّ من الطبري هو الآخر اعتراف بأنّ منشأ الطعن عند العامّة على عبد الله بن سبأ هو جهاره وإفشائه بوصية الرسول لعلي بعده في الإمامة وهو الأمر الذي أخفته سلطة الخلافة وكثير من الصحابة على جيل التابعين.

فكشف الملفّات السابقة مما يثير حفيظة الجمهور ضدّه، كما أنّ طعنه على الخلفاء الثلاثة هو الآخر شدّد من طعن العامّة على عبد الله بن سبأ. وأين دعوى الوصاية من الألوهيّة في علي؟ و أين البراءة من الخلفاء من ادّعاء النبوّة؟ إذ البراءة منهما علّله ابن سبأ بنبذهما وصيّة رسول الله لعلي. وقد اعترف الطبري بأنّ ابن سبأ لم يؤثّر على أهل الشام، أي أنّه استطاع أن يؤثّر في البلدان الأخرى كالبصرة والكوفة والحجاز ومصر ولا يعقل أن يكون تأثيره في تلك البلدان في ادعاء الألوهية لعلي والنبوّة لنفسه، إذ الأمر الذي لا يقبله أهل الشام ويقبله سائر الأمصار ليس إلّا موالاة علي والبراءة من أعدائه، فإنّ أهل الشام عرفوا بعداوتهم لعلي وأهل البيت بسبب إضلال معاوية وبني أميّة لهم وتحريفهم عن مودّة أهل البيت عليهم السلام.

ومما يدعم ذلك أيضاً ما رواه ابن عساكر في تاريخه قال:

---

١. القصص: ٨٥.

٢. تاريخ الطبري ٤ / ٣٤٠.

كان أصله من اليمن وكان يهودياً فأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويدخل بينهم الشرّ ودخل دمشق لذلك في زمن عثمان ... وحدّثنا عمرو بن مرزوق قال: حدّثنا شعبة عن سلمة بن كميل عن زيد بن وهب قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: مالي ولهذا الحميت الأسود يعني عبد الله بن سبأ كان يقع في أبي بكر وعمر ثم روى في ذلك روايات عديدة فيها تبرّي عبد الله بن سبأ من أبي بكر وعمر وأنّه كان يجاهر بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأنّ علياً عليه السلام أنكر عليه ذلك فصيّره إلى المدائن وقال لا تساكنّي في بلدة أبداً. ثم قال ابن عساكر: وله أتباع يقال لهم السبائيّة يعتقدون إلهيّة علي بن أبي طالب وقد أحرقهم علي عليه السلام بالنار في خلافته[١].

وهذا النصّ هو الآخر اعتراف بأنّ عبد الله بن سبأ لم تكن دعواه الألوهية في علي ولا النبوّة في نفسه وإنّما جاهر بالولاية لعلي والتبرّي من أعدائه بدون أن يراعي موازين التقيّة مما أربك تدبير الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام .

السبب الثالث: انحراف أتباع عبد الله بن سبأ

فإنّ نصّ ابن عساكر كالصريح في أنّ أتباع ابن سبأ ادّعوا الإلهيّة في علي وهذا نظير الانحراف الذي فشا في أتباع المغيرة من المغيرية وأتباع أبي الخطاب من الخطابية بسبب إذاعة المغيرة وابن أبي الخطاب لأسرار المعارف في مقامات أهل البيت عليهم السلام وكرامات الله لهم مما لا يستوعبه ولا يتحمّله عامّة الناس فينعكس لهم المعنى بنحو مقلوب ومعكوس بعيد عن الحقيقة والواقع فيتوهّموا في ذلك الألوهيّة في الأئمة عليهم السلام فتكون عملية إذاعة وإفشاء ونشر تلك المعارف إضلال للعامّة بدل أن تكون هداية لهم.

ولأجل ذلك تكون إذاعة تلك الأسرار كذب على الأئمة لأن معانيها تنطبع

---

١. تاريخ دمشق ٤ / ٢٢ ـ ٢٥ .

بصورة مكذوبة في أذهان العامة وهذا هو المنشأ الثاني لنسبة ادّعاء الألوهيّة في علي والأئمّة لعبد الله بن سبأ والمغيرة وأبي الخطاب وأمثالهم.

شواهد أخرى للتقية في الروايات الصادرة في عبد الله بن سبأ

وشاهد آخر على لحن التقية في الروايات الصادرة عنهم عليهم السلام أنّه قد ورد عنهم في روايات عديدة إحراق علي عليه السلام لعبد الله بن سبأ، مع أنّ الذي ورد في نصّ النوبختي في فرق الشيعة وجملة من مصادر العامّة أنّه عليه السلام همّ بإحراقه ولكن جماعة تشفّعوا فيه فأطلقه ونفاه إلى المدائن وقد ذكر ابن أبي الحديد أن ابن عباس تشفّع في عبد الله بن سبأ[1].

وقد رويت روايات عديدة عنهم عليهم السلام من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أحرق جماعة ادّعوا فيه الربوبيّة كجماعة من الزطّ بعد حرب الجمل إلّا أنّه قتلهم بدخان تلك النار[2]. وقد مرّ في مصادر السنّة رواية أنّ علياً عليه السلام أحرق جماعة من أتباع عبد الله بن سبأ.

إلّا أنّه قد روى الشيخ الجليل حسين بن عبد الوهاب المعاصر للمفيد رحمه الله في كتاب عيون المعجزات نقلاً من كتاب الأنوار تأليف أبي علي الحسن بن همّام حدّث العباس بن الفضل قال: حدّثنا موسى بن عطية الأنصاري قال: حدثنا حسّان ابن أحمد الأزرق عن أبي الأحوص عن أبيه عن عمّار الساباطي قال: قدم أمير المؤمنين عليه السلام في المدائن، ثم ذكر فيها معجزة تكلّم أمير المؤمنين عليه السلام مع الجمجمة ونطقها جواباً له فانصرف القوم الذين كانوا معه من أهل ساباط إلى أهاليهم وأخبروهم بما كان وبما سمعوا من الجمجمة، فاضطربوا واختلفوا في معنى أمير المؤمنين عليه السلام وحضروه وقال بعضهم فيه مثل ما قال النصارى في

---

١. شرح نهج البلاغة ٥ / ٦.

٢. رجال الكشي / رقم ١٧٥.

المسيح ومثل ما قال عبد الله بن سبأ وأصحابه. فقال له أصحابه: فإن تركتهم على هذا كفر الناس.

فلما سمع ذلك منهم قال: ما تحبّون أن أصنع بهم؟ قال: تحرقهم بالنار كما أحرقت عبد الله بن سبأ وأصحابه. فأحضرهم وقال: ما حملكم على ما قلتم؟ قالوا: سمعنا كلام الجمجمة النخرة ومخاطبتها إياك ولا يجوز ذلك إلّا لله تعالى فمن ذلك قلنا ما قلنا. فقال عليه السلام: ارجعوا إلى كلامكم وتوبوا إلى الله، فقالوا: ما كنا نرجع عن قولنا فاصنع بنا ما أنت صانع. فأمر أن تضرم لهم النار فحرقهم فلما احترقوا قال: اسحقوهم واذروهم في الريح فسحقوهم وذروهم في الريح فلما كان يوم الثالث من إحراقهم دخل إليه أهل ساباط وقالوا: الله الله في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الذين أحرقتهم بالنار قد رجعوا إلى منازلهم أحسن ما كانوا. فقال عليه السلام: أليس قد أحرقتموهم بالنار وسحقتموهم وذريتموهم في الريح؟ قالوا: بلى، قال أحرقتهم والله أحياهم. فانصرف أهل ساباط متحيّرين[1].

ورواه أيضاً ابن جرير الطبري في نوادر المعجزات[2] وحكاه السيد هاشم البحراني عن السيد المرتضى هذه الرواية[3].

وروى هذه الرواية شاذان بن جبرئيل في كتابه الفضائل وذكر أنّهم قالوا: «لولا أنه الرب وإلّا كيف يحيي الموتى» نعم لم يذكر شاذان في ذيل الرواية من عود هؤلاء أحياء.

وعلى تقدير صحّة مضمون الذيل يتبيّن أنّه لم يكن دعواهم تأليه أمير المؤمنين وإنما كانت منهم إساءة أدب في كيفية نسبة الفعل وإسناد الصفة من لزوم تقييدها وإنما بإذن الله.

---

١. عيون المعجزات / ١١، عنه مستدرك الوسائل ١٨ / ١٦٨، كتاب الحدود/باب ٥/ح ١.

٢. نوادر المعجزات / ٢١ .

٣. مدينة المعاجز ١ / ٢٢٤ .

ولربما كان غلوّهم في التسمية؛ وممّا يشهد لهذا الحمل في الروايات ما رواه الحضيني في الهداية الكبرى عن الصادق عليه السلام: وأما الغالي فليس قد اتخذنا أرباباً من دون الله وإنّما اقتدى بقولنا اجعلونا عبيداً مربوبين مرزوقين فقولوا في فضلنا ما شئتم فلن تدركوا. قال المفضل: يا مولاي إنّ الغالي من ذكر أنكم أرباباً عند الشيعة من دون الله قال: ويحك يا مفضل ما قال أحد فينا إلّا عبد الله بن سبأ وأصحابه العشرة الذين حرقهم أمير المؤمنين عليه السلام في النار بالكوفة وموضع إحراقهم يعرف بصحراء الاخدود وكذا عذبهم أمير المؤمنين بعذاب الله وهو النار عاجلاً وهي لهم آجلاً. ويحك يا مفضل إنّ الغالي في محبّتنا نرده إلينا ويثبت ويستجيب والمقصّرة تدعوه إلى الإلحاق بنا والإقرار بما فضّلنا الله به فلا يثبت ولا يستجيب ولا يلحق بنا[1].

وهذا الحديث وإن تضمّن مجاراته عليه السلام لما توهّمه المفضّل بن عمر من أن معنى الغلو ادّعاء الربوبية فيهم وهو الشائع عند العامة إلّا أنّ تخصيصه عليه السلام ذلك لعبد الله بن سبأ ونفيه عن بقيّة الغلاة هو الآخر فيه إشارة إلى تخطئة هذا التوهّم وهذه النسبة للغلاة وإنّ منشأ هذا التوهّم والطعن على الغلاة بذلك هو إسنادهم هذه الأفعال العظيمة والصفات الكبيرة إليهم عليهم السلام ممّا يوهم لدى الطرف المقابل ادّعاء الربوبية لتعاظم هذه الصفات والأفعال عند عامة الناس.

السبب الرابع: القول بالرجعة

ثمّ إنّه يظهر من نصّ النوبختي والطبري المتقدّمين وكذلك نصوص العامّة أنّ أحد مناشئ الطعن بالغلو على عبد الله بن سبأ هو جهاره الشديد بعقيدة الرجعة، وعقيدة الرجعة في نفسها تمثّل إدانة صارخة لمشروع السقيفة والخلفاء الثلاثة وأحقّية أهل البيت عليهم السلام وأنّ الحق الذي غصب منهم يرجع إليهم وهذا ما لا يتحمّله جمهور العامّة.

---

١. الهداية الكبرى / ٤٣٢.

وقد تشدّد عبد الله بن سبأ في نشر روايات الرجعة إلى درجة حاول أرباب الجرح والتعديل والتراجم من أهل السنة أن ينسبوا هذه العقيدة القرآنية إلى عبد الله بن سبأ وأنّه هو الذي أسّسها.

فقد ذكر ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: لمّا بويع علي خطب الناس فقام إليه عبد الله بن سبأ فقال: أنت دابّة الأرض قال: فقال اتّق الله فقال: أنت الملك فقال له: اتق الله فقال له: أنت خلقت الخلق وبسطت الرزق. فأمر بقتله، فاجتمعت الرافضة وقالت: دعه وأنفه إلى ساباط المدائن[1].

ولا يخفى ما في هذا النقل من التدافع فإن توصيف عبد الله بن سبأ بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو دابّة الأرض لا ينسجم مع دعوى التأليه في علي عليه السلام. وقد ورد في طرق أهل البيت بل حتى في طرق العامة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يخبر أصحابه وخواصّه أنّه المراد من دابّة الأرض في قوله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾[2].

وهي من مقامات الإمامة ومن أكبر معالم الرجعة؛ وقد روى الفريقان في شأن الدابّة أنّ معها عصا موسى وخاتم سليمان وأنّها تجلي وجه المؤمن بنور الإيمان وتختم بالخاتم على خرطوم المنافق بالنفاق، ممّا يشير إلى دور دابّة الأرض في تكامل تخليق طور الإنسان كمالاً أو انطباعاً. وأنّ الأرض تفتح بركاتها بمجيء الدابة فينبسط الرزق للعباد. وهذا المعنى رواه الفريقان وليس فيه نحو من تأليه علي؛ إلّا أنّ هذه المعاني لما كانت يثقل وعيها عند العامة بشكلها الصحيح تنطبع لديهم أنّها من أفعال الألوهيّة. نعم، ظاهر رواية ابن عساكر هو ردّ أمير المؤمنين لعبد الله بن سبأ من إضلال الناس بإفشاء ما لا يحتملوه مما يعكس لديهم معاني باطلة بغير ما للمعنى من حقيقة. وهذا هو الشذوذ والشطط الذي وقع فيه عبد الله

---

١. تاريخ مدينة دمشق ٢٩ / ١٠.

٢. النمل / ٨٢.

ابن سبأ والمغيرة وأبو الخطاب وأمثالهم مما ولّد لدى أتباعهم وأتـباع أتـباعهم انحراف التأليه في الأئمة عليهم السلام .

وممّا يشهد على إصرار عبد الله بن سبأ لنشر هذه الغوامض من المعارف التي منها الرجعة في جيل التابعين الأوّل واشتهاره بهذا الأمر ما ذكره ابن حـبّان فـي كتاب المجروحين في ترجمة جابر بن يزيد الجعفي أنّه كان سبئيّاً من أصحاب عبد الله بن سبأ وكان يقول إنّ علياً عليه السلام يرجع إلى الدنيا[١].

فترى أنّ جابر بن يزيد الجعفي رغم استقامته وجلالته حتى عند كبار العامّة حيث يطرون عليه بالتعظيم والثناء إلّا أنّ ابن حبّان طعن عليه بأنّه تابع لابن سبأ في عقيدة الرجعة.

والملفت للنظر أنّ ابن حبّان يعرّف السبائيّة بعقيدة الرجوع والرجعة لا بتأليه علي عليه السلام. وياترى هل يرى ابن حبّان وأمـثاله مـن روّاد الجـرح والتـعديل عـند الجمهور رجوع عيسى بن مريم إلى الأرض هو تأليه لعيسى بن مريم، مع أنّ هذه العقيدة نصّ القرآن الكريم.

وأيضاً ذكر في ترجمة الكلبي قال: «وكان الكلبي سبئياً من أصحاب عبد الله ابن سبأ من أولئك الذين يقولون إنّ علياً لم يمت وأنّه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»[٢].

ونظير ذلك ما ذكره النوبختي حيث قال: «وفرقة منهم قالت إنّ علياً لم يقتل ولم يمت ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويـملأ الأرض عـدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً ... وهذه الفرقة تسمّى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ»[٣].

---

١. كتاب المجروحين ١ / ٢٠٨ .

٢. كتاب المجروحين ٢ / ٢٥٣ .

٣. فرق الشيعة / ٢٢ .

وهذا التفسير الخاطئ للرجعة بعدم الموت إمّا ناشئ من شطط عبد الله بن سبأ في التأويل وإصابة المعنى الحقيقي للرجعة أو من خطأ ارتكبه أتباعه حيث شطّ بهم المقال أو أنّه ناشيء من العامّة في معنى الرجعة وظنّهم أنّ لازم القول بالرجوع هو عدم الموت.

والظاهر أنّ جمهور أهل السنة يتداعى لديهم وهماً أنّ لازم القول بالرجعة هو التأليه بظنّ أن الرجعة تستلزم عدم الموت والذي لا يموت هو الحي الذي لا يموت وهو الباري تعالى. وهذا الوهم الفاسد في معنى الرجعة نظير ما توهّمه النصارى في معنى رجوع عيسى بن مريم وعدم موته أنّ لازمه تأليه النبي عيسى.

السبب الخامس: القول بالعلم اللدني لعلي

حكى في ميزان الاعتدال عن الجوزجاني قوله في عبد الله بن سبأ أنّه «زعم أنّ القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه عند علي فنهاه علي بعد ما همّ به»[1]. وقال قبل ذلك عنه أنّه من غلاة الزنادقة ضال مضلّ.

فيظهر من كلامه أنّ علماء العامّة نسبوا التأليه إلى عبد الله بن سبأ لجملة من الأسباب التي تقدّمت والتي مرّ أنّها لا صلة لها بالتأليه وإنّما عدم إدراكهم لحقيقتها توهّموا أنّها قول بالتأليه.

كذلك الحال في هذا الموضع فظنّوا أنّ القول بالعلم اللدني لتأويل القرآن والكتاب وباطنه هو تأليه لعلي عليه السلام وزندقة وهذا ما ينبغي للباحث أن يكون على يقظة منه والتثبّت من طعونهم، فإنّها مبنيّة على رؤى كلاميّة ذات بناء سطحي لا تعي ببصيرة ثاقبة دقائق الأمور. وهذا ما نبّهنا عليه مراراً في الجزء الثاني من بحوث مباني علم الرجال.

---

١. ميزان الاعتدال ٢ / ٤٢٦.

٩ ـ معنى التقية مجاراة

وهي نحو من التقيّة يلجأ إليها أئمة أهل البيت عليهم السلام نتيجة الجور الضاغط عند العامة والجمهور، لا سيما في ما تسالموا عليه إلى درجة تفشّي هذا التسالم إلى قاعدة ومشهور المؤمنين من الخاصّة. كما في موارد كثيرة من نسبتهم أقوالاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم افتراء عليه وكذا أفعال في سيرته أو في أسباب نزول الآيات أو حوادث من سيرته صلى الله عليه وآله وسلم وكذا الحال في أمير المؤمنين عليه السلام وبقيّة الأئمة المتقدّمين عليهم السلام بل في أشخاص آخرين كذلك، وذلك بما تمتلكه سلطة الخلافة من أسباب الإعلام والدعاية وجماعات من أصحاب الأقلام وفنون الأدب من الشعر والقصص، فيتّبعون الرأي العام ويصوّرون الأمور والأحداث كما يروق لهم.

وقد ذكر غير واحد من الكتّاب والباحثين ومنهم ابن أبي الحديد عمّا تفعله السلطات من قلب الحقائق أو طمسها والتعتيم عليها أو تزييف وقائع لا أصل لها ولا وجود. وأمام هذا التسالم المزيّف الذي لا أصل له في الواقع والحقيقة يضطرّ أهل البيت عليهم السلام لنسبة تلك الأقوال أو الأفعال إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو إلى الآخرين مجاراة لهم في الأحاديث الصادرة عنهم عليهم السلام اضطراراً لإيصال معاني أخرى أرادوا عليهم السلام إيصال فهمها للسامع أو السائل.

نظير ما هو ذائع وشائع لدينا في هذا اليوم من محاربة ومقاومة صلاح الدين الأيوبي للصليبيّين، مع أنّ المستندات التاريخيّة التي كشف عنها غير واحد من الباحثين تشير إلى أنّ المحارب الحقيقي للصليبيين كانوا الفاطميين، ومجيء صلاح الدين وتقويضه لدولة الفاطميين إنما ساهم في تضعيف المقاومة

والمحاربة للصليبيين. بل كانت تربطه بالصليبيين مفاوضات وتوافقات سرّية وراء ستار. فلا يجرؤ كاتب أن يكشف الحقيقة وإلّا لشنّع عليه، فقد يضطرّ قائل أو متحدّث وكاتب أن يسلّم بهذا الادّعاء في صلاح الدين وذلك توصّلاً إلى تكديس وتأكيد روحيّة المقاومة والدفاع أمام الأعداء.

وقد مرّ في أبي الخطاب أنّ جملة من المعارف التي كان يرويها عنهم عليهم السلام إلى كبار رواة الشيعة كانت صحيحة مستقيمة، إلّا أنّه لما كانت أذهان جملة من كبار الرواة لا تستوعب حقيقة تلك المعارف وكان مرتكزاً لديهم أنّ هذا تأليهاً وانحرافاً كانوا عليهم السلام يتبرّؤون من تلك المعاني والمضامين ويستنكرونها. ومرادهم عليهم السلام إنما هو استنكار ونفي المعنى الخاطئ الذي يتداعى في ذهن الرواة من تلك الأحاديث الغامضة المضمون. وكان تفنيد المعنى الخاطىء لديهم عليهم السلام أهمّ من تبرئة الأشخاص من الطعون التي تنسب إلى أولئك الأشخاص.

وقد روى الكشي بسند صحيح عن عمر بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: زرارة وبريد بن معاوية ومحمد بن مسلم والأحول أحبّ الناس إليّ أحياء وأمواتاً ولكنّهم يجيئوني فيقولون فلا أجد بداً من أن أقول[1].

وهذه الصحيحة وإن كانت في الأركان الأربعة ولا يقاس بهم بقيّة الرواة الأجلاء فضلاً عن عبد الله بن سبأ والمغيرة وأبو الخطاب ممّن قد شذّوا عن وصايا أهل البيت عليهم السلام وتوازن منهاجهم، إلّا أنه إجمالاً مبيّن أن الأئمة عليهم السلام كانوا يبتلون بجوّ ضاغط من السلطة وجمهورها يضطرّهم إلى مجاراتهم في الطعن على أخصّ أصحابهم فكيف بمن هو دونهم، ولكن ذلك لا يعني تقرير الأئمة عليهم السلام لذلك الطعن. ولربما كان لهم عليهم السلام مؤاخذة وطعن آخر يختلف نوعاً عن طعن العامة على نجوم الرواة لروايات أهل البيت عليهم السلام وفضلائهم الذى هو في

١. رجال الكشي / ح ٣٢٥.

الغالب تكفيرهم والحكم عليهم بالبدعة.

فتخطئة عبد الله بن سبأ والمغيرة وأبو الخطاب وذمّهم ونقدهم أو الطعن عليهم لا يعني تصحيحاً وتقريراً جدّياً طعن العامة بتكفيرهم بل هو مجاراة صورية للعامة. بل قد تتوسّع هذه المجاراة إلى مجاراة الأئمة عليهم السلام للمتعصبين في الطعن حتى في أتباعهم، كما يلاحظ في ما روي عن الرضا عليه السلام في قصّة يونس بن عبد الرحمن وتشدّد بعض القمّيين في الطعن عليه. وكذلك من بقية الأئمة في أشخاص آخرين يلاحظه المتتبع. فاللازم عدم الاغترار بمجرّد تقريرهم عليهم السلام لطعون مشتهرة على بعض الرواة. وهناك جملة من كبار وأجلاء الرواة الفقهاء والمتكلّمين من أصحاب الأئمة عليهم السلام ممن صدر في حقهم اللعن تقية كزرارة وصفوان ومحمد بن سنان.

١٠ ـ البراءة واللعن التقديريان

إنّ الأئمة عليهم السلام قد يبرؤون من شخص ويلعنونه على نحو تقديري تعليقي لا تحقيقي بالفعل، فيظنّ السامع أنّه من السنخ الثاني مع إرادتهم الأوّل، أي أنّ البراءة منهم عليهم السلام والطرد على تقدير صحّة نسبة المقالة الفاسدة لذلك الشخص وإرادته ذلك المعنى المنحرف فإنّه يستحقّ اللعن والطرد عن الانتساب إليهم؛ لا أنّهم عليهم السلام يقرّرون السائل فيما ينسبه إلى ذلك الشخص الذي لعن في الظاهر وتبرّأ منه كما يتوهّم السائل.

والحكمة في اتّخاذ هذا الأسلوب هو أهمّية إبطال المقالة الفاسدة المنطبعة في ذهن السائل على أهمّية تبرئة ساحة الشخص المنسوب إليه تلك المقالة؛ هذا من جانب.

ومن جانب آخر أنهم عليهم السلام لو تصدّوا لتبرئة ساحة ذلك الشخص لربّما زاد ذلك في تعشعش وتغلغل فساد المقالة المنطبعة لدى السائل عن ذلك الشخص، فيتجذّر الزيغ أكثر ويتعمّق هذا الانحراف، وهذا أصل وباب مهم في معرفة مواقف الأئمة عليهم السلام تجاه مضامين المعارف التي تنسب إليهم بين موقف النفي والإثبات.

ونظير هذا الإنكار قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ﴾[1].

فإنّ الباري تعالى في المحشر بدل أن يتصدّى إلى تبرئة النبي عيسى عمّا

---

١. المائدة / ١١٦ .

نسب إليه من مقالة فاسدة تصدّى إلى إدانة المقالة الفاسدة أوّلاً بغضّ النظر عن النفي والإثبات في نسبتها إلى النبي عيسى، وذلك لأهمّية تخطئة الانحراف وإدانته. مع أنّ أصل الحقيقة في تلك المسألة هي في جعل الله النبي عيسى كلمة الله وآية للباري تعالى كما بيّن ذلك في آيات أخرى، إلّا أنّ التصدّي إلى بيان المعرفة الغامضة في معنى كلمة الله وآيته قد يزيد الإيهام في المعنى الآخر الفاسد بدل أن يوضح الحقيقة لصعوبة فهم عامّة من في المحشر للطافة المعنى الحقيقي المستقيم.

ونظير ذلك نجده في قول موسى: ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألّا تتّبعني أفعصيت أمري قال يابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾[1].

فإنّ تصدّي موسى لإدانة عبادة العجل أهمّ لديه من تبرئة ساحة أخيه هارون من مداهنة المنحرفين من بني إسرائيل ممّن عبدوا العجل. وهذا لا يعني أنّ النبي موسى في صدد تقرير نسبة المداهنة للمنحرفين إلى أخيه هارون، إذ لو تصدّى إلى تبرئة أخيه لكان تضييعاً في بيان انحراف بني إسرائيل.

---

١. طه / ٩٢ ـ ٩٤.

١١ ـ الصراط المستقيم بين إفراط من طعن عليهم بالغلو وبين تفريط الاتجاه المعاكس لهم (بين نبذ هدنة التعايش ونبذ التبري الباطل)

قال الله تعالى حاكياً عن موسى حيث رجع عن ميقات ربه فرأى أنّ الناس قد عبدوا العجل ﴿قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألّا تتبعّني أفعصيت أمري قال يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾[1].

وهذا المشهد القرآني ينطبق على موقف أهل البيت عليهم السلام تجاه كل من انحراف المسلمين عن اتباع وإمامة أهل البيت أو زيغ المقالة التي تنسب إلى من رموا بالغلو.

فنرى النبي هارون في حين أنّه أنكر على بني إسرائيل عبادتهم للعجل واتباعهم للسامري لم يصعّد هذا الإنكار إلى المجابهة المسلّحة ممّا يؤدّي إلى تفرّق أمّة بني إسرائيل، بينما نلاحظ هذا الخطأ في تصعيد الإنكار عند المغيرة بن سعيد وأبي الخطاب وأمثالهم ممن كان لديهم غلوّ سياسي وتطرّف في الموقف الفقهي تجاه المخالفين لأهل البيت عليهم السلام. فإنّ الإنكار للباطل لا يعني التفريط بوحدة الأمّة في ظلّ الهدنة فيما بين فرقها، كما أنّ النبي هارون عصم من أن يقع في انحراف آخر وهو الذوبان والسكوت عن عبدة العجل من بني إسرائيل تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة في أمّة بني إسرائيل بدرجة يؤدّي إلى التفريط في

---

١. طه / ٩٣ ـ ٩٤.

إنكار المنكر والتفريط في هداية العباد إلى الحق وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، كما وقع في هذا الخطأ أصحاب شعار الوحدة والتقريب في الأمّة الإسلامية كالبتريّة حيث إنّهم أسقطوا التبرّي والبراءة من المنحرفين من صحابة الرسول ﷺ وما جرى بعد وفاته من منهج السقيفة تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة الإسلاميّة والتقريب بين طوائفها ـ كما سيأتي الحديث عنهم مفصّلاً ـ مع أنّ الحفاظ على الوحدة والتقريب بين أبناء الأمّة لا يستدعي إسقاط فريضة إنكار المنكر ولا إسقاط فريضة هداية العباد إلى الصراط المستقيم وإرشاد الناس إلى الحق وإلى سبيل النجاة في الآخرة ولا إلى إسقاط حرمة إضلال العباد إلى طريق الهاوية.

بل الصحيح ما قام به النبي هارون من الحفاظ على كل من الفريضتين بشكل متوازن ومتعادل بدون إفراط ولا تفريط. فمن ثمّ أنكر على بني إسرائيل انحرافهم في عبادة العجل، لكنّه لم يصعّد هذا الإنكار والإدانة إلى درجة الاشتباك المسلّح وهدر دماء الطرف الآخر. وذلك لأجل عدم التفريط بفريضة الوحدة التعايشيّة السلميّة بين أمّة بني إسرائيل فقام بكلّ من الفريضتين بشكل متوازن ليس فيه إفراط ولا تفريط، وهذا بخلاف تطرّف المغيريّة والخطّابيّة في الإنكار على المخالفين لمنهاج أهل البيت عليهم السلام إلى درجة المواجهة المسلّحة وهدر الدماء الذي قام به المغيرة بن سعيد وأبو الخطّاب، وبخلاف التفريط الذي قام به البتريّة من الاعتقاد بالولاء والتولّي لأهل البيت مع إسقاط التبرّي والبراءة من أعدائهم حتى بدرجة اللسان والقلب والفكر والتفكّر تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة.

كما أن موقف النبي موسى كان بإدانة أصل الانحراف الكبير وهو عبادة العجل بغضّ النظر عن الأطراف في ذلك الحدث وصحّة نسبة الانحراف إليهم نفياً وإثباتاً.

وهذه الملحمة للنبي موسى وهارون وبني إسرائيل ممن عبد العجل أشبه للملحمة موقف الأئمة عليهم السلام من أطراف الواقع الساحة الإسلامية المختلفة.

مؤاخذات على الخطابية والمغيريّة وسائر الفرق المطعون عليهم بالغلو

المؤاخذة الأولى: إذاعة الأسرار وانحراف الناس

فإنّ تيّار أبي الخطّاب وأتباعه قد مهّدوا الأرضيّة لانحراف الناس بسبب إذاعتهم وإفشائهم جملة من المعارف التي لا يتحمّلها أوساط الناس مما يتداعى لديهم الانحراف في فهمها.

فقد روى الكليني عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن مالك بن عطيّة عن بعض أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال:

«خرج إلينا أبو عبد الله عليه السلام وهو مغضَب فقال: إنّي خرجت آنفاً في حاجة فتعرّض لي بعض سودان المدينة فهتف بي: لبّيك يا جعفر بن محمد لبّيك. فرجعتُ عودي على بدئي إلى منزلي خائفاً ذعراً ممّا قال حتّى سجدتُ في مسجدي لربّي وعفّرت له وجهي وذلّلت له نفسي وبرئت إليه ممّا هتف بي ولو أنّ عيسى بن مريم عدا ما قال الله فيه إذاً لصمّ صمّاً لا يسمع بعده أبداً وعَمي عمىً لا يُبصر بعده أبداً وخرس خَرْساً لا يتكلّم بعده أبداً ثم قال: لعن الله أبا الخطاب وقتله بالحديد[1].

---

١. الكافي ٨ / ٢٢٥ / ح ٢٨٦ .

وفي أصل زيد النرسي قال:

لمّا لبّى أبو الخطاب بالكوفة وادّعى في أبي عبد الله عليه السلام ما ادّعاه دخلت على أبي عبد الله عليه السلام مع عبيد بن زرارة فقلت له: جعلت فداك لقد ادّعى أبو الخطّاب وأصحابه فيك أمراً عظيماً إنّه لبّى بلبّيك جعفر لبّيك معراج، وزعم أصحابه أنّ أبا الخطّاب أسري به إليك فلمّا هبط إلى الأرض من ذلك دُعي إليك ولذلك لبّى بك. قال: فرأيت أبا عبد الله عليه السلام قد أرسل دمعته من حماليق عينيه وهو يقول: يا ربّ برئت إليك ممّا ادّعى فيّ الأجدع عبد بني أسد خشع لك شعري وبشري عبدك ابن عبدك خاضع ذليل. ثم أطرق ساعة في الأرض كأنّه يناجي شيئاً ثمّ رفع رأسه وهو يقول: أجل أجل عبد خاضع خاشع ذليل لربّه صاغر راغم من ربّه خائف وَجِل لي والله ربّ أعبده لا أشرك به شيئاً. ما له ـ خزاه الله وأرعبه ولا أمن روعته يوم القيامة ـ ما كانت تلبية الأنبياء هكذا ولا تلبية الرسل، إنّما لبّت بلبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك ثمّ قمنا من عنده، فقال: يا زيد إنّما قلت لك هذا لاستقر في قبري يا زيد استر ذلك عن الأعداء[١].

وهذان الحديثان يبينان شطط أبي الخطاب في بعض سلوكياته وبعض تأوّلاته ممّا يوجب زيغ عامّة الناس ويوهم لديهم الألوهيّة في أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وإن لم تكن التلبية في نفسها منحصرة في رسوم العبوديّة والتأليه، إذ قد ورد في بعض شعارات المسلمين في غزوهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبيك داعي الله كما ورد ذلك في بعض الزيارات لسيد الشهداء عليه السلام كما هو الحال في السجود مع وقوعه من الملائكة لآدم بأمر من الله وسجود يعقوب وبنيه ليوسف.

إلّا أنّ الأوساط المسلمة آنذاك لم تكن تتعقّلها على وجه صحيح مما أدّى إلى توهّم الألوهية والربوبيّة في الأئمّة عليهم السلام، وكان السبب لذلك إذاعة أسرار المعارف من قبل هذه الجماعة.

---

١. الأصول الستة عشر / أصل زيد النرسي / ١٩٢ / ح ١٦١، مستدرك الوسائل ٩ / ١٩٧.

وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لمؤمن الطاق ينهى عن إذاعة الأسرار

وهذه الوصيّة تدلّ على بعض معاني الغلو التي مرّ ذكرها، لا سيما المعنى الثاني والثالث وأنّ المغيرة وأبا الخطاب قد وقعا في هذين اللونين من الغلو، وفيه أيضاً بيان لبعض دواعي الغلوّ والنهي عن إفشاء أسرار المعارف وإن كذبهما إنما كان في إذاعتهما للأسرار.

وقد رواه الحراني في التحف، وصية الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول المعروف بمؤمن الطاق:

قال أبو جعفر: قال لي الصادق عليه السلام: إنّ الله جلّ وعزّ عيّر أقواماً في القرآن بالإذاعة فقلت له: جعلت فداك أين قال؟ قال: قوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾[1] ثم قال: المذيع علينا سرّنا كالشاهر بسيفه علينا رحم الله عبداً سمع بمكنون علمنا فدفنه تحت قدميه. والله إنّي لأعلم بشراركم من البيطار بالدواب، شراركم الذين لا يقرؤون القرآن إلّا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلّا دبراً، ولا يحفظون ألسنتهم.

إعلم أنّ الحسن بن علي عليهما السلام لمّا طعن واختلف الناس عليه سلّم الأمر لمعاوية فسلّمت عليه الشيعة: «عليك السلام يا مذلّ المؤمنين» فقال عليه السلام: «ما أنا بمذلّ المؤمنين ولكني معزّ المؤمنين، إنّي لما رأيتكم ليس بكم عليهم قوة سلّمت الأمر لأبق أنا وأنتم بين أظهرهم، كما عاب العالم السفينة لتبق لأصحابها وكذلك نفسي وأنتم لنبق بينهم».

يابن النعمان إنّي لأحدّث الرجل منكم بحديث فيتحدّث به عني فاستحلّ بذلك لعنته والبراءة منه فإنّ أبي كان يقول: «وأيّ شيء أقرّ للعين من التقيّة، إنّ التقية جنّة المؤمن ولولا التقية ما عبد الله».

وقال الله عزوجلّ: ﴿لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا أن تتّقوا منهم تقاة﴾[2].

---

١. النساء: ٨٣.

٢. آل عمران: ٢٨.

يابن النعمان إياك والمراء فإنّه يحبط عملك، وإياك والجدال فإنّه يوبقك، وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعّدك من الله. ثم قال: إنّ من كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصمت وأنتم تتعلّمون الكلام وكان أحدهم إذا أراد التعبّد يتعلّم الصمت قبل ذلك بعشر سنين فإن كان يحسنه ويصبر عليه تعبّد وإلاّ قال: ما أنا لما أروم بأهل. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء وصبر في دولة الباطل على الأذى أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقّاً وهم المؤمنون.

إنّ أبغضكم إليّ المتراسّون[1] المشّاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا منّي ولا أنا منهم، إنّما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا واتّبعوا آثارنا واقتدوا بنا في كل أمورنا، ثم قال: والله لو قدّم أحدكم ملء الأرض ذهباً على الله ثم حسد مؤمناً لكان ذلك الذهب مما يكوى به في النار.

يابن النعمان إنّ المذيع ليس كقاتلنا بسيفه بل هو أعظم وزراً، بل هو أعظم وزراً، بل هو أعظم وزراً. يابن النعمان إنّه من روى علينا حديثاً[2] فهو ممّن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ.

يابن النعمان إذا كانت دولة الظلم فامش واستقبل من تتّقيه بالتحيّة، فإنّ المتعرّض للدولة قاتل نفسه وموبقها إنّ الله يقول: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[3].

يابن النعمان إنّا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منّا ولا من أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذّب علينا وكلّما ذهب واحد جاء آخر.

يابن النعمان من سئل عن علم فقال: لا أدري فقد ناصف العلم والمؤمن يحقد ما دام في مجلسه، فإذا قام ذهب عنه الحقد.

يابن النعمان إنّ العالم لا يقدر أن يخبرك بكلّ ما يعلم، لأنّه سرّ الله الذي أسرّه إلى جبرئيل عليه السلام وأسرّه جبرئيل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسرّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ عليه السلام وأسرّه علي

---

١. في بعض النسخ: المترئّسون.

٢. في بعض النسخ: روى علينا حديثنا.

٣. البقرة: ١٩٥.

عليّ عليه السلام وأسرّه علي عليه السلام إلى الحسن عليه السلام وأسرّه الحسن عليه السلام إلى الحسين عليه السلام وأسرّه الحسين عليه السلام إلى عـلـيّ عليه السلام وأسرّه علي عليه السلام إلي محمّد عليه السلام وأسرّه محمد عليه السلام إلى من أسرّه، فلا تعجلوا فوالله لقد قرب هذا الأمر ثلاث مرّات فأذعتموه، فأخّره الله، والله ما لكم سرّ إلّا وعدوّكم أعلم به منكم.

يابن النعمان إبق على نفسك فقد عصيتني، لا تذع سرّي، فإنّ المغيرة بن سعيد كذب على أبي وأذاع سرّه فأذاقه الله حرّ الحديد. وإنّ أبا الخطّاب كذب عليّ وأذاع سرّي فأذاقه الله حرّ الحديد. ومن كتم أمرنا زيّنه الله به في الدنيا والآخرة وأعطاه حظّه ووقاه حرّ الحديد وضيق المحابس.

إنّ بني إسرائيل قحطوا حتى هلكت المواشي والنسل فدعا الله موسى بن عمران عليه السلام فقال: يا موسى إنهم أظهروا الزنا والربا وعمروا الكنائس وأضاعوا الزكاة، فقال: إلهي تحنّن برحمتك عليهم فإنّهم لا يعقلون، فأوحى الله إليه: إني مرسل قطر السماء ومختبرهم بعد أربعين يوماً فأذاعوا ذلك وأفشوه، فحبس عنهم القطر أربعين سنة وأنتم قد قرب أمركم فأذعتموه في مجالسكم.

يا أبا جعفر ما لكم وللناس كفّوا عن الناس ولا تدعوا أحداً إلى هذا الأمر فوالله لو أنّ أهل السماوات [والأرض] اجتمعوا على أن يضلّوا عبداً يريد الله هداه ما استطاعوا أن يضلّوه. كفّوا عن الناس ولايقل أحدكم: أخي وعمي وجاري، فإنّ الله جلّ وعزّ إذا أراد بعبد خيراً طيّب روحه فلا يسمع معروفاً إلّا عرفه ولا منكراً إلّا أنكره، ثم قذف الله في قلبه كلمة يجمع بها أمره.

يابن النعمان إن أردت أن يصفو لك ودّ أخيك فلا تمازحنّه ولا تمارينّه ولا تباهينّه ولا تشارنّه ولا تطلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطّلع عليه عدوّك لم يضرّك فإنّ الصديق قد يكون عدوّك يوماً.

يابن النعمان لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث سنن: سنة من الله وسنة من رسوله وسنّة من الإمام. فأما السنّة من الله جلّ وعزّ فهو أن يكون كتوماً للأسرار يقول الله

جلّ ذكره: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾[١]، وأما الّتي من رسول الله ﷺ فهو أن يداري الناس ويعاملهم بأخلاق الحنيفية، وأما التي من الإمام فالصبر في البأساء والضرّاء حتى يأتيه الله بالفرج. يابن النعمان ليست البلاغة بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنّها إصابة المعنى وقصد الحجّة.

يابن النعمان من قعد إلى سابّ أولياء الله فقد عصى الله، ومن كظم غيظاً فينا لا يقدر على إمضائه كان معنا في السنام الأعلى ومن استفتح نهاره بإذاعة سرّنا سلّط الله عليه حرّ الحديد وضيق المحابس.

يابن النعمان لا تطلب العلم لثلاث: لترائي به ولا لتباهي [به] ولا لتماري، ولا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل، وزهادة في العلم، واستحياء من الناس والعلم [الـ] مصون كالسراج المطبق عليه.

يابن النعمان إنّ الله جلّ وعز إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة بيضاء فجال القلب بطلب الحق، ثم هو إلى أمركم أسرع من الطير إلى وكره.

يابن النعمان إنّ حبّنا أهل البيت ينزّله الله من السماء من خزائن تحت العرش كخزائن الذهب والفضّة ولا ينزّله إلّا بقدر، ولا يعطيه إلّا خير الخلق وإنّ له غمامة كغمامة القطر فإذا أراد الله أن يخصّ به من أحبّ من خلقه أذن لتلك الغمامة فتهطّلت كما تهطّل السحاب فتصيب الجنين في بطن أمّه[٢].

وفي هذه الوصية لمؤمن الطاق ـ المعروف بقوّة مجادلته مع أهل الخلاف حتى أنّهم عجزوا عن منازلته وكانوا يلقّبونه بشيطان الطاق ـ يبيّن أنّهم عليهم السلام يتشدّدون في تحريم الإذاعة والإفشاء وكشف أسرار المعارف ومكنون علمهم، وأنّ هناك جملة من النقاط تشهد في هذه الوصية لما قدّمناه من معنى الغلوّ والكذب وإنّ شطط المغيرة وأبي الخطاب هو إذاعتهما للأسرار:

---

١. الجن: ٢٦.

٢. تحف العقول: ٣٠٧، بحار الأنوار ٧٨ / ٢٨٦ ـ ٢٩٢.

الأولى: قوله عليه السلام: يابن النعمان إنّي لأحدث الرجل منكم بحديث فيتحدّث به عنّي فاستحلّ بذلك لعنته والبراءة منه.

وهذا يبيّن أنّ من صدر في حقّه اللعن منهم أو أمروا شيعتهم بالبراءة منه لا يستلزم أن يكون ما حدّث عنهم مخالفاً للواقع، وأنّ لعنه بسبب مخالفته للتقية وإضراره بهم كالشاهر بسيفه عليهم كما أشير إلى ذلك في صدر الوصية، وأنّ الأمر بالبراءة منه لأجل التقية ولئلا يضرّ بهم وبشيعتهم، ولأجل أن لا يفشو وينتشر الحديث الذي أفشاه وأذاعه.

الثانية: قوله عليه السلام: يابن النعمان إياك والمراء ... وإياك والجدال ... وإياك وكثرة الخصومات يشير إلى أنّ جملة ممن يفرط في إذاعة مكتوم علمهم إنما وقع لأجل حبّ الغلبة وقد استثاره جوّ الخصام، كما أنّ قوله عليه السلام: إنّ أبغضكم إليّ المتراسون (المترئسون) يبيّن أنّ الداعي لإفشاء الحديث هو حبّ الظهور وحبّ الرئاسة نظير قوله عليه السلام: يابن النعمان إنّا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منّا ولا من أهل ديننا فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذّب علينا وكلّما ذهب واحد جاء آخر.

الثالثة: قوله عليه السلام: يابن النعمان إنّ العالم لا يقدر أن يخبرك بكلّ ما يعلم لأنّه سر الله إلى قوله عليه السلام: والله ما لكم سرّ إلّا وعدوّكم أعلم به منكم.

يدلّ على أنّ هناك شطر كبير من الحقيقة لا يمكن إفشاؤه وإذاعته لأنّ الناس لا يتحمّلون وعيه وفهمه، من دون أن يكون ذلك العلم المكنون بالحقيقة فيه شيء من الزيغ أو الباطل لكنّ الناس حيث لا قابلية لهم في إدراكه على الوجه الصحيح يتأوّلونه على الوجه الباطل.

الرابعة: قوله عليه السلام: يابن النعمان ابق على نفسك فقد عصيتني، لا تذع سرّي، فإنّ المغيرة بن سعيد كذب على أبي وأذاع سرّه فأذاقه الله حرّ الحديد، وإنّ أبا الخطّاب كذب عليّ وأذاع سرّي فأذاقه الله حرّ الحديد، ومن كتم أمرنا زيّنه الله به في الدنيا والآخرة وأعطاه حظّه ووقاه حرّ الحديد وضيق المحابس.

صريح في أنّ الكذب هو في إفشاء ما ينبغي كتمانه، وأنّ استعمال الكذب في هذا المعنى نظير ما في قوله تعالى: ﴿ءالله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[١] حيث تبيّن أنّ ما لم يؤذن بإعلانه والتصريح به يكون فرية، لأنّه تقمّص صلاحية خاصّة في النطق الرسمي وهو ليس بأهل لها، وإنّما تقمّصها وادّعاها فيكون كاذباً بذلك. كما أنّه صريح في أنّ رؤوس الغلاة غلوّهم هو إفراطهم في الإفشاء والإعلان لما ينبغي كتمانه وإن تأوّله المخالفون بالباطل وبادعاء الألوهية والنبوة.

ونظير ذلك ورد في المعلى بن خنيس أنّه قتل وذاق حرّ الحديد لأنّه أذاع سرّهم مع صلاح حاله.

وتحذيره عليه السلام مؤمن الطاق عن أن يكون مثل المغيرة وأبي الخطّاب إنّما هو فيما يزجره عليه السلام مراراً عن إذاعة السرّ وإعلان وإفشاء مكتوم علمهم.

الخامسة: قوله عليه السلام: إنّ بني إسرائيل قحطوا حتى هلكت المواشي والنسل فدعا الله موسى بن عمران عليه السلام فقال: يا موسى ... وأنتم قد قرب أمركم فأذعتموه في مجالسكم.

وهذه الفقرة من كلامه عليه السلام تؤكّد الجهة الأصلية التي صيغت لها الوصية وهي ما تسبّبه الإذاعة والإفشاء وكشف الأسرار من مخاطر وآثار سلبية تؤدّي إلى النقمة الإلهية والمعاجلة بالحوبة، كما تشير إليه الآية الكريمة التي أشار عليه السلام إليها في صدر كلامه: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾[٢] حيث تدل على أنّ هناك من الأمور إذاعتها مما يمسّ بالأمن عموماً ويسبّب وقوع ما يحذر منه.

ومثّل عليه السلام لذلك بما وقع في بني إسرائيل عندما أصابهم القحط بسبب المعاصي فدعا نبي الله موسى بن عمران ربّه ليعفو عنهم ذلك فواعده الله تعالى بالإجابة بعد أربعين يوماً، فقام بنو إسرائيل بإذاعة هذا الوعد الإلهي وهو مما يسبّب الإغراء بأهل المعاصي ويمدّهم في غيّهم، لأن من يأمن العقوبة يسيء

---

١. يونس: ٥٩.

٢. النساء: ٨٣.

الأدب، فإذاعة هذا الوعد الإلهي سبب مثل هذه التداعيات السلبية فسبّب ذلك أن حبس الله عنهم القطر أربعين سنة وهذا من تداعيات الإذاعة والإفشاء للأسرار الإلهية التي يسوس الله عزوجل بها عباده.

ثمّ ذكر عليه السلام أنّ قيام دولتهم عليهم السلام وهو مما يعبّر عنه بالظهور أو دولة الرجعة قد قدّر الله عزوجل قرب وقوع قيامها وفي بعض الروايات عدّة مرات إلّا أنّ الشيعة أفشت وأذاعت ذلك مما سبّب إفشال ذلك التوقيت.

ويؤكّد ذلك في قوله عليه السلام: ما لكم وللناس كفّوا عن الناس ولا تدعوا أحداً إلى هذا الأمر وقوله عليه السلام: ولا تطلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطلع عليها عدوّك لم يضرّك وقوله عليه السلام: لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث سنن: سنة من الله وسنة من رسوله وسنة من الإمام فأما السنة من الله جلّ وعز فهو أن يكون كتوماً للأسرار يقول الله جل ذكره: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾.

السادسة: بيانه عليه السلام لدواعي الغلو بالمعنى الثاني والثالث وهو ما مرّ من قوله عليه السلام: كفّوا عن الناس ولا تدعوا أحداً إلى هذا الأمر فوالله لو أنّ أهل السماوات والأرض اجتمعوا على أن يضلّوا عبداً يريد الله هداه ما استطاعوا أن يضلّوه ... وهذا بيان لأحد أسباب الإذاعة والإفشاء وهو الحرص على هداية الناس ودعوتهم إلى الحق، فأراد عليه السلام أن يبيّن أنّ الشدّة في الحرص على أداء هذه المسؤولية يؤدّي إلى الإفراط بوظائف ومسؤوليات أخرى والتي منها التقيّة والحذر من كيد الأعداء واطّلاعهم على جملة من الأمور يوطّد لهم الكيد والإضرار بمدرسة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم.

ومثل ذلك قوله عليه السلام في السنن التي ينبغي أن تكون في المؤمن: وأما التي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أن يداري الناس ويعاملهم بالأخلاق الحنيفية وأما التي من الإمام فالصبر في البأساء والضراء حتى يأتيه الله بالفرج وقوله عليه السلام: يابن النعمان ليست البلاغة بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنّها إصابة المعنى وقصد الحجّة وفي كلامه عليه السلام هذا

تأكيد على لزوم مراعاة المداراة مع أهل الخلاف والتعامل معهم بالأخلاق ولزوم اعتماد رباطة الجأش واعتماد الحكمة في التدبير وعدم الاستشاطة بإغاظة وإثارة من قبل الطرف الآخر.

وقوله عليه السلام أيضاً: من كظم غيظاً فينا لا يقدر على إمضائه كان معنا في السنام الأعلى ومن استفتح نهاره بإذاعة سرّنا سلّط الله عليه حرّ الحديد وضيق المحابس.

وكذا ما في ذيل وصيته عليه السلام من قوله: إنّ الله جلّ وعزّ إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة بيضاء فجال القلب بطلب الحق ثم هو إلى أمركم أسرع من الطير إلى وكره يابن النعمان إنّ حبنا أهل البيت ينزّله الله من السماء ... ولا يعطيه إلّا خير الخلق.

وهذه التوصيات المتعددة كلّها لتهدئة أسباب الإفراط والغلو في كيفية الدعوة إلى الحق وهداية الناس وإفشاء المكنون من علومهم وحقائق معارفهم.

نماذج من سلبيات الإذاعة

ولنذكر هنا بعض النماذج من سلبيات الإذاعة التي قام بها أولئك الفرق ممّا أثّر في انحراف الناس وزيغهم عن الصراط المستقيم:

■ اتهام العامّة المختار وجملة بأنّهم يدّعون النبوة بسبب إذاعتهم للأسرار وادعائهم النيابة الخاصّة والإلهام فيها

قال في البدء والتاريخ: «وادعى النبوة من أهل الكوفة جماعة منهم المختار بن عبيد كتب إلى الأحنف بن قيس: بلغني أنكم تكذبونني ولئن كذبتموني فقد كذبت الأنبياء قبلي ولست خيراً من كثير منهم. قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه فقال: صدق وحي الشيطان.

وكان منهم أبو منصور الخناق وكان يتولى سبعة أنبياء من بني قريش وسبعة من بني عجل.

وكان منهم المغيرة بن سعيد وسأله رجل عن أمير المؤمنين علي فقال: لا تحتمله قال: بل أحتمله قال: فذكر آدم ومن دونه من الأنبياء فلم يذكر أحداً منهم

إلّا فضل علياً رضي الله عنه حتى انتهى إلى النبي ﷺ فقال: فقلت: كذبت، قال: قد أخبرتك أنك لا تحتمل[١].

قد أشرنا في غير موضع أن حجم الطعون التي ذكرها العامّة على المختار والمغيرة وأمثالهما كانت بسبب عدّة عوامل أبرزها قصور العامّة عن فهم معارف أهل البيت، وثانيها تطرّف هؤلاء في إذاعة الأسرار والجهار بالبراءة من الشيخين وثالثها ادعاء الكاذب لهؤلاء بالنيابة الخاصّة وهي عبارة عن ارتباط الهامي مع المعصوم مضافاً إلى تفشّي بعض الانحرافات لدى أتباع هؤلاء مما كرّس طعن العامّة عليهم.

ومما يشير إلى ذلك ما رواه الكشي عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس كان رسول الله ﷺ أصدق البريّة لهجة وكان مسيلمة يكذب عليه وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ الله من بعد رسول الله ﷺ وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه بما يفتري عليه من الكذب عبد الله بن سبأ لعنه الله وكان أبو عبد الله الحسين ابن علي عليه السلام قد ابتلي بالمختار ـ ثم ذكر أبو عبد الله الحارث الشامي وبيان فقال: كانا يكذبان على علي بن الحسين عليه السلام ثم ذكر المغيرة بن سعيد وبزيعاً والسري وأبا الخطّاب ومعمّراً وبشّاراً الأشعري وحمزة البربري وصائد النهدي فقال: لعنهم الله إنا لا نخلو من كذّاب أو عاجز الرأي كفانا الله مؤونة كلّ كذّاب وأذاقهم حرّ الحديد[٢].

والجامع بين هؤلاء هو إذاعتهم لأسرار أهل البيت وكذبهم في ادعاء النيابة الخاصة وخطأهم في التأويل بقصورهم عن درك كنه المعارف كما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: عاجز الرأي. وقد مرّ أنّ ذوق حرّ الحديد عقوبة تكوينيّة لإفشاء أسرار المعارف.

---

١. البدء والتاريخ ٥ / ١٢٦.

٢. رجال الكشي / رقم ٥٤٩.

كما يظهر من هذا الحديث وجملة من الروايات أن مسيلمة الكذّاب لم يكن يدّعي النبوّة كما اشتهر في مصادر السنّة وإنما كان يدّعي مقاماً آخر كالنيابة الخاصّة ونحوها؛ ومن ثم عبّر عنه في تلك الروايات بأنه يكذب على النبي ولو كان يدّعي النبوّة لكان مكذّباً للنبي مما يدلّ على أنه كان يسند أقوالاً إلى سيد الأنبياء ويدّعي نحو ارتباط معه ﷺ، بل السنة أيضاً قد رووا أنه كان قد التقى مع النبي ﷺ في فترة استقامته وكان قد مدحه رسول الله ﷺ.

■ التفاف السفلة حول أبي الخطاب

فقد روى الكشي عن حمدويه قال: حدّثنا يعقوب بن يزيد عن العباس القصباني ابن عامر الكوفي عن المفضّل، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتّق السفلة واحذر السفلة، فإنّي نهيت أبا الخطاب فلم يقبل منّي[1].

وقال الصدوق: السفلة: من ادّعى الإمامة وليس بأهل[2] وفي بعض الروايات: متهتك جريء ليس ذا أخلاق جميلة. أي ذو أخلاق رذيلة.

وبعبارة أخرى: إن طلاب الرئاسة الدنيوية عن طريق الزعامة المعنوية أكثرهم يلتصقون بأصحاب المقامات العلمية المعرفية المعنوية كي يتسلقوا من خلالهم إلى الوجاهة بين الناس ثم يتفشى نشر جهالاتهم وأهوائهم بلباس مفاهيم ومعاني معرفية فيجرّ من التفوا حوله إلى المتاهات والورطات الانزلاقية.

وقد مرّ أن إذاعة أسرار المعارف هي التي تولّد للسفلة ثروتهم الأغلى في سبيل طموحاتهم وتسلّطهم على قلوب الناس ورقابهم.

■ وقوع التحريف في المقالات المنسوبة لأبي الخطّاب لقصور الفهم عنها

فقد روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن

---

١. رجال الكشي / ٣٦٣ / ح ٥٢٠.

٢. من لا يحضره الفقيه ٣ / ١٦٥.

أذينة عن زرارة قال: حدّثني أبو الخطّاب في أحسن ما يكون حالاً قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾[1] فقال: وإذا ذكر الله وحده بطاعة مَن أمَر الله بطاعته من آل محمّد اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّذين لم يأمر الله بطاعتهم إذا هم يستبشرون[2].

وطريق هذا الحديث من الصحيح الأعلائي، وهو يبيّن دقّة التأويل الذي فهمه وفطنه أبو الخطّاب من الإمام عليه السلام واستقامته بحسب الموازين إلّا أنّ حبيب الأحول بن المعلل الخثعمي ـ رغم جلالته ووثاقته وكونه صاحب أصل يرويه عنه ابن أبي عمير ـ قد صعب عليه فهم ذلك التأويل كما يشير إليه ما رواه الصفار.

فقد روى الصفار عن أحمد بن محمد عن العباس بن معروف عن الحجال عن حبيب الخثعمي قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام ما يقول أبو الخطّاب فقال: اذكر لي بعض ما يقول. قلت في قول الله عزّوجلّ: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت﴾ إلى آخر الآية يقول: ﴿إذا ذكر الله وحده﴾ أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ فلان وفلان فقال أبو عبد الله عليه السلام: من قال هذا فهو مشرك ـ ثلاثاً ـ أنا إلى الله منه بريء ـ ثلاثاً ـ بل عنى الله بذلك نفسه.

وأخبرته بالآية التي في حم ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم﴾[3] ثم قال: قلت: يعني بذلك أمير المؤمنين عليه السلام. قال أبو عبد الله عليه السلام: من قال هذا فهو مشرك ـ ثلاثاً ـ أنا إلى الله منه بريء ـ ثلاثاً ـ بل عنى بذلك نفسه بل عنى بذلك نفسه[4].

ويستفاد من هذه الأحاديث جملة من النقاط:

الأولى: أنّ زرارة بن أعين مع جلالته وعظم فقاهته كان يأخذ المعارف من

---

١. الزمر: ٥٥.

٢. الكافي ٨ / ٣٠٤ / ح ٤٧١، بحار الأنوار ٢٣ / ٣٦٨ / ح ٣٩.

٣. غافر: ١٢.

٤. بصائر الدرجات: ٥٥٦ ح ٤، بحار الأنوار ٢٤ / ٣٠٢ / ح ١٠.

أبي الخطّاب أيام استقامته ما كان يرويه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. وهذا يشير إلى تقدّم أبي الخطّاب في درجة المعرفة والحظوة أيام استقامته عند أبي عبد الله عليه السلام. مع أنّ زرارة لم يرو عن أبي بصير ولا أبان بن تغلب ولا بريد ولا عمار بن موسى الساباطي ولا أمثالهم من كبار أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام .

الثانية: أنّ هذه الصحيحة الأعلائي تثبت ما ذكره الشيخ الطوسي في العدة من أن الطائفة عملت بروايات أبي الخطاب أيام استقامته، رغم أن ما رواه أيام استقامته مما يصعب هضمه ويشتد إنكاره من قبل كثير من أجلّاء وفضلاء فقهاء الرواة كما نلاحظ من يحيى الخثعمي نموذجاً.

الثالثة: أن الكثير مما نسب إلى أبي الخطاب وأقواله في الرواية عنهم عليهم السلام من الشطط والزيغ في الاعتقاد، إنما هو ناتج عن انطباع خاطىء وعدم الدقّة فيما يرويه وغموض مروياته، مع أنها مستقيمة على الموازين الأوليّة والثوابت الاعتقاديّة لو تأمل فيها بعمق وأعملت اليقظة في إسناد الألفاظ ولطافة التركيب بقواعد النسبة في الظهور والتجلّي. فإنّ توحيد الله في مقام الطاعة يتجلّى في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام إذ الإمامة توحيد لله في مقام الولاية لأنّهم لا يشاؤون إلّا ما يشاء الله رب العالمين، كما أنّ النبوّة مظهر توحيد الله في التشريع.

الرابعة: أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يتّقون من إظهار صعاب المعارف أمام من لا يتحمّلها من الرواة وإن كان ذا فضيلة وجلالة قدر. ومن ذلك ينفتح باب للتدبّر في جملة من الموارد التي أنكروا عليهم السلام فيها بعض الأقوال أمام من لا يتحمّل.

ووجه هذا الإنكار أنّه بالدقّة ليس إنكاراً حقيقياً لذلك القول وما ينسب من الرواية إليهم من قبل رواة المعارف، بل هو إنكار لما انطبع بصورة خاطئة ومعكوسة لدى الراوي السائل من الروايات الغامضة في المعارف، كألوهية الأئمة ونبوّتهم وما شابه ذلك. فإن ما انطبع في ذهن السائل لم يقله الأئمة عليهم السلام ولم يقصدوه من الكلام الصادر عنهم.

وهذا ما أكّدنا عليه من أنّ جهة انحراف جملة من الرواة الذين طعن عليهم بالغلو ليس هو قولهم وروايتهم للمقالات الفاسدة في الاعتقاد، بل منشأ انحرافهم هو إذاعتهم وإفشائهم لمعارف ثقيلة لمن لا يتحمّل إدراكها وتصوّرها بصورة صحيحة سليمة بعيدة عن الانحراف والزيغ، فتنطبع في أذهان آخرين بشكل منحرف فتزيغ بهم إلى الضلال. ومن ثمّ كان التركيز في ذمّهم من الأئمة عليهم السلام على الإذاعة والإفشاء، وإنّ هذا نمط من الكذب على الأئمة عليهم السلام لأنّ إذاعة تلك المطالب العلميّة يسبّب في وصولها إلى أذهان الآخرين بصورة مقلوبة معكوسة في حين أنّها منسوبة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام فتكون كذباً عليهم. فالإذاعة تسبب الكذب عليهم. وقد مرّ بيان أنه أحد أقسام الكذب.

الخامسة: ثمّ إن البراءة واللعن منهم عليهم السلام تقديراً لإدانة ذلك قد يصدر الانطباع الخاطئ لدى السامع وأنّ إبطال المقالة الفاسدة المزعومة نسبتها إلى ذلك الشخص أهم من تبرئته عنها. وقد مرّ نماذج قرآنية لهذا الأسلوب من الإدانة والإنكار.

المؤاخذة الثانية: تركهم التقية وإفراطهم في الجهار بالبراءة من الخلفاء

ففي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد يروي عن كثير النوال[١] قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: جعلني الله فداك أرأيت أبا بكر وعمر هل ظلماكم من حقّكم شيئاً ـ أو قال: ذهبا من حقّكم بشيء ـ؟ فقال: لا والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ما ظُلمنا من حقنا مثقال حبّة من خردل قلت: جعلت فداك أفأتولّاهما؟ قال: نعم ويحك تولّهما في الدنيا والآخرة وما أصابك ففي عنقي ثم قال: فعل الله بالمغيرة وبنان فإنّهما كذبا علينا أهل البيت[٢].

أقول: فإنّ الإمام عليه السلام ـ في هذه الرواية ـ ورّى في كلامه بحيث لا يفهمه السائل فنفى عنهم عليهم السلام الظلم بصيغة المجهول، والمراد أنّ أبا بكر وعمر وغيرهما لا يستطيعون أن ينفوهم عن مقامهم الملكوتي وإمامتهم الإلهية مثقال حبّة من خردل، فكما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نذير للعالمين فكل من العترة إمام ووليّ وخليفة على العالمين ولا يضرّهم بذلك كيد المشركين والمنافقين.

ثم أجاب الإمام عليه السلام ثانياً بقوله: تولّهما والمراد منه التولّي والإدبار عنهما في الدنيا والآخرة.

ثم عقّب عليه السلام كلامه بما يوهم اللعن على المغيرة وبنان وهذا يدل على أنّ انطباع أوساط العامة بل الزيدية ـ حيث إنّ السائل بتري ـ حول موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا يتبرؤون من غاصبي الخلافة، وذلك بسبب إفشاء المغيرة

---

١. هكذا في شرح ابن أبي الحديد لكن الصحيح النوّاء.

٢. شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٢٠.

وبنان البراءة من الخلفاء جهاراً. فإنهما أشاعا في تلك الأوساط مخالفة العترة الطاهرة لخلافة السقيفة ومن أجل هذا عقّب عليه السلام كلامه بذمّهما من دون أن يسبق ذكر لهما في كلام السائل حيث كان ذلك معروفاً ومرتكزاً لديهم من أنّ المغيرة وبنان هما اللذان نشرا على أهل البيت تبريهم من الخلفاء ومخالفتهم لهم.

ومن هنا يعلم أنّ تكذيب الإمام عليه السلام إياهما هنا وفي سائر الموارد ليس بمعناه الذي قد ينسبق إلى الذهن من أنهما نسبا إلى الإمام ما لم يقله، بل يحمل على المعاني الأخر للكذب الذي أوضحناه والتي منها إذاعة الأسرار بملاحظة أنّ هذه الإذاعة فعل باطل وغير صائب؛ أو بمعنى أنّهم عليهم السلام لم يلتزموا بنشر هذه المعارف، وهم بإذاعتهم عنهم للأسرار ينسبون لهم التزاماً بالتزام الأئمة عليهم السلام بنشرها وتأييدهم لذلك فيكذّبون على الأئمة عليهم السلام في هذا المدلول الالتزامي.

بل يمكن حملها على وجوه أخر كالتقيّة وغيرها، كما فعلوا ذلك في أمثال زرارة صوناً لهم عن الأعداء، وذلك بملاحظة أنّ تبيين موقف الأئمة عليهم السلام تجاه غاصبي الخلافة أمر هام لابدّ منه لدى شيعتهم ولابد من معرفتهم هذه الحقائق وتوعيتهم بأنّ أهل البيت مخالفون لمسار الخلافة.

وكان لمثل المغيرة وبنان نصيباً كبيراً في القيام بهذا الدور المهم.

ثم إنّ كثير النوّال المذكور في شرح نهج البلاغة هو كثير النوّاء وهو زيدي بتري كوفي عامي كما ذكره الشيخ في رجاله[١]، والرجل كان ينهج منهج البترية، وهي ظاهرة ومنهجية تكررت في التاريخ وتتكرر، وهي تعتمد على التلفيق والمزيج من المشارب المختلفة، وكان منحرفاً عن أهل البيت عليهم السلام، وكان يتحامل عليهم عليهم السلام ويصادمهم، كما روى الكشي عن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: اللهم إنّي إليك من كثير النوا بريء في الدنيا والآخرة[٢].

١. وقد روى في المستطرفات لابن إدريس عن أبان أنه سأل عنه في الكوفة فوجد أنه ولد لغية.
٢. رجال الكشي: الرقم ٤٤٠.

وروى محمد بن يحيى قال: قلت لكثير النوا: ما أشدّ استخفافك بأبي جعفر عليه السلام؟ قال: لأنّي سمعت منه شيئاً لا أحبه أبداً سمعته يقول: إنّ الأرض السبع تفتح لمحمد وعترته[١].

وروى أيضاً عن أبي بصير قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ جاءت أم خالد التي كان قطعها يوسف تستأذن عليه قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيسرك أن تشهد كلامها؟ قال: فقلت: نعم، جعلت فداك فقال: أما الآن فادن قال: فأجلسني على عقبة الطنفسة ثم دخلت فتكلّمت فإذا هي امرأة بليغة فسألته عن فلان وفلان فقال لها: توليهما فقالت: فأقول لربّي إذا لقيته إنك أمرتني بولايتهما؟ قال: نعم قالت: فإن الذي معك على الطنفسة يأمرني بالبراءة منهما وكثير النوا يأمرني بولايتهما فأيّهما أحب إليك قال: هذا والله وأصحابه أحب إليّ من كثير النوا وأصحابه إن هذا يخاصم فيقول: ﴿من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[٢]، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[٣]، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[٤]. فلما خرجت قال: إنما خشيت أن تذهب فتخبر كثير النوا فتشهرني بالكوفة اللهم إني إليك من كثير النوا بريء في الدنيا والآخرة[٥].

وروى في الخرائج والجرائح عن داود بن كثير الرقي قال: كنت عند الصادق عليه السلام أنا وأبو الخطاب والمفضّل وأبو عبد الله البلخي إذ دخل علينا كثير النوّا فقال: إنّ أبا الخطاب هذا يشتم أبا بكر وعمر ويظهر البراءة منهما، فالتفت الصادق عليه السلام إلى أبي الخطّاب وقال: يا محمد ما تقول؟ قال: كذب والله ما سمع منّي

---

١. رجال الكشي: الرقم ٤٤٢.

٢. المائدة: ٤٤.

٣. المائدة: ٤٥.

٤. المائدة: ٤٧.

٥. رجال الكشي / الرقم ٤٤١، الخرائج والجرائح ١ / ٢٩٧.

قطّ شتمهما.

فقال الصادق عليه السلام: قد حلف ولا يحلف كاذباً فقال: صدق لم أسمع أنا منه ولكن حدّثني الثقة به عنه.

قال الصادق عليه السلام: وإنّ الثقة لا يبلّغ ذلك.

فلمّا خرج كثير قال الصادق عليه السلام: أما والله لئن كان أبو الخطاب ذكر ما قال كثير لقد علم من أمرهما ما لم يعلمه كثير والله لقد جلسا مجلس أمير المؤمنين عليه السلام غصباً فلا غفر الله لهما ولا عفا عنهما ...[١].

وفي البحار عن كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة عن أبي الخطّاب عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

والله ما كنّى الله في كتابه حتى قال: ﴿يا ويلتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً﴾[٢] وإنّما هي في مصحف علي عليه السلام يا ويلتي لم أتّخذ الثاني خليلاً وسيظهر يوماً[٣].

والرواية تبين استقرار ديدن أبي الخطّاب في أيام استقامته على التبرّي وتربية النخبة على ذلك.

وفي ميزان الاعتدال عن أبي معاوية، عن الأعمش، قال: أوّل من سمعته يتنقّص أبا بكر وعمر المغيرة المصلوب[٤].

وروى عن شبابة حدّثنا عبد الأعلى بن أبي المساور سمعت المغيرة بن سعيد الكذّاب يقول: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل﴾ علي ﴿والإحسان﴾ فاطمة ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ الحسن والحسين ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال: فلان أفحش الناس

---

١. الخرائج والجرائح ١ / ٢٩٧.

٢. الفرقان: ٢٨.

٣. بحار الأنوار ٢٤ / ١٨ / ح ٣١.

٤. ميزان الاعتدال ٤ / ١٦١.

والمنكر فلان[١].

وفي الكامل عن عبد الأعلى بن أبي المساور قال: سمعت المغيرة بن سعيد الكذاب يقول: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل﴾ علي بن أبي طالب ﴿والإحسان﴾ فاطمة، ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ الحسن والحسين، ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ كان أبو بكر من أفحش الناس، والمنكر عمر بن الخطاب كذب عليه لعنة الله[٢].

كان يقول: كيف الطريق إلى بنو حرام[٣].

وقال البلاذري: «حدثني الحسين بن علي بن الأسود عن يحيى بن آدم عن عبد الله بن إدريس عن جار له قال: سمعت مغيرة بن سعيد يقول: مات عثمان بن عفان وهو يعبد سبعة آلهة، فأخبر خالد بن عبد الله بذلك فأرسل إليه فأخذه فاعترضته فقلت: في أيّ شيء أخذت؟ قال: لا أدري إلّا أن يكون حميمات لابني»[٤].

وهذه الروايات تبيّن بوضوح أنّ طعن العامّة على بنان والمغيرة بن سعيد وأبي الخطّاب هو لإفراط مجاهرتهم بتخطئة الشيخين ونقدهما، وأنّ تبرّي الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام من بنان والمغيرة وأبي الخطاب كان من أسبابه معالجة الموقف الحرج والإرباك الأمني الذي أحدثه تيّار الثلاثة للأئمة أمام السلطة وعلماء العامّة، وأنّ نهج هؤلاء الثلاثة المتسرّع في إظهار النقد والتخطئة بمنهج السقيفة هو على حذو التأكيد على عقيدة النصّ الإلهي.

والإجهار بذلك وبمقام الخلافة والإمامة الإلهيّة لأهل البيت عليهم السلام من دون مراعاة التأهيل والأرضية والتدريج والإعداد يشابه الاندفاع والتسرّع الذي كان عند

---

١. ميزان الاعتدال ٤ / ١٦٠.
٢. الكامل في ضعفاء الرجال ٦ / ٣٥٣.
٣. الكامل في ضعفاء الرجال ٦ / ٣٥٣.
٤. أنساب الأشراف ٩ / ٧٦.

عبد الله بن سبأ ممّا فتح عليهم كيل الطعون والافتراءات، لا سيّما وأنّ ما يستدل به ويبثّ هؤلاء من بيانات في المعارف تنطبع في ذهنيّة أوساط العامّة بنحو إيهامي ملتبس إذ لم يعهدوا تفسير هذه المعاني على الوجه الصحيح.

وعلى أيّ تقدير فهذا التيار كان في تجاذب شديد مع تيّار البترية التلفيقي المزيجي.

المؤاخذة الثالثة: الخطأ في التأويل دون الجعل

وهو العمدة في زلل جملة من فرق الشيعة وامتيازهم على أهل الخلاف فإنّ الملحوظ في موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام تجاه جملة من الجماعات والفرق الشيعية التي تزلّ وتنزلق في بعض المسائل الاعتقادية:

أولاً: أنهم عليهم السلام لا يحكمون عليهم بحكم أهل الخلاف وفرق العامة بل يفرّقون في الحكم عليهم ويميّزوهم عنهم.

وبعبارة أخرى: إنهم عليهم السلام يعتدّون بالمساحة المشتركة مع تلك الفرق فيما تقرّ به من ثوابت وقواعد مدرسة أهل البيت عليهم السلام وإجمال ولايتهم، فلا يساوون في كيفية التعامل ودرجة العلاقة والارتباط بين فرق الشيعة وفرق العامّة، بل إنّ الملحوظ منهم عليهم السلام التمييز بين فرق الشيعة في درجات قربها وبعدها من الاستقامة، وكذلك الحال فيما بين الفرق العامّة، فترى أنّ تعاملهم مع البتريّة ـ رغم أنهم يعدّونهم من فرق العامّة ولا يدرجونهم في فرق الشيعة ـ يمتاز في الدرجة عن تعاملهم عليهم السلام عن بقيّة فرق العامة.

والحاصل أنّ مجرّد تخطئة بعض الفرق في شيعتهم عليهم السلام فضلاً عن بعض التيّارات من أتباعهم، لا يعني تخطئة كل ما لدى تلك الفرقة أو ذلك التيّار وإسقاط اعتبار كل ما لديهم، بل منهاجهم قائم على التمييز بين الصحيح والخطأ في ما لدى تلك الفرقة أو التيّار، وسيأتي لهذه الضابطة شواهد عديدة.

ثانياً: أن تخطئتهم عليهم السلام وتكذيبهم لجملة من تلك الفرق والتيّارات ليس بالحكم عليهم بالوضع والجعل والاختلاق، بل التخطئة والتكذيب هو بلحاظ الخطأ في التأويل وقصور وسوء الفهم وقلّة العلم والجهالة وهذا معنى من معاني

الكذب والغلو كما بيّناه سابقاً.

بينما يتوهّم كثير من أرباب الجرح والتعديل أو أصحاب كتب الملل والنحل أنّ تكذيبهم بمعنى نسبة الجعل والوضع إلى تلك الجماعة والفرقة والتيّار، وسيأتي شواهد عديدة على كون التكذيب والتخطئة هو في التأويل والفهم لا في روايات تلك الجماعات والفرق والتيارات الشيعية ونقلهم. ولا يخفى الفرق الكبير بين النمطين من التكذيب فإنّ النمط الأول لا يسقط حجّية الرواية بخلاف النمط الثاني.

والشواهد على ما تقدّم:

● **ما ورد في الواقفية**

ففي قرب الإسناد في مكاتبة أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي قال: كتبت إلى الرضا عليه السلام: إنّي رجل من أهل الكوفة وأنا وأهل بيتي ندين الله عزوجل بطاعتكم وقد أحببت لقاءك لأسألك عن ديني وأشياء جاء بها قوم عنك بحجج يحتجّون بها عليّ فيك، وهم الذين يزعمون أنّ أباك صلى الله عليه حيّ في الدنيا لم يمت يقيناً ... فكتب الإمام عليه السلام: ... وقال أبو جعفر عليه السلام: «من سرّه أن لا يكون بينه وبين الله حجاب حتى ينظر إلى الله وينظر الله إليه، فليتولّ آل محمد ويبرأ من عدوّهم ويأتمّ بالإمام منهم، فإنه إذا كان كذلك نظر الله إليه ونظر إلى الله»، ولولا ما قال أبو جعفر عليه السلام حين يقول: «لا تعجلوا على شيعتنا، إن تزل قدم تثبت أخرى» وقال: «من لك بأخيك كلّه»، لكان منّي من القول في ابن أبي حمزة وابن السراج وأصحاب ابن أبي حمزة.

أما ابن السرّاج فإنما دعاه إلى مخالفتنا والخروج عن أمرنا، أنه عدا على مال لأبي الحسن صلوات الله عليه عظيم فاقتطعه في حياة أبي الحسن وكابرني عليه وأبى أن يدفعه، والناس كلّهم مسلمون مجتمعون على تسليمهم الأشياء كلّها إليّ، فلما حدث ما حدث من هلاك أبي الحسن صلوات الله عليه اغتنم فراق علي بن أبي حمزة وأصحابه إيّاي وتعلّل، ولعمري ما به من علّة إلّا اقتطاعه المال وذهابه به.

وأما ابن أبي حمزة فإنه رجل تأوّل تأويلاً لم يحسنه ولم يؤت علمه فألقاه إلى الناس فلجّ فيه، وكره إكذاب نفسه في إبطال قوله بأحاديث تأوّلها ولم يحسن تأويلها ولم يؤت علمها، ورأى أنه إذا لم يصدق آبائي بذلك لم يدر لعل ما خبر عنه مثل السفياني وغيره أنه كائن لا يكون منه شيء، وقال لهم: ليس يسقط قول آبائه بشيء. ولعمري ما يسقط قول آبائي شيء ولكن قصر علمه عن غايات ذلك وحقائقه، فصار فتنة له وشبّه عليه وفرّ من أمر فوقع فيه. وقال أبو جعفر عليه السلام: «من زعم أنه قد فرغ من الأمر فقد كذب لأنّ لله عزّوجل المشيئة في خلقه يحدث ما يشاء ويفعل ما يريد».

وقال: ﴿ذريّة بعضها من بعض﴾[1] فآخرها من أوّلها وأوّلها من آخرها فإذا أخبر عنها بشيء منها بعينه أنه كائن، فكان في غيره منه فقد وقع الخبر على ما أخبر. أليس في أيديهم أنّ أبا عبد الله عليه السلام قال: «إذا قيل في المرء شيء لم يكن فيه ثم كان في ولده من بعده فقد كان فيه»[2].

ويستفاد من هذا الحديث أمور:

الأمر الأول: أنّه عليه السلام رغم ما ورد عنهم أن من أنكر أحدهم كان كمن أنكر جميعهم في الخروج من الإيمان ـ وهذه القاعدة متواترة عنهم عليهم السلام مبرهنة بأحاديث أخرى متواترة كـ«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» وغيرها من قواعد معرفة الإمامة في القرآن والسنّة القطعية ـ ورغم اللعن الصادر في رؤساء الواقفية والواقفة وفي ابن أبي حمزة البطائني، إلّا أنه عليه السلام يدرجهم في عموم فرق الشيعة ويخالف في حكمهم عن فرق المخالفين، ولذا استشهد عليه السلام بقول أبي جعفر: لا تعجلوا على شيعتنا... وأنه لولا ذلك لحكم عليه السلام فيهم بأشدّ من ذلك.

الأمر الثاني: أنّ منشأ انحراف ابن أبي حمزة البطائني جهالته في تأويل أحاديث سمعها عن الأئمة السابقين ولم يدر حقيقتها ومآل معانيها، فافتتن

---

١. آل عمرآن: ٣٤.

٢. قرب الإسناد / ٥٣١ ح ١٢٦٠ .

بمداليها واشتبه عليه واقع الأمر، ولعلّه عليه السلام يشير إلى ما ورد عنهم عليهم السلام أنّه قد قدّر موسى بن جعفر عليه السلام أن يكون مهدي هذه الأمة كما قد قدّر في الحسين عليه السلام مثل ذلك، إلّا أنه بدا لله تعالى في ذلك لتخاذل الشيعة، ثم قدّر أن يكون جعفر بن محمد الصادق كما في رواية أخرى، لكنّه بدا لله أيضاً ثم قدّر في موسى بن جعفر ولكنه بدا لله أيضاً ذلك، لأنّ هذه التقادير لم تكن تقادير حتم بل تقادير ممّا لله فيها المشيئة. وهذه التقادير لا تنافي النصّ على الاثني عشر لأنّ المراد من المهديّ في هذه الأحاديث هو من تبدأ على يديه دولة الأئمة التي ليس بعدها دولة ممّا أطلق عليها بدولة الرجعة.

ولا ينافي هذه التقادير أن تقدير الحتم عند الله عزوجل في الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف أنّه الذي يملأ الله على يديه الأرض قسطاً وعدلاً ويكون هو أول من يقيم دولة الرجعة لهم عليهم السلام .

فمراتب القضاء والقدر ومراتب الحتم والإبرام واختلاف المشيّة هي من القواعد المعرفيّة الغامضة في معارف الدين، كما أنّ ارتباط المعارف بسلسلة ومنظومة من القواعد والسنن الإلهية التكوينية أمر بالغ السعة والانتشار لا يهتدى إليه إلّا بتعليم منهم عليهم السلام كي ينجو الباحث من المتشابه والزلل والزيغ في استنتاج ما تؤول إليه غايات الدلائل.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّ هناك أسباباً أخرى دعت ابن أبي حمزة وتدعو أمثاله للانحراف، منها اللجاج والعناد، ومنها العزّة بالإثم أي اختيار النار ولا العار، أي يرى أنّ عزّته تحفظ بالتمادي في الإثم وأنها أفضل من الافتضاح في العاجل مع التوبة، ومنها توهّم التنافي بين كلمات وأحاديث الأئمة عليهم السلام وتقديم بعضها والتكذيب بالبعض الآخر لتوهّم التنافي بينها والجهل بصيغة التوليف بينها.

الأمر الثالث: أنّ بعض من ينحرف من تيّارات الشيعة إنما هو بسبب الأطماع الدنيوية.

● تشويش بعض المعارف في فهم أبي الخطّاب وهلاكه في عدم الفرق بين النبي و المحدّث

روى الكليني عن محمد عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن زياد بن سوقة عن الحكم بن عتيبة قال:

دخلت على علي بن الحسين عليه السلام يوماً فقال: يا حكم هل تدري الآية التي كان علي بن أبي طالب عليه السلام يعرف قاتله بها ويعرف بها الأمور العظام التي كان يحدّث بها الناس. قال الحكم: فقلت في نفسي قد وقعتُ على علم من علم علي بن الحسين أعلمُ بذلك تلك الأمور العظام. قال: فقلت: لا والله لا أُعلم. قال: ثم قلت الآية تخبرني بها يابن رسول الله؟ قال: هو والله قول الله عزّ ذكره: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث﴾ وكان علي بن أبي طالب عليه السلام محدّثاً. فقال له رجل يقال له عبد الله بن زيد كان أخا علي لأمّه: سبحان الله محدّثاً كأنّه ينكر ذلك. فأقبل علينا أبو جعفر عليه السلام فقال: أما والله إنّ ابن أمّك بعد قد كان يعرف ذلك. قال: فلمّا قال ذلك سكت الرجل، فقال: هي التي هلك فيها أبو الخطّاب فلم يدر ما تأويل المحدّث والنبيّ[1].

والرواية تشير أيضاً إلى أنّ سبب انحراف أبي الخطّاب والخطّابيّة هو سوء الفهم والخطأ في التأويل وعدم معرفة حقائق كلامهم عليهم السلام، وهذه الرواية وما تأتي من روايات أخرى تعزّز ما مر من أنّ أحد أسباب الغلو ومعانيه هو الخطأ في التأويل.

وفي بصائر الدرجات عن عليّ بن حسّان عن موسى بن بكر عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أهل بيتي اثنا عشر محدّثاً فقال له عبد الله بن زيد كان أخا عليّ لأمّه: سبحان الله كان محدّثاً؟ كالمنكر لذلك فأقبل عليه أبو جعفر عليه السلام فقال: أما والله إنّ ابن أمّك بعد قد كان يعرف ذلك قال: فلمّا قال ذلك سكت

---

١. الكافي ١ / ٢٧٠ / باب أنّ الأئمة عليهم السلام محدّثون مفهّمون / ح ٢.

الرجل فقال أبو جعفر عليه السلام: هي الّتي هلك فيها أبو الخطّاب لم يدر تأويل المحدّث والنبي[١].

أقول: وهذا يدلّ على أنّهم حرّفوا جملة من أسرار المعارف عن حقيقتها لقصور في قابليتهم أو تحريف العامّة لجملة ممّا أذاعوا هؤلاء الأسرار لعدم ميز العامّة بين النبي والمحدّث، وبين الإلهام من الباري تعالى والإلهام من غيره تعالى، وإنّ كل ملهَم في زعم العامّة نبيّ وكلّ ملهِم هو الله تعالى.

وروى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن حمّاد بن عيسى عن الحسين بن مختار عن الحارث بن المغيرة عن حمران بن أعين قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ علياً عليه السلام كان محدّثاً فخرجت إلى أصحابي فقلت: جئتكم بعجيبة فقالوا: وما هي؟ فقلت: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان علي عليه السلام محدّثاً فقالوا: ما صنعت شيئاً ألا سألته من كان يحدّثه فرجعت إليه فقلت: إنّي حدّثت أصحابي بما حدّثتني فقالوا: ما صنعت شيئاً ألا سألته من كان يحدّثه؟ فقال لي: يحدّثه ملك، قلت: تقول: إنّه نبيّ؟ قال: فحرّك يده ـ هكذا ـ أو كصاحب سليمان أو كصاحب موسى أو كذي القرنين أو ما بلغكم أنّه قال: وفيكم مثله[٢].

وفي هذه النماذج عبرة خطيرة جدّاً سواء للمقصّرة أو للباحثين عن غوامض المعرفة ودقائق الأسرار. أما المقصّرة فلا يتّخذون من انحراف ثلّة من رواة المعارف وطلّاب أسرار الحقائق ذريعة للإنكار والجحود والطعن والجرح لكافّة رواة المعارف، بل وجود التيارات المنحرفة خير شاهد ومنبّه على وجود حقائق معرفيّة ودقائق عقائدية لم يستطع أولئك المنحرفون أن يتحمّلوها فشطّطت بهم الإقدام. وأما العبرة للباحثين عن غوامض المعرفة فلا يغرّنهم الوقوف على بعض درجات المعرفة ويحسبوا أنّهم قد استقاموا على الجادّة، بل لابدّ أن يحذروا الزلل

---

١. بحار الأنوار ٢٦ / ٦٧ / ٧.

٢. أصول الكافي ١ / ٢٧١ /ح ٥.

في التأويل ولا يظنّ أنّ ما وصلوا إليه هو نهاية المطاف لأنّ هناك من حقائق ما هو أغور عمقاً. و ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي﴾[١]، ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾[٢].

● انحراف أبي الخطّاب في فهم العلم اللدني في الإمامة ومغايرته عن النبوة

إنّ أبا الخطّاب كان قبل انحرافه ذا مكانة في أوساط الشيعة ومأموناً في آرائه وإن انحرافه كان في فهم العلم اللدني.

ففي بصائر الدرجات عن محمد بن الحسين عن صفوان بن يحيى عن أبي خالد القمّاط عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنبياء أنتم؟ قال: لا، قلت: فقد حدّثني من لا أتّهم أنّك قلت: إنّكم أنبياء؟ قال: من هو أبو الخطّاب؟ قال: قلت: نعم، قال: كنت إذاً أهجر؟ قال: قلت: فبما تحكمون؟ قال: نحكم بحكم آل داود[٣].

وقد نُقل أيضاً في الخرائج للراوندي.[٤]

وقد أوضحنا في كتاب الإمامة الإلهيّة الفارق بين العلم اللدني والنبوّة من أنّ ذلك ليس شريعة، بل هو عبارة عن معرفة لدنيّة بحقائق الشريعة وبطونها وتأويل الكتاب كلّه وعلم تطبيقها في نظام البشريّة في الحياة الأرضية وغيرها من فصول العلم الإلهي فلاحظ[٥].

---

١. الكهف: ٩.

٢. طه: ١١٤.

٣. بحار الأنوار ٥٢ / ٣٣٠ / ٢٣ .

٤. الخرائج و الجرائح: ٣/٨٦٠ح ٧٦.

٥. الإمامة الإلهية: الفصل الثالث إلى الفصل الثامن.

● تحذير الإمام من الإذاعة والتظنّي

فقد روى الكشي مسنداً عن قاسم الصيرفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قوم يزعمون أنّي لهم إمام والله ما أنا لهم بإمام، ما لهم لعنهم الله، كلّما سترت ستراً هتكوه، هتك الله ستورهم. أقول كذا، يقولون إنّما يعني كذا، إنّما أنا إمام من أطاعني[1].

وهذا الحديث يشير إلى ضابطة خطيرة وتوصية عظيمة لابد أن يراعيها الباحثون في بيانات الكتاب والسنة والمتأمّلون لإشارات الوحي ولطائف الآيات والروايات، وهي ما مرّ بسطه في أوائل مباحث هذا الكتاب من أنّ دقائق المعرفة لا يستقيم إظهارها لعموم المؤمنين فضلاً عن المخالفين، وذلك لعدم قدرتهم على تصورها بشكل صحيح وبنحو قويم مستقيم يحفظ فيه التوحيد الخالص وعبودية المخلوقات بل ينعكس المعنى مقلوباً لديهم بإطار منكوس رأساً على عقب، فيجرّ إلى نقض الغرض من الهداية إلى الضلالة، نظير ما لو جرّع طفلاً ما لا يتحمّله من الطعام فإنّه بدل أن يساهم في نموّه ورشده سيقضي عليه ويؤدي إلى مضاعفات تأتي عليه بالهلاك، ومن ثم كانت إذاعة تلك الدقائق والغوامض إضلال لعامة الأذهان وإشاعة للغواية.

والتوصية الثانية في الحديث أنّ التأويل والاستنتاج لنتائج أعمق لابد أن يراعى فيها الدلائل الموزونة لا هلوسة التخرصات المظنونة كما يجب التمسك بالمحكمات وعدم الانزلاق وراء كل متشابه مبهم طمعاً في الوقوف على الحقائق الخفية بوسيلة التشبث بالأمور الواهية.

---

١. رجال الكشي / رقم ٥٣٩.

المؤاخذة الرابعة: ملامح سلوكهم الفقهي بين الإفراط والتفريط، والمفارقة بين روّادهم وبين الأتباع

فإنّ الملاحظ في المغيرة بن سعيد وأبي الخطاب وبقيّة روّاد المطعون عليهم بالغلو وكذلك تيّارهم الموسوم بالمغيريّة والخطابية أنّهم لم يكونوا في بدو أمرهم متفسّخين عن الالتزام الفقهي كما تصوّره كتب رجال العامة وجملة من كلمات أصحاب الجرح والتعديل لدينا، بل كان طابعهم ضمن تيّار بقية الأصحاب، مع اشتمالهم على جملة من الشذوذات التي هي بين إفراط وتفريط.

نعم بعد قتل المغيرة وأبي الخطّاب وروّاد ذلك التيار، تفشّى الانحراف في ذلك التيار بدرجة مفرطة شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت النوبة إلى روّاد آخرين في زمان الجواد والعسكريين عليهم السلام، بحيث أخذت الهوّة والفجوة بين هذا التيار وتيّار بقية رواة الأصحاب عمقاً وبعداً كبيراً.

فاشتبه الأمر على كثير من الباحثين بتسرية وسحب أوصاف ذلك التيّار في فتراته اللاحقة وامتداداته إلى فترة بدايات ذلك التيّار ولا سيّما نجوم رواته وروّاده.

بل إنّ الكثير من الباحثين حيث رأى طابع هذا التيار في القرن الثالث والرابع، وكيفية نشوء فرق الصوفية منه وتماديهم في تلك الأمور بنحو مريج، قام بالحكم على روّاد ذلك التيّار بما شاهده في الفترات اللاحقة.

نعم لا يستراب أنّ بداية هذا التيار كانت قد انطوت على شذوذات في المنهج الفقهي والقواعد الشرعية، وقد سبّب التمادي فيها فيما بعد ذلك إلى الانحراف والبون عن المسار الصحيح.

وقد أشار عليه السلام في مكاتبته للمفضّل بن عمر إلى أساس بزوغ هذا الخطأ المنهجي والشذوذ الذي سبّب التمادي فيه فيما بعد، فجوة عظيمة وكبيرة. فإن الانحراف عن الطريق المستقيم يبدأ يسيراً ثم لا يزيده كثرة السير إلّا بُعداً عن الطريق الصحيح كما ورد في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلّا بُعداً[١].

وقد مرّ بيان ذلك في الفقرات السابقة من المكاتبة وفيها أمور أخر نبّه عليها الإمام عليه السلام.

فهذا التطرّف في باطن الحقائق والأمور على حساب التفريط في الظاهر ـ أي بنحو يؤدّي إلى التهاون بحدود ظاهر الشريعة ـ أدّى إلى جملة من الشذوذات في السلوك الفقهي. وهذا نمط من التطرّف والخروج عن حدّ الاعتدال والتوازن الذي هو من أنماط الغلو، لا أنّ ذات المقالة في المعارف التي تبنّوها هي في أصلها خروج عن الحدّ، ومن ثمّ أكدت الوصية النبوية من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة[٢] حيث بيّن صلى الله عليه وآله وسلم عدم حصر العلم في أحد الثلاثة بل التوازن والتعادل لا يحصل إلّا بالتضلّع في الثلاث.

وفي الكافي بسند صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: لا يقبل الله عملاً إلّا بمعرفة ولا معرفة إلّا بعمل، فمن عرف دلّته معرفته على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له، ألا أنّ الايمان بعضه من بعض[٣].

وهذه ظاهرة تتكرّر في التيار الذي يقف على أسرار المعارف، وهي وإن لم تكن ظاهرة متفشيّة في جميع رموز هذا التيّار ونماذجه، إلّا أنّها ظاهرة متفشيّة في الكثير منه، فتراهم بسبب الوقوف على الكثير من المعارف الشامخة وذات الغور

---

١. الكافي ١ / ٤٣ح ١.
٢. الكافي ١ / ٣٢ح ١.
٣. الكافي ١ / ٤٤ح ٢.

العميق يؤدّي بهم ذلك إلى الاغترار والتفريط في علوم الأحكام وعلم الحلال والحرام.

وهذا ما يجعل قاعدة الأتباع لهم فريسة جملة من السلوك الشاذّ والانحرافات العمليّة عن الجادّة.

ولنستعرض جملة من الشواهد والملامح عن ذلك:

● مؤاخذاتهم عليهم السلام على تيّار المغيريّة والخطابيّة بعدم تضلّعهم في الفقه

١ ـ روى الكشي بإسناده عن ابن أبي نصر عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام قال: فسلّمت وجلست فقال لي: كان في مجلسك هذا أبو الخطّاب ومعه سبعون رجلاً كلّهم إليه يتألّم[١] منهم شيء رحمتهم، فقلت لهم: ألا أخبركم بفضائل المسلم؟ فلا أحسب أصغرهم إلّا قال: بلى جعلت فداك، قلت: من فضائل المسلم أن يقال: فلان قارىء لكتاب الله عزوجل، وفلان ذو حظّ من ورع، وفلان يجتهد في عبادته، لربّه فهذه فضائل المسلم، ما لكم وللرياسات! إنما المسلمون رأس واحد، إيّاكم والرجال فإنّ الرجال للرجال مهلكة فإنّي سمعت أبي يقول: إنّ شيطاناً يقال له المذهب يأتي في كلّ صورة إلّا أنّه لا يأتي في صورة نبيّ ولا وصيّ نبي، ولا أحسبه إلّا وقد تراءى لصاحبكم فاحذروه! فبلغني أنّهم قتلوا معه فأبعدهم الله وأسحقهم إنّه لا يهلك على الله إلّا هالك[٢].

ويظهر من هذا الحديث تأكيده عليه السلام بشدّة على هذا التيّار بلزوم التقيّد بالموازين والمصادر الظاهرة للشريعة، كالدلالة الظاهرة لألفاظ الآيات ولزوم التقيّد في السيرة العملية بحدود ظاهر الشريعة، ولزوم بناء عمل المسلم على طابع وأبواب العبادة في الشريعة والاجتهاد فيها. وهذا مما يشير إلى عكوف هذا التيّار على المعارف وتسويل ذلك لهم بالتفريط في الشريعة والعمل في الدين فيبيّن عليه السلام

---

١. قال في بحار الأنوار وفي بعض النسخ: ينالهم.

٢. رجال الكشي ح ٥١٦ .

أنّ التوازن والمعرفة إنما يكون مع العمل لا بدونه كما لا يفيد عمل بلا معرفة.

٢ ـ روى الحلي في مختصر البصائر عن محمد بن عيسى بن عبيد عن الحسين بن سعيد عن جعفر بن بشير البجلي عن حمّاد بن عثمان عن أبي أسامة زيد الشحام قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده رجل من المغيريّة فسأله عن شيء من السنن فقال: ما من شيء يحتاج إليه ابن آدم إلّا وخرجت فيه السنّة من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولولا ذلك ما احتجّ الله عزوجل علينا بما احتجّ. فقال المغيري: وبما احتجّ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: بقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ـ حتى تمّم الآية ـ فلو لم يكمل سننه وفرائضه ما احتجّ به[1].

وفي الرواية دلالة على عدم تضلّع المغيريّة في الفقه وعدم تواصلهم مع الإمام لتعلّم الأحكام.

٣ ـ ومن المؤاخذات على تيّار أبي الخطّاب في الفقه ما نقل عنه في وقت صلاة المغرب وأنّهم كانوا يؤخّرونه حتى تشتبك النجوم:

ففي من لا يحضره الفقيه: قال الصادق عليه السلام: ملعون ملعون من أخّر المغرب طلباً لفضلها، وقيل له: إنّ أهل العراق يؤخّرون المغرب حتّى تشتبك النجوم؟ فقال: هذا من عمل عدوّ الله أبي الخطّاب[2].

وفي التهذيب: روى أحمد بن محمد بن عيسى عن سعيد بن جناح عن بعض أصحابنا عن الرضا عليه السلام قال: إنّ أبا الخطاب قد كان أفسد عامّة أهل الكوفة وكانوا لا يصلّون المغرب حتى يغيب الشفق وإنّما ذلك للمسافر والخائف ولصاحب الحاجة[3].

ورواه الكشي عن العياشي عن علي بن الحسن عن معمر بن خلّاد عن أبي

---

١. مختصر البصائر / ٢٠٨ / ح ١٩٧.
٢. من لا يحضره الفقيه ١ / ٢٢٠ / ح ٦٦١.
٣. تهذيب الأحكام ٢ / ٣٣ / باب أوقات الصلاة وعلامة كلّ وقت منها / ح ٥٠.

الحسن[١].

وفي التهذيب: روى محمد بن علي بن محبوب عن محمّد بن أبي الصُهبان عن عبد الرحمن بن حماد عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي أسامة زيد الشحام قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: أوخّر المغرب حتى تستبين النجوم؟ قال: فقال: خطّابيّة؟ إنّ جبرئيل عليه السلام نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين سقط القرص[٢].

وفي التهذيب: روى محمد بن علي بن محبوب عن العباس بن معروف عن عبد الله بن المغيرة عن ذريح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أناساً من أصحاب أبي الخطّاب يمسّون بالمغرب حتى تشتبك النجوم، قال: أبرأ إلى الله ممّن فعل ذلك متعمّداً[٣].

وفي التهذيب: روى الحسن بن محمد عن عبد الله بن جبلة عن ذريح[٤].

وفي التهذيب: عن الحسن بن محمد بن سماعة عن جعفر بن سماعة عن إبراهيم بن عبد الحميد عن الصبّاح بن سيابة وأبي أسامة قال: سألوا الشيخ عن المغرب فقال بعضهم: جعلني الله فداك ننتظر حتّى يطلع كوكب؟ فقال: خطّابية؟ إنّ جبرئيل عليه السلام نزل بها على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم حين سقط القرص[٥].

وفي التهذيب: عن الحسن بن محمد بن سماعة عن حسين بن حمّاد بن عُديس عن إسحاق بن عمار عن القاسم بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر أبو الخطّاب فلعنه ثم قال: إنّه لم يكن يحفظ شيئاً، حدّثته أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غابت له الشمس في مكان كذا وكذا وصلّى المغرب بالشجرة وبينهما ستّة أميال فأخبرته بذلك في السفر

---

١. رجال الكشي ح ٥١٨.
٢. تهذيب الأحكام ٢ / ٣٢ / نفس الباب / ح ٤٩.
٣. تهذيب الأحكام ٢ / ٣٣ / نفس الباب / ح ٥٣.
٤. تهذيب الأحكام ٢ / ٢٥٣ / باب المواقيت / ح ٤١.
٥. تهذيب الأحكام ٢ / ٢٥٨ / باب المواقيت / ح ٦٤.

فوضعه في الحضر[١].

وفي التهذيب: محمد بن علي بن محبوب عن أحمد بن الحسن عن علي بن يعقوب عن مروان بن مسلم عن عمّار الساباطي عن أبي عبد الله ﷺ قال: إنّما أمرت أبا الخطّاب أن يصلّي المغرب حين زالت الحمرة فجعل هو الحمرة التي من قِبل المغرب وكان يصلّي حين يغيب الشفق[٢].

وفي التهذيب: أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن فضالة عن أبان عن زرارة قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن وقت إفطار الصائم قال: حين يبدو ثلاثة أنجم وقال لرجل: ظنّ أنّ الشمس قد غابت فأفطر ثمّ أبصر الشمس بعد ذلك قال: ليس عليه قضاء.

قال محمّد بن الحسن: ما تضمّنه هذا الخبر من ظهور ثلاثة أنجم لا يعتبر به والمراعى ما قدّمناه من سقوط القرص وعلامته زوال الحمرة من ناحية المشرق وهذا كان يعتبره أصحاب أبي الخطّاب لعنهم الله[٣].

وفي الوسائل: عن جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة عن أبيه عن جدّه عبد الله بن المغيرة عن عبد الله بن بكير عن عبيد الله بن زرارة عن أبي عبد الله ﷺ قال: سمعته يقول: صحبني رجل كان يمسّي بالمغرب ويغلّس بالفجر وكنت أنا أصلي المغرب إذا غربت الشمس وأصلّي الفجر إذا استبان لي الفجر، فقال لي الرجل: ما يمنعك أن تصنع مثل ما أصنع فإنّ الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنّا وهي طالعة على مرقد آخرين بعد قال: فقلت: إنّما علينا أن نصلّي إذا وجبت الشمس عنا وإذا طلع الفجر عندنا ليس علينا إلّا ذلك وعلى أولئك أن يُصلّوا إذا غربت عنهم.

قال صاحب الوسائل: لعلّ الرجل كان من أصحاب أبي الخطّاب وكان يصلّي

---

١. نفس المصدر / ح ٦٥.
٢. تهذيب الأحكام ٢ / ٢٥٩ / نفس الباب / ح ٧٠.
٣. تهذيب الأحكام ٤ / ٣١٨ / باب الزيادات / ح ٣٦.

المغرب عند ذهاب الحمرة المغربيّة وكان الصادق عليه السلام يصلّيها عند ذهاب الحمرة المشرقية ومعلوم أنّ الشمس في ذلك الوقت تكون طالعة على قوم آخرين إلّا أنّه لا يعتبر أكثر من ذلك القدر[١].

وفي الكشي: حدّثني محمد بن مسعود قال: حدّثنا ابن المغيرة قال: حدّثنا الفضل بن شاذان عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن حريز عن زرارة قال: قال ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ ... وأما أبو الخطّاب فكذب عليّ وقال: إني أمرته أن لا يصلّي هو وأصحابه المغرب حتّى يرواكوكب كذا يقال له: القنداني (القيداني) والله إنّ ذلك لكوكب ما أعرفه[٢].

وفي دعائم الإسلام: وسمع أبو الخطّاب أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: إذا سقطت الحمرة من هاهنا وأومأ بيده إلى المشرق فذلك وقت المغرب. فقال أبو الخطاب لأصحابه لمّا أحدث ما أحدثه وقت صلاة المغرب ذهاب الحمرة من أفق المغرب فلا تصلّوها حتّى تشتبك النجوم وروى ذلك لهم عن أبي عبد الله عليه السلام فبلغه ذلك فلعن أبا الخطاب وقال: من ترك صلاة المغرب عامداً إلى اشتباك النجوم فأنا منه بريء[٣].

وفي هذه النصوص على كثرتها بيّنوا عليهم السلام شذوذ أبي الخطّاب في الفقه ويستفاد منها جملة من النقاط:

الأولى: أنّ هذا الشذوذ كان منشؤه الخطأ في التأويل حيث بيّن عليه السلام في رواية قاسم بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه هو الذي حدّثه بذلك الوقت لصلاة المغرب من فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّه لم يلتفت إلى أنّ ذلك كان في السفر فأخطأ وظنّ أنّه حكم عامّ في السفر والحضر، وكذا ما في رواية عمار الساباطي عن أبي عبدالله عليه السلام حيث جعل منشأ هذا الانحراف منه الخلط بين الحمرة المغربية

---

١. وسائل الشيعة ٤ / ١٧٩ / أبواب المواقيت / ب ١٦ / ح ٢٢.

٢. رجال الكشي ٣٠١ / ح ٤٠٧.

٣. دعائم الإسلام: ١/١٣٨، مستدرك الوسائل ٣ / ١٣٤.

والحمرة المشرقيّة وعليه يمكن حمل رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام الذي قال فيه الشيخ إنّه من مذهب أبي الخطّاب.

الثانية: يظهر من هذه الروايات عدم اهتمام أبي الخطّاب في الاستماع والتأمّل في روايات الفروع وكان يجترىء ويفتي بتسرّع وذلك لما بيّنا من أنّهم ما كانوا يقيمون لعلم الفروع والأحكام وزناً لشدّة انبهارهم بعلوم المعارف.

الثالثة: أنّ نسبة الكذب إلى أبي الخطّاب في بعض هذه الأخبار ليس بمعنى أنّه تعمّد الكذب على أهل البيت عليهم السلام، وذلك لما ذكرناه في النقطة الأولى من أنّ الإمام عليه السلام يبيّن أنّ هذا الرأي حصل لديه نتيجة عدم وعيه ودقّته، فهو اشتباه وإن كان مقصّراً وغير معذور لتفريطه، إلّا أنّه ليس تكذيباً للإمام وافتراء عليه. وقد مرّ أنّ للكذب معانٍ مختلفة في الآيات والروايات يخالف ما قد يتبادر إلى ذهن غير المتمرّس وغير المتتبّع.

هذا كلّه مع أنّه يمكن أن يقال: إنّ نسبة الكذب إليه في الروايات تعليقي، أي حيث فشا وانتشر لدى أتباعه هذه الظاهرة وصار كمعلم وشعار لهذا التيّار فلأجل المقابلة معهم وردعهم عن ذلك قالوا: إنّه لو كان أبو الخطاب قال كذا فهو قد كذب نظير اللعن الوارد من الأئمة عليهم السلام في حقّ بعض الرواة التي مرّ ذكرها.

٤ ـ ومن جملة الشذوذات مانقل عنه في الحيض، فقد روى الكشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أهل الكوفة قد نزل فيهم كذّاب أمّا المغيرة فإنه يكذب على أبي ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ قال: حدّثه أنّ نساء آل محمد إذا حضن قضين الصلاة، وكذب والله عليه لعنة الله ما كان من ذلك شيء ولا حدّثه[1].

ولعلّ منشأ هذا الشذوذ الفقهي لدى المغيرة ما ورد من أنّ نساء آل محمد مطهّرات عن الحيض والطمث، وما درى أنّ المراد من هذه النساء ليس كلّ من

---

١. رجال الكشي / ١ / ٣٠١ / ح ٤٠٧.

انتسب إلى رسول الله ﷺ بل خصوص نساء أهل البيت عليهم السلام. فهو حينما رأى أنّ نساء منسوبات إلى رسول الله يحضن فحمل هذه الروايات على أنّه يجب عليهن قضاء الصلوات في زمن الحيض أي أنّه ظنّ أنّ المراد من نفي الحيض نفي الحكم بلسان نفي موضوعه.

٥ ـ قال الشيخ الطوسي رحمه الله: فأمّا الأخبار التي وردت في النهي عن صوم شعبان وأنّه ما صامه أحد من الأئمة عليهم السلام فالمراد بها أنه لم يصمه أحد من الأئمة عليهم السلام، على أنّ صومه يجري مجرى شهر رمضان في الفرض والوجوب لأنّ قوماً قالوا: إنّ صومه فريضة وكان أبو الخطّاب لعنه الله وأصحابه يذهبون إليه ويقولون: إنّ من أفطر يوماً منه لزمه من الكفّارة ما يلزم مَن أفطر يوماً من شهر رمضان، فورد عنهم عليهم السلام الإنكار لذلك وأنّه لم يصمه أحد منهم على هذا الوجه[1].

وهذا ـ على فرض صحّة النسبة حيث إنّ الشيخ ينسبه إلى قول جماعة مجهولة ـ أيضاً يدلّ على عدم تظلّعهم في الفقه حيث حملهم الروايات في فضل صوم رجب وشعبان والحثّ البالغ في الروايات على القول بوجوب صيامهما، نظير بعض المنتسبين إلى جماعة الأخباريين حيث يغترّون بظاهر بعض الروايات فيوجبون ما هو من المستحب المؤكّد في الشريعة نظير غسل الجمعة.

متاركة الفقه يسبّب الشذوذ في العقائد

٦ ـ وفي معتبرة جميل بن درّاج: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فاستقبلني رجل خارج من عند أبي عبد الله عليه السلام من أهل الكوفة من أصحابنا فلما دخلت على أبي عبد الله عليه السلام قال: لقيت الرجل الخارج من عندي؟ فقلت: بلى هو رجل من

---

١. تهذيب الأحكام ٤ / ٣٠٩ / باب صيام شعبان، نظير ذلك في الاستبصار ٢ / ١٣٨ / باب صوم شعبان.

أصحابنا من أهل الكوفة، فقال: لا قدس الله روحه ولا قدّس مثله، إنّه ذكر أقواماً كان أبي عليه السلام ائتمنهم على حلال الله وحرامه وكانوا عيبة علمه فكذلك اليوم هم عندي، هم مستودع سرّي أصحاب أبي عليه السلام حقّاً إذا أراد الله لأهل الأرض سوءاً صرف بهم عنهم السوء، هم نجوم شيعتي أحياء وأمواتاً يحيون ذكر أبي عليه السلام، بهم يكشف الله كلّ بدعة، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأوّل الغالين، ثم بكى فقلت: من هم؟ فقال: من عليهم صلوات الله ورحمته أحياءً وأمواتاً: بريد العجلي وزرارة وأبو بصير ومحمد بن مسلم أما أنّه يا جميل سيبيّن لك أمر هذا الرجل إلى قريب، قال جميل: فوالله ما كان إلّا قليلاً حتى رأيت ذلك الرجل ينسب إلى أصحاب أبي الخطّاب.

قلت: الله يعلم حيث يجعل رسالته قال جميل: كنّا نعرف أصحاب أبي الخطاب ببغض هؤلاء (ره)[1].

أقول: يظهر من هذا الحديث بوضوح الديدن العامّ لدى أصحاب أبي الخطّاب ومجانبتهم لرواة الفروع، وهذا إنّما نشأ من التفريط في ظاهر الدين والاستهانة به فأصحاب هذا الاتّجاه حينما يرون أنّ جماعة من الرواة خاضوا في علم الفروع والأحكام دون المعارف والعقائد ـ كما يزعمون ـ يرمونهم بالقشرية والسطحيّة ويبغضونهم لأجل ذلك. وعلى كلٍّ فهذه مؤاخذة تؤخذ على تيّار أبي الخطّاب.

ويبيّن هذا الحديث أيضاً مدى خطورة الابتعاد عن الفقه في حدوث الانحراف لدى طلّاب المعرفة، وأنّ المعرفة والفقه جناحان لا يقوم أحدهما إلّا بالآخر، وهذا ما يستفاد من الحديث النبوي: إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة[2] فالآية يصدق بها وهو إشارة إلى العلوم الاعتقادية المعرفية والسنة القائمة هي علوم تهذيب النفس والآداب، والفريضة العادلة إشارة إلى

---

١. رجال الكشي /ح ٢٢٠.
٢. الكافي: ١ / ٣٢.

فرائض أعمال البدن أو أسهم الإرث وهو فقه الفروع، فقرنه ﷺ بين الأمور الثلاثة إشارة ضرورة الاقتران والمعية فيما بين الأمور الثلاثة كي تتحقق الاستقامة، ويحصل التحصين في الثغور أمام هجوم الضلال والزيغ.

وهذا ما أشار إليه الصادق عليه السلام في مكاتبته للمفضل بن عمر من أن انحراف الخطابية من جهة تركهم للظاهر أي الفقه وأخذهم بمجرد الباطن وهي المعرفة وكذلك انحراف من يأخذ بالظاهر ويترك الباطن وهو المعرفة.

○ شذوذهم الفقهي ليس بدرجة البينونة مع الوسط العام للأصحاب

١ ـ ففي كتاب عاصم بن حميد الحنّاط روى عن محمد بن مسلم قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام ... ثم أقبل عليّ بوجهه وقد كان أصحاب المغيرة يكتبون إليّ أن أسأله عن الجرّيث والمارماهيك والزمّير وما ليس له قشر من السمك: حرام هو أم لا؟[1]

ويظهر من هذه الرواية:

أولاً: ما أشرنا إليه من أنّ أصحاب المغيرة فضلاً عنه وكذلك أبو الخطاب لم تكن بينهم وبين بقيّة الشيعة وفقهاء الرواة قطيعة، وأنهم كانوا يعيشون في الوسط الشيعي، كما تشير إليه رواية عبد الله بن بكير الرجاني من قوله للصادق عليه السلام: إنّا ذكرنا الألفة التي كنّا عليها والبلية التي أوقعتهم أي أصحاب أبي الخطّاب بعد قتلهم[2].

وثانياً: أنه لم يكن تيّار المغيريّة آنذاك يتبنّى مقالات صريحة في الكفر كما طعن عليهم أهل السنة وإلّا لتبرأ منهم الأصحاب.

ثالثاً: أنّ تيار المغيريّة كان ذا طابع وسلوك فقهي أيضاً، وكانوا يستفتونه عليه السلام .

---

١. الأصول الستة عشر ـ كتاب عاصم بن حميد / ١٥٥ .

٢. رجال الكشي رقم ٥١٧ .

ويشير إلى تقيّدهم بالسلوك الفقهي جملة من الروايات التي مرّ ذكرها من أنّ أبا الخطّاب أفسد أهل الكوفة في تأخير المغرب عن الشفق الغربي[١]. ومثله ما روي من قول المغيرة بقضاء الصلاة للحائض كما تقدّم.

٢ـ روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن زرارة عن أبي الخطّاب قال: سألته يعني أبا عبد الله عن رجل يدخل الأجمة فيجد فيها بيضاً مختلفاً لا يدري بيض ما هو أبيض ما يكره من الطير أو يستحب فقال: إنّ فيه علماً لا يخفى انظر إلى كلّ بيضة تعرف رأسها من أسفلها فكل وما يستوي في ذلك فدعه[٢].

وهذا الخبر أيضاً يدلّ على الطابع الفقهي لدى أبي الخطّاب وأنّه ليس كما يُرمى به الغلاة من أنّهم لا يبالون بالفروع والأحكام، هذا **أوّلاً**.

وثانياً: إنّ رواية زرارة عنه هذا الخبر يدلّ على عدم حصول القطيعة والبينونة بينه وبين الأصحاب وأنّه كان يُعتنى به في نقله للروايات الفقهية، وهذا وإن حمله بعض على حال استقامته إلّا أنّه يكشف عن الطابع العامّ لديه.

٣ـ روى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسن بن علي عن داود الرقي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك إنّ رجلاً من أصحاب أبي الخطّاب نهى عن أكل البُخت وعن أكل لحوم الحمام المُسروَلة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا بأس بركوب البخت وشرب ألبانهن وأكل لحوم الحمام المسرول[٣].

ورواه في الفقيه عن الوشاء عن داود الرقي[٤].

---

١. رجال الكشي ح ٥١٨.
٢. الكافي ٦ / ٢٤٩ / باب ما يُعرف به البيض / ح ٣.
٣. الكافي ٦ / ٣١٢ / باب لحوم الجزور والبخت / ح ٢.
٤. من لا يحضره الفقيه ٣ / ٣٣٧ / ح ٤١٩٩.

ورواه في التهذيب عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي[١].

وفيه أيضاً دلالة على عدم القطيعة بينه وبين الأصحاب حيث لا ينبذ آراءهم وفتاواهم بل يسأل عن الإمام عليه السلام عن صحة ذلك وعدمه، كما أنّه يدلّ على الطابع الفقهي العامّ لديهم. وغير خفي أنّ داود الرقي إنّما نسب هذا الفتوى إلى رجل من أصحاب أبي الخطاب فقد تكون هذه من الشذوذات الفقهية الحاصلة لدى أتباعه وأصحابه بعده.

○ تشدّد أبي الخطّاب بالتجاوز عن حدود العبادة

ففي التهذيب: ما رواه الحسين بن سعيد عن صفوان عن ابن بكير عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما جرت به السنّة في الصلاة؟ فقال: ثمان ركعات الزوال وركعتان بعد الظهر وركعتان قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث عشرة ركعة من آخر الليل ومنها الوتر وركعتا الفجر، قلت: فهذا جميع ما جرت به السنة؟ قال: نعم.

فقال أبو الخطاب: أفرأيت إن قوي فزاد؟ قال: فجلس وكان متّكئاً، فقال: إن قويتَ فصلّها كما كانت تصلّي وكما ليست في ساعة من النهار فليست في ساعة من الليل إنّ الله عزوجل يقول: ﴿ومن آناء الليل فسبّح﴾[٢].

وفي كتاب درست بن أبي منصور عن ابن مسكان عن زرارة قال: دخلت أنا وأبو الخطّاب ـ قبل أن يُبتلى ويفسد ـ على أبي عبد الله عليه السلام فسأله عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال: أزيد إن قويت (عليه)، قال: فتغيّر وجه أبي عبد الله عليه السلام، قال: ثمّ قال: إنّي لأمقت العبد يأتيني فيسألني عن صنيع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فيقول: أزيد إن قويت، كأنّه يرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قصّر، ثم قال: إن كنت صادقاً فصلّها في

١. تهذيب الأحكام ٩ / ٤٩ / باب الصيد والذكاة / ح ٢٠٢.
٢. تهذيب الأحكام ٢ / ٧ / باب المسنون من الصلوات / ح ١٢.

ساعات بغير أوقات رسول الله ﷺ[1].

أقول: إنّ هذا الإفراط من جانب والتفريط من جانب آخر يحصل نتيجة عدم التطلّع في الفقه والفروع فإنّ الجاهل إمّا مفرط أو مفرّط.

---

١. الأصول الستة عشر / كتاب درست بن أبي منصور / ص ٢٨٩ / ح ٤٢٣، مستدرك الوسائل ١ / ١٤٥.

المؤاخذة الخامسة: التطرّف السياسي والاندفاع الثوري

من هذه الموارد:

١ ـ تطرّف المغيرة في الاندفاع السياسي وفي النشر والإفشاء لغوامض مقاماتهم.

روى الصفار في البصائر بسند صحيح أعلائي عن أبي الصباح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: أنت أخي وصاحبي وصفيّي ووصيي وخالصي من أهل بيتي وخليفتي في أمّتي وسأنبّئك فيما يكون فيها من بعدي، يا علي إنّي أحبّ لك ما أحبّه لنفسي وأكره لك ما أكرهه لها.

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: هذا مكتوب عندي في كتاب عليّ ولكني دفعته أمس حين كان هذا الخوف وهو حين صلب المغيرة[١].

وفي هذه الرواية إيماء إلى أنّ مقالة المغيرة بن سعيد حول الأئمة عليهم السلام لا تتضمّن ارتفاع في القول ولا إفراط في نسبة الأوصاف، ولكن كان يستعظمها فقهاء الرواة كأبي الصباح الكناني، وإنّ تطرّف المغيرة بن سعيد إنما كان على الصعيد السياسي وعلى صعيد النشر والإفشاء للمقامات الغيبيّة لمنصب الإمامة الإلهية، والتي كان ينطبع بنحو خاطىء مفادها لدى الآخرين.

وبعبارة أخرى: إنّ قتل وصلب المغيرة ذو صلة وطيدة بتخوّفه عليه السلام من نشر فضائلهم ومقاماتهم الخاصّة التي لا يتحمّلها عامّة الناس وهذا مؤشّر على طابع ومسار مقالة المغيرة بن سعيد.

وفي هذه الصحيحة شهادة على هذا المعنى من الغلو في هذه الفرق كما يدلّ

---

١. بصائر الدرجات ١ / ٣٢٣ح ٦٣٥.

على حرصهم على النشر والإفشاء لغوامض مقامات أهل البيت عليهم السلام وأنّهم إنما نشروها في سبيل طموحاتهم السياسيّة.

٢ ـ تطرفهم السياسي ومحاولة جعل المعارف العالية قنطرة للوصول إليها

قال البلاذري: أتى المغيرة جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال له: أقر بعلم الغيب حتى أجبي لك العراق، فقال: أعوذ بالله ثم أتى محمد بن علي بن الحسين فقال له مثل ذلك فزجره وشتمه[1].

وفي هذا النقل ـ مع نسبة التحفّظ في نقل البلاذري حول هذه الجماعات والفرق ـ إلّا أنه يدل بوضوح على أنّ المغيرة بن سعيد لم تكن مقالته مقتصرة على الطابع العقائدي البحت، بل كانت ذات دعوى سياسية ساخنة مما يعطي موشّراً أن تعاطي السلطات معه ومع تيّاره لم يكن تعامل من البعد العقائدي البحت، بل كانت مواجهة سياسية محتدمة.

٣ ـ مقتل المغيرة بن سعيد في تاريخ الطبري

ظاهر الطبري في حوادث سنة ١١٩ هـ أنّ المغيرة بن سعيد وبيان قد خرجا خروجاً كثورة سياسية في تلك السنة، علماً بأن خروج زيد كان في سنة ١٢١، وهذا يؤشر إلى تقدّم ذلك التيّار في القيام بالثورة السياسية والكفاح المسلّح أمام الظالمين.

وقد نقل أنّ الدولة الأموية قامت بالقبض على مالك بن أعين أيضاً ولم يفنّد الشعار السياسي الذي خرج به المغيرة وبيان وجمع من رهطه.

وإليك نصّه:

ذكر الخبر عن مقتل المغيرة بن سعيد ونفر معه:

---

١. أنساب الأشراف: ٩ / ٧٦.

وفي هذه السنة (سنة ١١٩) خرج المغيرة بن سعيد وبيان في نفر؛ أخذهم خالد فقتلهم ... قال أبو نعيم: وكان المغيرة قد نظر في السحر، فأخذه خالد القسري فقتله وصلبه ... قال أبو زيد: لما قتل خالد المغيرة وبيان أرسل إلى مالك ابن أعين الجهني فسأله فصدّقه عن نفسه فأطلقه ...

قال أحمد بن زهير عن علي بن محمد، قال: خرج المغيرة بن سعيد في سبعة نفر وكانوا يدعون الوصفاء وكان خروجهم بظهر الكوفة ...»[١].

وفي هذا النقل من الطبري دلالة على جملة من الأمور:

الأول: الخروج السياسي للمغيرة وبيان وأتباعهما.

الثاني: طعن السلطة الأموية له كذريعة لمحاربتهم، ومواجهتهم بالسحر والغلو كتمهيد ومبرّر للقضاء عليهم.

الثالث: وجود العلاقة الوطيدة بين المغيرة وبيان مع مالك بن أعين الجهني.

٤ ـ علاقات مشتركة بين الزيديّة والمغيريّة

قال النوبختي: «أما المغيرية أصحاب المغيرة بن سعيد فإنهم نزلوا معهم ـ أي الزيدية ـ إلى القول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن وتولّوه وأثبتوا إمامته فلما قتل صاروا لا إمام لهم ولا وصيّ ولا يثبتون لأحد إمامة بعده»[٢].

أقول: أنّ نقل النوبختي له يدلّ على وجود نقاط مشتركة بين الزيدية والمغيريّة وهي التطرّف السياسي والاندفاع الثوري الساخن في كيفية مقاومة النظام الأموي.

٥ ـ أخصية الشعار السياسي لخروج المغيرة من شعار خروج زيد

ولا يخفى أنّ هناك مفارقة بين الشعار لخروج المغيرة وبيان وأبي الخطاب

---

١. تاريخ الطبري ٥ / ٤٥٦.

٢. فرق الشيعة: ٧١ و ٧٢.

السياسي مع الشعار السياسي الذي خرج به زيد والمفارقة كبيرة جدّاً، فإنّ شعار المرميّين بالغلو «لبيك»، أي الطاعة والانقياد للإمام عليه السلام نظير شعار المسلمين في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لبيك داعي الله».

فقد روى الكشي عن حمدويه: قال: حدثنا يعقوب عن ابن أبي عمير عن عبد الصمد بن بشير عن مصادف قال: لما لبّى القوم الذين لبّوا بالكوفة دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بذلك فخرّ ساجداً وألزق جؤجؤه بالأرض وبكى وأقبل يلوذ بإصبعه ويقول: بل عبد الله قنّ داخر مراراً كثيرة...[1].

بينما كان شعار ثورة زيد الدعوة إلى الرضا من آل محمّد، ومقصوده ـ كما أوضحت الروايات ـ وإن كان الإمام الصادق عليه السلام باعتبار أنّه الشخص المرضي في الصفات المتميّز بالمناقب والكمالات من أهل البيت عليهم السلام، إلّا أنّه لم يكن بيّناً عند عامة الناس، فخروجهم كان قبل خروج زيد وشعارهم كان أخصّ بأهل البيت عليهم السلام من شعار زيد.

وتبرّؤه عليه السلام من هذا الشعار إما بلحاظ ما نشرته السلطات الأموية من دعاية كون ذلك الشعار تأليهاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فكان الموقف منه عليه السلام يستدعي التبرّؤ من هذه الدعاية المضادّة وإحباط تأثيرها سواء في صفوف أتباع أهل البيت من الشيعة أو عند العامّة، فإنّ هذه السياسة الهدّامة من الأمويّين كانت تغرّر بأتباع أهل البيت وتبعدهم عن الحقيقة الشامخة إلى الانحراف الخاطىء الذي كان يطمع الأمويون رؤيته في أتباع أهل البيت عليهم السلام.

نظير ما تصنعه الآن القوى الغربية والاستعمارية من خلط التيارات التي تدّعي المهدوية أو النيابة الخاصّة كفرق البابيّة تشويهاً ومحاربة للعقيدة الحقّة الشامخة بالإمام المهدي لدى المسلمين.

---

١. رجال الكشي ٣٦٥ / ح ٥٣١.

أو أنّ سجوده عليه السلام كان إعلاناً لمقاطعته السياسية لهذه الحركة السياسية لقطع الطريق أمام اتهام السلطات له بالارتباط بهذه الفرق.

شعار المغيرة إظهار التشيع لآل علي وشدّة تعصّبه لأهل البيت عليهم السلام

قال البلاذري: «وكان المغيرة بن سعيد هذا ظهر أيام خالد وكان يظهر التشيع لآل علي.

وقال أيضاً: كان الشعبي يقول للمغيرة بن سعيد مولى بجيلة: ما فعل الإمام فيقول: لا تهزأ به فيقول: لست أهزأ به إنما أهزأ بك[1].

ويلاحظ من هذا النص ظاهرة شدّة تصلّب المغيرة فى ولاء أهل البيت عليهم السلام في فترة استقامته، بل كان هذا شعاره عند قيامه بالثورة على الأمويين التي قتل فيها.

كما يبيّن النصّ الآخر قوّة ترويج المغيرة لمفهوم الإمامة والنصّ الإلهي.

ومن ملامح ذلك أيضاً ما ذكره في البدء والتاريخ عن المغيرة بن سعيد أنّه سأله رجل عن أمير المؤمنين عليه السلام فقال: لا تحتمله قال: بل أحتمله قال: فذكر آدم فمن دونه من الأنبياء فلم يذكر أحداً منهم إلّا فضّل علياً. حتى انتهى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: فقلت: كذبت قال: قد أخبرتك أنك لا تحتمل[2].

والذيل من تفضيل علي على النبي واضح أنّه فرية على المغيرة تشنيعاً من العامّة على من يتصلّب في ولاء أهل البيت عليهم السلام .

٦ ـ طمع أبي الخطاب في الرئاسة وردعه عليه السلام له

عن الكشي: محمد بن مسعود عن علي بن محمد بن يزيد عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن أبي نصر عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله فسلّمت وجلست فقال لي: وكان في مجلسك هذا أبو الخطاب ومعه سبعون

---

١. أنساب الأشراف ٥ / ٧٥.

٢. البدء والتاريخ ٥ / ١٣١.

رجلاً كلهم ينالهم منهم شيء فرحمتهم فقلت لهم: ألا أخبركم بفضائل المسلم فلا أحسب أصغرهم إلّا قال: بلى جعلت فداك، قلت: من فضائل المسلم أن يقال له فلان قارىء لكتاب الله عزوجل وفلان ذو حظ من ورع وفلان يجتهد في عبادته لربه، فهذه فضائل المسلم وما لكم وللرئاسات إنما المسلمون رأس واحد إياكم والرجال فإنّ الرجال للرجال مهلكة فإني سمعت أبي عليه السلام يقول: إنّ شيطاناً يقال له المذهب يأتي في كل صورة إلّا أنه لا يأتي في صورة نبي ولا وصي نبي ولا أحسبه إلّا وقد تراءى لصاحبكم فاحذروه فبلغني أنهم قتلوا معه فأبعدهم الله وأسحقهم إنّه لا يهلك على الله إلّا هالك[1].

ويظهر من هذا الحديث:

أولاً: أنّ أبا الخطاب كان ذو حركة اجتماعية وسياسية وأنه كان صاحب تيّار ونفوذ ويسعى للنهوض السياسي أمام السلطة.

وثانياً: يظهر من هذا الحديث أنّ صلته بالإمام عليه السلام فضلاً عن الوسط الشيعي بقي مستمراً طيلة حياته حتى قتل، وتدلّ على ذلك جملة من الروايات الأخرى، وأنّه لم تقطع قطيعة بينه وبين كبار الرواة. وهذا مما يؤشّر على أنّ المؤاخذات المأخوذة عليه لم تكن من المقالات التي يحكم عليها بالكفر الصريح وإلّا لقاطعه عليه السلام وشدّد على أصحابه بمقاطعته.

كما أنّ ما صدر منه عليه السلام في أيام حياة أبي الخطاب كان بلسان التحذير من شذوذات أبي الخطاب إما في التأويل أو في التطرّف السياسي أو غيرها من المعاني التي مرّت الإشارة إليها.

ثالثاً: إنّ ردعه عليه السلام لأبي الخطّاب وتحذير الشيعة كان جهاراً وأنّ من مناشىء انحرافه هي تضليل الشيطان له عبر سلسلة من المكاشفات الشيطانية، وأنّ هذا الخطر والانزلاق مما يمتحن ويفتتن به ذوو التضلّع في المعارف ويكونون في

---

١. رجال الكشي رقم ٥١٦، بحار الأنوار ٢٥ / ٣٢٥ / ٤.

عرضة الانحراف بسببه.

رابعاً: أنه يظهر من هذه الرواية معنى آخر للغلو وهو المعنى الأول الذي مر ذكره من عدم تقيّد أصحاب أبي الخطاب بظاهر الشريعة وتكاليفها لخطأهم في تأوّل ما ورد من أنه إذا علمت فاعمل ما شئت.

٧ ـ إغراء أسرار المعارف إلى التطرّف السياسي

فإنّ الاطلاع على غوامض الحقائق وتعاظم الحقّ عند أهل الحق وأتباعه مما يدعو رواة أسرار المعارف إلى الحدّة والعجلة في تقييم الموقف والمسؤوليّة تجاه الإصلاح السياسي، فإنّ طابع الثوريّة بدرجات عالية من الشدّة انزلاق وقع فيه جملة من رواة أسرار المعارف والسر في ذلك ما مرّ من أنّ الوقوف على مقامات أهل البيت عليهم السلام ومنازلهم الغيبيّة يبدّه كفائتهم في تدبير الأمور، فإنّهم ولاة الملكوت فكيف يُقصون عن ولاية الملك؟ وهذا مما يدعو إلى التسرّع والعجلة في إقصاء الظالمين. ومن ثمّ يلاحظ في الروايات التوصية الأكيدة المتكرّرة من الأئمة عليهم السلام لمن يتلقّى منهم ذلك النمط من الروايات أن لا يتسرّعوا في التطرّف السياسي.

فقد روى الكشي بسنده عن المفضل بن عمر الجعفي قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن تفسير جابر فقال: لا تحدّث به السفلة فيذيعوه أما تقرأ في كتاب الله عزوجل: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾[1] إنّ منّا إماماً مستتراً فإذا أراد الله إظهار أمره نكت في قلبه فظهر فقام بأمر الله[2].

وذيل الحديث وإن كان ذا دلالات متعددة إلّا أنّ فيه إشارة إلى لزوم التروّي وعدم الاستعجال في إظهار وإقامة الحق على الصعيد السياسي، فإنّ سنة الله

---

١. المدثر: ٨.

٢. رجال الكشي / رقم ٣٣٨.

جرت على أن يكون بالتدريج إلى أن يبلغ الغاية ساعة ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه ومن ثمّ حذّروا عليهم السلام من عدم مراعاة ذلك بأنّه موجب للاستئصال لكون الاستعداد لم يبلغ حينه أجله، وذلك في تعبيرهم أذاقه الله حرّ الحديد.

٨ ـ نبذ الهدنة مع أهل الخلاف

ومن معالم الغلو السياسي أنّهم كانوا ينبذون الهدنة بين أهل الإيمان والمخالفين، وهذه الظاهرة من معالمهم متولّدة من تطرّفهم السياسي فلا يقرّون هدنة مع المعترفين بالإسلام الظاهري اللساني، فلا يتصوّرون أنّ للتسليم والتعايش درجات.

فقد روى الكليني بسند معتبر عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾[١] فمن زعم أنّهم آمنوا فقد كذب ومن زعم أنّهم لم يسلموا فقد كذب[٢].

وورد عنهم عليهم السلام: فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتىٰ ينتهي إلى العاشر فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك[٣].

والسبب في ذلك عدم الاكتراث بالتسليم اللساني وآثاره الدنيوية مع أنّ الإقرار اللساني وإن كان لسانياً إلّا أنّ له آثاراً في دار الدنيا، كما أنّ انتحال أهل الكتاب للانتماء إلى النبي موسى وعيسى رغم صوريّة هذا الانتساب جعلهم من أهل الذمّة دون سائر الكفّار.

ويشير إلى ذلك ما رواه الكليني في شأن أبي الخطاب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن بن الحجّاج عن هاشم صاحب البريد

---

١. الحجرات: ١٤.
٢. الكافي ٢ / ٢٥ ح ٥.
٣. الكافي ٢/٤٥ ح ٢.

قال:

كنت أنا ومحمد بن مسلم وأبو الخطّاب مجتمعين، فقال لنا أبو الخطّاب: ما تقولون فيمن لم يعرف هذا الأمر، فقلتُ: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر. فقال أبو الخطّاب: ليس بكافر حتى تقوم عليه الحجّة، فإذا قامت عليه الحجّة فلم يعرف فهو كافر. فقال له محمد بن مسلم: سبحان الله ما له إذا لم يعرف ولم يجحد يكفر ليس بكافر إذا لم يجحد.

قال: فلمّا حججت دخلت على أبي عبد الله فأخبرته بذلك، فقال: إنّك قد حضرت وغابا ولكن موعدكم الليلة الجمرة الوسطى بمنى. فلما كانت الليلة اجتمعنا عنده وأبو الخطّاب ومحمد بن مسلم فتناول وسادة فوضعها في صدره ثم قال لنا: ما تقولون في خدمكم ونسائكم وأهليك أليس يشهدون أن لا إله إلّا الله؟ قلت: بلى.

قال: أليس يشهدون أنّ محمداً رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى.

قال: أليس يصلون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى.

قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا، قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر.

قال: سبحان الله أما رأيتَ أهل الطريق وأهل المياه؟ قلت: بلى.

قال: أليس يُصلّون ويصومون ويحجّون. أليس يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله؟ قلت: بلى.

قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا، قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر.

قال: سبحان الله أما رأيت الكعبة والطُوّاف وأهل اليمن وتعلّقهم بأستار الكعبة. قلت: بلى.

قال: أليس يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ ويُصلّون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى.

قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما تقولون فيهم؟ قلت: من لم يعرف فهو كافر.

قال: سبحان الله هذا قول الخوارج، ثم قال: إن شئتم أخبرتكم. فقلت: أنا لا. فقال: أما إنّه شرّ عليكم أن تقولوا بشيء ما لم تسمعوه منّا. قال: فظننت أنّه يديرنا على قول محمد بن مسلم[1].

---

١. الكافي ٢ / ٤٠١ / باب الضلال / ح ١.

المؤاخذة السادسة: السذاجة في المعنويات الروحيّة

من المؤاخذات على المغيرة وأبي الخطاب وأمثالهما هو السذاجة والسطحيّة وسرعة الاسترسال في المكاشفات الروحيّة والمشاهدات النفسانيّة، وعدم الكياسة في الرياضات الروحيّة ومنازل السير النفساني.

وهذا ما تشير إليه جملة من الروايات.

فقد روى الكشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: تراءى والله إبليس لأبي الخطاب على سور المدينة أو المسجد فكأنّي أنظر إليه وهو يقول له: إيهاً نظفر الآن نظفر الآن[١].

وروى أيضاً بسند صحيح عن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أخبرني عن حمزة أيزعم أنّ أبي آتيه. قلت: نعم قال: كذب والله ما يأتيه إلّا المتكوّن، أنّ إبليس سلّط شيطاناً يقال له المتكوّن يأتي الناس في أي صورة شاء إن شاء في صورة صغيرة وإن شاء في صورة كبيرة لا والله ما يستطيع أن يجيء في صورة أبي[٢].

والمراد هو حمزة بن عمارة البربري.

وروى بسند صحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ بياناً والسرّي وبزيعاً لعنهم الله تراءى لهم الشيطان في أحسن ما يكون صورة آدمي من قرنه إلى سرّته الحديث[٣].

---

١. رجال الكشي / ح ٥٤٥.
٢. رجال الكشي / ح ٥٣٧.
٣. رجال الكشي / ح ٥٤٧.

وروى أيضاً بسنده عن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام يوماً لأصحابه: لعنه الله المغيرة بن سعيد ولعن يهوديّة كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق الحديث[1].

ومثل هذه الغفلات تكون بمثابة الضربات القاتلة لأنّه يتلبّس عليهم الشياطين فيغوونهم عن الطريق السوي، ويساعد على ذلك أنّ لهم جهات من الضعف في العلم بالأحكام الفقهيّة.

وهذا يجعلهم يسارعون في تصديق جملة من الخواطر التي يلقيها الشيطان في روعهم أو يربك تأويل المعارف التي تعلّموها من أهل البيت إلى معانٍ مقلوبة ومفاهيم معكوسة.

---

١. رجال الكشي / ح ٤٠٣.

المؤاخذة السابعة: الاغترار بالنفس عند الحصول على بعض المعارف فيؤدّي بهم إلى جحود مقام الإمامة

ومن المؤاخذات على منهجيّة الفرق المطعون عليها بالغلو اغترارهم باليسير ممّا عرفوا عن تحصيل ما وراءه.

فقد روى درست بن أبي منصور عن زكّار بن يحيى الواسطي قال: كنت عند الفضيل بن يسار أنا وحريز قال: فقال له حريز: يا أبا علي! إنّ زكاراً يحبّ أن يسمع الحديث منك في العلم، قال: فأقبل عليّ فضيلٌ، فقال: مالك وللخصومة؟ قال: قلت: لم أرد بهذا الخصومة، قال: فقال: كنت أنا وحمران قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا حمران كيف تركت المتشيعين خلفك؟ قال: تركت المغيرة وبيان البيان، يقول أحدهما: العلم خالق ويقول الآخر: ا لعلم مخلوق. قال: فقال لحمران: فأيّ شيء قلت أنت يا حمران؟ قال: فقال حمران: لم أقل شيئاً قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أفلا قلت: ليس بخالق ولا مخلوق؟ قال: ففزع لذلك حمران، قال: فقال: فأيّ شيء هو؟ قال: فقال: هو من كماله كيدك منك[1].

ويشير هذا الحديث الشريف إلى أمرين من أسباب الانحراف لدى طلّاب المعارف الغامضة ودقائق الحقائق:

أوّلاً: ابتلاؤهم بالغرور والاغترار بما حصلوا عليه من سطح بعض الغوامض والحقائق فيأخذ بهم الوهم بأنّ ذلك تمام الحقيقة فينجرّ بهم ثانياً إلى أمر آخر أخطر، وهو ظنّهم بأنّهم لا يضعفون ولا يعيون أمام حلّ أي معضلة وأنّهم قادرون

١. الأصول الستّة عشر ـ كتاب درست بن أبي منصور / ٢٩٠ / ح ٤٢٧.

على فكّ كلّ عقدة مشكلة فيستغنون بأنفسهم وآرائهم ومحدود علمهم عن الرجوع إلى المعصوم والوحي فيما بقي ممّا هو أطول من طريق المعرفة، فكم يقع المتمرّسون في مباحث ومناهج المعرفة من صيرورتهم في المآل إلى انتهاج منهج «حسبنا أنفسنا وعقولنا عن الوحي» أو «حسبنا كتاب الله عن العترة» وإن كانوا في بداية الطريق يسلّمون بالتمسّك بالثقلين إلّا أنّهم مآلاً تنفصم عرى اتباعهم للثقلين وملازمتهم لهما في كل صغيرة وكبيرة قبل الانتهاء والوصول إلى حوض الكوثر.

السقيفة في عالم المعنى

ومن انحرافات الخطابية والإسماعيلية ـ التي من امتداداتهم والتي نشأت من اغترارهم واستبدادهم بعقولهم وآرائهم ـ هو تركهم ومتاركتهم لظواهر القرآن ولتراث النبي ﷺ والأئمة الستّة عليهم السلام تحت ذريعة التأويل، مع أنّهم يزعمون الإقرار بإمامة الستّة إلّا أنّهم يتمسكون بغيرهم من بعدهم بنحو يعطونهم صلاحيات نسخ ظاهر شريعة الرسول ومنهاج الأئمة الستّة عليهم السلام، فمرقوا عنهما ولم يتقيدوا على تراث النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام. وكلّ ذلك بسبب القول بإمامة غير المعصومين عليهم السلام حيث يناقض الكلام البشري كلام الوحي، بينما لا يوجد أي تناقض بين كلام الأئمة الستّة عليهم السلام وكلام الرسول ﷺ، ولا بينها وبين كلام الله في القرآن بل ومع كلام الأئمة الستة عليهم السلام اللاحقين من الاثني عشر.

وهذا في الحقيقة طرد ورفض لأهل البيت عليهم السلام في أخذ المعارف والوصول إلى عالم المعنى، بحذاء طرد ورفض الأئمة عن الساحة السياسية.

المؤاخذة الثامنة: توليدهم للفرق المنحرفة

فإنّ انزلاقهم في عدم التحفّظ على الأسرار وما قاموا به من الثورات السياسيّة وغيرها أثّرت في توليد بعض الفرق المنحرفة عن مسير الإمامة الإلهيّة في مرور الأزمان ولنذكر بعض الأمثلة منها:

الأولى: فإنّ من تداعيات الخطابيّة ـ الناشئة من المؤاخذة السابقة ـ أنّهم شكّلوا الأرضيّة لتأسيس مذهب الإسماعيلية، وهذه الآفة تعتبر من أكبر سموم الخطابيّة حيث شطّ لهم التأويل إلى متاركة الأئمّة المعصومين عليهم السلام وسبّب استبدادهم بآرائهم وعقولهم الاغترار بأنفسهم عن الرجوع إلى الأئمة عليهم السلام. وهذا نمط من شعار حسبنا كتاب الله في المسلك المعرفي وقد ابتلى به الصوفية والفرق الباطنية وجملة من العرفاء، وقد عبر عنه البعض بالسقيفة في عالم المعنى والملكوت على قرار السقيفة السياسية في عالم الملك.

قال النوبختي في فرق الشيعة: «فأما الإسماعيلية فهم الخطّابيّة أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وقد دخلت منهم فرقة في فرقة محمد بن إسماعيل وأقرّوا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه وهم الذين خرجوا في حياة أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فحاربوا عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله العباسي وكان عاملاً على الكوفة فبلغه عنهم أنّهم أظهروا الإباحات ودعوا إلى نبوة أبي الخطاب».

ثم ذكر قصة محاربتهم وقتل أبي الخطاب وصلبه وإحراق جسده ثم قال: «ثم خرج من قال بمقالته من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر

بعد قتل أبي الخطاب فقالوا بإمامته وأقاموا عليها»[١].

وقد روى الكشي عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول للمفضل بن عمر الجعفي: يا كافر يا مشرك مالك ولابني يعني إسماعيل بن جعفر وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابيّة ثم رجع بعد[٢].

الثانية: أنّ نشأة القرامطة التي هي فرقة منشعبة من المباركيّة إنما نشأت من الخطابيّة.

قال النوبختي: «وصنوف الغالية افترقوا بعده (أي بعد قتل أبي الخطاب) على مقالات كثيرة ... فقالت فرقة منهم إنّ روح جعفر بن محمد جعلت في أبي الخطاب ثم تحوّلت بعد غيبة أبي الخطاب في محمد بن إسماعيل بن جعفر ثم ساقوا الإمامة في ولد محمد بن إسماعيل وتشعبت منهم فرقة من المباركيّة ممن قال بهذه المقالة تسمّى القرامطة»[٣].

امتدادات الخطابيّة والمغيريّة وجهود الأئمة عليهم السلام في إقلاعهم عن الجسم الشيعي

ومما يشير إلى تمادي قاعدة أبي الخطاب وتيّاره في الانحراف مما أدّى إلى نشوء الفرق:

١ ـ ما رواه الشيخ الطوسي في الغيبة عن جماعة عن جعفر بن محمد بن قولويه وأبي غالب الزراريّ وغيرهما عن محمد بن يعقوب الكليني عن إسحاق في التوقيع ورد عليه من صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف على يد محمّد ابن عثمان:

وأمّا أبو الخطّاب محمّد بن أبي زينب الأجدع ملعون وأصحابه ملعونون فلا تجالس

---

١. فرق الشيعة للنوبختي / ٦٩ ـ ٧١.

٢. رجال الكشي / رقم ٥٨١ .

٣. فرق الشيعة للنوبختي / ٧١ و ٧٢.

أهل مقالتهم فإنّي منهم بريء وآبائي عليهم السلام منهم براء[١].

ورواه الصدوق في كمال الدين عن محمّد بن محمّد بن عصام الكليني عن محمّد بن يعقوب مثله»[٢].

وطريق هذا التوقيع من الصحيح الأعلائي على الأصح في إسحاق بن يعقوب الكليني، والتوقيع يبيّن انحراف ابن أبي الخطاب وأصحابه بعد تماديهم في فساد المقال، وأن امتدادهم بقي إلى عصر الغيبة الصغرى والخطير أن من امتدادهم نشأت الفرقة الإسماعيلية والمباركية والقرامطة، وهذا النتاج يعتبر من أخطر سموم الخطابية.

٢ ـ روى الكشي بسنده عن مرازم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: تعرف مشبّر وشبّر بتوهم الاسم قال: الشعيري، فقلت: بشّار؟ قال: بشار، قلت: نعم جار لي قال: إنّ اليهود قالوا ووحّدوا الله وأن النصارى قالوا ووحّدوا الله، وأنّ بشّاراً قال عظيماً إذا قدمت الكوفة فأته وقل له: يقول لك جعفر: يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك.

قال مرازم: فلمّا قدمت الكوفة فوضعت متاعي وجئت إليه فدعوت الجارية فقلت: قولي لأبي إسماعيل هذا مرازم فخرج إليّ فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك فقال لي: وقد ذكرني سيّدي؟ قال: قلت: نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك فقال: جزاك الله خيراً وفعل بك وأقبل يدعو لي[٣].

٣ ـ وروى أيضاً بسنده عن إسحاق بن عمار قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام لبشّار الشعيري: أخرج عنّي لعنك الله لا والله لا يظلّني وإياك سقف بيت أبداً. فلما خرج قال: ويله ألا قال بما قالت اليهود ألا قال بما قالت النصارى ألا قال بما قالت المجوس أو بما

---

١. الغيبة: ٢٩١.

٢. كمال الدين: ٤٨٥ ح ٤، مستدرك الوسائل ١٢ / ٣١٦.

٣. رجال الكشي / ح ٧٤٤.

قالت الصابئة، والله ما صغّر الله تصغير هذا الفاجر أحد إنّه شيطان بن شياطين خرج من البحر ليغوي أصحابي وشيعتي فاحذروه، وليبلّغ الشاهد الغائب أني عبد بن عبد قن بن أمة ضمّتني الأصلاب والأرحام وأني لميّت وأنّي لمبعوث ثم موقوف ثم مسؤول والله لأسألنّ عمّا قال فيّ هذا الكذّاب وادّعاه عليّ، يا ويله ما له أرعبه الله فلقد آمن على فراشه وأفزعني وأقلقني عن رقادي. وتدرون لم أقول ذلك؟ أقول ذلك لكي أستقرّ في قبري[1].

٤ ـ وروى أيضاً بسنده عن علي بن مهزيار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول ـ وقد ذكر عنده أبو الخطاب ـ: لعن الله أبا الخطاب ولعن أصحابه ولعن الشاكّين في لعنه ولعن من قد وقف في ذلك وشكّ فيه. ثم قال: هذا أبو الغمر وجعفر بن واقد وهاشم بن أبي هاشم استأكلوا بنا الناس وصاروا دعاة يدعون الناس إلى ما دعا إليه أبو الخطاب، لعنه الله ولعنهم معه ولعن من قبل ذلك منهم، يا علي لا تتحرّجن من لعنهم لعنهم الله فإنّ الله قد لعنهم. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تأثّم أن يلعن من لعنه الله فعليه لعنة الله[2].

وهذا الحديث عن الجواد عليه السلام يبيّن بقاء الخطّابية إلى زمانه عليه السلام وأن تشبثهم بالتأويل على غير الموازين كان يموّه الطريق على كبار أهل العلم من الرواة، كما يدلّ الحديث على أنّ الأئمّة عليهم السلام قد كابدوا وعانوا الكثير لإقلاع الخطابيّة بعد انحرافهم عن الجسم الشيعي وجاهدوا لإنجازه الجهد الكبير.

٥ ـ ونظيره أيضاً ما رواه الكشي بسنده عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: ما فعل أبو السمهري لعنه الله يكذب علينا ويزعم أنه وابن أبي الزرقاء دعاة إلينا، أشهدكم أنّي أتبرأ إلى الله عزوجل منهما إنّهما فتّانان ملعونان يا إسحاق أرحني منهما يرح الله عزوجل بعيشك الجنة الحديث[3].

٦ ـ ذكر صاحب تاريخ جرجان في كتابه بسنده عن عيسى الجرجاني قال:

---

١. رجال الكشي / رقم ٧٤٦.

٢. رجال الكشي / رقم ١٠١٢.

٣. رجال الكشي / رقم ١٠١٣.

قلت لجعفر بن محمد: إن شئت أخبرتك بما سمعت القوم يقولون قال: فهات قال: فقلت: فإن طائفة منهم عبدوك اتخذوك إلهاً من دون الله وطائفة أخرى والوالك بالنبوة قال: فبكى حتى ابتلّت لحيته ثم قال: إن أمكنني الله من هؤلاء فلم أسفك دماءهم سفك الله دم ولدي على يدي[١].

والمهم في هذه الأحاديث أن نعرف أنّ معنى الغلوّ ليس هو إثبات المقامات والصفات التي تتعاظم عند كثيرين إسنادها إلى الأئمة ﷺ، وإنّما الغلوّ هو دعوى مقام واسم الربوبيّة والألوهيّة في الأئمة صلوات الله عليهم وكذا الغناء الذاتي والاستقلال في الوجود والإرادة والمشيّة عن الله تعالى. ومن ثمّ صعب طريق الوسط على كثيرين فإمّا يفرّط في مقاماتهم ﷺ بنحو التقصير خوفاً من الوقوع في الغلو، وإمّا يفرط فيثبت الربوبيّة.

ومن المهم الالتفات إلى أنّ الغلاة رغم غلوّهم في الإفراط بالقول إلّا أنهم أيضاً جهلوا مقامات أهل البيت ﷺ، ومن ثم قال الأئمة ﷺ لهم في روايات عديدة: إننا دون ما تقولون أي لسنا بأرباب بل عبيد مرزوقون مربوبون، ولكنّا فوق ما تظنّون أي أنّ حقائق مقاماتهم لم يدركوها هؤلاء الغلاة وإنما أفرطوا بلسانهم من دون علم ومعرفة لهم بكنه مقامات أهل البيت التي هي كرامات من الله عزوجل لهم، إذ هم عباد مكرّمون مقرّبون عند الله عزوجل.

ومن ثمّ ورد عنهم ﷺ: إنّ شرّ الغلاة كشرّ النواصب وليس المراد من ذلك أنّه يكتفى في معرفة أهل البيت بالمحبّة فقط، بل المراد أنّ الغلاة يقطعون الطريق أمام معرفة أهل البيت وينفرون الناس عن سلوك طريق معرفتهم والرقي في درجاتهم مع حفظ الموازين من عبوديتهم لله ومربوبيّتهم ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[٢]، ﴿ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾[٣].

---

١. إحقاق الحق ١٢ / ٢٣٦، عن تاريخ جرجان / ٢٥٣.

٢. الأنبياء: ٢٧.

فالتأثير السلبي للغلاة يماثل ما يصنعه النواصب من الصدّ عن سبيل معرفتهم حيث إنّهم السبيل إلى الله.

مضافاً إلى تحذير ونهي أهل البيت عن جهات أخرى من انحرافات الغلاة، والملاحظ من أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه تشدّد نكيرهم على الطبقات المتأخّرة من الخطّابية والمغيرية وذيولهم وذلك لاستفحال الانحراف وتمادي كثرة غيّه.

الدور الثالث للغلاة وشدّة الانحراف فيهم

قد مرّ أن الشذوذ والشطط بحسب طبيعته يستفحل كلّما تمادى الزمان وهذا ما نجده في الطبقات اللاحقة لأتباع من رمي بالغلو، فالمعاني الخاطئة التي كانت تنطبع عند الآخرين أصبحت هي المتبنيات الرسميّة لدى رموز الطبقات اللاحقة منهم.

فقد روى الكشي بسنده عن سهل بن زياد الآدمي قال: كتب بعض أصحابنا إلى أبي الحسن العسكري عليه السلام: جعلت فداك يا سيدي إنّ علي بن حسكة يدّعي أنّه من أوليائك وأنّك أنت الأول القديم وأنّه بابك ونبيّك أمرته أن يدعو إلى ذلك، ويزعم أن الصلاة والزكاة والحج والصوم كلّ ذلك معرفتك ومعرفة من كان في مثل حال ابن حسكة فيما يدّعي من البابيّة والنبوّة [النيابة]، فهو مؤمن كامل سقط عنه الاستعباد بالصلاة والصوم والحج، وذكر جميع شرايع الدين إنّ معنى ذلك كلّه ما ثبت لك ومال الناس إليه كثيراً. فإن رأيت أن تمنّ على مواليك بجواب في ذلك تنجيهم من الهلكة. قال: فكتب عليه السلام: كذب ابن حسكة عليه لعنة الله وبحسبك أني لا أعرفه في مواليّ، ما له لعنه الله فوالله ما بعث الله محمداً والأنبياء قبله إلّا بالحنيفية والصلاة والزكاة والصيام والحج والولاية، وما دعا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلّا إلى الله وحده لا شريك له، وكذلك نحن الأوصياء من ولده عبيد الله لا نشرك به شيئاً إن أطعناه رحمنا وإن عصيناه

---

٣. الرعد: ١٦.

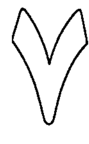
عذّبنا ما لنا على الله من حجّة بل الحجّة لله عزوجل علينا وعلى جميع خلقه، أبرأ إلى الله من يقول ذلك وأنتفي إلى الله من هذا القول، فاهجروهم لعنهم الله وألجأوهم إلى ضيق الطريق فإن وجدت من أحد منهم خلوة فاشدخ رأسه بالصخر[١].

ونحوها من الروايات الأخرى[٢].

قال الطبرسي في الاحتجاج: وقد روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام من ذمّ الغلاة والمفوّضة وتكفيرهم وتضليلهم والبراءة منهم وممّن والاهم ... وكذلك روي عن آبائه وأبنائه عليهم السلام في حقّهم والأمر بلعنهم والبراءة منهم وإشاعة حالهم والكشف عن سوء اعتقادهم كي لا يغترّ بمقالتهم ضعفاء الشيعة ولا يعتقد من خالف هذه الطائفة أنّ الشيعة الإماميّة بأسرهم على ذلك نعوذ بالله منه وممّن اعتقده وذهب إليه[٣].

---

١. رجال الكشي / رقم ٩٩٧.
٢. رجال الكشي / ح ٩٩٤ـ١٠٠٦.
٣. الاحتجاج ٢ / ٤٥٠.



النواب و الأبواب حقيقة حالهم
بين الافراط و التفريط

□ معرفة النواب والأبواب معتقد إيماني و خطورة مقام النيابة الخاصّة

إنّ موقف الطائفة ـ كما يظهر من الشيخ في كتاب الغيبة والصدوق في إكمال الدين والنوبختي في فرق الشيعة وسعد بن عبد الله في كتاب الفرق أيضاً ـ هو أنّ المكذّب بالنائب الخاص لا سيّما النوّاب الأربعة يحكم عليه بالضلال وينقص أو يسلب منه الإيمان، وأنه لا تكمل المعرفة والإيمان إلّا بمعرفة جملة من أولياء الأئمة عليهم السلام الذين يتلونهم ولهذا شواهد عديدة:

منها: فقد روى الكشي عن جبرئيل بن أحمد قال: حدثني أبو سعيد الآدمي سهل بن زياد عن منخّل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ـ إلى أن قال ـ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا ذر إنّ سلمان لو حدّثك بما يعلم لقلت رحم الله قاتل سلمان، يا أبا ذرّ إنّ سلمان باب الله في الأرض من عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً وإنّ سلمان منّا أهل البيت[1].

ومنها: وعن الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام في تفسيره عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حديث ـ إلى أن قال: ثم قال: أتدرون من المتمسك به، الذي يتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذي يأخذ القرآن وتأويله عنّا أهل البيت وعن وسايطنا

---

١. رجال الكشي / ح ٣٣ / ح ٧٧.

السفراء عنّا إلى شيعتنا لا عن آراء المجادلين[١].

وبالنظر لخطورة هذا الموقع السامي فقد كانت الطائفة علماؤها ووجهاؤها يقومون بامتحان من نصّ على نيابتهم الخاصّة من قبل الأئمة عليهم السلام وعلى كونهم باباً لهم كما ذكر ذلك الشيخ ا لطوسي في كتاب الغيبة، وذلك لأنّ منهاج أهل البيت عليهم السلام قائم على الدليل والبرهان والبيّنات بدءً من معرفة الله تعالى ومروراً بضرورة المعجزة على نبوّة الأنبياء وإمامة الأئمة عليهم السلام، مضافاً إلى النصّ الإلهي من كل نبي سابق على اللاحق ومن سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم على سيد الأوصياء عليه السلام وولده عليهم السلام ومن الإمام السابق عليه السلام على اللاحق عليه السلام .

وممّا يبيّن أيضاً خطورة مقام النيابة الخاصة ومقام الباب للمعصوم عليه السلام ملاحظة الموقف الفقهي لدى علماء الإمامية تجاه المدّعين الكذابين لهذا المقام، وهو موقف اللعن والبراءة والطرد لهم على الطائفة، تبعاً لما صدر من الأئمة عليهم السلام من المواقف الصارمة كما صدر من التوقيعات من الناحية المقدسة حول أولئك. وقد عقد الشيخ في الغيبة باباً لذكر المذمومين الذين ادّعوا البابية والسفارة كذباً وافتراءاً.

وهناك موقف فقهي ثالث يتّصل بخطورة مقام النيابة الخاصة أيضاً هي لعن وبراءة الطائفة ممن ينكر النيابة الخاصة والسفارة للنوّاب الأربعة في الغيبة الصغرى.

ففي أحمد بن هلال الكرخي مثلاً قال الشيخ في الغيبة قال أبو علي بن همام كان أحمد بن هلال من أصحاب أبي محمّد عليه السلام فاجتمعت الشيعة على وكالة أبي جعفر محمد بن عثمان رضي الله عنه بنصّ الحسن عليه السلام ولما مضى الحسن عليه السلام قالت الشيعة الجماعة له: ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان وترجع إليه وقد نصّ عليه

---

١. وسائل الشيعة / أبواب صفات القاضي / ب ٥ / ح ٨.

الإمام المفترض الطاعة؟ فقال لهم: لم أسمعه ينصّ عليه بالوكالة وليس أنكر أباه يعني عثمان بن سعيد فلمّا أن أقطع أنّ أبا جعفر وكيل صاحب الزمان فلا أجسر عليه فقالوا: قد سمعه غيرك فقال: أنتم وما سمعتم، ووقف على أبي جعفر فلعنوه وتبرأوا منه، ثم ظهر التوقيع على يد أبي القاسم ابن روح ﷺ بلعنه والبراءة منه في جملة من لُعن.

ومما يبيّن أيضاً حساسية هذا الموقع ما روى الشيخ في التهذيب في زيارة قبور النواب الأربعة: جئتك مخلصاً بتوحيد الله وموالاة أوليائه والبراءة من أعدائهم ومن الذين خالفوك يا حجّة المولى وبك إليهم توجّهي وبهم إلى الله توسّلي[1] ففيه تولي لأوليائه وتبرّي من أعدائه، وأنه بالنائب الخاص يتوجّه إلى الأئمة فهو بابهم عليهم السلام كما أنّ الأئمة باب الله.

ومنها: ما روى الشيخ في زيارة الشيخ أبي القاسم العمري: أشهد أنك باب المولى أديت عنه وأديت إليه، ما خالفته ولا خالفت عليه فقمت خالصاً وانصرفت سابقاً جئت عارفاً بالحق الذي أنت عليه وأنك ما خنت في التأدية والسفارة[2].

ويظهر منها أنّ السفارة ليست هي الرواية بل هي التأدية عن طريق الإلهام الروحي.

فهذه الحجية تختلف عن حجية العدالة في الرواية وتختلف عن حجية الفقاهة والاجتهاد، لأن الأخيرة هي حاصل استنتاج فكري عبر فهم المعاني من الآثار اللفظية ومن ثم أطلق عليه باب، إذ عنوان الباب اصطلاح دارج في الروايات للتلقّي عبر العلم الحضوري لا الكسبي الحصولي مثل قوله تعالى: ﴿إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾[3] وقول رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا مدينة

---

١. التهذيب ٦ / ١١٨.

٢. التهذيب ٦ / ١١٨ باب زيارة الأبواب.

٣. الأعراف: ٤٠.

العلم وعليّ بابها[١].

ومن ثم بنى فقهاء الإمامية على كون هذه الحجية تختلف عن حجية الفقاهة والراوي فتبرأوا من كل من أنكر نيابة النوّاب الأربعة وحكموا بضلاله وبمقاطعة الطائفة لهم.

ومنها: ما ورد في الزيارة: والسلام عليك من باب ما أوسعه ومن سفير ما آمنك وثقة ما أمكنك، أشهد أنّ الله اختصك بنوره حتى عاينت الشخص فأديت عنه وأديت إليه، والتعبير بأن اختصك الله بنوره دالّ على مقام معنوي واصطفاه بدرجة والاختصاص بعين الاصطفاء بدرجة نازلة.

وهكذا التعبير بالأداء المتفرّع على العيان لشخص الصاحب عجّل الله فرجه المتفرّع على المقام النوري للنائب الخاص، دالّ على أنّ التلقّي من الناحية ليس بالسماع الحسّي الكسبي، وهذا يعطي أنّ مقام ومنصب النيابة الخاصة وساطة معنوية بين المعصوم أو الناحية المقدسة عجّل الله فرجه وبين الناس وتمثيل رسمي. ومن ثم يشاهد المدّعين الكذابين لهذا المقام أنهم تمخرقوا وتبهرجوا بادعاء مقامات غيبية باطلة وشؤون ملكوتية زائفة.

ومنها: ما ورد في زيارة سلمان: السلام عليك يا أبا عبد الله سلمان ... يا من لم يتميّز من أهل البيت الإيمان ... يا من قال له سيد الخلق من الإنس والجان: أنت منّا أهل البيت لا يدانيك إنسان ... أتيتك يا أبا عبد الله زائراً قاضياً فيك حق الإمام فاسأل الله ... أن يحيني حياتك وأن يميتني مماتك ويحشرني محشرك وعلى إنكار ما أنكرت ومنابذة من نابذت والرد على من خالفت[٢].

فإن التعبير بكونه من أهل البيت وكذا التولّي له بالمتابعة وعلى نهجه والبراءة ممن عاداه يفيد تولّ خاص له.

---

١. بحارالانوار: ١٠/١٢٠.

٢. التهذيب ٦ / ١١٨.

ومنها: ما روى الكشي عن أبي جعفر عليه السلام: كان والله علي محدّثاً وكان سلمان محدثاً قلت: اشرح لي! قال: يبعث الله إليه ملكاً ينقر في أذنه بقول كيت وكيت(١).

وروى الكشي في ترجمة سلمان من قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الحديث الذي روى أنّ سلمان كان محدّثاً، قال: إنه كان محدّثاً عن إمامه لا عن ربّه لأنّه لا يحدّث عن الله عزوجل إلّا الحجّة(٢).

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الباب للمعصوم يلهم من قبل المعصوم، وهذا الذي وقع الغلاة والطيارة في خطأ في تأويله وتفسيره، كما وقع من العامة كذلك من الخطأ في تفسيره فتوهّموا أنّ الملهِم ـ بالكسر ـ لابدّ أن يكون إلهاً والملهَم ـ بالفتح ـ لابدّ أن يكون نبياً، وهذا من قصور باعهم في المعارف القرآنية فإنّ الوحي والإلهام الإلهي على أقسام وأنماط كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾(٣).

فإنّ الملك أيضاً يُلهِم ويوحي بإذن الله، فالملهِم يكون الملك والملهَم يكون الإنسان. وكما في تحديث جبرئيل والملائكة لمريم.

نعم مقام الباب والنائب الخاص ليس كمقام من يصطفيه الله من الحجج.

ومنها: ما روى الكشي عن أبي جعفر عليه السلام يقول: كان سلمان من المتوسّمين(٤).

ومنها: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء علىٰ لهجة أصدق من

---

١. رجال الكشي / رقم ٣٦.
٢. رجال الكشي / رقم ٣٤.
٣. الشورى / ٥١.
٤. رجال الكشي / رقم ٢٥.

أبي ذر[١].

وهذا المفاد يفترق عن مفاد الإخبار عن الوثاقة والشهادة بها، كما أنه يختلف عن حجية إخبار الفقيه، وذلك لأنه شهادة من المعصوم ببقاء هذه الصفة طيلة حياته، وهذا بخلاف العدالة في الراوي فإنها قد تسلب عنه في فترات لاحقة كما أنّ حجّية الفقاهة تستند إلى فهم الأدلّة والاستنتاج منها بينما الصدق الذي نعت به أبوذر الغفاري لا يستند إلى الفهم والاستنتاج بل إلى الإخبار المحض.

ومنها: قول النبي ﷺ لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية وقد احتج به الفريقان على بغي معاوية، فإنّ مقتضى إخباره هذا هو أنّ عمار لا يجاهد إلّا في صفّ الحق ضد الباطل فيكون معلماً لاستعلام الحق والباطل.

ومنها: قول النبي ﷺ: أنّ أم أيمن من أهل الجنّة فاحتجّ به عليّ عليه السلام على صدق شهادتها في فدك وهي شهادة في حقوق سياسية وعقائدية دينية ولم تكن نزاع فردي.

ومنها: قول الله عزوجل في مؤمن آل فرعون: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾[٢]. بضميمة ما ورد: أنّ الصديقين ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي يقول: ﴿اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم[٣] وقد رواه الفريقان باختلاف يسير في التعبير.

ومنها: ما ورد في البحار في باب تاريخ أعمام النبي ﷺ من تلقينه ﷺ لحمزة سيد الشهداء التوحيد والنبوة والإمامة وأنّ الزهراء سيدة النساء وأنّ حمزة

---

١. روضة الواعظين: ٢٨٣، الإحتجاج: ١/٣٨٧.

٢. غافر / ٣٨.

٣. أمالي الصدوق / ٥٦٣، والعمدة لابن بطريق / ٢٢١، وبحار الأنوار ٣٨ / ٢١٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ / ١٧٢، وكنز العمال ١١ / ٦٠١ / ح ٣٢٨٩٨.

سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنان وأنّ ذلك مما يسأل عنه، فكما يسأل عن النبي والإمام كذلك يسأل عن كون حمزة سيد الشهداء وجعفر طيار في الجنان.

ومنها: ما ورد في صحيحة سعد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن زيارة فاطمة بنت موسى عليها السلام قال: من زارها فله الجنّة[١].

وما ورد في البحار عن الإمام الرضا عليه السلام: من زارها عارفاً بحقها فله الجنّة[٢].

والتعبير بـ «عارفاً بحقها» يدلّ على أنّ لمعرفتها ومعرفة حقّها دخل في إيجاب الجنّة، والملفت للنظر أنّ الموجب للجنة هو المعرفة لا العمل.

ومنها: ما ورد في البحار في معرفتهم بالنورانية؛ والحديث طويل مفصّل بيّن فيه الإمام عليه السلام لجابر الجعفي مقام الإمامة وحدّ التقصير في معرفة الإمام عليه السلام وغير ذلك. فقال جابر: الحمد لله الذي منّ عليّ بمعرفتكم وألهمني فضلكم ووفّقني لطاعتكم موالاة مواليكم ومعاداة أعدائكم. قال عليه السلام: يا جابر أو تدري ما المعرفة؟ المعرفة إثبات التوحيد أولاً ثم معرفة المعاني ثانياً ثم معرفة الأبواب ثالثاً ثم معرفة الأنام رابعاً ثم معرفة الأركان خامساً ثم معرفة النقباء سادساً ثم معرفة النجباء سابعاً وهو قوله تعالى: ﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[٣] ... أمّا إثبات التوحيد معرفة الله القديم ... وأما المعاني فنحن معانيه ومظاهره فيكم ... يا جابر من عرف الله تعالى بهذه الصفة فقد أثبت التوحيد ...[٤].

---

١. بحار الأنوار ١٠٢ / ٢٦٥ .

٢. بحار الأنوار ١٠٢ / ٢٦٥ .

٣. الكهف: ١٠٩.

٤. بحار الأنوار ٢٦ / ١٣ .

□ النيابة الخاصّة والمخاطر التي مرّت بها في عهد المعصومين إلى نهاية الغيبة الصغرى

قد أكّد الأئمة عليهم السلام وشدّدوا على إخفاء من ينوّبونه نيابة خاصّة على نمط سفارة السفراء الأربعة، الذين يدعون بباب الإمام، حذراً من استغلال السفلة هذا المقام وهذه المعرفة الخاصّة، فيقومون بالمتاجرة زيغاً بادّعاء هذا المقام وتقمّصاً لهذه المدّعيات. وفي براءة الأئمة عليهم السلام من هؤلاء ولعنهم وطردهم دلالة واضحة على مستند فتوى الطائفة في الغيبة الصغرى وفي بدايات الغيبة الكبرى، من التبرّي من كلّ من يدعّي النيابة الخاصّة والسفارة والحكم بمروقه عن الإيمان ولعنه وطرده من الطائفة[1].

فهذه المواقف من أئمة أهل البيت عليهم السلام المستفيضة عنهم تجاه من يدّعي البابية دالّة بوضوح على خطورة هذه المقامات في الشريعة، وأنّه من التكذيب المفترى على الله ورسوله والأئمة الذي لا يدانيه تكذيب بدرجة يكون سالباً للإيمان ومروقاً من الولاية والهدى.

كما أنّ ما اشتهر عن هؤلاء المدّعين من ادّعائهم النبوّة عطفاً على ادّعائهم

---

١. الاحتجاج ٢ / ٥٥٢ و ٥٥٣ في ذكر المذمومين الذين ادّعوا البابيّة والسفارة كذباً وافتراءاً وقد خرج التوقيع بلعنهم.

النيابة خير دليل على أنّ حقيقة مدّعاهم هي السفارة النيابة الخاصّة لا سفارة النبوّة، ولكنّ هذه النيابة الخاصة المسمّاة بالسفارة عن الإمام ـ كما في النوّاب الأربعة في الغيبة الصغرى ـ لمّا كانت بمنزلة من الخطورة في الملّة والدين، كان ادّعائها بغير حق بمنزلة ادّعاء النبوّة، أي ادّعاء ارتباط بمصدر غيبي لدنّي.

كما أنّ ذلك يشف وينمّ عن مسألة هامة جدّاً وهي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين كان لديهم أبواب ونواب خاصين كسفراء في أزمانهم[1]، إلّا أنّ ذلك المقام والمسؤولية المعهودة إليهم لم تكن بمستوى السفراء الأربعة في الإعلان والبروز، بل كانت في طيّ الكتمان والخفاء وكانت في الظاهر بعنوان الوكالة المعتادة، إلى أن وصلت النوبة إلى عهد العسكريين عليهما السلام فصار مستوى المعرفة والعلم لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام والفقهاء بدرجة مؤهّلة وقابلة لفهم ذلك ووعايته والأمن من الاغترار بالمدّعين الكذّابين السفلة، كما هو الحال في العمريين الأب والإبن حيث كانا وكيلي العسكريين عليهما السلام ولهما نيابة خاصة وسفارة شبه معلنة منهما عليهما السلام، فكانت فترة الغيبة الصغرى مرحلة بلغت فيها عقول المؤمنين ومعرفتهم وعلمهم وإيمانهم بهذا المقام درجة يؤمن فيها من الانجرار والانزلاق في حبائل ومصيدة المدّعين الكذّابين.

بل قد بلغت الشيعة مستوى من المعرفة والإيمان إلى درجة التمييز بين الأبواب الصادقين الذين ذكرهم الشيخ الطوسي في الغيبة عند ذكره للسفراء المحمودين عن الكذّابين المدّعين إلى أن وصلت النوبة إلى انقطاع النيابة الخاصّة بنهاية الغيبة الصغرى.

---

١. لاحظ الفصل الثامن من كتاب الإمامة الإلهية الجزء الثالث، وكتاب دعوى السفارة في الغيبة الكبرى.

تقادم ادعاء البابية والنيابة الخاصة

والظاهر أنّ ادعاء البابية بدأ من عهد الرسول على لسان مسيلمة ثمّ ابن سبأ ثم المختار.

روى الكشي عن سعد بن عبد الله قال: حدّثني محمد بن خالد الطيالسي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصدق البريّة لهجة وكان مسيلمة يكذب عليه وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ الله من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه بما يفتري عليه من الكذب عبد الله بن سبأ لعنه الله وكان أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام قد ابتلي بالمختار.

ثم ذكر أبو عبد الله الحارث الشامي وبيان فقال: كانا يكذبان على علي بن الحسين عليه السلام. ثم ذكر المغيرة بن سعيد وبزيعاً والسرّي وأبا الخطاب ومعمّراً وبشاراً الأشعري وحمزة البربري وصايد النهدي. فقال: لعنهم الله إنّا لا نخلو من كذّاب أو عاجز الرأي كفانا الله مؤنة كلّ كذّاب وأذاقهم الله حرّ الحديد[١].

والرواية صحيحة السند والظاهر أن الراوي عبد الله بن سنان، وقد مرّ أنّ كذب هؤلاء كان على شاكلة واحدة ـ عدا مسيلمة ـ وهو إذاعة أسرار المعارف حيث إنّ نشرهم وإذاعتهم لها يوجب انطباع معنى معكوس ومقلوب لدى عامة الناس مما يوهم التأليه للأئمة عليهم السلام وأنّ ذلك مقصود من هذه المقامات، وهو معنى خاطئ فاسد يتوهّمه عامة من يسمع تلك الروايات والمضامين فيتسبّبون لنسبة تلك المعاني الباطلة إلى الأئمة عليهم السلام فيكون ذلك كذباً عليهم؛ مضافاً إلى ادّعائهم النيابة الخاصّة عنهم عليهم السلام ممّا يتضمّن دعوى الإلهام منهم وهؤلاء سبّبوا بذلك

---

١. رجال الكشي / ٣٧١ / ح ٥٤٩.

نشوء فرق من الغلاة التي تؤلّه الأئمة عليهم السلام وقد أحاط بهم جماعات من طلّاب الرئاسة والمال.

وأما مسيلمة فالصورة عنه وإن لم تكن واضحة في المصادر إلّا أنّه قد مرّ في بعض القصاصات من مصادر العامّة يظهر منه ذلك أيضاً. ومرّ أيضاً أنّ قوله عليه السلام كان يكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظهر منه أنه كان يسند أقوالاً إلى النبي ويدّعي نحو ارتباط معه ولو كان يدّعي النبوّة لكان مكذّباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فإنّ روايات أهل سنة الجماعة على نمطين:

بعضها أنّه صلى الله عليه وآله وسلم ذمّه في أوّل لقاء معه، والأخرى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مدحه ثم أخذ مسيلمة يدّعي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه أشركه في الأمر. كما أنّهم ذكروا أنّ الناس اختلفوا وافتتنوا في كلامه فصدر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تكذيبه.

ثم إنّ ما في رواياتنا من أنّه كان يكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس فيها أنّه مدّعٍ للنبوّة بل الظاهر منها أنّه كان يدّعي أنّه ملهم من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فصوّره العامّة أنّه دعوى النبوّة لنفسه كما صوّروا أيضاً في الطعن على ابن سبأ أنّه يدّعي النبوّة لنفسه والألوهيّة لعلي عليه السلام لما مرّ من خلطهم بين المقامين ؛ مقام الباب والنائب الخاص ومقام النبوّة، ولم يميّزوا بين أنماط الوحي والإلهام. والمدّعي لهذا المقام وإن كان كاذباً في دعواه، ولكن أصل معنى ذلك المقام يغاير دعوى النبوّة.

وقال الكشي: قال سعد وحدثني ابن العبيدي قال: حدّثني أخي جعفر بن عيسى وعلي بن إسماعيل الميثمي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: آذاني محمد بن الفرات آذاه الله وأذاقه الله حرّ الحديد، آذاني لعنه الله أذى ما آذى أبو الخطّاب لعنه الله جعفر ابن محمد عليه السلام بمثله وما كذب علينا خطّابي مثل ما كذب محمد بن الفرات والله ما من أحد يكذب علينا إلّا ويذيقه الله حرّ الحديد.

قال محمد بن عيسى: فأخبراني وغيرهما ما لبث محمد بن فرات إلّا قليلاً حتى قتله إبراهيم بن شكلة أخبث قتلة، وكان محمد بن فرات يدّعي أنّه باب وأنّه

نبي وكان القاسم اليقطيني وعلي بن حسكة القمي كذلك يدّعيان لعنهما الله[١].

أقول: إبراهيم بن شكلة هو إبراهيم بن مهدي بن منصور أخو هارون وأمّه شكلة، ومحمد بن فرات جعفي خطابي بغدادي كوفي.

وعن الكشي أيضاً قال: حدّثني الحسين بن الحسن بن بندار القمي قال: حدّثنا سهل بن زياد الآدمي قال: كتب بعض أصحابنا إلى أبي الحسن العسكري عليه السلام: جعلت فداك يا سيّدي إنّ علي بن حسكة يدّعي أنّه من أوليائك، وأنّك أنت الأوّل القديم، وأنّه بابك ونبيّك أمرته أن يدعو إلى ذلك، ويزعم أنّ الصلاة والزكاة والحجّ والصوم كلّ ذلك معرفتك ومعرفة من كان في مثل حال ابن حسكة فيما يدّعي من البابيّة والنبوّة فهو مؤمن كامل سقط عنه الاستعباد بالصلاة والصوم والحجّ، وذكر جميع شرائع الدين أنّ معنى ذلك كلّه ما ثبت لك ومال الناس إليه كثيراً، فإن رأيت أن تمنّ على مواليك بجواب في ذلك تنجيهم من الهلكة؟

قال: فكتب عليه السلام: كذب ابن حسكة عليه لعنة الله، وبحسبك أنّي لا أعرفه في مواليّ ما له لعنه الله. فوالله ما بعث الله محمداً والأنبياء قبله إلّا بالحنيفية والصلاة والزكاة والصيام والحجّ والولاية. وما دعا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلّا إلى الله وحده لا شريك له وكذلك نحن الأوصياء من ولده عبيد الله لا نشرك به شيئاً، إن أطعناه رحمنا وإن عصيناه عذّبنا ما لنا على الله من حجّة، بل الحجّة لله عزّوجلّ علينا وعلى جميع خلقه. أبرأ إلى الله ممّن يقول ذلك وأنتفي إلى الله من هذا القول. فاهجروهم لعنهم الله وألجأوهم إلى ضيق الطريق. فإن وجدت من أحد منهم خلوة فاشدخ رأسه بالصخر[٢].

ويظهر من هذه الأحاديث أنّ تمادى الخطابية في ادعاء المقامات المعنوية والمعارف أولد أعداداً من المدعين للبابية والنيابة الخاصة ثم الجحود لظواهر

---

١. رجال الكشي / ٥٩٨ / ح ١٠٤٨.

٢. رجال الكشي / ٥٦٧ / ح ٩٩٧.

الشريعة والأحكام.

والغرض من الخوض في هذا الفصل هو الإشارة إلى جملة من النقاط التالية:

الأولى: أنّ جملة من الرواة الذين طعن عليهم بالغلو قد كانوا في أيام استقامتهم من رواة المعارف ذوي الحصيلة العلميّة، إلّا أنّ النزعات النفسانيّة دعت عدة منهم إلى ادّعاء النيابة الخاصّة ومقام الباب للمعصوم عليه السلام فلابدّ من التفكيك بين ما يروونه من المعارف وبين دعواهم الكاذبة بالبابيّة والنيابة الخاصّة.

الثانية: أنّ عدّة من الرواة الذين طعن عليهم بالغلو ممن كانت له فترة استقامة، كانت له أيام استقامته حظوة خاصّة عند أئمة أهل البيت عليهم السلام نظير حظوة بلعم بن باعورا عند الله، فلربما كانت لهم أهليّة النيابة الخاصّة، إلّا أنّ الخلود إلى أرض النفس والشهوات كما أسقط بلعم بن باعورا من مقام القرب عند الله إلى مثل الكلب كذلك أولئك عندما زاغوا وانحرفوا. ولكن ذلك لا يخدش فيما رووه أيام استقامتهم كما لا يخدش بمن تتلمذ على يدهم أيام استقامتهم وكان من حضّار مجالسهم والمتلقّين لرواياتهم. وقد مرّ أن محمد بن مسلم وزرارة وحمران بن أعين وغيرهم من أوتاد وأركان الرواة وفقهائهم قد رووا عن هؤلاء أيام استقامتهم.

الثالثة: يظهر من بعض إشارات الروايات أنّ عدّة من رواة المعارف والأسرار ممن استقام على جادّة الوسطى ولم يربكه زيغ الآخرين لم يكن مجرد وكيل للإمام عليه السلام بل كان باباً ونائباً خاصّاً مستتراً.

الرابعة: أنّ مفهوم النيابة ومقام الباب للمعصوم حيث أخذ في التفشّي والانتشار شيئاً فشيئاً فسبب ذلك أن قام بتقمّصه والتدليس بتلبّسه جملة كثيرة من الكذابين والدجّالين، وهذا ممّا أربك المفاهيم ومعاني المعارف لدى الكثيرين وانطبعت صورة مربكة لدى المخالفين من المذاهب الأخرى، فأخذوا بالطعن على كافّة رواة المعارف بتلك المفاهيم الخاطئة. واشتدّ سعير الطعن بتجاوب تيار

رواة الفقهاء والمتكلّمين بتأييد هذا الطعن على رواة المعارف، وربما كان المبرر لهم في تشديد هذا الطعن تخوّفهم من عدم استقامة رواة المعارف إلى نهاية المطاف لا سيما وأنهم شاهدوا أنّ عدّة ممن كانوا على استقامة قد زلّت بهم الأقدام إلى إحداث فرق باطنيّة لا تستمسك بفقه وثوابت الشريعة، ولا تعض على تعلّم الفقه وأحكام الشريعة بحثٌ ولا طلب.

الخامسة: أنّ جملة من رواة التيّار الفقهي والكلامي من الخاصّة فضلاً عن جمهور علماء العامة قد طعنوا على من رموهم بالغلو بأنّهم ادّعوا النبوّة لأنفسهم والألوهية في الإمام وأنّ الإمام يوحي إليهم. والظاهر أنّ الطاعنين قد اختلط لديهم الحال بين ادّعاء النيابة الخاصّة والنبوّة، حيث لم يتّضح لديهم حقيقة الفرق بين الإلهام في النيابة الخاصّة من الإمام للنائب الخاص في نطاق محدود من المسائل التدبيريّة والتنفيذية وكشف الأحوال في الموضوعات، وبين الإلهام في الوحي النبوي من الله للأنبياء في إبلاغ الشرائع والأحكام الناسخة.

□ أسماء النوّاب

ذكر الثقة العين كثير الحديث الأقدم ابن أبي الثلج البغدادي[1] المتوفّى سنة ٣٢٥هجرية في كتابه تاريخ الأئمة عليهم السلام ـ الذي ترجم له النجاشي وذكر له سنداً إلى الكتاب كما ترجم له الشيخ في الفهرست والرجال، وطريق الشيخ إلى كتبه صحيح، بل طريق النجاشي إليه صحيح على الأصح لجلالة أبي المفضّل الشيباني ـ باباً تحت عنوان أبواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وقال فيه:

أما النبي صلى الله عليه وآله وسلم بابه أمير المؤمنين عليه السلام.

علي بن أبي طالب عليه السلام بابه سلمان الفارسي كان الباب سفينة ذو اليدين صاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الحسن بن علي عليه السلام بابه سفينة وقيس بن عبد الرحمن.

الحسين بن علي عليه السلام بابه رشيد الهجري.

علي بن الحسين عليه السلام بابه أبو خالد الكابلي ويحيى بن أم طويل قتله الحجاج بواسط.

---

١. قال النجاشي عنه: ثقة عين كثير الحديث (١٠٣٧) وقال الشيخ عنه في الرجال في مَن لم يرو عنهم: بغدادي خاصي يكنى أبا بكر سمع منه التلعكبري ... (الفهرست / ٦٦٤ والرجال في من لم يرو عنهم / ٦٤ و ١١٩).

محمد بن علي عليه السلام بابه جابر بن يزيد الجعفي.

جعفر بن محمد عليه السلام بابه المفضل بن عمر.

موسى بن جعفر عليه السلام بابه محمد بن الفضل.

علي بن موسى عليه السلام بابه محمّد بن الفرات.

محمد بن علي عليه السلام بابه عمر بن الفرات.

علي بن محمد عليه السلام بابه عثمان بن سعيد العمري.

الحسن بن علي عليه السلام بابه عثمان بن سعيد.

القائم الحجّة المنتظر عليه السلام بابه عثمان بن سعيد، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه أبي جعفر محمد بن عثمان بعهد عهده إليه أبو محمد الحسن بن علي روى عنه ثقات الشيعة أنه قال: هذا وكيلي وابنه وكيل ابني، يعني أبا جعفر محمد بن عثمان العمري. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أبي القاسم الحسين بن روح النميري ثم أمر أبو القاسم بن روح أن يعقد لأبي الحسن السمري ثم بطي الباب والله أعلم. انتهى كلامه.

أقول: إنّ البعض ممن عدّهم من الأبواب كمحمد بن الفرات قد عدّ من الغلاة الطيّارة لا من الأبواب فليلحظ!

وعن ابن طاووس في ربيع الشيعة: أنّ محمد بن علي بن مهزيار من السفراء والأبواب المعروفين الذين لا تختلف الإماميّة القائلون بإمامة الحسن بن علي عليهما السلام[1].

وكذا عدّ محمد بن علي بن بلال من السفراء الموجودين في الغيبة الصغرى[2].

بل قد كان لجملة من هؤلاء النوّاب والسفراء سفراء آخرون يتوسّطون بين

---

١. معجم رجال الحديث ١٧ / ٣٠.

٢. معجم رجال الحديث ١١ / ٣٠٩.

النواب الخاصّ وعموم الشيعة، وقد عدّ الشيخ ﵀ في الغيبة جملة منهم وهم: أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي وأحمد بن إسحاق وإبراهيم بن محمد الهمداني وأحمد بن حمزة[١].

وقد أوردنا في الفصل الثامن من كتاب الإمامة الإلهيّة أسماء جملة منهم ممّا جاءت به الروايات، وليس ذلك بنحو الاستقصاء التام.

١. الغيبة للشيخ / ٤١٥ ـ ٤١٧.





البترية ، الاتجاه المعاكس لرواة المعارف

□ ظاهرة النفاق في الإسلام وظاهرة النفاق في الإيمان متحاذيتان

فإنّ ظاهرة النفاق في الإسلام ابتدأت في صدر الإسلام واعتمدت على التحلّي بحلية نسك ونواميس أعمال الإسلام البدنيّة الظاهرة، إلّا أنّها تتنكّر في قلبها ومعارفها لحقيقة التسليم وواقعيته بفرائض الله وأوامره وحاكميّته فضلاً عن سنن وأوامر وحاكمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وليس من الضروري أن يلتفت من يعيش في حالة النفاق إلى الازدواجية التي يعيشها، والتناقض بين الزي الديني الذي تلبّس به في سلوكه الظاهر وبين تمرّده القلبي والمعرفي الذي يتبنّاه ويسلكه في قناعاته ورؤاه الفكرية، فهو يمزج بين الحالتين الباطنة والظاهرة المتدافعتين من دون أن يقرّ بالتناقض والتدافع فيما بينهما. ومن ثمّ يكون نتيجة سلوكه حتى في الظاهر ممزوجاً بأفعال عدائية مخرّبة لكيان الدين ومساره ومنهاجه رغم تقمّص هذا الشخص لزي نسك وطقوس الإسلام على صعيد سلوكه الفردي أو في العبادة الفردية أو في بعض الأفعال ذات صبغة الملة الحنيفية.

وقد وقع التركيز وإلقاء الضوء كثيراً على النفاق في الإسلام منذ بدايته وجرت كثير من الدراسات والمتابعات تبعاً لما أشارت إليه الآيات والروايات وتتابعت هذه البحوث طيلة أربعة عشر قرناً، إلّا أنّ ظاهرة النفاق في الإيمان لم

يسلّط الضوء عليها رغم أنّها متقادمة في التاريخ منذ بداية وجود الإيمان كمنهاج وطريقة في ملّة الإسلام.

فإنّ منهاج الإيمان أخذ زيّاً وطقوساً ونواميس خاصّة منضمّة إلى زيّ ونواميس وطقوس الإسلام، فأصبح للإيمان شكلاً في الظاهر ولباساً وقميصاً كما هو الحال للإسلام في الظاهر، وكما أنّ للإسلام سبباً للاعتناق في الظاهر وهو الإقرار بالشهادتين، فإنّ للإيمان سبباً في الظاهر وهو الإقرار بالشهادات الثلاث، وكما أنّ المنافق في الإسلام على أنواع وأقسام ودرجات؛ فقد ينتسب ويوالي بزعمه الله تعالى ورسوله ويعادي علياً والعترة أو قد يوالي بزعمه الله تعالى ويعادي رسول الله، فكذلك الحال في النفاق في الإيمان فإنّه على درجات وأقسام عديدة جدّاً؛ فقد يوالي علياً ويعادي الحسنين أو يوالي أصحاب الكساء ويعادي زين العابدين عليه السلام والباقر عليه السلام والصادق عليه السلام كما حصل ذلك لجملة من أصحاب علي عليه السلام، أو يوالي العترة إلى الصادق عليه السلام ويعادي الكاظم عليه السلام والرضا عليه السلام أو الجواد عليه السلام كما حصل للإسماعيلية والناووسية والواقفية والكرخية وغيرها من فرق الشيعة، أو قد تكون الموالاة للأئمة بزعم الشخص في الظاهر ولكنّه يتمرّد على الانقياد لهم ولا يسلّم تلك الحجّية والولاية لهم بحسب المقامات والأوامر الصادرة عنهم.

وقد أشير إلى ظاهرة أشكال ونماذج مختلفة من النفاق في الإيمان في الروايات:

١ ـ الذي يوالي أهل البيت ولكنّه يضعف عن البراءة من أعدائه.

ففي صحيح إسماعيل الجعفي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: رجل يحب أمير المؤمنين عليه السلام ولا يتبرأ من عدوّه وهو يقول: هو أحبّ إليّ ممن خالفه، فقال: هذا

مخلط وهو عدو، فلا تصل خلفه ولا كرامة إلّا أن تتقيه[١].

وفي مستطرفات السرائر أنه قيل للصادق عليه السلام أن فلاناً يواليكم إلّا أنّه يضعف عن البراءة من عدوكم قال: هيهات كذب من ادعى محبتنا ولم يتبرّأ من عدوّنا[٢] وللتولي والتبري مراتب: منها معرفي عقائدي ومنها عملي في الولاء السياسي أو السلوك الفردي. ومن هنا أفتى الشيخ في المبسوط والقاضي في المهذب والعلامة في التذكرة أنه لا يجوز إمامة من يتظاهر بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولم يتبرّأ من أعدائه[٣].

٢ ـ المنتحل أي الذي يتقمص الولاء لأهل البيت عليهم السلام ولكنه عار عن حقيقته كأن يكون ولاؤه السياسي لغيرهم.

ففي رواية زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام فقال لي: يا زياد إنك لتعمل عمل السلطان قال: قلت: أجل، قال لي: ولم، قلت: أنا رجل لي مروة وعليّ عيال وليس وراء ظهري شيء فقال لي: يا زياد لئن أسقط من جالق وأتقطع قطعة قطعة أحبّ إليّ من أن أتولى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط أحدهم إلّا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك فقال: إلّا لتفريج كربة عن مؤمن أو فك أسره أو قضاء دينه، يا زياد إن أهون ما يصنع الله لمن تولى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق، يا زياد فإن تولّيت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك، يا زياد أيّما رجل منكم تولى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له: أنت منتحل كذاب، يا زياد إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة الله عليك غداً ونفاد ما أتيت إليهم عنهم وبقاء ما أتيت إليهم عليك[٤].

---

١. وسائل الشيعة / أبواب صلاة الجماعة ب ١٠ / ٣.
٢. مستطرفات السرائر: ٤٦٠، بحار الأنوار ٢٧ / ٥٧.
٣. المبسوط ١ / ١٥٥، المهذب ١ / ٨٠، تذكرة الفقهاء ٤ / ٣٨٠.
٤. الكافي ٥ / ١٠٩.

فالذي يساوي بين أتباع أهل البيت عليهم السلام وبين المخالفين في تعامله من موقع منصبه في حكومة الجور هو مؤشر على كونه حركته في الحياة السياسية على خلاف الولاء السياسي لأهل البيت عليهم السلام .

٣ـ روى الكشي عن أبي الحسن عليه السلام قال أبو عبد الله عليه السلام: ما أنزل ا لله سبحانه وتعالى آية في المنافقين إلّا وهي فيمن ينتحل التشيّع[1].

وفي هذا الحديث دلالة على أنّ آليات النفاق لتقمّص الإيمان تتعدّد وتتنوّع بسعة أشكال ونماذج وآليات النفاق في الإسلام، وأنّه كما أنّ للإسلام ظاهر صوري وواقع حقيقي فكذلك للإيمان ظاهر صوري وواقع حقيقي، وأن الظاهر وإن كان لابد منه وبه يتميّز المؤمن عن غيره كضرورة ظاهر الإسلام يتميّز المسلم عن الكافر إلّا أنّه لابدّ من الواقع أيضاً وبدونه يكون نفاقاً.

وهذه قاعدة في تعدد أنماط النفاق في الإيمان وعدم انحصار النفاق في الإسلام، وإن ما جرى من أدوار وأنماط وحالات ومشاهد في صدر الإسلام من النفاق في الإسلام بعينه يتكرّر لمن يتقمّص ويتلبّس بالإيمان.

٤ـ ظاهرة العباسيّة وهي التي قام بها بنو العباس من رفع شعار «الرضا من آل محمد» أي رفع شعار منهاج أهل البيت عليهم السلام واسترداد حقوقهم وإزالة الظالمين لهم كي يستقطب القاعدة الشيعية والإسلاميّة ليتمكّن من الوصول إلى سدّة الحكم ومركز القدرة، وما أن تستطب خيوط القدرة لديهم فيكشف حينئذ القناع عن كذب ادّعائهم وحقيقة نواياهم فتبدأ مسيرة العداء مع أهل البيت عليهم السلام ومع معالم منهاجهم. وجرى الاصطلاح والاستعمال في الروايات عن هذا النموذج من النفاق بوصف واسم العبّاسيّين لكن كوصف لا اسم علم لهم كما هو الحال في البتريّة والزيديّة كعنوانين وصفيّين يمثّلان منهجاً مبايناً لنهج أهل البيت عليهم السلام لا كظاهرة

---

١. رجال الكشي / الرقم ٥٣٥، بحار الأنوار ٦٥ / ١٦٦ .

تاريخيّة وقعت في حقبة معيّنة فقط.

٥ ـ قد جرى في بعض كتب أهل سنّة الخلافة تقسيم الناصبي ونصب العداء لأهل البيت إلى ثمانية أقسام وفي بعضها الآخر إلى خمسة عشر قسماً وبعض تلك الأقسام جليّة واضحة وبعضها خفيّة مستورة.

ومن الأوّل ما هو معروف ومذكور من الجهر بالعداوة أو النيل والوقيعة في أهل البيت، أو إبطان البغض والعداوة في القلب أو تقديم غيرهم عليهم وغيرها من الأنماط.

ومن النمط الثاني التشكيك في فضائلهم أو تفضيل غيرهم عليهم أو تسويتهم مع الآخرين أو نسبة فضائلهم إلى غيرهم أو الطعن في خواصّ اتباعهم وغيرها من الأنحاء.

ولا يخفى أن النمط الأوّل ينطبق على النفاق في الإسلام بخلاف النمط الثاني، فإنّه ينطبق على النفاق في الإيمان. وقد أشير إليه في الروايات في تعداد أنماط النصب لناصب العداوة من قولهم عليهم السلام إنك لا تجد أحداً يقول إنّي عدو لآل محمد ولكن الناصب من نصب لكم العداوة وهو يعلم أنكم تحبوننا وتتولوننا وقد عدّ في الروايات أن البترية من النواصب أيضاً كما سيأتي من رواية زرارة[1].

٦ ـ ومن درجات النفاق في الإيمان استنقاصهم في العلم ويظهر هذا الاستنقاص ويتجلّى في طلب العلوم الهادية إلى السعادة الأخرويّة من غيرهم. ويشير إلى ذلك قولهم: شرّقا وغرّبا فلن تجدا علماً صحيحاً إلّا شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت[2].

وقولهم: من أصغى إلى ناطق فقد عبده[3].

---

١. الكافي ٢ / ٤٠٢.

٢. بصائر الدرجات / ٣٠، بحار الأنوار ٢ / ٩٢.

٣. الكافي ٦ / ٤٣٤.

وقول أبي جعفر عليه السلام: يمصّون الثمد ويتركون النهر العظيم. قيل: وما النهر العظيم؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعلم الذي آتاه الله إنّ الله جمع لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم سنن النبيين من آدم هلم جرا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيين بأسره، إن الله جمع لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم علم النبيين بأسره وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صير ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام.

قال المجلسي رحمه الله: الثمد ويحرك ككتاب: الماء القليل لا مادّة له أو ما يبقى في الجلد أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف ذكره الفيروزآبادي[١].

وقولهم عليهم السلام: كذب من زعم أنه من شيعتنا وهو متمسّك بعروة غيرنا أو كذب من زعم أنه يعرفنا وهو متمسّك بعروة غيرنا[٢] وقولهم: كلّ شيء لم يخرج من هذا البيت فهو باطل[٣].

٧ ـ ومن أنماط النفاق من يجحد ما أعطاهم الله تعالى من كرامة المقامات والمناصب والشؤون الغيبيّة ويرد عليهم في أقوالهم ولا يرى لهم سعة في الحجّية والصلاحيّة والولاية في الدين، وهو يزعم أنّه شيعة لهم وأنّه يقرّ بأنّ الله جعلهم أئمّة للخلائق.

ففي خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد رجوعه من تبوك: معاشر المهاجرين والأنصار ما بال أصحابي إذا ذكر لهم إبراهيم وآل إبراهيم تهللت وجوههم وانتشرت قلوبهم، وإذا ذكر لهم محمد وآل محمد تغيّرت وجوههم وضاقت صدورهم إن الله لم يعط إبراهيم شيئاً وآل إبراهيم إلّا أعطى محمداً وآل محمد مثله ونحن في الحقيقة آل إبراهيم[٤].

وفي حديث الإمامة عن الإمام الرضا عليه السلام المروي في الكافي والعيون: فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟ هيهات هيهات؛ ضلت العقول، وتاهت الحلوم،

---

١. بحار الأنوار ٢٦ / ١٦٦.
٢. معاني الأخبار / ٣٩٩، وبحار الأنوار ٢ / ٨٣.
٣. الاختصاص / ٣١.
٤. مدينة المعاجز ٢ / ٢٧٨، ونظيره بحار الأنوار ٢٧ / ١٧١.

وحارت الألباب، وخسئت العيون، وتصاغرت العظماء، وتحيرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء، وحصرت الخطباء، وجهلت الألباء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله وأقرت بالعجز والتقصير. وكيف يوصف بكله أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه، لا، كيف وأنى؟ وهو بحيث النجم من يد المتناولين ووصف الواصفين فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟!(١).

٨ ـ وقد صرح في الروايات بكون ظاهر البترية من ألوان ونماذج النفاق والازدواجية في الإيمان كما يأتي في رواية الطبري في دلائل الإمامة(٢) وفي إرشاد الشيخ المفيد(٣).

---

١. عيون اخبار الرضا عليه السلام: ٢/١٩٧، الكافي ١ / ٢٠١.

٢. دلائل الإمامة للطبري / ٢٤١ ط ق، وص ٤٥٥ ط ح .

٣. الإرشاد ٢ / ٣٨٤.

□ ظاهرة البترية المخلطة التلفيقية المناوئة لظاهرة المشتهرين بــالغلوّ

وبعدما عرفت لمحة مختصرة عن ظاهرة النفاق في الإيمان وتعددها نجد ظاهرة من النفاق يمثل في البترية وهم من ينهج شعار التولي لآل محمد ﷺ من دون التبري من أعدائهم، والبترية ظاهرة تلفيقية مزجية مخلّطة، وهم الذين يخلطون ويرومون إلى الوفاق بين ولاية أهل البيت عليهم السلام مع ولاية الشيخين، فأسماهم زيد بن علي بالبترية لأنهم بتروا ولاية أهل البيت، وهؤلاء نشأوا في قبال تيار رواة المعارف وتيار المغيريّة والخطابيّة وأمثالهم.

والبترية هم أصحاب كثير النواء والحسن بن صالح بن حيّ وسالم بن أبي حفصة والحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحدّاد، وهم الذين دعوا إلى ولاية علي عليه السلام ثم خلطوها بولاية أبي بكر وعمر ويثبتون لهما إمامتهما وينتقصون عثمان وطلحة والزبير، ويرون الخروج مع بطون ولد علي بن أبي طالب يذهبون في ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويثبتون لكلّ من خرج من ولد علي عليه السلام عند خروجه الإمامة.

معالم منهج البترية

المعلم الأول: إنّ المنهج التلفيقي التوفيقي المزجي الذي اختاروه أولد لديهم رؤية سطحية معينة حول شرائط الإمامة الدينية والسياسية ومواصفات الخليفة، في قبال تيار المغيرة وأبي الخطاب الذي كان يجاهر بالتشدد والنكير على تيار البترية في هذه الرؤية وعلى ضرورة النص الإلهي في الإمام.

المعلم الثاني: روى الكشي عن علي بن محمد قال: حدثني محمد بن أحمد عن العباس بن معروف عن أبي القاسم الكوفي عن الحسين بن محمد بن عمران عن زرعة عن سماعة عن أبي بصير قال: ذكر أبو عبد الله عليه السلام كثير النواء وسالم بن أبي حفصة وأبا الجارود فقال: كذّابون مكذّبون كفّار عليهم لعنة الله، قال: قلت: جعلت فداك كذّابون قد عرفتهم فما معنى مكذّبون؟ قال: كذّابون يأتوننا فيخبرونا أنهم يصدّقونا وليسوا كذلك ويسمعون حديثنا فيكذّبون به[١].

وهذا الحديث يبيّن المعلَم الثاني للمنهج التلفيقي من أنهم انتقائيين في اتباع منهج أهل البيت، فينتقون منه ما يتناسب مع المنهج التوفيقي التلفيقي الذي يسلكونه، وهذا يستدعي منهم رفض جملة من قواعد مذهب أهل البيت عليهم السلام وهو مثابة الردّ على العترة.

في فرق الشيعة للنوبختي قال: إنّ البترية عند العامّة أفضل أصناف الزيدية وذلك أنّهم يفضّلون علياً ويثبتون إمامة أبي بكر[٢].

ولا يخفى أن من يرى صلاح خلافة أبي بكر ويزعم القول والتسليم بفضائل ومناقب علي عليه السلام هو في الحقيقة ينهج منهج البترية.

ومن الأمور التي تلحظ بوضوح في الزيدية عموماً وفي البترية خصوصاً قولهم بالقياس في الدين والاجتهاد بالرأي وزعمهم برواية نصوص في ذلك عن

---

١. رجال الكشي / الرقم ٤١٦.

٢. فرق الشيعة ص ٥٧ .

أهل البيت[١].

وصريح هذا أنّ أسلوب البترية وشعاراتهم هي دعوى التشيع والإيمان بأهل البيت عليهم السلام والاتباع لهم وتأكيدهم بإصرار أنهم من شيعتهم عليهم السلام، ولكنّهم ليسوا على هذه الحقيقة بعد ولائهم لمنهاج السقيفة وأصحابها التي هي على طرفي نقيض مع الإمامة الإلهية ومنهاجهم. ومن ثم حبط انتماؤهم لأهل البيت عليهم السلام وآلو إلى غير مسارهم عليهم السلام، ولكنّهم بهذه الشعارات يخادعون ويغرّون الكثير من البسطاء المحبّين لأهل البيت عليهم السلام ويحرفونهم إلى غير الصراط السويّ.

المعلم الثالث: روى الكشي عن سعد بن جناح الكشي قال: حدثني علي بن محمد بن يزيد القمي عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن الحسين بن عثمان الرواسي عن سدير قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام ومعي سلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحدّاد وسالم بن أبي حفصة وكثير النواء وجماعة معهم، وعند أبي جعفر عليه السلام أخوه زيد بن علي، فقالوا لأبي جعفر عليه السلام: نتولى علياً وحسناً وحسيناً ونتبرّأ من أعدائهم قال: نعم، قالوا: نتولّى أبا بكر وعمر ونتبرّأ من أعدائهم قال: فالتفت إليهم زيد بن علي قال لهم: أتتبرّأون من فاطمة، بترتم أمرنا بتركم الله فيومئذ سمّوا البترية[٢].

وهذا الحديث يبيّن المعلَم الثالث للمنهج التوفيقي التلفيقي وهو أنّ أسلوب هذا التيّار يسبّب بتر منهاج أهل البيت عليهم السلام، وهذا العنوان الذي أطلقه زيد في محضر الباقر عليه السلام من المطمئن أنه استقاه من معدن علم أخيه الباقر عليه السلام، لا سيما وأنّ حديث هذه الجماعة وسؤالهم كان موجّهاً لأبي جعفر الباقر عليه السلام فمبادرة زيد أخاه بالجواب مع طلبهم السؤال منه عليه السلام يعدّ اكتفاء منه وتقريراً لما قاله زيد فصار هذا العنوان شعاراً لهذا المنهج وتسمية شرعية له وهو يفسر على معان:

---

١. شرح نهج البلاغة ١ / ٢٩٠.

٢. رجال الكشي ٣١١ / رقم ٤٢٩.

الأول: البتر بمعنى القطع أي تقويض منهاج أهل البيت عليهم السلام (بترتم أمرنا) لأنّ البترية تعتمد على عدم لزوم النصّ الإلهي على الإمام وعلى التلفيق بين منهاج أهل البيت عليهم السلام ومدرسة السقيفة العامة في المباني والقواعد. وهذا ممّا يفقد قواعد منهاج أهل البيت لحقيقتها وواقعيتها الأصيلة المتميّزة عن منهاج البشر.

الثاني: انقطاعهم عن ولاية أهل البيت عليهم السلام وهديهم ومنهاجهم حيث التزموا بالتلفيق والالتقاط الانتقائي.

الثالث: لكون هذه الفرقة تنسب إلى كثير النواء وكان أبتر اليد أي مقطوع اليد، فلو صحّ هذا ـ كما ذكره جماعة[1] ـ فيكون كناية ورمز عن المنهج الذي اختطّه كثير النواء وهذا التفسير.

ولا يخفى خطورة المعنى الأول حيث إنّهم بهذا المنهج المزجي التلفيقي الالتقاطي الانتقائي يمحون بذلك هويّة مذهب أهل البيت عليهم السلام ومنهاجهم، ويموّهون حقيقة ذلك الطابع وبزوال هذا الحدّ الفاصل والخطّ المائز يؤول الأمر إلى انقطاع ذلك المنهاج وعدم بقائه.

فإنّ ممّا يستوجب التسليم بضرورة الإمامة الإلهية والنصّ الإلهي التخطئة والإبطال والتبرّي من دعوى الإمامة البشرية، فإنّ دعوى أنها قديرة على الإصلاح والهداية، تتضمّن الاستغناء عن الحبل الممدود من السماء وعن وصاية السماء على الأرض. فالتبرّي من هذه الدعاوي ورموزها المتمثّل في منهج السقيفة وشعاراته ومتبنياته يستلزم المعرفة والإقرار والتسليم بالحاجة إلى هداية السماء طوال المسير البشري.

وفي الملل والنحل: الصالحية والبترية: الصالحية أصحاب الحسن بن صالح ابن حيّ، والبترية أصحاب كثير النوا الأبتر، وهما متفقان في المذهب وقولهم في

---

١. السرائر لابن إدريس ٣ / ٥٦١ .

الإمامة كقول السليمانية إلّا أنّهم توقّفوا في أمر عثمان: أهو مؤمن أم كافر؟ قالوا: إذا سمعنا الأخبار الواردة في حقّه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة، قلنا: يجب أن نحكم بصحّة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة، وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتربية بني أمية وبني مروان واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة، قلنا: يجب أن نحكم بكفره، فتحيّرنا في أمره وتوقّفنا في حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين.

وأما علي عليه السلام فهو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولاهم بالإمامة، لكنّه سلّم الأمر لهم راضياً وفوّض الأمر إليهم طائعاً وترك حقّه راغباً، فنحن راضون بما رضي مسلّمون لما سلّم لا يحلّ لنا غير ذلك، ولو لم يرض علي بذلك لكان أبو بكر هالكاً. وهم الذين جوّزوا إمامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل إذا كان الفاضل راضياً بذلك[1].

يزعمون أنّ علياً أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولاهم للإمامة، وأنّ بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأنّ علياً عليه السلام ترك ذلك لهم. وينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا ولا يرون الإمامة لعلي عليه السلام إلّا حين بويع[2].

المعلم الرابع: روى الكشي عن حمدويه وإبراهيم، قال: حدّثنا أيوب بن نوح عن صفوان قال: حدثني فضيل الأعور عن أبي عبيدة الحذّاء قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ سالم بن أبي حفصة يقول لي: ما بلغك أنه من مات وليس له إمام كانت ميتته ميتة جاهلية؟ فأقول: بلى، فيقول: من إمامك؟ فأقول: أئمتي آل محمد عليه وعليهم السلام، فيقول: والله ما أسمعك عرفت إماماً قال أبو جعفر عليه السلام: ويح سالم وما يدري سالم ما منزلة الإمام! منزلة الإمام يا زياد أعظم وأفضل ممّا يذهب إليه

---

١. الملل والنحل للشهرستاني ١ / ١٦١ .

٢. بحوث في الملل والنحل، للسبحاني ٧ / ٤٥٤ .

سالم والناس أجمعون[1].

ويظهر من الحديث معلم آخر من معالم البترية وهو أنهم يفنّدون وينكرون أي مقام غيبي لأئمة أهل البيت عليهم السلام في حين يدّعون المرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام كفقهاء ورواة، فيكذّبون ويجحدون أيّ حديث يشير إلى علم لدنّي لهم عليهم السلام أو موهبة سَنية إلهية ويقاومون انتشارها، بل ويكفّرون بالطعن بالغلوّ من يعتقد بها ويتبنّاها.

فعن أبي حمزة الثمالي قال: كنت أنا والمغيرة بن سعيد جالسين في المسجد فأتانا الحكم بن عيينة فقال: لقد سمعت من أبي جعفر عليه السلام حديثاً ما سمعه أحد قطّ، فسألناه فأبى أن يخبرنا به. فدخلنا عليه فقلنا: إنّ الحكم بن عيينة أخبرنا أنّه سمع منك ما لم يسمعه منك أحد قطّ، فأبى أن يخبرنا به، فقال: نعم وجدنا علم علي عليه السلام في آية من كتاب الله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول﴾ ولا نبيّ ولا محدّث فقلنا: ليست هكذا هي، فقال: في كتاب علي: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته، فقلت: وأيّ شيء المحدّث؟ فقال: ينكت في أذنه فيسمع طنيناً كطنين الطست أو يقرع على قلبه فيسمع وقعاً كوقع السلسلة على الطست فقلت: إنه نبيّ؟ قال: لا، مثل الخضر ومثل ذي القرنين[2].

وفي هذا الحديث يبيّن عليه السلام لروّاد البتريّة أنّ سبب انحرافهم عن أهل البيت عليهم السلام جهلهم بحقائق القرآن واعتمادهم على منابع أهل السنّة في المعرفة.

وقال جابر: كنّا عند الباقر عليه السلام نحواً من خمسين رجلاً إذ دخل عليه كثير النواء ... فسلّم وجلس ثم قال: إنّ المغيرة بن عمران عندنا بالكوفة يزعم أنّ معك ملكاً يعرفك الكافر من المؤمن وشيعتك من أعدائك قال: ما حرفتك؟ قال: أبيع

---

١. رجال الكشي / الرقم ٤٢٨.

٢. بصائر الدرجات ٢ / ١١٧ ح ١١٦١.

الحنطة قال: كذبت، قال: وربّما أبيع الشعير، قال: ليس كما قلت، بل تبيع النوى قال: من أخبرك بهذا؟ قال: الملك الذي يعرّفني شيعتي من عدوّي لست تموت إلّا تائهاً قال جابر الجعفي: فلما انصرفنا إلى الكوفة ذهبت في جماعة نسأل عن كثير فدللنا على عجوز فقالت: مات تائهاً منذ ثلاثة أيام(١).

في البحار عن الخرائج: روي عن سدير أنّ كثير النواء دخل على أبي جعفر عليه السلام وقال: زعم المغيرة بن سعيد أنّ معك ملكاً يعرّفك الكافر من المؤمن ـ في كلام طويل قد مضى ـ فلما خرج قال عليه السلام: ما هو إلّا خبيث الولادة...(٢).

وروى الكليني بسنده عن عبيد بن زرارة قال: أرسل أبو جعفر عليه السلام إلى زرارة أن يعلم الحكم بن عتيبة أن أوصياء محمد عليه وعليهم السلام محدّثون(٣).

المعلم الخامس: إنّهم يرفعون شعار دعاة الإصلاح ومن ثمّ يخطّئون الفساد المعلن كمنهج عثمان وطلحة والزبير، كما ذكر ذلك الكشي قال: وينتقصون عثمان وطلحة والزبير، وقال: يذهبون في ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٤).

في فرق الشيعة للنوبختي في ترجمة الحسن بن صالح بن حي عدّه من رؤساء البترية وهم ضعفاء الزيدية، انتهى(٥).

والظاهر أنّه يريد بذلك أنّ أسلوبهم في الثورة والنهضة لم يكن حادّاً ساخناً كبقية الزيدية مسلّحاً.

وحكى الكشي عن سالم أنه كان مختفياً من بني أمية بالكوفة فلمّا بويع لأبي

---

١. الخرائج والجرائح / ٢٧٦.
٢. بحار الأنوار ٤٦ / ٢٥٣، الخرائج والجرائح ٢ / ٧١٠.
٣. الكافي ١ / ٣٧٠.
٤. رجال الكشي / الرقم ٤٢٢.
٥. فرق الشيعة / ٥٧.

العباس، خرج من الكوفة محرماً فلم يزل يلبّي «لبيك قاصم بني أمية لبيك» حتى أناخ بالبيت[١].

وعن السمعاني أنّه قال: أضللنا هذه الطائفة إذا شكوا في إيمان عثمان[٢].

وقد دخلت البترية في صفقات مع الأنظمة الوقتيّة ضدّ الحركات المعارضة من تيارات الثوّار، فكانوا عناصر اختراق في صفوف الثوّار والنهضات الإصلاحية لإفشالها.

فقد ذكر أبو الفرج الاصبهاني في مقاتل الطالبيين أنّ إدريس بن عبد الله بن الحسن أفلت من وقعة فخّ وكان الرشيد يتابع خبره، فلما بلغه أنّه توجّه إلى إفريقيا توجّس خوفاً شديداً، فشكا ذلك إلى يحيى بن خالد البرمكي فقال: أنا أكفيك أمره. ودعا سليمان بن الجرير الجزري وكان من متكلمي الزيدية البترية من أولي الرياسة فيهم فأرغبه ووعّده عن الخليفة بكلّ ما أحبّ على أن يحتال لإدريس حتى يقتله، ودفع إليه غالية مسمومة ـ أي قارورة ـ فيها عطر وطيب مسموم، فاحتال سليمان حتى وصل إلى إدريس وأظهر له أنّه قد هرب من السلطان لما يعلم من مذهبه فأنس بإدريس واجتباه وكان ذا لسان معارضة، وكان يجلس في مجلس البربر فيحتجّ للزيدية ويدعو إلى أهل البيت عليهم السلام.

فحسن موقع ذلك من إدريس إلى أن وجد فرصة فقال لإدريس: جعلت فداك هذه قارورة غالية حملتها إليك من العراق ليس في هذا البلد من هذا الطيب شيء فقبلها وتطيّب بها وشمّها، وانصرف سليمان وفرّ هارباً من إدريس، وسقط إدريس من شدّة السمّ فلم يعلم من حواليه ما قصّته حتى قضى عشيّاً وتبيّن بذلك حال أمر سليمان[٣].

---

١. رجال الكشي ٣١٠ / رقم ٤٢٨.
٢. الأنساب للسمعاني ١ / ٨٠.
٣. مقاتل الطالبيين / ٤٨٩.

المعلم السادس: أنّ البترية كمنهج توفيقي تلفيقي كان يشتمل على جملة من الرموز العلمية إما بانتماء شيعي أو سنّي، إلّا أنّهم وجدوا في هذا المنهج التوفيقي وسطية حسب زعمهم.

ففي الكشي قال: وقيس بن الربيع بتري كانت له محبّة.

وعدّد من البترية: فأما مسعدة بن صدقة فبتري، وثابت أبو المقدام بتري، وكثير النواء بتري، وعمرو بن جميع بتري، وعمرو بن القيس الماصر بتري، ومقاتل بن سليمان البجلي وقيل البلخي بتري، وأبو نصر بن يونس بن الحارث بتري وكذا عمر بن رياح (عمرو بن رياح)[١].

وقد تقدم قول الكشي أنّ البترية هم أصحاب كثير النواء والحسن بن صالح ابن حي وسالم بن أبي حفصة و الحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحداد.

المعلم السابع: الخلود إلى الدعة والقعود عن تحمّل المسؤولية، فإنّ هذه الظاهرة النفسانية الفكرية توجب عدم تحمّل ضريبة وثقل البراءة والتبرّي والتخطئة لمنهج الجمهور وروّاده من أصحاب السقيفة، ويؤدّي تلقائياً إلى حالة من التقهقر النفسي والفكري والانهزام ومحاولة تلوّن الضعيف في القدرة السياسية بلون صاحب القدرة السياسية والنفوذ كي تستتب له طمأنينة العيش والسمعة واكتساب اعتراف الآخرين بشخصيّته ولو على حساب ثوابت القيم والمبادئ؛ وذلك بتسويل أنّ هذه الثوابت قابلة للنقاش والتغيير لفتح الباب أمام التخلّي عنها ومسؤولية تبعاتها. فانطلاقاً من هذه المزعمة كانوا يتخلّون عن منهج التبرّي والنقد والإنكار للمنكر وتخطئة الباطل ويكتفون في تعذير ذمّتهم بالتمسك بولاية أهل البيت عليهم السلام ومحبّتهم ومودّتهم إرضاءاً لمحاسبة الضمير

---

١. رجال الكشي: ٧٣٣.

واكتفاءاً بعدم التنكّر لمقامات أهل البيت عليهم السلام في القرآن والسنّة.

وهناك داعٍ آخر تورّط فيه البترية بل عموم الزيديّة وهي أنّ الحكّام على الدوام كانوا يواجهون ثورات العلويين بمكيدة وحيلة، وهي إحراجهم حول موقفهم من الشيخين كي يربك الوضع عليهم في ساحة المسلمين، لأنهم إما يتبرّأون علانية منهما فذلك يوجب اصطفاف جماهير أهل السنة مع السلطة، وإمّا لا يتبرّأ منهما فتضعف موقعيّة الثوار العلويين في جماهير أتباع أهل البيت عليهم السلام. ومن هذا القبيل ما قد احتاله الوالي يوسف بن عمر في مواجهة زيد بن علي من قبل هشام بن عبد الملك حيث أنفذ في صفوف أنصار زيد بالكوفة عندما خرج فدخلوا على زيد وقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال زيد ـ كما يذكر ذلك ابن عساكر ـ: رحم الله أبا بكر وعمر صاحبي رسول الله ثم قال: أين كنتم قبل اليوم؟[١].

وسؤال زيد إشارة منه إلى استنكار عليهم وأنّهم مندسين في صفوفهم من قبل السلطان.

والداعي الثالث أنّ روّاد البترية كانوا حريصين على إنهاض جميع الأمّة ضدّ فساد الأنظمة وعلى زعامة تلك النهضة، ولم يكن يتسنّى لهم ذلك إلّا بالمزج بين ولاية أهل البيت عليهم السلام وولاية الشيخين فيتسنّى لهم بذلك الحظوة عند الفريقين. فأخذوا بترويج مثل هذا المنهاج والمذهب. إلّا أنّهم لم يوفقوا في تشييد مثل هذا المنهاج طيلة القرون بل بادوا وانقرضوا.

نعم، يتجدّد كلّ حين من أصحاب هذا الفكر جماعة جديدة إلى يومنا هذا تحمل نفس الملامح وتتّصف بها وبنفس النزعات والغايات وتعود الكرّة لهم بالفشل، وذلك لما مرّ من التناقض بين منهاج أهل البيت عليهم السلام كمنهاج ربّاني إلهي

---

١. تهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٢٥.

ومنهاج السقيفة كمنهاج بشري وضعي ماديّ.

المعلم الثامن: كانت لهم حساسيّة وضدّية متشدّدة مع رواة الفضائل والمقامات لأهل البيت عليهم السلام . وكانوا يضعفون في حجاجهم حول الإمامة مع رواة أسرار المعارف، بينما يتنمّرون في احتجاجهم حول الإمامة مع فقهاء الرواة.

وبعبارة أخرى: الملاحظ من روايات ووقائع عديدة انثيار البترية واضطرابهم من روايات رواة المعارف وتفسيراتهم، بينما نشاهد عكس ذلك مع فقهاء الرواة حيث يشاهد انثيارهم ووقوعهم في التساؤل والتوقّف من كلمات البترية. وقد مرّ بعض الشواهد على ذلك في فصل طبقات الرواة وتنوعهم في فقه المعارف.

المعلم التاسع: مسارهم الفقهي على الخلط بين مباني فقه الشيعة والسنّة.

فقد أخرج أبو الفرج الاصبهاني في ترجمة يحيى بن عبد الله بن الحسن قال: صحبه جماعة من أهل الكوفة فيهم ابن الحسن بن صالح بن حي كان يذهب مذهب الزيدية البترية في تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان في ستّ سنين من إمارته، وإلى القول بكفره في باقي عمره يشرب النبيذ ويمسح على الخفّين، وكان يخالف يحيى في أمره ويفسد أصحابه، قال يحيى بن عبد الله: فأذن المؤذن يوماً وتشاغلت بطهوري وأقيمت الصلاة فلم ينتظرني وصلّى بأصحابي، فخرجت فلمّا رأيته يصلّي قمت أصلّي ناحية ولم أصلّ معه لعلمي أنه يمسح على الخفّين فلما صلّى قال لأصحابه: علام نقتل أنفسنا مع رجل لا يرى الصلاة معنا ونحن عنده في حال من لا يرضى مذهبه[١].

وروى في قرب الإسناد عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال جابر بن عبد الله الأنصاري: إن دباغة الصوف

---

١. مقاتل الطالبيين / ٤٦٨.

والشعر غسله بالماء وأيّ شيء يكون أطهر من الماء[١].

ويظهر من هذه الرواية التي يرويها مسعدة ـ وهو بتري ـ حيث إن الإمام عليه السلام يخبره بالحكم رواية عن أبيه عن جابر الأنصاري، أن نظرة مسعدة له عليه السلام ولأبيه عليه السلام كراويين، مضافاً إلى مضمون الرواية حيث كان يزعم مطهرية الدباغة لجلد الميتة.

وقال الشهرستاني في الملل: وأكثرهم (البترية) في زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأي واجتهاد، أما في الأصول فيرون رأي المعتزلة حذو القذة بالقذة ويعظّمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت عليهم السلام وأما في الفروع فهم على مذهب أبي حنيفة إلّا في مسائل قليلة الشافعي والشيعة[٢].

ولا يخفى أن الشهرستاني قد توفي سنة ٥٤٨ هـ. ق أي في القرن السادس.

المعلم العاشر: أنهم يرون إمامة الشيخين وإنّما ينكرون ويذمّون على عثمان وبني أمية وبني العباس كما في قول أبي الفرج في مقاتل الطالبيين.

المعلم الحادي عشر: أنّهم في حين قولهم بإمامة أبي بكر وعمر وصحّتها، إلّا أنهم يسجّلون جملة من النقود والاعتراضات على الأخطاء التي ارتكباها فنرى مثل مسعدة بن صدقة البتري يروي الرواية[٣] عن الصادق عليه السلام من خطبة علي عليه السلام التي يعدّد فيها فرق الضلال وتيه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدم حفظهم سنته صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك نرى أبا المقدام يروي عن الباقر عليه السلام انحراف الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤] لا سيما وقد مرّ أنهم لا يرون شرعية خلافة الشيخين بذاتها وإنما لأجل تسليم أمير المؤمنين علي عليه السلام بها ـ حسب زعمهم ـ.

---

١. قرب الاسناد: ٧٦ ح ٢٤٦، وسائل الشيعة / أبواب لباس المصلي / ب ٥٦ / ٤.
٢. الملل والنحل للشهرستاني / ١٦٢.
٣. روضة الكافي / ٦٣ / ح ٢.
٤. روضة الكافي / ٢٧٠ / ح ٣٩٨.

المعلم الثاني عشر: ومن خصائص البترية أنّهم يبتغون حسن السمعة عند العامّة ويحاولون بكلّ إمكانياتهم أن يكونوا مرضيين عند الطرفين.

المعلم الثالث عشر: أنّهم لا يقتصرون في مرجعية المصادر الدينية على أهل البيت عليهم السلام، بل يخلطون بينهم وبين غيرهم. ومن ثمّ أنكر أئمّة أهل البيت عليهم السلام على هذا المشرب الذي عند البترية.

فقد روى عذافر الصيرفي قال: كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي جعفر عليه السلام فجعل يسأله وكان أبو جعفر عليه السلام له مكرماً، فاختلف في شيء فقال أبو جعفر عليه السلام: يا بني، فأخرج كتاباً مدرجاً عظيماً ففتحه وجعل ينظر حتى أخرج المسألة وقال أبو جعفر عليه السلام: هذا خطّ عليّ وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبل على الحكم وقال: يا أبا محمّد اذهب أنت وسلمة وأبو المقدام حيث شئتم يميناً وشمالاً فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيل[١].

وعن الكشي بإسناده عن أبي مريم الأنصاري قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: قل لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة شرّقا أو غرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت[٢].

ويلاحظ أنّ هذه الظاهرة قد تكررت في هذا الزمان، فكما يجعل أهل البيت عليهم السلام مصدراً ومنبعاً لأخذ الأحكام والمعارف منهم عليهم السلام ينضمّ إليهم أيضاً مرجعية الصحابة كمصدر ديني يعوّل عليه وحجة في تفسير القرآن وأخذ الأحكام. أو يطلب العلوم المادية إلى السعادة الأخرويّة من غيرهم من الحكماء ويعكف على كلماتهم التي هي بمنزلة الثماد بدل العكوف على النهر الأعظم[٣] وهي علوم أهل البيت عليهم السلام، وقد مرّ أنّ هذا المنهج نمط من النفاق في الإيمان

---

١. رجال النجاشي في ترجمة محمد بن عذافر، رقم ٩٦٦.

٢. رجال الكشي ٢٨١ / ح ٣٦٩.

٣. وقد مرّ الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «يمصّون الثماد ويدعون النهر الأعظم ...».

حيث يظهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام ولكنه ينتقصهم علمياً كما يشير إلى ذلك أخذهم واتباعهم لأقوال وآراء غيرهم.

المعلم الرابع عشر: تلفيقهم وخلطهم بين ولاية أهل البيت عليهم السلام وولاية أصحاب السقيفة[١].

روى كثير النوا عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن أبي بكر وعمر فقال: هما أوّل من انتزى على حقّنا وحملا الناس على أعناقنا وأكتافنا وأدخلا الذل بيوتنا.

وعنه، عنه قال: والله لو وجد عليهما أعواناً جاهدهما يعني أبا بكر وعمر[٢].

وعن أبي الجارود قال: كنت أنا وكثير النوا عند أبي جعفر عليه السلام فقال كثير: يا أبا جعفر رحمك الله، هذا أبو الجارود يبرأ من أبي بكر وعمر فقلت لأبي جعفر عليه السلام: كذب والله الذي لا إله إلّا هو ما سمع ذلك منّي قطّ، وعنده عبد الله بن علي أخو أبي جعفر عليه السلام فقال: هلمّ إليّ، أقبل إليّ يا كثير، كانا والله أول من ظلمنا حقنا وأضغنا بآبائنا وحملا الناس على رقابنا فلا غفر الله لهما، ولا غفر لك معهما يا كثير[٣].

وكثير النوا من رؤساء البترية.

وعن سالم بن أبي حفصة قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت: أئمتنا وسادتنا نوالي من واليتم، ونعادي من عاديتم ونبرأ من عدوكم، فقال: بخ بخ يا شيخ، إن كان لقولك حقيقة، قلت: جعلت فداك إن له حقيقة قال: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ قلت: إماما عدل رحمهما الله، قال: يا شيخ، والله لقد أشركت في هذا الأمر من لم يجعل الله له فيه نصيباً[٤].

وسالم بن أبي حفصة أيضاً من رؤساء البترية، أي أنهم يقولون بأن أبا بكر

---

١. بحار الأنوار ٣٠ / ٣٠٨، أخرجه عن تقريب المعارف لأبي الصلاح الحلبي / ١٦٧ .
٢. بحار الأنوار ٣٠ / ٣٠٨، أخرجه عن تقريب المعارف لأبي الصلاح الحلبي / ١٦٧ .
٣. بحارالأنوار ٣٠/٣٨٢ ـ ٣٨٣ أخرجه عن كتاب تقريب المعارف لأبي الصلاح الحلبي/١٦٧.
٤. بحارالأنوار ٣٠/٣٨٢ ـ ٣٨٣ أخرجه عن كتاب تقريب المعارف لأبي الصلاح الحلبي/١٦٧.

وعمر لهما نصيب في إقامة الإسلام ونشره وانتشاره في ربوع الأرض وهذه مقالة تتجدد عند ثلة تزعم الانتساب والولاء لأهل البيت عليهم السلام .

المعلم الخامس عشر: إنكار وجود الباطن للشريعة أو التأويل في الآيات والروايات أو وجود جانب غيبي في الكتاب العزيز ومقامات الدين، وإنكار كلّ ما له صلة بالإمامة الإلهية في موقعها الغيبي، لأنه لا يتّفق ذلك مع منهاجهم في التلفيق والتصفية بين مقام أهل البيت عليهم السلام وأصحاب السقيفة، ومن ثمّ وصفهم النوبختي في فرق الشيعة بأصحاب الحديث[١] ومراده ذوي المسلك الحشوي من دون إمعان في فقه الحديث ووعاية مضمونه ودراية غوره وأسراره.

فقد روى الكشي بسنده عن أبي بصير قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام وأنا عنده: أنّ سالم بن أبي حفصة يروي أنّك تكلّم على سبعين وجهاً، لك من كلّها المخرج؟ قال: فقال: ما يريد سالم منّي أيريد أن أجيء بالملائكة فوالله ما جاء بها النبيون ولقد قال إبراهيم: ﴿إني سقيم﴾[٢] والله ما كان سقيماً وما كذب، ولقد قال إبراهيم: ﴿بل فعله كبيره هذا﴾[٣] وما فعله وما كذب ولقد قال يوسف: ﴿إنّكم لسارقون﴾[٤] والله ما كانوا سارقين وما كذب[٥].

وروى الكشي بسنده عن أبي عبيدة الحذاء قال: أخبرت أبا جعفر عليه السلام بما قال سالم بن أبي حفصة في الإمام؟ قال: ويل سالم يا ويل سالم ما يدري سالم ما منزلة الإمام.

وروى الكشي عن أبي عبيدة الحذّاء قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ سالم بن

---

١. فرق الشيعة، النوبختي / ٥٧.

٢. الصافات: ٨٩.

٣. الأنبياء: ٦٣.

٤. يوسف: ٧٠.

٥. رجال الكشي / ح ٤٢٥.

أبي حفصة يقول لي: ما بلغك أنه من مات وليس له إمام كانت ميتته ميتة جاهلية؟ فأقول: بلى، فيقول: من إمامك؟ فأقول: أئمتي آل محمد عليه وعليهم السلام، فيقول: والله ما أسمعك عرفت إماماً، قال أبو جعفر عليه السلام: ويح سالم وما يدري سالم ما منزلة الإمام، منزلة الإمام يا زياد أعظم وأفضل ممّا يذهب إليه سالم والناس أجمعون[١].

أقول: وفي هذه الرواية دلالة على مرام البترية من تسطيح مقام ومنزلة الإمام، وأنّهم يستنكرون المقام الغيبي له ويقصرون أهمّية مقام الإمامة في العمل الاجتماعي الظاهر المعلَن على السطح وقيامه بالنهضة السياسية المكشوفة. هذا، مع أنّ للإمام والإمامة أدواراً عديدة عظيمة أخرى في الدين الحنيف، فقد أثبت تعالى للكتاب تأويلاً حيث قال: ﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم﴾[٢] وأثبت للكتاب مقاماً مكنوناً غيبياً لا يمسه ولا يناله إلّا المطهرون وهم أهل آية التطهير ﴿إنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه إلّا المطهرون﴾[٣].

المعلم السادس عشر: نظرتهم القاصرة حول روايات أهل البيت عليهم السلام والعلوم الصادرة عنهم، حيث إنّهم يرون التعارض فيها دليل عدم الحقيقة وعدم الواقعية الثابتة، وأنّ التأويل تفريط في دلالات الشريعة. والذي حدا بهم إلى ذلك إنكارهم للتقية كبرنامج أمني وجهلهم بنظم ومنظومات العمل السرّي الهادىء البعيد المدى بنحو التدرج، بل كانوا يصرّون على السرعة والعمل علانية بشكل سافر واضح، وتغييب جانب الغور العميق في الشريعة المسمى بالباطن، على عكس مشرب رواة أسرار المعارف.

ويذكر الكشي قصّة غير واحد منهم في هذا المجال كعمر بن رياح[٤] وأبي

---

١. رجال الكشي / رقم ٤٢٨.
٢. آل عمران: ٧.
٣. الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.
٤. رجال الكشي / رقم ٤٣٠.

الجارود وإن تميّز الأخير بالفرقة الجارودية.

المعلم السابع عشر: أنهم يرتكبون التزوير والكذب على أهل البيت عليهم السلام وذلك لكي يصيغوا التسوية والتوفيق مع ولاية أصحاب السقيفة والتي هي في الحقيقة تمادي في ظلامة أهل البيت عليهم السلام وخذلان لحقّهم وإطفاء لأنوار الإيمان.

فقد روى الكشي عن يعقوب الأحمر وجماعة من أصحاب الصادق عليه السلام قالوا: كنّا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل زرارة بن أعين فقال له: إنّ الحكم بن عتيبة روى عن أبيك أنّه قال له: صلّ المغرب دون المزدلفة، فقال له أبو عبدالله عليه السلام بأيمان ثلاثة: ما قال أبي هذا قطّ كذب الحكم بن عتيبة على أبي[1].

وقد مرّت رواية أنهم كذّابون مكذّبون.

---

١. رجال الكشي / رقم ٨٥.

□ تكرّر ظاهرة البتريّة في طول الأزمان

إنّ ظاهرة البترية ـ التي هي ظاهرة تلفيقية توفيقية مخلطة التقاطاً وانتقاءاً ـ ظاهرة تتكرّر في الأزمنة المختلفة، وهي ذات معالم ومناهج معينة من الخلط بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام والمدارس الأخرى، ومن الحيلولة دون التبري والبراءة من تلك المدارس المناوئة لأهل البيت عليهم السلام. وهي ظاهرة تتكرر كظاهرة المقصّرة والمارقة. وقد تتجلى في العصر الحاضر تحت بعض أطروحات الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب. فيعلم من ذلك أنّ هناك تيّارين: تيّار مخلّطة في داخل الصف الشيعي يجهدون في حرف أتباع أهل البيت عليهم السلام إلى تولّي الشيخين ومزجه بتولي أهل البيت عليهم السلام، بخلاف تيار آخر مصادم لهذا التيّار يشدّد على الفصل والتمييز بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام والمدارس الأخرى بحصر التبعيّة والمرجعية الشرعية الإلهية بأهل البيت عليهم السلام ـ وهو ما يُعرف بالتولي ـ وسلبها ونفي الصلاحية عن بقيّة المدارس الأخرى، وتخطئة المسارات المباينة عن العترة ـ وهو ما يُعرف بالتبرّي ـ وقد طعن على هذا التيّار الثاني بالتشدّد والحدّة والغلوّ في أهل البيت عليهم السلام.

وهذا التجاذب بين الظاهرتين جدلية تتكرر في الأزمنة المختلفة وهي قائمة في الزمان الحاضر أيضاً، وربما يبرّر التيار الأول بمنهجه المزجي والتلفيقي بجملة من الذرائع، كما أنه قد تسجّل على التيار الثاني جملة من المؤاخذات بسبب

صراحته الصارخة وعدم مداراته وعدم اعتماده أسلوب الرفق واللين في تبيين الحقائق، ومفاجأة الوسط العامّ بخطاب لم تتهيّأ له الذهنية العامّة في الوسط الخاصّ فضلاً عن الوسط العام، وهذا ممّا يؤجّج النكير وسيل التهم والطعون عليهم.

ولا يخفى أنّ تيّار البترية التلفيقي والمزجي التوفيقي هو تيّار نابع في الأصل من الأوساط الشيعية وليس محسوباً في ابتدائه على فرق السنّة، إلّا أنّ هذا التيّار نتيجة النهج التلفيقي الذي لديه على تقارب وطيد مع جملة من متبنيات الفرق الأخرى.

ويمكن إعزاء الأسباب لتولد ظاهرة البترية في كل قرن إلى عدة من الأمور:

الأول: الجهل بحقيقة منهاج أهل البيت على ما هو عليه من عمق وغور والاكتفاء بالنظرة السطحية، وقد يكون ذلك الجهل بسبب قصور علمي وقلة باع في الآليات العلمية التي يمكن بتوسطها إدراك حقائق معالم منهاج الأئمة عليهم السلام .

الثاني: الضعف النفسي وروح الانهزامية أمام تسلط وسيطرة جمهور المذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا العامل يؤثر بشكل خفي في اللاشعور الباطن لدى ضعفة النفوس يحدو بهم إلى عدم الموضوعية في التفكير والاستنتاج فيزعمون أن الحق يساوي الغلبة الفعلية الراهنة، وهو نمط من الوهن والنكول والمداهنة رغبة في الوداعة ورغيد العيش.

الثالث: التأثر أمام السيل الإعلامي السلطوي المتكرّس عبر التاريخ في بطون الكتب وأعماق الأذهان في الأجيال المزيف للحقائق، من دون تدبر وتأمل واستقصاء لخيوط الحقيقة، كموضوع فتوحات البلدان والظلامات والاضطهاد الذي جرى على أهل البيت عليهم السلام والمنعطفات الهامة في سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتاريخ الصدر الأول للإسلام.

ويظهر من جملة من النصوص أن ظاهرة البترية الانحرافية تستمر حتى

عصر ظهور الإمام المهدي (عج) في الوسط الشيعي كحالة نفاقية في الإيمان.

فقد روى الطبري في دلائل الإمامة في باب وجوب معرفة القائم بإسناده عن الحميري عن محمد بن حمران المدايني عن علي بن أسباط عن الحسن بن بشير عن أبي الجارود عن أبي جعفر قال: سألته متى يقوم قائمكم؟ قال: يا أبا الجارود لا تدركون ـ إلى أن قال: ـ ويسير إلى الكوفة فيخرج منها ستة عشر ألفاً من البترية شاكين في السلاح، قرّاء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرحوا جباههم وسمروا ساماتهم وعمهم النفاق وكلهم يقولون: يابن فاطمة ارجع لا حاجة لنا فيك، فيضع السيف فيهم على ظهر النجف عشية الاثنين من العصر إلى العشاء، فيقتلهم أسرع من جزر جزور فلا يفوت منهم رجل ولا يصاب من أصحابه أحد دماؤهم قربان إلى الله[١].

ورواه المفيد في الإرشاد بهذا اللفظ: قال: روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل[٢] أنه إذا قام القائم عليه السلام سار إلى الكوفة فيخرج منها بضعة عشر ألف نفس يدعون البترية عليهم السلاح فيقولون له: ارجع من حيث جئت فلا حاجة لنا في بني فاطمة فيضع فيهم السيف حتى يأتي على آخرهم ويدخل الكوفة فيقتل بها كل منافق مرتاب[٣].

وهذا الخبر ممّا يشير إلى تكرّر هذه الظاهرة واستمرارها في الوسط الشيعي إلى عام الظهور، وأنّ أصحاب هذا التيّار البتري التوفيقي التلفيقي يعتمدون المسحة العلمية ويتذرّعون بالمبررات الفقهية لهذا المنهج. ونداءهم وخطابهم القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف ببني فاطمة إشارة إلى نهج فاطمة عليها السلام في الإنكار على مسار السقيفة والبراءة من الانحراف، فكأنّ الميز المايز لهم هو رفض التبرّي من أعداء فاطمة سلام الله عليها، كما أنّهم في بدو أمرهم حيث أنكروا البراءة من

---

١. الطبعة الحيدرية ص ٢٤١ / الطبعة الحديثة ص ٤٥٥ مؤسسة البعثة.

٢. ويظهر من كلام المفيد أنّه اختصر الحديث.

٣. الإرشاد ٢ / ٣٨٤ وبحار الأنوار ٥ / ٣٣٨.

الشيخين وأظهروا البراءة من أعدائهما، التفت إليهم زيد بن علي في محضر أخيه الباقر عليه السلام وقال لهم: أتتبرّأون من فاطمة! بترتم أمرنا بتركم الله، فيومئذ سمّوا البترية[1] فلأجل المعاداة مع أعداء الشيخين يؤول حالهم إلى معاداة فاطمة عليها السلام، ولذلك يخاطبون الحجّة (عج) «ارجع يابن فاطمة لا حاجة لنا فيك».

---

١. رجال الكشي: رقم ٤٢٩.

□ البترية والوحدة الإسلامية

روى الكشي عن سعد بن صباح الكشي قال: حدثنا علي بن محمد قال: حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن محمد بن فضيل عن أبي عمرو سعد الحلاب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أنّ البترية صفّ واحد ما بين المشرق إلى المغرب ما أعزّ الله بهم ديناً (دنياً)[1].

ووجه تركيز هذه الرواية وتأكيده عليه السلام على نفي أن يعزّ الله عزوجل بالبترية الدين من جهة تركيزها على الصفّ الواحد، وتركيزها ثالثاً على كون هذا الصفّ الواحد هو ما بين المشرق والمغرب، هو الإشارة بهذه المحاور الثلاث إلى شعار البترية وزعمهم ودعواهم الصلح بين طوائف الأمّة بالمنهج التلفيقي والتوفيقي الذي يقرّب بين الفِرق ويردم الهوّة التي بينهم، ويصبحوا متحدين في وحدة إسلامية تقوى بها الأمة أمام أعدائها، وأنّ هذا التوفيق والتقريب للوحدة هو سبيل الوحدة للأمّة ونبذ اختلافاتها وتأتلف بها جميع الأمة ما بين شرقها إلى غربها في صفّ واحد.

وهذا ما يشير إليه عليه السلام بقوله: لو أنّ البترية صفّ واحد ... أي لو أنّ البترية استطاعوا أن يوحّدوا فرق الأمّة في منهاج واحد كلّ فرق الأمّة ما بين المشرق

---

١. رجال الكشي ٣٠٧ / رقم ٤٢٢.

والمغرب، لما ترتب على ذلك قوّة الأمّة ومن ثمّ عزّتها وغلبتها على أعدائها كما يزعم البترية، فليس طريق عزّة الأمّة وقدرتها وائتلافها بما يزعمونه من هذا المنهاج التلفيقي التوفيقي المتناقض، تقريباً بين فرق الأمّة. إذ المنهج المتناقض لا يلتئم به الوحدة في المسير ولا خطوات المنهاج ولا وحدة الطريق، بل هو في الحقيقة ينطوي على صميم الفرقة والافتراق لجمعه بين المتناقضات.

ومن ثمّ أكّد في روايتهم عليهم السلام: أنّ إمامتهم أماناً من الفرقة وطاعتهم نظاماً للملّة تنتظم بها الأمّة في وحدة واقعية حقيقية، فلاحظ الخطبة الغرّاء لأمير المؤمنين عليه السلام المسماة بالقاصعة، ولاحظ مستهلّ خطبة الزهراء عليها السلام .

وهذه الرواية قد تناقلتها مصادر حديثية متعدّدة لتركيزها على أهمّ شعار يرفعه البترية بمنهاجه الإصلاحي المزعوم وبيان وجه الفساد والأكذوبة فيه.

□ ترجمة رؤساء البترية

ومما يشهد لانخراط المنهج البتري الوحدوي التقريبي في مذاهب العامة توثيق رجال العامة لرؤساء البترية وعقيدتهم.

وقد مرّ كلام الكشي في رؤساء البترية ومرّ كلام النوبختي في فرق الشيعة. وكلام الشهرستاني في الملل والنحل وقد عدّ من البترية أصحاب كثير النوا وأنه متفق في المذهب مع الحسن بن صالح بن حيّ.

ومرّ أنّ منهم عمرو بن أبي المقدام العجلي وسلمة بن كهيل.

قال في تهذيب التهذيب في ترجمة كثير النوا: ... ذكره ابن حبّان في الثقات، قلت: وقال العجلي لا بأس به وروى عن محمد بن بشر العبدي أنّه قال: لم يمت كثير النواء حتى رجع عن التشيع[1].

وقال ابن سعد في الطبقات[2] في ترجمة أبي عمرو بن أبي المقدام العجلي قال: هو ثابت بن هرمز ويكنى أبا المقدام العجلي وهو أبو عمرو بن أبي المقدام وأنه يروي عن ابن المسيب وهو ثقة احتجّ به النسائي.

وفي تهذيب التهذيب: ذكر أنّه روى عن عدي بن دينار وسعيد بن المسيب

---

١. تهذيب التهذيب: ٣٦٨/٨ الرقم ٧٣٧.

٢. الطبقات الكبرى لابن سعد ٦ / ٣٢٨.

وأبي وائل وسعيد بن جبير وغيرهم وعن الثوري وشعبة وابنه عمرو بن أبي المقدام وشريك وإسرائيل وغيرهم، وروى عنه الحكم بن عتيبة والأعمش ومنصور وهما من أقرانه.

قال أحمد وابن معين: ثقة، وقال أبو داود: ثقة، وقال العضدي: يتكلمون فيه، وقال مسلم بن الحجاج في شيوخ الثوري ثابت بن هرمز ويقال هريمز، ونقل عن الآخرين توثيقه أيضاً، وقال زادان بن صالح: كان شيخاً عالياً صاحب سنّة وقال عقبة: لا أعلم له علّة وثابت ثقة، ولا أعلم أحداً ضعّفه إلّا الدارقطني.

وأما سلمة بن كهيل وثّقه أكثر العامة[١] وجعلوه من الحفّاظ الأربعة.

وقد عدّ الشيخ الطوسي في الرجال[٢] محمد بن زيد ومنصور بن المعتمر ومقاتل بن سليمان من البترية، ومقاتل بن سليمان هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو حسن البلخي المفسّر نزيل مرو.

وقال العلامة في الخلاصة[٣] مقاتل بن سليمان من أصحاب الباقر عليه السلام بتري قاله الشيخ الطوسي رحمه الله والكشي وقال البرقي إنه عامي.

ومن البترية سفيان الثوري، والحكم بن عيينة، سفيان بن عيينة، سالم بن أبي حفصة، كثير النواء، عمر بن رياح، و مسعدة بن صدقة[٤].

وقال الشيخ في الرجال في مسعدة بن صدقة: إنّه عامي[٥] وكذا قيس بن الربيع إنه بتري[٦].

---

١. التاريخ الكبير للبخاري ٤ / ٧٤.
٢. رجال الطوسي / رقم ١٦١٦ ـ ١٦١٨.
٣. الخلاصة / ٤١٠.
٤. رجال الكشي / رقم ٢٤٨.
٥. رجال الطوسي / ١٦٠٩.
٦. رجال الطوسي / ١٥٥٨.

قال الكشي: «والبترية هم أصحاب كثير النواء والحسن بن صالح بن حيّ وسالم بن أبي حفصة والحكم بن عيينة وسلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحدّاد». وقال أيضاً: أما مسعدة بن صدقة بتري، وعباد بن صهيب عامي، وثابت أبي المقدام بتري، وكثير النوا بتري، وعمرو بن جميع بتري، وحفص بن غياث عامي، وعمرو بن قيس الماصر عامي، ومقاتل بن سليمان البجلي وقيل البلخي بتري، وأبو نصر بن يوسف بن الحارث بتري»[١] ونقل عن البعض أن قيس بن الربيع بتري كانت له محبة[٢]. ولكن نقل عن نصر أن عباد بن صهيب بتري[٣] وذكر الشيخ في رجاله[٤] أن طلحة بن زيد بتري، وذكر أيضاً أن عمرو بن جميع وعمرو بن قيس الماصر وعمرو بن خالد الواسطي أنهم بتريون[٥] وكذلك غياث ابن إبراهيم[٦].

وفي توصيف الأصحاب تارة لهم بالعامية وأخرى بالبترية دلالة على ما يأتي من موقف علماء الإمامية تجاه النهج البتري.

---

١. رجال الكشي / رقم ٧٣٣.
٢. رجال الكشي / رقم ٧٣٣.
٣. الكشي / رقم ٧٣٦.
٤. رجال الطوسي / رقم ١٤٦٤.
٥. رجال الطوسي / ٥٣٢ / ٥٣٤٠٠.
٦. رجال الطوسي / ١٥٤٢.

□ حكم علماء الإماميّة على معتقد المنهج البتري التوفيقي التلفيقي

أفتى الشيخ المفيد والشيخ الطوسي وابن البرّاج وابن حمزة وابـن إدريس والعلّامة الحلّي على خروج البترية من طوائف الشيعة[1].

وهذا يدلّ على أنّ هذا التيّار بقي إلى زمن القرن الخامس بل السابع من عهد فقهائنا.

وعلى أنّ ما التزموه من المعتقَد يُخرجهم عن القول بإمامة علي عليه السلام.

قال المحقق الكركي في جامع المقاصد: «وإنّما استثنى الأصحاب البترية من الزيدية لأنّهم يخالفون قول أكثر الباقين في أنّ الإمامة لعلي عليه السلام بالنص بل قالوا إنها شورى وجوزوا تقديم المفضول وقريب منهم السليمانية»[2].

يقولون: وإن أخطأت الأمة في البيعة لهما مع وجود علي ولكنّه خطأ لم ينته إلى درجة الفسق.

وفي مقباس الهداية: البترية جماعة من الزيدية قالوا بخلافة الشيخين قبل

---

١. المقنعة / ٦٥٥، النهاية / ٥٩٨، المهذّب لابن البرّاج ٢ / ٩٠، الوسيلة لابن حمزة / ٣٧١، السرائر ٣ / ١٦٢، تحرير الأحكام ٣ / ٣٠١، مختلف الشيعة ٦ / ٣١١.

٢. جامع المقاصد ٩ / ٤٣.

علي عليه السلام فيمكن اعتبارهم من العامّة[١].

وأرباب الجرح والتعديل عندنا جعلوا البترية من العامّة كابن داود والشيخ وسيأتي أقوال علماء الإمامية.

نعم، لم نر من النجاشي تصريحاً ولا تلويحاً بالحكم على البترية بأنهم من العامة، مع أنّ مقتضى عدم تصريحه أنهم من الإمامية، وهذه من الملاحظات الهامة على مسلك النجاشي.

روى الكشي في معتبرة علي بن رئاب قال: دخل زرارة على أبي عبد الله فقال: يا زرارة متأهّل أنت؟ قال: لا، قال: وما يمنعك من ذلك؟ قال: لأنّي لا أعلم تطيب مناكحة هؤلاء أم لا، قال: فكيف تصبر وأنت شابّ؟ قال: أشتري الإماء، قال: ومن أين طاب لكم نكاح الإماء؟ قال: ولأنّ الأمة إن رابني من أمرها شيء بعتها، قال: لم أسألك عن هذا ولكن سألتك من أين طاب لك فرجها؟ قال له: فتأمرني أن أتزوّج؟ قال له: ذلك إليك، فقال له زرارة: هذا الكلام ينصرف على ضربين إمّا أن لا تبالي أن أعصي الله إذ لم تأمرني بذلك والوجه الآخر أن تكون مطلقاً لي قال: فقال: عليك بالبلهاء قال: فقلت: مثل التي تكون على رأي الحكم بن عتيبة وسالم بن أبي حفصة؟ قال: لا، التي لا تعرف ما أنتم عليه ولا تنصب ... الحديث[٢].

وفي الكافي: فقال عليه السلام لي: إن كنت فاعلاً فعليك بالبلهاء من النساء قلت: وما البلهاء؟ قال: ذوات الخدور العفائف، فقلت: من هي، على دين سالم بن أبي حفصة؟ قال: لا، فقلت: من هي، على دين ربيعة الرأي؟ فقال: لا، ولكن العواتق اللواتي لا ينصبن كفراً ولا يعرفن ما تعرفون ... الحديث[٣].

وفي الحديث إشارة إلى وجود النصب الخفي لدى التيار البتري الذي كان

---

١. مقباس الهداية: ٢ / ٣٤٩.

٢. رجال الكشي / رقم ٢٢٣.

٣. الكافي ٢ / ٤٠٢ ح ٢.

الحكم بن عتيبة وسالم بن أبي حفصة من روّادها، والحكم بخروجهم عن الإيمان.

المحتويات

آفاق الحجية العلمية للكتاب و السنة (٤٦ ـ ١٩)

قاعدة في معرفة صفات أهل البيت:
و كون الصفات الإلهية فوقها (۸۲ ـ ٤٧)

مدارس الرواة و تنوّعهم في فقه المعارف (١٠٦ ـ ٨٣)

اذاعة اسرار المعارف (١٤٦ ـ ١٠٧)

معاني الكذب و أنواع الغلو (١٤٧ ـ ١٨٢)

دارسة تطبيقية في سلوك المطعون عليهم بالغلو (٣٣٨ ـ ١٨٣)

النواب و الأبواب، حقيقة حالهم بين الافراط و التفريط (٣٣٩ ـ ٣٥٨)

البترية الاتجاه المعاكس لرواة المعارف (٣٥٩ ـ ٣٩٦)